سلسلة العصبية القبلية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين

في بلاد المغرب والأندلس



DKA
دار الكتاب العربي

الجزائر 2007

عاصمة الثقافة العربية

بوزياني الدراجي

دول الخوارج والعلويين

في بلاد المغرب والأندلس

DKA

دار الكتاب العربي

دار الكتاب العربي
للطباعة، النشر، التوزيع والترجمة

حي العناصر عمارة 309 رقم 03. القبة. الجزائر
الهاتف/فاكس: 021 31.44.51
الجـوال: 070 91.77.73

بوزياني، الدراجي
دول الخوارج والعلويين / بوزياني الدراجي؛ تصميم الغلاف لويزة الحسين؛ الإخراج الفني فراس الجهماني.- الجزائر: دار الكتاب العربي، 2007.- 243ص؛ 23سم
ردمك: 8-01-833-9947-978
الإيداع القانوني:154-2007 المكتبة الوطنية
الرقم التسلسلي: 5-2007 دار الكتاب العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إلى شهداء الجزائر الأبرار الذين قدموا أرواحهم من أجل قيام دولة جزائرية عزيزة مستقلة وموحدة.
- إلى المجاهدين المخلصين لهذه البلاد الطاهرة؛ الذين حققوا المعجزة وحرروا البلاد والعباد.
- إلى شباب الجزائر المستقلة الذين يضحون بكل غال ورخيص في سبيل وحدة الجزائر وازدهارها الثقافي والاقتصادي.
- إلى كل امرأة جزائرية حافظت على قيم شعبها وثوابت أمتها.
- إلى كل هؤلاء جميعا أهدي كتابي المتواضع هذا؛ راجيا من الله أن يكون لبنة جديدة تضاف إلى صرح بلادي الثقافي.

المقدمة

يدخل هذا الكتاب ضمن سلسلة تاريخية ستنشر تباعا بإذن الله. وتعالج هذه المجموعة من الكتب مواضيع تتعلق بتاريخ المغرب والأندلس؛ انطلاقا من الفتح الإسلامي وحتى حلول العهد العثماني. ولا بد هنا من التنبيه إلى أني قد التزمت ـ في إعداد هذه الدراسات ـ بمنهج يميل إلى شكل من أشكال الكتابة التي تنطوي على قراءة جديدة للأحداث. ويعتمد هذا الأسلوب على تطبيق نظرية ابن خلدون بخصوص العصبية القبلية؛ تلك النظرية التي تفسر أثر العصبية في قيام الدول وفي سقوطها. ويعود سبب اهتمامي بموضوع العصبية القبلية إلى إيماني الشديد بما سعى ابن خلدون إلى إبرازه؛ بخصوص تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية التي هيمنت على المجتمعات المغربية؛ الأمر الذي جعلها بمثابة الأداة المعرقلة والمقيدة لكل ما من شأنه إضفاء حركة تنموية، وعمل تنظيمي على المجتمع المغربي بكامله.

لقد اكتشف ابن خلدون ـ بعد تأمل عميق وتجربة واسعة ـ أن ظاهرة العصبية في بلاد

المغرب وقفت في طريق كل المحاولات الممهدة لقيام أي دولة قوية أو لاستقرار أي تنظيم مخالف للتنظيم القبلي؛ ذلك التنظيم الذي يفتقر – بدوره – للاستقرار والانضباط. وعليه فقد وضع نظريته ليساعد الدارسين لتاريخ هذه الديار على فهم السبب الكامن وراء التخلف السائد في بلاد المغرب؛ ذلك التخلف الذي منع كل تطور وتقدم نحو حياة جديدة فاضلة؛ كان ابن خلدون قد عرفها في بلدان أخرى. وإذا كان هناك من يشكك في موضوعية النظرية الخلدونية وصحة طرحها؛ فإن قراءتنا نحن للأحداث التاريخية والأوضاع الاجتماعية والسياسية في بلاد المغرب تجعلنا أكثر قربا من التسليم بها وتصديق معظم ما جاء فيها.

وإذا كان ابن خلدون يصف ظاهرة اجتماعية سلبية كانت سائدة في عصره المظلم؛ ذلك العصر الذي تميز بالتراجع والانكماش في الميادين الحضارية كافة من: فكر وثقافة، أو صناعة وابتكار، أو عمران وبناء، أو سياسة مدنية، أو اقتصاد منظم؛ فإن تلك الظاهرة الاجتماعية السلبية ما زالت متحكمة فينا، ومهيمنة علينا حتى في زمننا هذا؛ حيث ظلت الروح القبلية والنزعة للعصبية في أوج قوتها وعنفوانها؛ على الرغم من انتسابنا للقرن الواحد والعشرين، وعلى الرغم من قربنا من مراكز الحضارة الحديثة، وعلاقاتنا الوطيدة مع المجتمعات المدنية المتحضرة في العالم المتقدم.

ولما كان التاريخ – دوما – عبارة عن مخزون حضاري وثقافي يلخص تجارب الأسلاف.. مخزون يوضع بين أيدي الأجيال الحديثة للاستفادة من تجارب غيرهم، ولأخذ العبر من الأحداث التي مرت بالأجداد؛ فإني وجدت من الضروري – هنا – معاودة الكشف عن خطورة ظاهرة العصبية القبلية المتخلفة، وتأثيرها على سلامة وأمن مجتمعنا، وعلى استقرار المؤسسات الحضارية القائمة فيه. وعليه فلو تأملنا جيدا في معظم الأحداث التاريخية الموغلة في القدم – أو على الأقل – التي سادت البلاد منذ الفتح الإسلامي؛ لوجدنا أنها عبارة عن تسجيل وتاريخ لأحداث متواصلة من الحروب والفتن الدائمة بين القبائل فيما بينها، أو بين القبائل والدولة التي أقامتها قبائل أخرى؛ بحيث لم تعرف الأطراف المتورطة كلها فوائد الأمن والاستقرار؛ سواء: القبائل المشاغبة، أو الدول المدافعة عن كيانها، أو الدولة التي سعت القبائل لإقامتها وحمايتها.

وسيلاحظ القارئ في هذا البحث كيف عانى الفاتحون العرب من ظاهرة العصبية القبلية؛ سواء كان ذلك من داخل أوساطهم المريضة بالعصبية القبلية، أو بواسطة القبائل الأمازيغية المعادية لهم؛ والتي تتحكم فيها عصبيات عاتية أيضا. لذا كانت جل الفتن والحروب بين الفاتحين والأمازيغ مصدرها العصبية. ومما يعزز الرأي الذي يحصر الخصومات التي قامت بين الفاتحين

والأمازيغ في نطاق العصبية لا غير؛ هو أن الثورات الأمازيغية بكاملها تقريبا كانت تتمسك بالدين الإسلامي؛ وترفع شعاره عاليا؛ بل يصل تمسكها بالإسلام إلى درجة التعصب والتزمت أحيانا. وهذا ما يمكن ملاحظته في ثورات الخوارج من الصفرية والإباضية؛ تلك الثورات التي انطلقت اعتبارا من الربع الأول من القرن الثاني الهجري؛ إذ كانت كلها – مع كثرتها – تنادي بالمبادئ الإسلامية؛ بل تخضع لمذاهب عربية إسلامية أصلا. كما ترحب بالنموذج الحضاري العربي وتتبناه؛ سواء في جانبه الثقافي أو في جانبه الاجتماعي. وأهم ما يمكن ملاحظته هو أنه يمكن التأكد – بسهولة – من طبيعة الدول التي قامت في بلاد المغرب؛ إذ منها: من تأمر عليها ملوك من أصل أمازيغي يلتزم بالإسلام ديناً، وبالعربية ثقافة؛ ومنها من سلمت قيادها طوعاً إلى ملوك من أصل عربي؛ ولكنها – في حقيقة الأمر – كانت أمازيغية التركيبة والنشأة؛ إذ قامت على دعائم رفعت بسواعد قبائل أمازيغية، وبقيت طوال حياتها أمازيغية المحتوى والتركيب، إسلامية العقيدة.

وعلى الرغم من قيام دول أمازيغية قوية في ربوع المغرب؛ فقد لوحظ تمسكها بالإسلام ودفاعها عنه بكل قوة وإصرار؛ سواء كانت تلك الدول خارجية كـ: دولة بني مدرار، والدولة الرستمية؛ أو سنية مثل: دولة المرابطين والموحدين وغيرهما؛ أو علوية كـ: الدولة الإدريسية التي أقامتها قبائل

أمازيغية واستماتت في حمايتها؛ ثم الدولة الفاطمية التي نشأت بسواعد أبناء كتامة وصنهاجة. وعليه فلا شك في أن أي صراع حدث بين قبائل المغرب والدول القائمة في تلك الأثناء لا يعدو أن يكون محصورا في نطاق العصبية القبلية؛ كما لا يخرج عما ذكره ابن خلدون حول تطلع القبيلة ـ كل قبيلة ـ ورغبتها في الوصول إلى مرتبة الملك؛ كمرحلة طبيعية؛ تقتضي تطور السلطة في القبيلة من مرتبة الرئاسة إلى مرتبة أعلى وأسمى وهي الملك.

ولا تفوتني ـ قبل الختام ـ فرصة التنويه بالمجهود الكبير الذي بذل من طرف دار الكتاب العربي بالجزائر في نشر وطباعة هذا الكتاب ـ وغيره من الكتب التي أتممتها ـ بهذا الشكل الأنيق الجيد. وأخص بالذكر ـ هنا ـ مدير الدار السيد **محمد خير الجهماني**، ووليه: **مهند الجهماني**، و**فراس الجهماني**؛ بالإضافة إلى الآنسة الفنانة **لويزة الحسين**؛ التي لم تبخل ـ في كل مرة ـ بما حباها الله من إحساس مرهف كي تمنح كتابي لوحات معبرة بريشتها الذهبية.

بوزياني الدراجي

الجزائر في: 4. جوان. 2001م

مدخل

يتضح من عنوان هذا الكتاب؛ أن للموضوع شقين: أولهما يتعلق بنشأة الدولة وسقوطها؛ وثانيهما يعالج نشاط الحضارة وأفولها؛ وذلك من خلال تأثير ظاهرة العصبية القبلية عليهما. وستتم معالجة الشقين ــ ضمن هذا المجال ــ في سياق واحد؛ دون اللجوء إلى الفصل بينهما؛ لأنهما متكاملان، ويدوران ــ معا ــ في حلقة واحدة.

فعند التأمل في موضوع نشأة الدولة؛ سينساق الذهن ــ منذ الوهلة الأولى ــ نحو إيجاد تصور للكيفية التي نشأت بها الدولة الأولى عبر التاريخ؛ في المجتمعات الإنسانية عموما. ويبدو أن هذه الفكرة تحتل مكانة ذات إغراء وإثارة أكثر من مجرد الاكتفاء باستقراء وتتبع الطريقة التي قامت بها دولة ما؛ على أنقاض دولة أخرى. وعليه فبفضل هذه الدراسة، وما يليها ضمن هذه السلسلة؛ ستتضح الصورة عن الكيفية التي تتشأ أو تسقط بها الدولة. وهنا سيتحتم ــ في هذا السياق ــ الاعتماد على نظرية ابن خلدون؛ لكونه احتل مكانة مرموقة ومتقدمة بين المفسرين لنشأة الدولة بالمغرب الإسلامي بصورة خاصة، والمجتمعات الإسلامية عامة.

وكما هو معروف فنشأة الدولة – عموما – ليست سوى خطوة حدثت بين خطوات عديدة سبقتها؛ ضمن مسيرة الإنسان الطويلة؛ عبر الفترات التاريخية المختلفة في سبيل تحقيق التمدن والتحضر. وهذا ما يمكن استنتاجه من خلال الشواهد التي تثبت مواكبة نشأة الدولة – في غالب الأحيان – للنشاط العمراني، والازدهار الحضاري. وبالمقابل فقد لوحظ أن سقوط الدولة ينجر عنه – في جل الحالات – انهيار عمراني، وتقهقر حضاري.

فالدارس لتاريخ بلاد المغرب سيلاحظ – حتما – ما تعرضت له هذه البلاد من تقلبات؛ نتيجة لطغيان ظاهرة اجتماعية مثيرة للجدل؛ تركت بصماتها العميقة في المسار التطوري للمجتمعات المغربية، ومنعت كل نشاط يهدف إلى استقرار الدول في تلك الديار. وهذه الظاهرة تتمثل في كثرة القبائل وتباينها، وتعدد العصبيات واختلافها. ويبدو أن الذي اكتشف تأثير هذه الظاهرة قبل غيره هو عبد الرحمن بن خلدون؛ ذلك النابغة الذي خصص فصلا مستقلا في مقدمته يشير فيه إليها وهو: "**فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب؛ قل أن تستحكم فيها دولة**".[1]

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 646.

وقد برهن على رأيه ـ في هذا السياق ـ ببعض الأمثلة التي جرت في بلاد إفريقية والمغرب. كما حرص على مقابلتهما بما هو حاصل في بلدان أخرى؛ كانت تتميز بقلة القبائل وضعف العصبية. ثم أشار إلى موقف المسلمين خلال فتح ديار المغرب؛ أي حينما واجهتهم مقاومة شديدة؛ لم تواجههم عندما فتحوا أقطارا أخرى آنذاك. ومن الأمثلة التي ذكرها؛ ما حدث لهم في العراق والشام؛ أيام الفتح الإسلامي. ثم علل استقرار الأمر في تلك الديار المشرقية؛ بكون حامية الدولة فيها ـ آنئذ ـ كانت من الفرس والروم. أما بقية السكان؛ فكانوا كما ذكر: ((**دهماء وأهل مدن وأمصار**)). وواصل ـ بعد ذلك ـ شرح فكرته بقوله: ((**والبربر قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى؛ وكلهم بادية، وأهل عصائب وعشائر. وكلما هلكت قبيلة؛ عادت الأخرى مكانها وإلى دينها؛ من الخلاف والردة. فطال أمر العرب في تمهيد الدولة بوطن إفريقية والمغرب**)).[1] وبعد الشرح والتعليل تطرق إلى ما ذكره بعض المؤرخين والنسابين؛ بخصوص ما قيل عن ارتداد سكان المغرب اثنتي عشر مرة. ومن هنا يحق لنا أن نتساءل.. عما يمكن أن يفهمه القارئ من هذه الأقوال؟

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص: 647.

فمـا يمكـن استنتاجـه هنـا.. هـو أن للعصبيـة أثـرا كبيـرا؛ علـى نشـأة الـدول وسقوطهـا في هـذه الديـار. والدليـل علـى ذلـك يظهـر مـن خـلال مـا واجـه المسلميـن مـن أحـداث؛ علـى الرغـم مـن قوتهـم، وتعـدد جيوشهـم، وصـدق دعوتهـم. حيـث واجهتهـم – في بـلاد المغـرب – صعوبـات كثيـرة؛ عرقلـت مساعيهـم؛ قصـد ترسيـخ سلطانهـم، وتثبيـت دعائـم الدولـة الإسلاميـة. وربمـا استعـصى عليهـم تحقيـق ذلـك الأمـر؛ ولـم يتمكنـوا مـن تمهيـد البـلاد إلا في عهـد مـوسى بـن نصيـر؛ كمـا ذكـر ابـن خلـدون. أمـا عبـد اللـه المالـكي، والرقيـق القيـرواني؛[1] فيجمعـان علـى استقامـة الأوضـاع بإفريقيـة في عهـد حسـان بـن النعمـان. ومـع هـذا يبـدو أن استتبـاب الأمـر لـم يـدم طويـلا؛ حيـث عـادت الفتـن، والحـروب مـن جديـد؛ ودون توقـف. ويرجـع السبـب في ذلـك إلى العصبيـة المهيمنـة، والطابـع القبـلي؛ الـذي يتميـز بهمـا المغـرب. هـذا بالإضافـة إلى ظاهـرة البـداوة؛ المتفشيـة في تلـك الربـوع؛ نظـرا لكـون الأمازيـغ يعتبـرون مـن أهـل العصبيـات والأنسـاب؛ كمـا يقـول ابـن خلـدون ضمـن "**فصـل في أن المـدن والأمصـار بإفريقيـة والمغـرب قليلـة**".[2]

[1] ريـاض النفـوس، ج: 1، ص: 57. وتاريـخ إفريقيـة والمغـرب، ص: 64.

[2] ((وأيضـا فالصنائـع بعيـدة عـن البربـر؛ لأنهـم أعـرق في البـداوة. والصنائـع مـن توابـع الحضـارة؛ وإنمـا تتـم المبـاني بهـا؛ فـلا بـد مـن الحـذق في تعلمهـا؛ فلمـا لـم يكـن للبربـر انتحـال لهـا لـم يكـن لهـم تشـوف إلى المبـاني؛ فضـلا عـن

وإذا كانت للبيزنطيين أثار بارزة ــ لا ينبغي نكرانها ــ في تغذية المقاومة، وتحريض القبائل الأمازيغية ضد المسلمين؛ خلال فتحهم لإفريقية والمغرب. فإن هذا لا ينفي ــ في الحقيقة ــ جوهر المقاومة؛ الذي اقتضته طبيعة الأحداث؛ لأن الأمازيغ ــ في تلك الفترة ــ لم يتعرفوا على الإسلام، والمسلمين؛ ومن جهل شيئا عاداه طبعا. وعليه فقد لعبت العصبية الأمازيغية دورا خطيرا؛ كقوة متصدية للمسلمين؛ في بلاد المغرب. وما نكث كَسيلة، وثورته على المسلمين؛ سوى نعرة من نعرات العصبية. وربما دخلت في هذا الاعتبار؛ مقاومة الكاهنة، وقومها جراوة للفاتحين أيضا.

ومع ذلك.. فقد استتب الأمر للمسلمين؛ بعض الوقت؛ بفضل حنكة عدد من الولاة وحسن سياستهم؛ مثل: أبي المهاجر، وحسان، ومحمد بن يزيد، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر. غير أن ذلك الاستقرار انقطع؛ ولم يدم طويلا. إذ كانت العصبية القبلية أهم عوامل الهدم، والتفريق. فهي التي أشعلت أتون الفتنة بالمغرب كافة. حيث انقسمت هذه الديار؛ إلى عصبيات عديدة؛ متضادة. فنشأ صراع بين العرب الموالين للأمويين من جهة، وبين الأمازيغ من جهة أخرى. ثم انقسم العرب ــ أيضا ــ إلى عرب القيروان، والعرب

المدن. وأيضا فهم أهل عصبيات وأنساب؛ لا يخلو عن ذلك جمع منهم. والأنساب والعصبية أجنح إلى البدو)). المقدمة، ج: 3، ص ص: 989 ــ 990.

المستجدين من الوافدين إلى إفريقية حديثا. هذا بالإضافة إلى انقسام الفاتحين العرب أيضا إلى عصبيتين هما: القيسية، والكلبية. أي (العدنانية والقحطانية أو المضرية واليمنية).[1]

وهكذا.. كان المغرب – في تلك الفترة – تتقاذفه صراعات لا نهاية لها. ومن أخطرها ذلك الفيض من الفتن والصراعات، التي نشبت بين الأمازيغ والأمويين؛ ومعظم تلك الأحداث كانت عبارة عن ردود أفعال ضد تعسف بعض ولاة الدولة الأموية، وسوء سياستهم، وتعصبهم؛ كيزيد ابن أبي مسلم، وعبيد الله بن الحبحاب.[2] الأمر الذي ساعد على نمو الأحزاب وترعرع الفرق المعارضة لطبيعة الحكم الأموي، ثم الحكم العباسي من بعده. ومن بين تلك الفرق: الخوارج

---

[1] لم يكن تقسيم العرب إلى قيسية ويمنية معروفا قبل الإسلام. حيث كان التقسيم محصورا ضمن عصبيات ضيقة؛ لا تتجاوز القبيلة أو البطن؛ ولم تتسع ظاهرة العصبية بحيث تشمل الشعب أو الجذم. ويبدو أن موضوع القيسية، واليمنية من المبتكرات التي ظهرت في ظل الدولة الأموية. أنظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج: 1، ص ص: 493 – 494. والعصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي، ص ص: 141 – 144.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 99 – 101. 107 — 111. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 48. 51 – 54. وفجر الأندلس، ص: 145. والمغرب الإسلامي، ص ص: 104. 155 — 157.

والشيعة.[1] بالإضافة إلى برغواطة؛ المرتدين عن الإسلام كليا.

هذا وقد ساعد العجز الدائم عن التخلص من الطابع القبلي المتحجر على استفحال روح العصبية، واتساع نطاقها. والأمر الذي ضاعف في نمو هذه الظاهرة السلبية وازدهارها؛ أنها كانت مهيمنة حتى على قلوب فئة كبيرة من الفاتحين أنفسهم. فانغمسوا في مستنقعها الموبوء بعاهات العُبِّية والنعرة الجاهلية؛ التي بقيت عالقة بنفوسهم. فأضحى المغرب الإسلامي ــ نتيجة لذلك كله ــ مسرحا واسعا للصراعات القبلية، ومرتعا خصبا للعصبية الفياضة بالنزوات والشطحات. وعليه فقد انقسم الفاتحون بين عصبية قيسية متعالية، وعصبية كلبية متعنتة. على أن الغلبة تكون ــ طبعا ــ للعصبية التي ينتمي إليها الوالي المعين على إفريقية والمغرب؛ من قبل الخليفة الأموي.

---

[1] لمعرفة هذه الفرق أنظر كتاب الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ــ 138. 146 ــ 198. وكتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل، ج: 4، ص ص: 179 ــ 192. وكتاب المغرب الإسلامي، ص ص: 147 ــ 166. وكتاب دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، ص ص: 193 ـــ 209.

ومـــن هنـــا.. تتضـــح الكيفيـــة الـــتي انتقلـــت بهـــا عـــدوى عصبيـــة القيسيـــن واليمينيـــن؛ إلى إفريقيـــة والمغـــرب.. إذ انطلقـــت هـــذه الظاهـــرة الخطيـــرة مـــن مكمنهـــا؛ بتحريـــك وإثـــارة مـــن قمـــة الدولـــة الأمويـــة نفسهـــا. وذلـــك أنـــه إذا كـــان بعـــض الفاتحيـــن موبـــوءا بهـــا دون وعي بمخاطرهـــا؛ فـــإن خلفـــاء بـــنى أميـــة؛ مثـــل: يزيـــد بـــن عبـــد الملـــك ـــ حكـــم مـــن 101هـ(719م) إلى 105هـ(723م) ـ وهشـــام بـــن عبـــد الملـــك ـ حكـــم مـــن 105هـ إلى 125هـ(742م). ساعـــدا عـــلى استفحـــال هـــذا الوبـــاء؛ بتشجيعهمـــا للعصبيـــة، والتكتـــلات القبليـــة.

ولمَّـــا كـــان المغـــرب الإســـلامي ـ منـــذ البدايـــة ـ يعـــج بأهـــل اليمـــن؛ فقـــد أضـــحى القادمـــون الجـــدد؛ مـــن أهـــل الشـــام، وشمـــال شبـــه الجزيـــرة؛ غيـــر مرغـــوب فيهـــم. وبذلـــك تبـــادل الـــولاة ـــ مـــن الطرفيـــن ـــ اضطهـــاد الرعيـــة الـــتي لا تنحـــدر مـــن سلسلـــة نسبهـــم؛ ولا تجمعهـــم وإياهـــم عصبيـــة واحـــدة. وقـــد يكـــون بشـــر ابـــن صفـــوان الكلـــبي هـــو أول الـــولاة المنحازيـــن إلى عصبيتهـــم. حيـــث أحـــاط نفســـه بهـــم، وأبعـــد غيرهـــم. ولكنـــه عـــزل بعـــد مـــوت يزيـــد بـــن عبـــد الملـــك. ولمـــا تـــولى هشـــام بـــن عبـــد الملـــك الحكـــم؛ عيـــن قيسيـــا متعصبـــا عـــلى إفريقيـــة والمغـــرب، **(وهـــو عبيـــدة بـــن عبـــد الرحمـــن السلـــمي القيـــسي).** فاضطهـــد أهـــل اليمـــن؛ مـــن الكلبييـــن؛ الأمـــر الـــذي جعـــل أبـــا الخطـــار حســـام

ابن ضرار الكلبي[1] يسارع في إرسال أبيات شعرية من نظمه إلى الخليفة هشام؛ ذكره فيها بمواقف الكلبيين من بني أمية. وفيها يقول:[2]

أفأتمْ بَنِي مَرْوَانَ قيساً دِمَاءَنَا
وَفِي اللهِ إنْ لمْ تُنْصِفُوا حَكَمٌ عَدْلُ
كَأنكمْ لمْ تشْهَدُوا مَرْجَ رَاهِطٍ
وَلَمْ تَعلمُوا مَنْ كَانَ ثمَّ لهُ الفَضْلُ
تعَامَيتمُ عَنا بِعَيْنٍ جَلِيةٍ
وَأنتمْ كذَا ما قدْ عَلِمْنا لنَا فِعْلُ

فاغتاظ الخليفة هشام من الوالي عبيدة بن عبد الرحمن؛ فعزله من منصبه؛ ولكنه عين قيسيا آخر؛ **(وهو عبيدة الله بن الحبحاب)**. فتمادى ـ هو الآخر ـ في لعبة العصبية الخطيرة؛ التي انجر عنها ـ في عهده ـ أحداث خطيرة للغاية؛ إذ نشبت ثورة الخوارج الكبرى؛ التي قادها ميسرة المطغري؛ تلك الثورة التي كادت أن تطيح الحكم العربي نهائيا في بلاد المغرب؛ كل ذلك جراء النزعة المتطرفة للعصبية، والنعرة المتشددة للقبلية.

---

[1] أسندت إليه فيما بعد إمارة الأندلس؛ فأظهر فيها تعصبا شديدا لأهل عصبيته اليمنية. مما أودى به إلى التهلكة؛ بعد أن أشعل بلاد الأندلس بالفتن والحروب.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 50.

وهكـذا فمـن يحلـو لـه اللعـب بالنـار؛ يتعـرض للاحتـراق أحيانـا.. حيـث استفحلـت ظاهـرة العصبيـة القبليـة، وأخـذت تنخـر كيـان الدولـة الأمويـة نفسهـا. فانحـدرت بهـا تلـك الظاهـرة السلبيـة إلى مهـاوي السقـوط والاندثـار.[1] لأن خلفـاء تلـك الدولـة استهوتهـم اللعبـة، فغفلـوا عـن الأخطـار الـتي يمكـن للعصبيـة أن تفرزهـا، إذا مـا استهيـن بمفعولهـا العكـسي، وتأثيرهـا عـلى استقـرار دولتهـم وسلامتهـا؛ فلـم يكتشفـوا جوانبهـا السلبيـة؛ وانساقـوا خلـف إغرائهـا العابـر، وطمعـوا في بعـض الفوائـد الظرفيـة الزائفـة. وشـاءت الأقـدار أن تتسبـب ظاهـرة العصبيـة في تفكـك الدولـة؛ عندمـا تمـردت بعـض القبائـل، والعصبيـات؛ في الأطـراف النائيـة؛ حيـث أنشـأت دولا، وإمـارات خاصـة بهـا. مـن ذلـك مـا حـدث في المغـرب الإسـلامي مثـلا؛ إذ تمكـن زعمـاء بعـض القبائـل، والأحـزاب مـن إقامـة كيانـات، ودول مستقلـة؛ عـن الدولتيـن: الأمويـة، ثـم العباسيـة بعدهـا؛ وتبعـا لمـا تفرضـه المجتمعـات القبليـة؛ فقـد كانـت تلـك الكيانـات تستنـد ــ بدورهـا ــ إلى عصبيـة القبائـل الأمازيغيـة.

---

[1] المفصـل في تاريـخ العـرب قبـل الإسـلام، ج: 1، ص 495. والعصبيـة القبليـة وأثرهـا في الشعـر الأمـوي، ص: 243. وفجـر الأندلـس، ص: 142. والمغـرب الإسـلامي، ص: 119.

لقد كان الأمازيغ في بلاد المغرب يعيشون ضمن قبائل وشعوب عديدة؛ منتشرة في تلك الربوع. ويرأس هذه القبائل والشعوب بعض الشيوخ الذين لم يصل بهم الحال إلى مرتبة الملك القاهر، المتحكم في الرقاب. وسبق أن حدثت بعض المحاولات – منذ البداية – قصد تأليف دول وإمارات – هنا وهناك – ولكنها فشلت؛ بسبب ضعف اللحمة، وبروز التناقضات المتعددة بين القبائل من جهة، وبسبب عدم حصول الغلبة لعصبية ما على بقية العصبيات المتحالفة من جهة أخرى؛ وعليه فقد عجزت تلك الكيانات عن الوصول إلى مرتبة الملك المتغلب. وظلت في طور الرئاسة والسؤدد؛ اللذين يتصفان بضعف الحكم وهشاشة السلطة. إذ يكون الوازع أو الحاكم – في هذه الحال – متبوعا؛ دون أن تكون له سلطة قاهرة.

وهذه الصفة تصدق على الكيانات الأولى التي أقامتها الصفرية والإباضية. ولا تدخل في هذا الاعتبار دولة بني مدرار، ولا الدولة الرستمية؛ لأنهما توصلتا إلى مرتبة الملك المتغلب. بينما يصدق ذلك على الكيانات القبلية الأولى؛ التي ظهرت أثناء الفتحِ وبعده؛ مثل: إمارة أوربة البرنسية؛ بزعامة كسيلة، وإمارة جراوة البترية البدوية؛ برئاسة الكاهنة. فهاتان الإمارتان لم تتوصلا إلى مرتبة الملك الغالب والقاهر. كما أن

أهم عوامل فشلهما ـ على ما يبدو ـ هو العامل الديني؛ الذي كان في صف الفاتحين.

وفي هذا السياق تتولى نظرية ابن خلدون تعزيز هذا الاعتقاد؛ وذلك من خلال ما عرضه ضمن بعض الفصول من مقدمته مثل: "**فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية؛ من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم؛ من الدين على الجملة**". و"**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء؛ العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة؛ على قوة العصبية؛ التي كانت لها؛ من عددها**". و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] وعليه فقد فشلت تلك الكيانات جميعها؛ في إنشاء ملك مستقل وقاهر. وتوقف الحال بها كلها في طور المشيخة والرئاسة؛ ذات السلطات المحدودة. غير أنه حصل لبعض القبائل الأخرى أنها تمكنت من إقامة دول مستقلة عن الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. ويعود السبب في ذلك إلى ما أصاب عصبية بني أمية من وهن؛ أدى إلى تلاشي ظلها عن بلاد المغرب. كما أن توافر بعض الشروط الفعالة؛ ساعدت هي الأخرى القبائل على إقامة دول مستقلة. من بينها العامل الديني أو المذهبي؛ الذي تمكنت بعض

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 626، 636 ـ 642.

القبائل من تحقيقه؛ الأمر الذي ساعد على تعزيز دور العصبية التي تنتمي إليها.

ولما كانت الدولة العباسية قد ورثت الأوضاع المتردية في بلاد المغرب ــ بعد سقوط الدولة الأموية ــ فقد تعذر عليها إعادة الكرة؛ وإخضاع الدول التي استقلت عن الخلافة من قبل. وهذا ــ طبعا ــ يعود إلى حداثة الدولة العباسية، وبداية عهدها من جهة؛ وإلى شدة العصبية الفياضة؛ التي تتميز بها القبائل المغربية؛ تلك العصبية التي جعلت منها قوة لا يستهان بها. هذا بالإضافة إلى العامل الديني؛ الذي أضحى يشد أفراد القبائل بعضهم إلى بعض. كما أن للعامل الجغرافي كلمته التي لا شك فيها في هذا الباب.

****

دول الخــوارج

هــذه التسميــة (**الخــوارج**) لــم يطلقهــا أصحابهــا عــلى أنفسهــم؛ بــل سماهــم بهــا خصومهــم. لذلــك نجــد الإباضييــن في بــلاد المغــرب يستنكــرون إطــلاق هــذه التسميــة عليهــم.[1] وتعــود بدايــة ظهــور المذهــب الخــارجي إلى عهــد عــلي بــن أبي طالــب كــرم اللــه وجهــه. وبالتحديــد أثنــاء وقعــة صفيــن؛ أي حيــن رفضــت فئــة مــن المتقاتليــن نتيجــة التحكيــم؛ فخرجــوا عــن صــف عــلي، وفارقــوا صفــوف أنصــاره؛ معلنيــن العصيــان، ثــم دعــوا النــاس إلى خلعــه هــو ومعاويــة معــا. فاعتبرهــم أهــل السنــة ــ بسبــب ذلــك ــ خارجيــن عــن الصــف؛ وأسموهــم الخــوارج.[2]

---

[1] أنظــر: كتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب، للدرجيــني، ج: 2، الصفحــات: 201 ومــا يليهــا. وكتــاب مختصــر تاريــخ الإباضيــة لسليمــان البــاروني، ص ص: 17 ــ 33. وكتــاب الإباضيــة في موكــب التاريــخ، الحلقــة الثانيــة، ص ص: 21 ــ 23. وكتــاب تاريــخ المغــرب الكبيــر، ج: 2، ص ص: 337 ــ 400.

[2] أمــا الشهرستــاني فيقــول: ((كــل مــن خــرج عــلى الإمــام الحــق الــذي اتفقــت الجماعــة عليــه يســمى خارجيــا؛ ســواء كــان الخــروج في أيــام الصحابــة عــلى الأئمــة الراشديــن، أو كــان بعدهــم عــلى التابعيــن بإحســان، والأئمــة في كــل زمــان... اعلــم أن أول مــن خــرج عــلى أميــر المؤمنيــن عــلي رضي الله عنــه جماعــة ممــن كــان معــه في حــرب صفيــن؛ وأشدهــم خروجــا عليــه ومروقــا في الديــن الأشعــث بــن قيــس الكنــدي، ومسعــر بــن فــدكي التميــمي، وزيــد بــن حصيــن الطــائي؛ حيــن قالــوا: "القــوم يدعوننــا إلى كتــاب اللــه، وأنــت تدعونــا إلى السيــف" حــتى قــال: "أنــا أعلــم مــا في كتــاب اللــه! انفــروا إلى بقيــة الأحــزاب! انفــروا إلى مــن يقــول: كــذب اللــه ورسولــه، وأنتــم تقولــون: صــدق اللــه

ويتميز المذهب الخارجي بسماته السياسية؛ وإن مزج بصبغة دينية. وتدور أصوله حول فكرة الإمامة، ونظرية الحكم في الإسلام؛ حيث شكك أصحابه في صحة الحديث القائل: ((**الأئمة من قريش**))؛ وقالوا بشرعية الإمامة لكل مسلم صالح؛ على أن يتم اختياره بحرية مطلقة؛ لا فرق في ذلك بين عربي وأعجمي، وبين أبيض وأسود. واستندوا في ذلك إلى الحديث الشريف: ((**اسمعوا وأطيعوا وإن ولي عليكم عبد حبشي ذو زبيبة**)). هذا وتباعدت ــ بمرور الوقت ــ الآراء والمعتقدات بينهم، فظهرت اختلافات أساسية في الأفكار المتداولة في أوساطهم؛ وذلك نتيجة لتنوع التأويلات وتشتت المبادئ وتباين المصالح؛ فتوالدت فرقهم وانشقت صفوفهم فانبثقت بينهم فرق جديدة؛ فتنتهم إلى فروع متباينة؛ قد تصل إلى العشرين فرقة تقريبا؛[1] أشهرها: الأزارقة؛

ورسوله)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 114. للمزيد من الشرح أنظر: كتاب الكامل للمبرد، ج: ص ص: 76 ــ 251. وكتاب العبر، مج: 3، ص ص: 303 ــ 364. وكتاب الخوارج والشيعة للمستشرق الألماني يوليوس فلهوزن ص ص: 3 ــ 145. وكتاب الفرق الإسلامية للمستشرق الفرنسي آلفرد بل، ص ص: 140 ــ 150. وكتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، ص ص: 256 ــ 265.

[1] ذكر الشهرستاني منها: المحكمة الأولى؛ وهم الذين خرجوا عند التحكيم. والأزارقة؛ وهم الذين خرجوا مع نافع بن الأزرق من البصرة إلى الأهواز. والنجدات العاذرية؛ وهم أصحاب نجدة بن عامر الحنفي. والبيهسية؛ وهم أصحاب بيهس الهيصم بن جابر. والعجاردة؛ وهم أصحاب عبد الكريم بن عجرد. والثعالبة؛ وهم أصحاب ثعلبة بن عامر. والإباضية؛ وهم أصحاب عبد الله بن إباض. والصفرية؛ وهم أصحاب زياد بن الأصفر. وتفرع ــ

نسبة إلى نافع بن الأزرق؛ وهم من غلاة الخوارج. ثم النجدات؛ أتباع نجدة بن عامر. ثم الإباضية؛ أتباع عبد الله بن إباض التميمي؛ وهم أقرب الفئات المذكورة من المذاهب السنية؛ فلم يكونوا متطرفين، ولا مغالين في أحكامهم تجاه المخالفين لمعتقدهم من المسلمين. ثم الصفرية؛ أصحاب زياد ابن الأصفر، ويقتربون من الإباضية في أحكامهم ومواقفهم.[1]

وترجع بداية ظهور المذهب الخارجي؛ في بلاد المغرب إلى أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة. حيث انتقل من المشرق بواسطة الخوارج الهاربين من قمع الأمويين بالمشرق؛ إذ وجدوا في ديار المغرب النائية ملجأ آمنا لهم؛ ومنهم أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ ذلك الداعية الإباضي اليمني الأصل.[2] وربما كان من أولئك الخوارج أيضا من كان مندسا في صفوف

فيما بعد ــ عن هذه الفرق الثمانية فرق أخرى كثيرة منها: العوفية (العونية)، الصلتية، الميمونية، الحمزية، الخلفية، الأطرافية، الشعيبية، الحازمية، الأخنسية، المعبدية، الرشيدية، الشيبانية، المكرمية، المعلومية والمجهولية، البدعية، الحفصية، الحارثية، اليزيدية. أنظر الملل والنحل، ج: 1، ص ص: 114 ــ 138.

[1] يبدو أن الصفرية في بلاد المغرب كانوا أشد تطرفا من صفرية المشرق. مع استثناء واحد يتمثل في دولة سجلماسة التي تميزت بالتسامح؛ وإن كان ذلك التسامح بدأت بوادره انطلاقا من حكم مدرار؛ الذي أخذ في التقرب من بني رستم ومذهبهم الإباضي.

[2] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 22. الفرق الإسلامية لآلفرد بل، ص: 170. تاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص: 3.

جيوش الخلافة الزاحفة إلى بلاد المغرب؛ ومن هؤلاء على سبيل المثال عكاشة بن أيوب الفزاري؛ الذي كان ضمن جيش عبيد الله بن الحبحاب.[1] كما يمكن إضافة الدور الهام الذي قام به عكرمة بن عبد الله مولى ابن عباس؛ ذلك العالم التابعي الأمازيغي الأصل؛ الذي تقول المصادر أنه كان يعتنق المذهب الخارجي؛ بل الصفري بالتحديد.[2] ولما كانت لعكرمة اتصالات مع بعض رؤساء القبائل الأمازيغية؛ سواء عندما زار إفريقية،[3] أو حينما تقابل معهم في المدينة المنورة. فقد تمكن من نشر أفكاره بينهم. وهذا ما اتضح

---

[1] يقول الرقيق القيرواني: ((وكان صفريا يعبد الله؛ وهو الذي قدم على طليعة أهل الشام؛ مع عبيد الله بن الحبحاب)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 114. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ـ 299. والكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 58 ـ 59.

[2] ذكره الشهرستاني بين رجال الخوارج؛ دون أن يحدد أي فرقة منهم. الملل والنحل، ج:1، ص: 137. وكذلك ابن خلكان الذي قال فيه: ((وقد تكلم الناس فيه؛ لأنه يرى رأي الخوارج)). وفيات الأعيان، ج: 3، ص: 265.

[3] قال المالكي: ((دخل عكرمة إفريقة وأقام بالقيروان، وبث بها العلم؛ وكان مجلسه في مؤخر جامع القيروان في غربي الصومعة)). رياض النفوس، ج: 1، ص: 146. وجاء في التعليق 8 من الصفحة نفسها بالمصدر نفسه: ((أورد الذهبي في تاريخ الإسلام (3: 160) نصا مهما عن صلة عكرمة بالمغرب؛ ويزيد في أهميته أن سنده إفريقي: "حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي عن خالد بن أبي عمران قال: كنا بالمغرب وعندنا عكرمة في وقت الموسم؛ فقال عكرمة: وددت أن بيدي حربة اعترض بها من شهد الموسم. قال فرفضه أهل إفريقية")). وإن صح هذا النص ربما دل على نزعة العنف عند عكرمة. أنظر أيضا طبقات علماء إفريقية لأبي العرب. ص ص: 82 ـ 83.

من اجتماع سمغون (سمكو) بن واسول به بإفريقية عندما زار عكرمة تلك الديار للدعوة لمذهبه؛ أو بالمدينة كما ذكر ابن خلدون.[1] وكما هو معروف كان هو كبير مكناسة؛ تلك القبيلة التي أنشأت دولة بني مدرار في سجلماسة. هذا وانتشر المذهب الخارجي ببلاد المغرب بين الأمازيغ بسرعة قياسية مدهشة؛ إذ اعتنقه السواد الأعظم منهم؛ منبهرين بتعاليمه الداعية إلى ما يعرف اليوم بالديمقراطية والمساواة والحرية. وقد ساعد على سرعة انتشار هذا المذهب، وازدياد أنصاره؛ ما كان يبديه بعض ولاة الدولتين: الأموية والعباسية من سلوك اتسم بسوء السياسة، والجشع المادي، والعصبية العمياء. وقد استفحل أمر هذا المذهب ـ منذ البداية ـ في ظل ثورات الأمازيغ؛ ضد الحكم الأموي. وكانت أولى الثورات الخطيرة هي الثورة التي قادها ميسرة المطغري سنة

[1] قال البكري: ((وكان فيه أبو القاسم سمجوا [سمغون] بن واسول المكناسي أبو اليسع المذكور وجد مدرار لقي بإفريقية عكرمة مولى ابن عباس وسمع منه وكان صاحب ماشية وكثيرا ما ينتجع موضع سجلماسة؛ فاجتمع إليه قوم من الصفرية ؛ فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا على أنفسهم عيسى بن مزيد الأسود، وولوه أمرهم؛ فشرعوا في بنيان سجلماسة؛ وذلك سنة أربع ومائة)). المغرب، ص: 149. أما ابن خلدون فيقول أن اللقاء حدث في المدينة: ((كان أبوه سمقو [سمغون] من حملة العلم؛ ارتحل إلى المدينة؛ فأدرك التابعين، وأخذ عن عكرمة مولى ابن عباس. ذكره عريب بن حميد في تاريخه. وكان صاحب ماشية وهو الذي بايع لعيسى بن يزيد، وحمل قومه على طاعته)). العبر، مج: 6، ص ص: 210. 267 ـ 268.

122هـ(739م)؛ ذلك الثائر الذي حاول إنشاء إمارة؛ بل خلافة؛ بعد أن عقد البيعة لنفسه بالخلافة. ولكنه لم يدم في مركزه طويلا؛ إذ ثار عليه أتباعه، وقتلوه؛ بسبب بعض المآخذ التي حسبوها عليه؛ منها سوء القيادة، وفساد سياسته.

ثم أجمعت القبائل الثائرة ـ بعد مقتل ميسرة ـ على إسناد أمرها إلى خالد بن حميد الزناتي؛ ذلك القائد الذي تصدى لجيوش بني أمية، وأشعل البلاد حربا ضارية ضدهم؛ كادت أن تزيل حكم الأمويين من بلاد المغرب كافة. ومع هذا لم تنجح هذه الإمارة في البقاء طويلا؛ بسبب تباين أهواء قبائلها، وافتقارها للعصبية المتجانسة؛ ذات النفوذ والكثرة والفاعلية والغلبة.[1] وذلك أن أتباع هذه الإمارة وأنصارها كانوا ـ منذ البداية ـ خليطا من مختلف القبائل الأمازيغية المتساوية في العدد والسطوة وشدة العصبية؛ وكان الحلف بينها هشا وظرفيا؛ فاستظلوا ـ سطحيا ـ بمظلة المذهب الصفري بعض الوقت. غير أن العصبية القبلية ـ وإن كانت تفتقر إلى التلاحم والتماسك اللازمين ـ فقد هيمنت على النزعة المذهبية التي كانت تتسم ـ في ذلك الوقت ـ بالضعف وعدم الوضوح؛ وعليه فلم يستحوذ جوهر ذلك المذهب على القلوب بالقدر

---

[1] أنظر كيف تخلى وأتباع أبي قرة عن حلفائهم الخوارج بمجرد إغرائهم بأربعين ألف درهم؛ خلال حصارهم لعمر بن حفص بطبنة حاضرة الزاب. العبر، مج: 7، ص ص: 24 ـ 25. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 49 ـ 51.

الكافي؛ مما أضعف دوره في مساعدة العصبيات المتحالفة على تحقيق التلاحم المطلوب.

وحتى يسهل تفسير تلك الأحداث؛ يستحسن مراجعة نظرية ابن خلدون؛ التي تقول بضرورة تحقيق شروط التركيب والمزج الصحيحين؛ لكي يتحقق الالتحام الفعال بين العصبيات المراد توحيدها؛ ((**لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون؛ لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية**)).[1] ولما كانت القبائل الأمازيغية المتحالفة متساوية في قوة العصبية؛ فقد تعذر عليهم تحقيق الوحدة والمزج والتلاحم؛ خاصة وأنهم لم يمتلكوا زمام الدعوة المذهبية على أفضل وجه. وطبعا هذا شرط آخر يضعه ابن خلدون في نظريته؛ إلى جانب شرط المزج والتركيب السابق الذكر.[2] وقد ثبت عجز تلك القبائل المتحالفة تحت

---

[1] **المقدمة ، ج: 2، ص: 599.**

[2] **يقول ابن خلدون: ((أن الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية... واعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف [أي يزيد] عليهم؛ إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة... واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة. واعتبر هذا في الموحدين مع زناتة؛ لما كانت زناتة أبدى [أي أشد بداوة]**

قيادة خالد بن حميد الزناتي عن إنشاء ملك أو دولة ما. وكل ما ورد في المصادر عنها؛ هو إمكانية انقسامها إلى فئتين اثنتين؛ يجمعهما ما اصطلح على تسميته بفرق المذهب الخارجي؛ وهي: الصفية، والإباضية.

ويبدو أن أولئك الثائرين من أبناء القبائل الأمازيغية لم يصلوا إلى مستوى يؤهلهم للتأمل الدقيق في الجوهر الذي يفصل بين الصفرية والإباضية. وكل ما كان يشدهم إليهما هو المبدأ الديمقراطي الذي يجمعهما.[1] أما سبب تصنيفهما إلى صفرية وإباضية؛ فربما رجع إلى المؤرخين الإسلاميين؛ أكثر من رجوعه إلى المعنيين أنفسهم؛ لذا فإن النزعة القبلية كانت هي الأقوى بروزا؛ واتباع رئيس القبيلة هو الأهم لديهم. وما كان يجمع الناس آنئذ هو سخطهم وعداوتهم للحكم الأموي الظالم. ويبدو أنهم وجدوا في الانتساب لتلك الفرق الخارجية مخرجا يقيهم من التسلط الأموي؛ دون أن يجبروا على مخالفة الدين الإسلامي الحنيف. وربما جاء تصنيف المؤرخين للقبائل الأمازيغية

من المصامدة وأشد توحشا؛ وكان للمصامدة الدعوة الدينية بإتباع المهدي؛ فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عصبيتهم بها؛ فغلبوا على زناتة أولا واستتبعوهم؛ وإن كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم؛ فلما خلوا من تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناتة من كل جانب، وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم)). نفسه، ص ص: 637 ــ 638.

[1] أنظر تاريخ مسلي أسبانيا، لدوزي، ص : 146 ــ 147. والفرق الإسلامية لبل، ص: 146.

الثائرة إلى صفرية وإباضية؛ تبعا لملاحظة سلوك كل فئة في القتال أمام خصومهم من المسلمين؛ ومدى ما يحرمونه على أنفسهم وما يحللونه.

وهكذا فبواسطة هاتين الفرقتين انتشرت ــ بعد ذلك ــ الثورات الطاحنة؛ عبر بلاد المغرب كلها. ثورات ظاهرها مذهبي وديني؛ أما مضمونها فيتميز بالعصبية والنزعة القبلية. وقد تمكن المذهبان المذكوران من تقسيم البلاد بينهما تقريبا؛ فانحازت قبائل: غمارة ومكناسة وبرغواطة وبنو يفرن ومغيلة وورفجومة، وبعض بطون صنهاجة، وبطون من زناتة؛ إلى الصفرية. أما: هوارة ونفوسة ولماية ولواتة، وبطون أخرى من زناتة؛ فقد انضمت إلى المذهب الإباضي.[1]

هذا وقد انجر عن تلك الانتماءات المذهبية قيام دول خارجية مستقلة في أقاصي البلاد؛ ترتكز على النظام القبلي، والروح المذهبية. منها: دولة برغواطة؛ التي نشأت في بدايتها ضمن الغطاء المذهبي الصفري، ثم دولة بني مدرار الصفرية، ثم دولة بني رستم الإباضية. وقد استطاعت هذه الدول الثلاث البقاء والصمود؛ أمام كل الاضطرابات التي اجتاحت المغرب الإسلامي آنذاك؛ متحدية ــ بذلك ــ سطوة الخلافة الأموية، ثم الخلافة العباسية بعدها. كما استطاعت أيضا إضفاء

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 223 ــ 227. 246 ــ 248. 255 ــ 267. 286 ــ 287. 428 ــ 438.

طابع مذهبي وديني على مؤسساتها؛ مع شيء من التفاوت فيما بينها.

غير أنه من الضروري – هنا – التذكير؛ بكون الدول الثلاث كان يغلب عليها الطابع القبلي؛ مصبوغا بسمات البداوة المحض؛ معززة بمبادئ مذهبية، وعقائدية؛ منحتها نفحة دينية متميزة. علما بأن دولة بني رستم تفوقت على أختيها؛ في نظمها وفي سيادتها وفي نفوذها. إذ كانت تتمتع باستقلالية أوسع منهما. حيث كانت دولة برغواطة تعلن ولاءها للدولة الأموية بالأندلس.[1] أما إمارة بني مدرار؛ فقد صرحت بالدعوة لخلفاء بني العباس ببغداد.[2] ومع هذا فقد ظل ذلك الولاء شكليا؛ لا يؤثر ولا يتأثر. فالهدف منه هو كسب نوع من الشرعية؛ قد تساعد على الثبات والاستقرار. والذي يحث على تخصيص فقرات للحديث عن تلك الدول؛ في هذا المجال؛ هو ما عرف عن منعتها، وتحديها للدول الكبرى آنئذ. غير أن المعلومات الضئيلة التي أوردها المؤرخون عنها لا تفي بالحاجة المطلوبة. وسيبقى أمرها مغلفا بالغموض؛ ما دامت النصوص التاريخية الكافية مفقودة.

---

[1] المغرب، 135. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص: 183. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 224. والعبر، مج: 6، ص: 130.

[2] العبر، مج: 6، ص: 268. وصبح الأعشى، ج: 5، ص: 165.

وجملة القول؛ فهذه الدول نشأت في أعقاب الفشل الذي لحق بالقبائل الصفرية والإباضية؛ أمام ولاة إفريقية والمغرب؛ طوال الفترة الزمنية الممتدة من عام 124هـ(741م) إلى عام 144هـ(761م)؛ حيث تفرقت – نتيجة لذلك الفشل – القبائل الأمازيغية (الصفرية والإباضية) في ربوع المغربين: الأقصى والأوسط؛ أين تحصنوا في المناطق النائية، وشيدوا دولهم الخاصة بهم.

****

1)ـ الدولـــة البرغواطيـــة:

أدى فشـــل الصفريـــة والإباضيـــة أمـــام الدولـــة الأمويـــة ببـــلاد المغـــرب؛ إلى قيـــام الدولـــة الصفريـــة الأولى في أقـــصى البـــلاد؛ ممثلـــة ببرغواطـــة سنـــة 127هـــ (744م). وذلـــك عندمـــا لجـــأت فلولهـــم ــ مـــع طريـــف الصفـــري ــ إلى إقليـــم تامسنـــا (بمنطقـــة الـــدار البيضـــاء حاليـــا)؛ حيـــث تـــرأس بعـــض القبائـــل ــ هنـــاك ــ مـــن: مصمـــودة وزواغـــة وزناتـــة، وقبائـــل أخـــرى.[1] وبعـــد موتـــه خلفـــه ابنـــه صالـــح؛ الـــذي نسبـــت إليـــه النحلـــة البرغواطيـــة. وبذلـــك يكـــون طريـــف وابنـــه صالـــح قـــد وصـــلا إلى مرتبـــة الرئاســـة والســـؤدد في قبائـــل متعـــددة؛ مـــع أنهمـــا لا ينتميـــان إلى عصبيتهمـــا. فكيـــف حصـــل ذلـــك؟

الإجابـــة عـــلى هـــذا توجـــد عنـــد ابـــن خلـــدون؛ الـــذي ذكرهـــا ضمـــن: **"فصـــل في أنـــه يحـــدث لبعـــض أهـــل النصـــاب الملـــكي دولـــة؛ تستغـــني عـــن العصبيـــة"**.[2]

---

[1] وكانـــوا أحيـــاء مـــن قبائـــل كثيـــرة؛ ذكرهـــم البكـــري بقولـــه: ((وأن قبائـــل برغواطـــة الذيـــن يدينـــون لهـــم؛ وهـــم عـــلى ملتهـــم: جـــراوة، وزواغـــة، والبرانـــس، وبنـــو أبي ناصـــر، ومنجصـــة، وبنـــو أبي نـــوح، وبنـــو واغمـــر، ومطغـــرة، وبنـــو يـــورغ، وبنـــو دمـــر، ومطماطـــة، وبنـــو وزكسينـــت؛ وعددهـــم ينتـــهي أزيـــد مـــن عشـــرة آلاف فـــارس. وممـــن يديـــن لهـــم مـــن المسلميـــن، وينضـــاف إلى مملكتهـــم زناتـــة الجبـــل، وبنـــو يليـــت، ونمالتـــة، وبنـــو واسينـــت، وبنـــو يفـــرن، وبنـــو وناغيـــت، وبنـــو النعمـــان، وبنـــو إفلوســـة، وبنـــو كونـــة، وبنـــو يسكـــر، وأصـــادة، وركانـــة، وإيزميـــن، ومنـــادة، وماسينـــة، ورصانـــة، وترارتـــة؛ ومبلـــغ عددهـــم اثـــني عشـــر ألـــف فـــارس)). المغـــرب، ص ص: 140 ــ 141.

[2] المقدمـــة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

والمقصود هنا؛ هي عصبية صاحب النصاب؛ الذي يلجأ إلى عصبية أخرى؛ عندما يفقد عصبيته الخاصة. ويرى ابن خلدون في هذا الفصل أن معرفة الناس بصاحب النصاب اللاجئ إليهم، وتقديرهم منزلته السابقة وتعظيمها؛ يكفيان لقبول رئاسته، وسلطانه عليهم. وهكذا يستعين بعصبية أخرى؛ غير عصبيته؛ فيؤسس بواسطتها دولته المستحدثة. وقد حدث هذا ـ أيضا ـ في دولتي: الأدارسة، والفاطميين فيما بعد.

ـ حكومة صالح بن طريف البرغواطي:

ولما كان طريف وزيرا وقائدا سابقا لميسرة المطغري؛[1] فقد اعتبرته القبائل الأمازيغية ـ المتواجدة بمنطقة تامسنا ـ أحد الذين يدخلون ضمن أهل النصاب الملكي؛ فسهل انقيادهم إليه؛ تسليما منهم بمكانته، ومركزه السابق. وثمة أقوال أخرى تنسب جزيرة طريف ـ بالعدوة الأندلسية ـ إلى طريف هذا[2]. وإذا صح هذا الخبر؛ يكون هذا الرجل هو ذلك القائد الأمازيغي الذي قام بغزو بلاد الأندلس في حملة استطلاعية سنة 91هـ(709م) قبل أن يغزوها طارق بن زياد.[3] وعليه يكون طريف هذا من

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 181.

[2] المغرب، ص: 135.

[3] قال ابن عذاري: ((فبعث موسى بن نصير عند ذلك رجلا من البربر؛ يسمى طريفا ويكنى أبا زُرَعة؛ في مائة فارس وأربعمائة راجل؛ فجاز في

أبرز القادة والأمراء الأمازيغ. أضف إلى ذلك كله ما للعامل الديني من أثر على الأوضاع؛ حيث كان للمذهب الصفري دوره في تعزيز اللحمة وشحن النفوس بالغيرة وروح التضحية. ذلك لأن الدين يزيل خلق التكبر والحسد والتنافس. وبمرور الوقت نسيت قبائل تامسنا نسب طريف الأول، وخفيت عن التابعين الكيفية التي وصل بها إلى الحكم. وهكذا أصبح منسوبا إليهم وفي عدادهم.

هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى ثمة من لا يضع الدولة البرغواطية في عداد الدول الصفرية أصلا؛ نظرا لكونها انحرفت عن تعاليم المذهب الصفري الخارجي نفسه؛ بل هناك من يتهم أمراءها بالارتداد عن الدين الإسلامي أيضا؛ حيث أجمعت المصادر التاريخية على ذلك تقريبا؛ تبعا لما يدعيه البرغواطيون من النبوة، وزعمهم بنزول الوحي على رابع أمرائهم (يونس)؛ الذي يقال أنه ابتدع النحلة البرغواطية، وألف ما أسماه قرآنا.[1] على أن بعض المؤرخين ينسبون ادعاء النبوة إلى جدّه صالح؛ ويقولون أنه هو الذي ابتكر هذه

أربعة مراكب؛ حتى نزل في ساحل البحر بالأندلس؛ فيما يحاذي طنجة؛ وهو المعروف اليوم بجزيرة طريف؛ سميت باسمه لنزوله هنالك؛ فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبيا ومالا كثيرا؛ ورجع سالما. وكانت إجازته في شهر رمضان من سنة 91هـ)). البيان المغرب، ج: 2، ص: 5.

[1] المغرب، ص ص: 134 ــ 141. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 223 ـ 227. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 182 ـ 187. والعبر، مج: 6، ص ص: 428 ـ 435.

النحلــة. أمــا يونــس فقــد أظهرهــا للعلــن؛ بعــد أن كانــت تمــارس في الخفــاء.[1] وهــذا طبعــا يخرجــه ـــ مــع أتباعــه ـــ مــن صفــوف المذهــب الصفــري الخــارجي الإســلامي. غيــر أن نشــأة الدولــة البرغواطيــة في بدايــة عهدهــا الأول ـــ كمــا تشيــر مصــادر عديــدة ـــ كانــت صفريــة المذهــب؛ ولــم يظهــر عــلى أصحابهــا انحــراف مــا عــن جوهــر الديــن الإســلامي؛ ومــا حــدث مــن انحــراف لــم يتــم إلا في عهــد أميــر الدولــة الرابــع. لذلــك وجــدت هــذه الدولــة مكانــا لهــا في هــذا المجــال.

والــذي يهــم هنــا؛ هــو أنــه لا سبيــل إلى الشــك في أن عامــل العقيــدة ـــ الممثــل بالمذهــب الصفــري ـــ قــد لعــب دورا هامــا في تعزيــز التحالــف القبــلي، وفي التلاحــم بيــن أعضائــه في بدايــة الأمــر؛ ممــا ساعــد عــلى تشييــد إمــارة برغواطــة. لكــن هــذا لا ينــفي مــا للعصبيــة الأمازيغيــة أيضــا مــن تأثيــر في تقويــة اللحمــة وتماسكهــا بيــن القبائــل. بحيــث انبثــق الأمــر عــلى شكــل مــن أشكــال الرفــض والمقاومــة للعصبيــة العربيــة؛ الممثلــة بالأموييــن أولا، ثــم العباسييــن بعدهــم. هــذا كلــه حــث بعــض العشائــر والقبائــل الأمازيغيــة، وحفزهــا عــلى التحالــف فيمــا بينهــا؛ ضمــن عصبيــة واحــدة؛ لمواجهــة التحــدي الــذي كانــوا يعتقــدون أنــه يهددهــم.

---

[1] المغــرب، ص: 135.

وظهور النحلة البرغواطية ــ فيما بعد ــ بين قبائل لا تعرف من تعاليم الإسلام الصحيحة إلا القليل منها؛ ساعد على تكتلها ضمن عصبية موحدة وقوية؛ شحنت بمفاهيم خرافية وطقوس مضللة، خاطئة. كما أن تلك النحلة ليست بريئة من النزعة الشعوبية؛ التي متنت اللحمة بين العشائر الأمازيغية، وزادتها ارتباطا. ودلائل ذلك؛ تتجلى فيما ورد من نصوص تخص نحلتهم؛ تلك النصوص والطقوس الوثنية الناطقة بالأمازيغية.[1] الأمر الذي كان يمدهم بشحنات من الزهو والافتخار الشعوبي. وبذلك اشتدت عصبيتهم واستفحلت؛ محققة لدولتهم البقاء، والاستمرار إلى عهد المرابطين؛ المشكلين من قبائل لمتونة ومسوفة؛ الذين تمكنوا من إسقاط الدولة البرغواطية تماما سنة 450هـ(1058م)؛ بفضل تفوقهم وامتيازهم في شدة العصبية وتماسكها؛ إلى جانب صدق وعنفوان التعاليم الدينية المهيمنة على النفوس.

وثمة بعض الكتاب والمؤرخين الأندلسيين والمغاربة ــ مثل ابن أبي زرع وابن الخطيب ــ ينسبون طريفا وابنه صالحا إلى أصول يهودية؛ وتقول مصادرهم بأن صالحا ــ أو طريفا وربما يونس في أقوال أخرى ــ قد قدم إلى بلاد المغرب من بلدة شذونة؛ المتواجدة بوادي برباط بالجنوب

---

[1] أنظر ما أورده البكري في كتابه المغرب، ص ص: **139 ــ 140**. وابن عذاري في البيان المغرب، ج: **1**، ص ص: **226 ــ 227**.

الغربي من بلاد الأندلس؛ وعلى ذلك فقد سمي كل من اتبعه ــ في بداية الأمر ــ برباطي؛ ومع الوقت حرفت التسمية تبعا لنطق الناس آنذاك؛ فقالوا في كل من أتبع مذهب صالح الصفري برغواطي.[1] غير أن عددا من المؤرخين يخالفون

---

[1] وعن صالح ونحلته يقول ابن أبي زرع: ((وكان أصله ــ لعنه الله ــ من بَرباط من عمل شذونة من بلاد الأندلس؛ فكان يقال من تبعه ودخل في ديانته برباطي؛ فعربته العرب، وقالوا برغواطي؛ فسموا برغواطة. وكان صالح بن طريف الذي ادعى فيهم النبوة رجلا خبيثا يهودي الأصل؛ من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام؛ نشأ ببرباط من بلاد الأندلس، ثم رحل إلى المشرق؛ فقرأ على عبيد الله المعتزلي القَدَري، واشتغل بالسحر؛ فجمع منه فنونا كثيرة. وقدم المغرب فنزل بلاد تامسنا؛ فوجد بها قبائل من البربر هالا؛ فأظهر لهم الإسلام والزهد والورع؛ فأخذ بعقولهم، واستمالهم بسحره ولسانه؛ وأراهم من نوارجه [أي نميمته] وتمويهاته؛ فاستهواهم بذلك، وأقروا بفضله، واعترفوا بولايته؛ فقدموه على أنفسهم، وصدروا عن رأيه في جميع أمورهم، ووقفوا عند أمره ونهيه؛ فادعى النبوة، وتسمى بصالح المؤمنين. وقال لهم أنا صالح المؤمنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز الذي أنزله على محمد e؛ وشرع لهم الديانة التي أخذوها عنه وذلك في سنة خمس وعشرين ومائة... وأنهم يصومون شهر رجب، ويأكلون شهر رمضان، وفرض عليهم عشر صلوات: خمسا بالليل، وخمسا بالنهار؛ وإن الأضحية واجبة على كل مسلم في الحادي والعشرين من المحرم. وشرع لهم في الوضوء غسل السرة والخاصرتين. وصلاتهم إيماء؛ لا سجود فيها، ويسجدون في آخر ركعة خمس سجدات. ويقولون عند الطعام والشراب: باسم "ياكس"؛ وزعم أن تفسيره باسم الله. وأمرهم أن يخرجوا العشر من جميع الثمار. وأباح لهم أن يتزوج الرجل من النساء ما شاء؛ ولا يتزوج من بنات عمه؛ ويطلقون ويرجعون ألف مرة في اليوم. فلا تحرم عليهم المرأة بشيء من ذلك. وأمرهم بقتل السارق حيث وجد؛ وزعم أنه لا يطهره من ذنبه إلا السيف. وأمرهم بالدية من البقر. وحرم عليهم رأس

هـذا الـرأي؛ مـن بينهـم عبـد الرحمـن بـن خلـدون الـذي يكـذب الأخبـار الـتي تنسـب صالحـا هـذا إلى اليهـود، أو ترجـع موطنـه الأول إلى بلـدة بربـاط، أو تقـول أنـه ذهـب إلى المشـرق؛ أيـن تعلـم السحـر، أو تزعـم أنـه قـرأ عـلى عبيـد اللـه المعتـزلي؛ ثـم عودتـه إلى المغـرب؛ أيـن وجـد قومـا مـن زناتـة جهلـة... إلـخ. ثـم ينتـهي إلى القـول: ((**ذكـر ذلـك كلـه صاحـب كتـاب نظـم الجوهـر وغيـره مـن النسابيـن للبربـر. وهـو مـن الأغاليـط البينـة. وليـس القـوم مـن زناتـة؛ ويشهـد لذلـك كلـه موطنهـم وجوارهـم لإخوانهـم المصامـدة. وأمـا صالـح بـن طريـف فمعـروف منهـم؛ وليـس مـن غيرهـم؛ ولا يتـم التغلـب عـلى النـواحي والقبائـل لمنقطـع جذمـه، دخيـل في نسبـه. سنـة اللـه في عبـاده؛ وإنمـا الرجـل في برغواطـة؛ وهـم شعـب مـن شعـوب المصامـدة معـروف**)).[1] ومـع ذلـك فمـا قالـه ابـن خلـدون في هـذا الأمـر يحتـاج إلى تمحيـص وفحـص؛ فهـو عندمـا نسـب برغواطـة إلى المصامـدة. وحيـن أرجـع مصـدر تلـك الأخبـار – المرفوضـة

كـل حيـوان؛ والدجاجـة مكـروه أكلهـا؛ وقـد وقتهـم في الأوقـات الديكـة؛ وحـرم عليهـم ذبحهـا وأكلهـا؛ ومـن ذبـح ديكـا وأكلـه أعتـق رقبـة... ووضـع لهـم قرآنـا يقرؤونـه في صلواتهـم)). الأنيـس المطـرب، ص: 83. كمـا تكلـم البكـري أيضـا عـن بعـض التفاصيـل الأخـرى تخـص هـذه النحلـة. المغـرب، ص ص: 135 – 140. وقـد أشـار إليهـا أيضـا ابـن عـذاري وابـن الخطيـب. البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 225 – 227. أعمـال الأعـلام، ق: 3، ص ص : 182 – 183.

[1] العبـر، مج: 6، ص: 435.

لديه – إلى صاحب كتاب نظم الجوهر وآخرين؛ لم يقدم دليلا أو حجة مقنعة تساند رأيه الرافض لما ذكره غيره؛ سوى تعليله للأمر بوحدة الموطن وعامل الجوار؛ علما بأن المنطقة التي تغلبت عليها برغواطة؛ تعتبر عند كثير من المؤرخين موطنا لقبائل عديدة ومتنوعة الأنساب ومختلفة العصبيات؛ وليست خاصة بالمصامدة فقط؛ بل هي من مواطن زناتة حسبما ذكر البكري.[1] كما أن خبر برغواطة لم يأت عن طريق كتاب نظم الجوهر والنسابة الأمازيغ فحسب؛ بل جاء أيضا بواسطة الرواية التي أوردها البكري صاحب كتاب المغرب – وهو قديم العهد بالمقارنة مع زمن ابن خلدون – وقد استعان ابن خلدون نفسه بخبر البكرى.[2] وفي هذا يقول البكري أنه نقل خبر برغواطة عن الرواية المنسوبة إلى المدعو زمور ابن موسى بن هشام بن ورديزن البرغواطي؛ صاحب صلاتهم، وسفير آخر أمرائهم أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار. حدث ذلك عندما قدم رسولا إلى الخليفة المستنصر، من قبل أميره عيسى ابن أبي الأنصار البرغواطي. وكان وصوله إلى قرطبة في 352هـ(963م).

---

[1] المغرب، ص: 135.

[2] العبر، مج: 6، ص ص: 428 – 432.

وجملة القول؛ فإن ما قاله البكري لا يختلف كثيرا عما ذكره آخرون؛ ومنهم ابن أبي زرع وابن الخطيب وابن عذاري؛ الذين يجمعون على أن برغواطة عبارة عن تجمع لقبائل أمازيغية متحالفة. ثم كيف يستبعد ابن خلدون أن تقبل قبائل تامسنا بطريف كأمير عليهم؟! مع أنه هو صاحب النظرية التي تقول بإمكان الاستعانة بعصبية أخرى؛ غير عصبية صاحب النصاب؛ بحيث تعوضه العصبية البديلة عن غياب عصبيته؛ وهذا ما نص عليه ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1] وكما هو معلوم فطريف هذا يدخل في عداد أهل النصاب؛ إذ كان وزيرا وقائدا في جيش ميسرة. بل كان عاملا لميسرة في تامسنا نفسها؛ كما ذكر ابن خلدون بالذات.[2] وإذا صحت الرواية التي تسند إلى طريف قيادة الحملة العسكرية الاستطلاعية إلى أرض الأندلس؛ تلك الحملة التي سبقت غزوة طارق بن زياد؛ فإنه عندئذ يكون من أبرز القادة الأمازيغ في تلك الأيام. وعليه فإنه يكون قد انفرد بالأمر في تامسنا النائية؛ حيث انضم إليه ــ حسبما يبدو ــ جماعات من الصفرية الذين سبق لهم أن ثاروا معه ومع ميسرة؛ وبهم تشكلت النواة الأولى للدولة البرغواطية. وبعد مماته خلفه في الحكم ابنه صالح؛

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ـــ 636.

[2] العبر، مج: 6، ص: 428.

الذي نسبت إليه النحلة البرغواطية. ويقول ابن خلدون أن أول ظهور له كان في عهد هشام بن عبد الملك.

أما ما راج من مزاعم تنسب طريفا أو صالحا إلى اليهود؛ يظهر أنها لم تكن سوى شكل من أشكال النبز والشتيمة.. والذي عزز تلك الافتراضات – حسبما يظهر – هي أسماء أجدادهما مثل: شمعون ويعقوب وإسحاق؛ ثم بعض الإشارات الأخرى التي تتبعث من معتقداتهم وأساطيرهم؛ التي وردت في قرآنهم المزعوم. وحتى إن صح نسبهم لليهود؛ فقد يكون ذلك حصل قبل الفتح؛ إذ يحتمل أن يكون طريف قد انحدر من أسرة كانت تعتنق ديانة يهودية؛ قبل أن يدخل الإسلام إلى ديار المغرب. وهذا أمر كان موجودا في تلك الربوع؛ إذ ذكرت مصادر تاريخية عديدة اعتناق بعض القبائل الأمازيغية للديانة اليهودية، إلى جانب المسيحية في بلاد المغرب قبل الفتح الإسلامي. وطبعا فما المانع من التسليم بدخول من كان يهوديا أو نصرانيا إلى الإسلام؛ ضمن الأفواج التي دخلت فيه من أتباع الديانات الأخرى؟

ــ حكومــة إليــاس بــن صالــح البرغــواطي:

وتقــول بعــض المصــادر أن صالحــا استخلــف ابنــه إليــاس، ثــم سافــر إلى المشــرق سنــة 128هــ(745م). وذلــك بعــد أن أوصــاه بإخفــاء ديانتهــم؛ حــتى يقــوى شأنهــم؛ فيتســنى لــه ــ عندئــذ ــ قتــل المخالفيــن. كمــا أوصــاه بــأن يلتــزم بمــوالاة ملــوك بــني أميــة في الأندلــس. وتقــول بعــض الروايــات أيضــا أنــه أخبــره بموعــد عودتــه المقبلــة؛ الــتي حددهــا بحلــول عهــد الملــك السابــع مــن ملوكهــم؛ حيــث قــال أنــه سيظهــر لهــم في شخــص المهــدي؛ الــذي يقتــل الدجــال، ويمــلأ الأرض عــدلا بعــد أن تكــون قــد ملئــت جــورا. ثــم قــال لــه: إن عيــسى بــن مريــم عليــه الســلام سيكــون مــن بيــن جنــوده؛ إذ يصــلي خلفــه. ومــن خــلال مــا جــاء في بعــض الروايــات؛ تكــون مــدة حكــم صالــح قــد دامــت نحــو ســت سنيــن. ولمــا انتصــب إليــاس ملكــا عــلى قبائــل برغواطــة عمــل بوصيــة والــده؛ فلــم يظهــر شيئــا مــن نحلــة برغواطــة؛ وتقــول المصــادر أنــه كتمهــا ولــم يخــض في شأنهــا؛ وبالمقابــل كــان يظهــر الإســلام، ويتحــلى بالعفــاف والصــلاح. وبــقي في الحكــم مــا يقــارب الخمسيــن سنــة.

ـ حكومـــة يونـــس بـــن إليـــاس البرغـــواطي:

وبعـــد مـــوت إليـــاس سنـــة 176هــ(792م) خلفـــه ولـــده يونـــس. فاتخـــذ **شالـــة** حاضـــرة لملكـــه. وهـــو أول مـــن أظهـــر ديانتهـــم المزعومـــة؛ في أرجـــح الأقـــوال. وتـــم ذلـــك بعـــد عودتـــه مـــن رحلـــة الحـــج.[1] غيـــر أن بعضهـــم ينســـب إليـــه تأسيـــس النحلـــة دون جـــده صالـــح.[2] وكـــان يونـــس هـــذا شديـــدا وفاتكـــا؛ إذ أشعـــل تلـــك الجهـــات الغربيـــة حربـــا وتدميـــرا وتشريـــدا للسكـــان؛ مجبـــرا

---

[1] قـــال ابـــن خلـــدون: ((ورحـــل يونـــس إلى المشـــرق وحـــج؛ ولـــم يحـــج أحـــد مـــن أهـــل بيتـــه قبله أو بعده؛ وهلك لأربع وأربعين سنة من ملكه)). العبـــر، مج: 6، ص: **430.**

[2] نقـــل البكـــري قائـــلا: (("قـــال أبـــو العبـــاس فضـــل بـــن مفضّـــل المذحـــجي؛ أن يونـــس القايـــم بديـــن برغواطـــة أصلـــه مـــن شذونـــة؛ مـــن وادي بَرَبَـــط. وكـــان قـــد رحـــل إلى المشـــرق في عـــام واحـــد مـــع عبـــاس بـــن ناصـــح، ويزيـــد بـــن سنـــان الزنـــاتي صاحـــب الواصليـــة، وبرغـــوت بـــن سعيـــد التـــراري، وجـــدّ بـــني عبـــد الـــرزاق (ويعرفـــون ببـــني وكيـــل الصفريـــة)، ومنـــاد صاحـــب المناديـــة (المنســـوب إليـــه القلعـــة المعروفـــة بالمناديـــة قريبـــا مـــن سجلماســـة)، وآخـــر ذهـــب عـــني اسمـــه. فأربعـــة منهـــم فقهـــوا في الديـــن؛ وادعى ثلاثـــة منهـــم النبـــوة؛ منهـــم يونـــس صاحـــب برغواطـــة". قـــال: "وكـــان يونـــس شـــرب دواء الحفـــظ؛ فلقـــن كـــل مـــا سمـــع وحفظـــه، وطلـــب علـــم النجـــوم والكهانـــة والجـــانّ، ونظـــر في الكـــلام والجـــدال؛ وأخـــذ ذلـــك عـــن غيـــلان؛ ثـــم انصـــرف يريـــد الأندلـــس؛ فنـــزل بيـــن هـــؤلاء القـــوم مـــن زناتـــة؛ فلمـــا رأى جهلهـــم استوطـــن بلدهـــم. وكـــان يخبرهـــم بأشيـــاء قبـــل كونهـــا؛ ممـــا تـــدل عليـــه النجـــوم عندهـــم؛ فتكـــون عـــلى مـــا يقـــول أو قريبـــا منـــه؛ فعظـــم عندهـــم. فلمـــا رأى ذلـــك منهـــم، وعـــرف ضعـــف حلومهـــم وسخافـــة عقولهـــم أظهـــر ديانتـــه، ودعـــا إلى نبوتـــه؛ وســـمى مـــن اتبعـــه بربـــطي؛ لمـــا كـــان مـــن بربـــط؛ ثـــم أحالـــوه بألسنتهـــم وردّوه إلى لغتهـــم؛ فقالـــوا برغـــواطي)). المغـــرب، ص ص: **137 ــ 138.**

الناس على إتباع نحلة جده.[1] ودام حكمه تسع وعشرة سنة؛ إذ توفي في عام 195هـ(810م). وهذا الرأي يخالف ما ذكره ابن خلدون؛ الذي يرى أنه حكم زهاء 44 سنة.

ـ حكومة أبي غفير معاذ بن يونس البرغواطي:

وبعد موت يونس تربعِ على سدة الحكم في دولة برغواطة ولده أبو غفيْر معاذ بن يونس؛ فكانت وطأته على الناس شديدة؛ حيث تابع نهج أبيه في إبادة الخارجين عن ديانة أجداده. وقد شن حملات إبادة جماعية على الخارجين عن سلطانه والرافضين لنحلته؛ وأهم تلك الوقائع والحملات: موقعة مدينة **تيمغيسن**؛ وكانت من كبريات المدن؛ فهجم عليها هجمة إبادة ذات أبعاد وحشية؛ دامت رحاها ثمانية أيام كاملة؛ حيث بدأت بيوم الخميس؛ ولم تتوقف إلا في الخميس الموالي؛ وجاء في الأخبار أن أزقة المدينة ودورها أضحت مليئة بالدماء. وشن أيضا حملة أخرى في موضع يقال

[1] **وفي هذا يقول البكري: ((فتولى الأمر بعد أبيه؛ فاظهر ديانتهم، ودعا إليها، وقتل من لم يدخل فيها؛ حتى أخلى ثلاثمائة مدينة وسبعا وثمانين مدينة؛ حمل جميع أهلها على السيف لمخالفتهم إياه؛ وقتل منهم بموضع يقال له تَامْلُوكَافْ ـ وهو حجر نابت عالي في وسط السوق ـ سبعة آلاف وسبعمائة وسبعين قتيلا. وقتل من صنهاجة خاصة في وقعة واحدة ألف وغد؛ ـ والوغد عندهم المنفرد الوحيد؛ الذي لا أخ له ولا ابن عم ـ)). المغرب، ص: 136.**

له **بَهْت**؛ فأحدث فيه من القتل والتمثيل ما لا حصر له. وكانت له كذلك حروب عظيمة مع الأدارسة؛[1] وقد خسر في تلك الحروب كثيرا من أتباعه وأراضيه؛ حتى **شالة** ــ عاصمة دولته نفسها ــ سقطت في أيدي إدريس بن إدريس؛ بالإضافة إلى مناطق واسعة من تامسنا.[2]

---

[1] أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: **186**. دولة الأدارسة، ص: **280**.

[2] وأبو غُفَير هذا هو الذي جاء ذكره في القصيدة التي قالها سعيد بن هشام المصمودي؛ يهجو فيها برغواطة؛ منها:

قِفِي قَبْل التَّفَرق فَاخْبِرينَا
وقُولِي وَاخْبِري خَبَراً مُبِينَا
هُمُومَ بَرَابِر خَسِرُوا وَضَلُّوا
وخَابُوا لاَ سُقُوا مَاءً مَعِينَا
يَقُولُونَ: النَّبِيُّ أبُو غَفِيرٍ
فَأخْزَى اللَّهُ أمَّ الكَاذِبِينَا
ألَمْ تَسْمَعْ ولَمْ تَرَ يَوْمَ بَهْتٍ
عَلَى آثَارِ خَيْلِهِمُ رَنِينَا
رَنِينَ البَاكِيَاتِ بِهِمْ ثُكَالَى
وَعَاوِيَةٍ وَمُسْقِطَةٍ جَنِينَا
هُنَالِكَ يُونُسُ وَبَنُو أبِيهِ
يُوَالُونَ البَوَارَ مُعَظِّمِينَا
فَلَيْسَ اليَوْمَ رِدَّتُكُمْ وَلَكِنْ
لَيَالِي كُنْتُمُ مُسْتَيْسِرِينَا

(يقصد بكلمة مستيسرين أنهم كانوا من أتباع ميسرة المطغري)

وبقي أبو غفير في الحكم زهاء خمس وثلاثين سنة؛ إذ توفي في حدود عام 230هـ(844م) كما ذكر ابن الخطيب. أما ابن خلدون فيقول أنه حكم حوالي 29 سنة؛ إذ توفي في أواخر المائة الثالثة. وتقول الأخبار أن له أربع وأربعين زوجة؛ ومن البنين مثلهن وأزيد.[1]

ـ حكومة أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع البرغواطي:

وبموت أبي غفير معاذ خلفه بعض الأمراء من بينهم: أبو الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ هذا وقد أثنت المصادر التاريخية عليه، واعترفت بحسن سياسته، وابتعاده عن سفك الدماء. وتقول أنه لا يعتم إلا في وقت الحرب؛ وفي دولته لا يعتم إلا الغرباء؛ وكان لباسه الملاحف والسراويل؛ ولا يلبس القميص. ومن سياسته في الحرب؛ أنه

---

[1] من هنا بدأت أخبار المؤرخين عن برغواطة تغيب وتضطرب؛ فابن الخطيب هنا يقول: ((وولي بعده [أي بعد أبي غفير] ولده أبو حفص [عمر]. واستمرت دولة عمر بن معاذ إلى أن توفي؛ وولي ولده اليسع بن إسماعيل [هكذا يصبح عمر إسماعيلا]؛ فقام بديانتهم ينتظر ظهور جده الشيخ صالح؛ إذ كان سابع الأمراء من بنيه. واتصل أمر اليسع إلى سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة. وظهر أمر اللمتونيين ودعوتهم إلى أساس من فقه ودين؛ فجعلوهم جهادا قريبا وغزاهم الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني؛ فقتلهم قتلا ذريعا؛ حتى أسلموا إسلاما جديدا. وكان آخر ملوكهم عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن محمد بن اليسع؛ وانقرض ملكهم. وقبيلهم اليوم قبيل ضعيف؛ لعب سيف الملثمين فيهم، ثم سيف المهدي بعده)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 186 ـ 187.

يبدي ـ في كل عام ـ أنه ينوي الغزو؛ فيشرع في حشد الحشود؛ موهما القبائل الأخرى بأنه سيغزوها؛ فتسارع إلى تقديم الهدايا إليه؛ وبذلك يتخلى عن نواياه المزعومة. وهكذا يتخذ مبدأ الردع سياسة؛ بدلا من الحرب. هذا وقد ملك أبو الأنصار زهاء اثنين وأربعين سنة. ولم تشر المصادر إلى تاريخ وفاته

ـ حكومة أبي منصور عيسى بن عبد الله البرغواطي:

ولما توفي أبو الأنصار خلفه ابنه أبو منصور عيسى. وهذا الملك هو الذي أرسل سفيره زمورا إلى المستنصر بقرطبة سنة 352هـ(963م).[1] كما أنه هو سابع الأمراء

[1] يقول البكري: ((أخبر أبو صالح زمور بن موسى بن هشام بن ورديزن البرغواطي ـ وكان صاحب صلاتهم حين قدم رسولا من قبل صاحب برغواطة أبي منصور عيسى بن أبي الأنصار عبد الله بن أبي غُفَيْر محمد بن معاذ بن اليسع بن صالح بن طريف ـ وكان وصوله إلى قرطبة في شوال سنة اثنتين وخمسين وثلاثماية ـ وكان المترجم عنه بجميع ما أخبر به الرسول الذي قدم معه وهو أبو موسى عيسى بن داود بن عشرين السطاسي ـ من أهل شلة. مسلم، من بيت خيرون بن خير. فأخبر زمور أن طريفا أبا ملوكهم من ولد شمعون بن يعقوب بن إسحاق؛ وأنه كان من أصحاب ميسرة المطغري ـ المعروف بالحقير ـ ومغرور بن طالوت. وإلى طريف نسبت جزيرة طريف. فلما قتل ميسرة وافترق أصحابه؛ احتل طريف ببلد تامسنى ـ وكان إذ ذاك ملكا لزناتة وزواغة ـ فقدمه البربر على أنفسهم؛ وولي أمرهم؛ وكان على ديانة الإسلام؛ إلى أن هلك هنالك؛ وتخلف من الولد أربعة؛ فقدم البربر ابنه صالحا منهم. قال زمور: "وكان موت صالح بعد موت النبي صلى الله علية وسلم بماية عام سوا". قال:

البرغواطيين، وعليه فقد يكون أطال الانتظار؛ طمعا في تحقيق نبوءة جده صالح المزعومة؛ ولكن جده لم يف بوعده؛ ولم يعد كما زعم وأوهم أحفاده وأتباعه.. غير أن قادما آخر ظهر في الأفق؛ وهذا الوافد هو الذي تولى مهمة القضاء على دولة برغواطة نفسها؛ ثم إزالة نحلتهم الشاذة الغريبة نهائيا. وذلك القادم لم يكن سوى أبي بكر ابن عمر اللمتوني أمير المرابطين؛ الذي سحق مملكة برغواطة، وحاربهم كما يحارب الوثنيين والكفار؛ وهكذا؛ لم يبق لهم شأن يذكر؛ بعد سنة 450هـ(1058م). وما بقي من شتاتهم وجيوبهم المتفرقة؛ أكمل حصاد رؤوسهم المهدي بن تومرت.
أما وفاة أبي منصور عيسى فقد حدثت قبل ظهور المرابطين في بلاده؛ إذ قتل في سنة 368هـ(978م) في غزوة شنها على برغواطة بلكين بن زيري.

"وحضر مع أبيه حروب ميسرة الحقير وهو صغير". قال: "وكان من أهل العلم والخير؛ فتنبأ فيهم، وشرع لهم الديانة التي هم عليها إلى اليوم؛ وادعى أنه نزل عليه قرءانهم الذي يقرؤونه إلى اليوم". قال زمور: "وهو صالح المؤمنين الذي ذكره الله عز وجل في قرءان محمد عليه السلام في سورة التحريم. وعهد صالح إلى ابنه إلياس بديانته، وعلمه شرايعه، وفقهه في دينه؛ وأمره أن لا يظهر ذلك إلا إذا قوي وأمن؛ فإنه يدعوا إلى ملته؛ ويقتل حينئذ من خالفه. وأمره بموالاة أمير الأندلس. وخرج صالح إلى المشرق؛ ووعد أنه ينصرف إليهم في دولة السابع من ملوكهم؛ وزعم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال الدجال؛ وأن عيسى بن مريم يكون من أصحابه، ويصلي خلفه؛ وأنه يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا...)). المغرب، ص ص: 134 ـــ 136.

وجملة القول تتلخص في أن هذه الدولة لم تهنأ بالأمن والاستقرار طوال حياتها الطويلة؛ إذ تعرضت – منذ نشأتها – إلى هجمات وغزوات عديدة؛ من قبل الدول المجاورة لها أو البعيدة عنها؛ وإذا خفت الضغوط عليها قامت هي بالهجوم على القبائل المجاورة لها؛ بهدف إخضاعها وسلب ثرواتها. وهذا هو – بالطبع – شأن الكيانات القبلية؛ التي تنبذ السكون وتمل الاستقرار على حال واحدة. ومن بين الدول التي ناصبت البرغواطيين العداء، وناوشتهم بالقتال: الدولة الإدريسية بفاس؛ التي تمكنت من انتزاع مقاطعات شاسعة منهم في إقليم تامسنا؛ وطردتهم حتى من عاصمتهم مدينة شالة. ثم الدولة الأموية بالأندلس؛ وذلك عندما قام جعفر بن علي – في عهد المنصور بن أبي عامر – بالزحف لقتال برغواطة في سنة 366هـ(976م)؛ ولكنه هزم في تلك المعركة. ثم في عام 389هـ(998م)؛ حينما قاد واضح مولى المنصور بن أبي عامر جيشا لغزوهم؛ فبالغ في قتلهم وسبيهم. كما غزاهم بلكين بن زيري سنة 368هـ(978م)؛ فاكتسح برغواطة وأثخن فيهم، وشتت شملهم؛ وقتل ملكهم أبا منصور عيسى بن أبي الأنصار، وبعث سبيهم إلى القيروان. ثم شن عليهم تميم بن زيري بن يعلى اليفرني سنة 420هـ(1029م) حربا كاسحة؛ فانتزع منهم تامسنا وأنهكهم بالقتل والسبي والتشريد.

وبعدها انتهى أمر دولتهم نهائيا بواسطة المرابطين؛ بقيادة أبي بكر بن عمر سنة 450هـ(1058م)؛ وذلك بإسقاطها، وقتل ملكهم؛ وسماه ابن خلدون بأبي حفص عبد الله البرغواطي؛ وهو من ولد أبي المنصور عيسى بن الأنصار.[1]

****

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

ويبدو أن دولة برغواطة هذه ظلت على طابعها البدوي الساذج؛ لأنها لم تخلف وراءها أية مآثر حضارية وثقافية تستحق الذكر. ولم يعرف من آدابهم سوى ذلك المنتوج الشفوي المتمثل فيما ابتكره صالح ـ أو يونس ـ من نصوص؛ أوهم أتباعه بأنها وحيا أو قرآنا نزل عليه. ويقال أن تلك النصوص تقدر بثمانين سورة كما سموها؛ منها: سورة الديك، وسورة الجمل، وسورة الفيل، وسورة الحجل، وسورة الجراد، وسورة العجل، وسورة الحنش الذي يمشي على ثمانية أرجل، وسورة آدم، وسورة نوح، وسورة يونس، وسورة أيوب، وسورة طالوت، وسورة هاروت وماروت وإبليس، وسورة غرائب الدنيا، وسورة الدجال، وسورة فرعون، وسورة قارون، وسورة هامان،

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 432 ـ 434.

وسورة ياجوج وماجوج، وسورة نمرود؛ بالإضافة إلى ما كانوا يشتغلون به من طقوس سحرية، وما كانوا يجيدونه من تنجيم ومعرفة بالنجوم..[1] وقد أورد البكري نصا مترجما من السورة المسماة بسورة أيوب؛ وقال أنها استفتاح كتابهم؛ وهي طويلة. جاء فيها: ((**بسم الله الذي أرسل به الله كتابه إلى الناس؛ وهو الذي بين لهم به أخباره. قالوا علم إبليس القضية أبى الله ليس يطيق إبليس؛ كما يعلم الله سل أي شيء؛ يغلب الألسن في الأقولة، ليس يغلب الألسن في الأقولة إلا الله بقضائه باللسان الذي أرسل الله بالحق إلى الناس استقام الحق. أنظر محمدا (وعبارة ذلك بلسانهم أيمني مامت؛ فمامت محمد). كان حين عاش استقام الناس كلهم الذين صحبوه؛ حتى مات ففسد الناس. كذب من يقول أن الحق يستقيم وليس ثم رسول الله**)).[2] ومن خلال ما ورد من أسماء لتلك السور وما توحي إليه؛ يمكن استشفاف تأثير التراث اليهودي في ذلك كله. وقد يكون هذا من بين العوامل التي أثارت الشكوك في يهوديتهم؛ مع أن الأثير الإسلامي متوفر أيضاً.

[1] المغرب، ص: 140. والعبر، مج: 6، ص: 429.

[2] المغرب، ص: 140.

المهم أن هذه الدولة كانت منغلقة على نفسها؛ لا تترك للتيارات الثقافية والحضارية الأخرى مجالا للتسلل إليها. ويعود ذلك إلى عزلتها وانطوائها ضمن النظم القبلية المتحجرة، وإلى الجهل المتحكم في أبنائها، وإلى رفض حكامها كل العوامل الثقافية الخارجة عن نطاقهم وكل ابتكار حضاري متطور يرد إليهم. وعليه فقد بقيت هذه الدولة ـ طيلة القرون التي عاشتها ـ تستند إلى النظام القبلي إلى أن جاء يوم سقوطها.

ويبدو ـ من جهة أخرى ـ أن انعدام الإنجازات الحضارية، وغياب الصلات الثقافية مع غيرهم؛ كان بمثابة التحصين والوقاية لأصحاب هذه الدولة؛ الأمر الذي ساعد على إبعادهم عن أسباب الترف والبذخ والاستسلام للسكينة والفتور. والراجح أن هذه الظاهرة ساعدت الدولة البرغواطية البدوية؛ على البقاء حتى عهد المرابطين؛ أي من الثلث الأول من القرن الثاني إلى منتصف القرن الخامس للهجرة. وخلال تلك الفترة الطويلة بقي أبناؤها على حال من الشدة والقوة والإقدام؛ حيث كانت أهم الصفات التي يتحلون بها، ويحرصون على التمسك بها هي الصفات العسكرية؛ ذات الطابع القتالي. وعليه فقد صح فيهم حكم ابن خلدون؛ حين تناول هذا الموضوع في مقدمته ضمن: "**فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر**".

و"**فصل في أن الأمم الوحشية أقدر على التغلب ممن سواها**".[1]

ولكي نستكمل الصورة التي تخص قبيلة برغواطة؛ لابد من الإشارة هنا ـ ولو بإيجاز ـ إلى إمارة برغواطية أخرى؛ هي إمارة سقوط البرغواطي. نشأت هذه الامارة فجأة واختفت دون ضجيج كبير، أو اعتناء كافي بها من طرف المؤرخين؛ وتم قيام هذه الإمارة ضمن محيط مختلف ـ بعض الشيء ـ عما كانت عليه الإمارات البرغواطية السابقة. ويعتبر أهم عامل تختلف فيه دولة ((سقوط)) عن الإمارات السالفة الذكر؛ هو أن أمراء هذه الدولة لا يؤمنون بالنحلة الإلحادية البرغواطية. وربما كانوا يتبعون المذهب السني؛ بحكم الولاء والتبعية لسادتهم من الأدارسة الحموديين؛ الذين يدينون بالمذهب السني. ومع هذا لا بد من الإشارة إلى عبارة خاطفة أوردها ابن بسام نقلا عن ابن حيان؛ حين قارن بين المعتضد بن عباد وسقوط؛ فقال: ((**من هضم جاره الخارجي سقوت مولى ابن حمود**)).

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـ 589. 607 ـ 609.

وهذه العبارة توحي للقارئ باحتمال اعتناق سقوط للمذهب الخارجي. غير أن قول ابن حيان هذا قد يكون من قبيل التشنيع بسقوط؛ وتذكير الناس بأسلافه الصفرية. المهم أن سقوط وابنه ــ حسبما جاء في المصادر ــ لا علاقة لهما ببدع الامارات البرغواطية الأولى؛ وكل ما يربطهما ببرغواطة هو أنهما ينحدران من أصول عرقية برغواطية؛ كما أن جيشهما مكون ــ في معظمه ــ من شتات قبيلة برغواطة.

ــ حكومة سقوط البرغواطي:

تجمع المصادر على أن هذه الإمارة نشأت في سبتة وطنجة؛ بقيادة سقوط أو (سكوت) بن محمد البرغواطي، وبمساعدة زميله أبي العطاف رزق الله البرغواطي أيضا؛ والذي كان في طنجة. وربما تكون هذه الإمارة قد بدأت في الظهور لأول مرة؛ في شكل ولاية من ولايات الدولة الإدريسية الحمودية التي كانت قائمة بمالقة؛ ويرجح أن ذلك حصل بعد مقتل الفتى الصقلبي نجا في سنة 434هـ(1042م)؛ الأمر الذي أبقى سبتة خالية من شخص قوي يتولاها. ولا يعرف بالضبط التاريخ الذي أصبح فيه سقوط هذا واليا عليها.[1] وكل ما

[1] لقد تضاربت الأقوال حول التاريخ الذي ولي فيه سقوط بسبتة. وقد ذكر ابن بسام أن يحيى بن علي بن حمود هو الذي ولى سقوط على سبتة؛ (المجلد الثاني من القسم الثاني، ص: 657. أنظر إلى ما جاء في التعليق

عرف هو أن الذي ولي على سبتة وطنجة ـ بعد إدريس بن علي بن حمود ـ هو الحسن بن يحيى بن علي؛ رفقة الوصي عليه المسمى نجا الصقلبي. لذا يمكن إرجاع بداية أمر هذين البرغواطيين إلى الفترة الزمنية التي تلت مقتل الفتى نجا؛ ذلك المملوك الصقلبي الذي طمع في اغتصاب عرش الحموديين؛ فاغتاله بعض جنوده؛ الذين ينتمون أصلا إلى برغواطة؛ وهم كما قيل: أخوال الأمير حسن بن يحيى بن علي بن حمود.[1]

وحسبما يظهر فمنذ تلك الحادثة رجحت كفة سقوط مولى يحيى بن على بن حمود؛ ذلك المملوك الذي تركه يحيى في سبتة لأمر ما؛ عندما قرر التوجه إلى مالقة.[2] ومرت فترة من

بالصفحة الموالية). بينما الخبر المؤكد الذي ذكره ابن بسام نفسه؛ نقلا عن ابن حيان؛ واتفق فيه مع كثير من المؤرخين (أنظر المجلد الأول من القسم الأول، ص: **481**.) أن يحيى المعتلي أسند ولاية سبتة ـ عندما جاز للأندلس ـ إلى أخيه إدريس بن علي؛ الذي كان ـ في عهد أبيهما ـ واليا على مالقة. ولما قتل يحيى بن علي؛ خلفه أخوه إدريس المتأيد؛ الذي ولى الحسن بن يحيى بسبتة؛ تحت وصاية الفتى نجا. (الكامل، ج: **7**، ص: **288**. والمعجب، ص: **61**). ولما تولى الحسن بن يحيى مقاليد الخلافة بمالقة؛ ترك أمر سبتة في يد الفتى نجا. (الكامل، ج: **7**، ص: **289**. والمعجب، ص: **63**). وعليه قد يعود ظهور سقوط إلى هذه الفترة بالذات؛ خاصة بعد مقتل نجا.

[1] البيان المغرب، ج: **3**، ص: **216**.

[2] يقول ابن عذاري: ((وكان سوَّجَّات [سقوط] مولى ليحيى بن علي بن حمود؛ اشتراه من رجل حداد من سبي برغواطة وهو دون البلوغ؛ فحظي عنده؛ فلما سار يحيى إلى الأندلس وخلف سوَّجَّات مولاه بسبتة؛ وجعل معه ناضرا عليه مولاه رزق الله)). البيان المغرب، ج: **3**، ص: **250**. وهذا الخبر

الوقت لا يعرف الدور الذي كان يلعبه سقوط هذا في سبتة؛ خاصة في ولاية إدريس بن علي بسبتة، ثم ولاية الحسن بن يحيى. والراجح أن مركزه قد تعزز خلال الفوضى التي سادت مالقة؛ بعد اجتياحها من طرف الخادم نجا؛ الأمر الذي أوصله إلى القتل بيد جنوده الأمازيغ البرغواطيين. وهنا يمكن للقارئ تخيل الحركة التي تكون قد حدثت بعد مقتل نجا؛ وعودة الجيش إلى سبتة؛ ذلك الجيش المشكل من الأمازيغ؛ ومن برغواطة

يكون قد اقتبسه ابن عذاري عن ابن بسام الذي قال: ((ولما أفضت الدولة الحمودية إلى سقط زندها، ومنتهى جهدها؛ يحيى بن علي ـــ المتقدم الذكر ـــ ألقى بمقاليد سبتة إلى هذه الأفعى الجارية، والشعلة الوارية؛ سقوت المذكور؛ [أنظر التعليق السابق؛ ففيه ما يعارض هذا] فأقام به عمودها، وأطمعه قائمها وحصيدها؛ وطفق لأول حينه يخلق ويفري، ويجر لأبعد شئونه ليسير ويسري؛ وقد كان يحيى بن علي أشرك معه في عمالتها مولى آخر من مواليه يكنى أبا العطاف؛ أحد أجذال الطعان، وكفاة الأقران؛ فأقاما بقية أيام يحيى بن علي يتجاذبان أهدابها، ويتعاطيان أقداحها وأكوابها؛ إلى أن وقع من مقتله؛ سنة سبع وعشرين [وأربعمائة] ما فرغنا من ذكره، ونبهنا على مستودع مستقره. ولما أفضت دولة آل حمود إلى ابنه [العالي] إدريس بن يحيى بن علي؛ سما سقوت بن محمد؛ فأخذ بلقم الطريق، وطلع لمغبونه إدريس من ثنايا العقوق؛ وأول ما بدأ به من ذلك الفتك بشريكه الخاسر؛ بحيلة خفية.. فأصبح بعده سقوت بن محمد قد حلت شمس سلطانه بالحمل، وقام وزن زمانه فاعتدل؛ وتسمى ـــ لأول وقته يومئذ ـ من الأسماء السلطانية بالمنصور المعان)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 657 ـ 658. ويقول ابن خلدون في حديثه عن العالي أيضا: ((ولقب العالي؛ وولى على سبتة سكوت ورزق الله من عبيد أبيه)). العبر، مج: 4، ص: 334.

بالخصوص. والأمر المؤكد – بعد ذلك – أن المصادر أصبحت تتكلم عن سقوط البرغواطي كوال على سبتة؛ وفي طاعة الخليفة الحمودي العالي إدريس بن يحيى بمالقة. ثم أخذ نفوذ سقوط يتوسع، وتزداد قبضته إمساكا وتحكما في الأمر؛ حتى استبد نهائيا؛ بعد انحلال الدولة الحمودية واندثارها. ويمكن تفسير حدوث ذلك؛ طبقا لما قرره ابن خلدون ضمن فصل: "**فصل في حدوث الدولة وتجددها؛ كيف يقع؟**".[1]

ولما زالت دولة بني حمود نهائيا انبرى سقوط لضم طنجة إلى إمارته وانتزاعها من يد زميله رزق الله؛ الذي كان واليا على تلك المدينة. وتم له ذلك – بالفعل – سنة 453هـ(1061م)[2] حيث تغلب على طنجة وقتل واليها رزق الله. وهنا تطلع إلى مرتبة أسمى من التي كان يحتلها؛ إذ تسمى بلقب المنصور المعان؛ واستقل نهائيا بدولته. وأورد ابن حيان خبر الخصومة التي حدثت بين سقوط والمعتضد بن عباد؛ الذي أصبحت الجزيرة

---

[1] وفيه يقول: ((بأن يستبد ولاة الأعمال في الدولة بالقاصية؛ عندما يتقلص ظلها عنهم؛ فتكون لكل واحد منهم دولة يستجدها لقومه وما يستقر في نصابه؛ يرثه عنه أبناؤه أو مواليه؛ ويستفحل لهم الملك بالتدرج. وربما يزدحمون على ذلك الملك ويتقارعون عليه، ويتنازعون في الاستئثار به؛ ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على صاحبه، وينتزع ما في يده)). المقدمة، ج: 2، ص: 872.

[2] البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

الخضـراء ضمـن مملكتـه؛ وقـد تصاعـد خلافهمـا حـتى وصـل إلى الاقتتـال في البحـر سنـة 457هـ(1064م).[1] وكـان يشـد أزره ابنـه يحـيى؛ الـذي يقـوم مقـام وزيـره، إذ هـو المتصـرف في شئـون الدولـة؛ خاصـة بعـد أن كبـر سقـوط، وبعـد أن أثقلتـه السنـون. وظهـر هـذا مـن خـلال معارضتـه لأبيـه؛ حيـن أراد مساعـدة المرابطيـن ضـد قبائـل غمـارة [وعنـد ابـن بسـام زناتـة]؛ فأقنعـه بالعـدول عـن ذلـك الأمـر.[2] المهـم أن

---

[1] قـال ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: ((كـان سبـب ذلـك باعتقـال عبـاد لرجـل مـن تجـار سبتـة؛ في شـيء حضـره بحضرتـه؛ فاعتـدى عليـه سقـوت؛ فاعتقـل لـه عـدة تجـار؛ فنشـأت لذلـك بينهمـا وحشـة سنـة سبـع وخمسيـن [وأربعمائـة]؛ فامتطيـا لهـا ظهـر اللجـج؛ عـلى مـا بينهمـا مـن التطـام اللجـج؛ فتهافتـا عـلى القطيعـة، واجتمعـا عـلى عقـد البحـر بينهمـا؛ فتلفـت فيـه رؤوس وأمـوال، وهلكـت مـن أجلهـا نفـوس رجـال؛ يطـول في صفتهـا المقـال؛ إلى أن أكمـل عبـاد مـن أسطـول أنشـأه نحـوا مـن ثمانيـن قطعـة؛ فأجراهـا إلى سبتـة؛ فخـرج عليهـا أسطـول لسقـوت؛ فكـان الظهـور لابـن عبـاد؛ ثـم افترقـت الأساطيـل؛ بعـد حـروب وسفـك دمـاء؛ وانقطـع بحـر الزقـاق بينهمـا مـدة استهمـا اجتـرار منافعـه فيهـا. ثـم يضيـف ابـن بسـام قائـلا: ثـم غلـظ أمـر سقـوت؛ حـتى أخـاف القريـب والنـازح، واقتـاد الحـرون والجامـح، وانبثـت سرايـاه في البحـر والبـر؛ فأدرك المطلوب والطالب، وتصيد الطافي والراسب)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 659 ـ 660.

[2] يقـول ابـن بسـام ((ودارت النوبـة عـلى سقـوت بـن محمـد؛ فتطـرف أميـر المسلميـن ـ رحمـه اللـه ـ بلـده للفـراغ ممـن شـذ عنـه مـن زناتـة؛ وقـد التفـوا بأحـد محـاش الفتنـة، ووألـوا إلى موضـع يعـرف بالدمنـة؛ فنـزل بساحتهـم أميـر المسلميـن؛ سنـة إحـدى وسبعيـن [وأربعمائـة]؛ عـلى مقربـة مـن بـلاد سقـوت؛ فهـم بالانحيـاش إليـه؛ فقـد كـان آل وآيـل عليـه؛ فنهـاه حزبـه الذميـم السـعي، وثنـاه ابنـه الفائـل الـرأي)). الذخيـرة، ق: 2، مج: 2، ص: 660. وقـال أحمـد الناصـري: ((إلى أن استقـل [سقـوط] بالأمـر، واقتعـد كـرسي عملهـم [عمـل الحمودييـن] بطنجـة وسبتـة؛ وأطاعتـه قبائـل غمـارة؛ واتصلـت أيـام ولايتـه إلى أن

جيش لمتونة ــ بعد انتهائه من موقعة الدمنة ــ تحول إلى قتال سقوط؛ وذلك لما شعروا منه من بوادر العصيان، نظرا لرفضه الانضمام إليهم. ولما علم سقوط بزحف المرابطين إليه خرج وهو يقسم: **((ألاّ يسمع قرع طبله في ملكه)).**[1] وكان سقوط هذا قد امتد حكمه حتى بلغ من العمر عتيا؛ إذ ناهز التسعين سنة كما يقال. وقدر له أن تكون نهايته في سنة 471هـ(1078م)؛ خلال المعركة التي تقابل فيها مع جيش المرابطين الزاحف إلى طنجة؛ بقيادة صالح بن عمران. حيث ختمت الواقعة بمقتل سقوط؛ ودخول المرابطين إلى طنجة.

كانت دولة المرابطين؛ وتغلب يوسف بن تاشفين على بلاد المغرب؛ ونازل بلاد غمارة؛ فدعا الحاجب سكوت إلى مظاهرته عليهم؛ فهم بالاجلاب معه، ومظاهرته على عدوه؛ ثم ثناه عن ذلك ابنه الفائل الرأي. فلما فرغ يوسف بن تاشفين من أهل الدمنة، وانقاد المغرب لطاعته صرف عزمه إلى الحاجب سكوت)).الاستقصاء، ج: 2، ص ص: 30 ــ 31.

[1] مفاخر البربر، ص: 55. وقال أحمد الناصري أيضا: ((فلما قربوا [المرابطون] من طنجة برز إليهم الحاجب سكوت بجموعه ــ وهو شيخ كبير قد ناهز التسعين سنة ــ وقال: "والله لا يسمع أهل سبتة طبول اللمتوني وأنا حي أبدا". فالتقى الجمعان بوادي منى من أحواز طنجة؛ والتحم القتال؛ فقتل سكوت، وفضت جموعه، وسار المرابطون إلى طنجة؛ فدخلوها واستولوا عليها. ولحق ضياء الدولة يحيى بن سكوت بسبتة؛ فاعتصم بها)). الاستقصاء، ج: 2، ص: 31.

ـ حكومة الحاجب ضياء الدولة يحيى بن سقوط:

لما سقطت طنجة ـ بعد مقتل سقوط ـ سارع ابنه يحيى إلى التحصن خلف أسوار سبتة؛ تلك المدينة المنيعة. وجدد فيها ملك أبيه؛ حيث لقب بالحاجب العز؛ كما تسمى أيضا بلقب مشرقي وهو ضياء الدولة. هذا وقد استمر هذا الأمير في حكم مدينة سبتة لبضع سنين؛ بعد أن استعصى أمره على المرابطين. ويظهر مما كتبه ابن بسام؛ أن ضياء الدولة العز بن سقوط هذا يكون قد أشعل محيطه بالفتن والحروب الخاطفة؛ خاصة في البحر؛ حيث قال: ((**لا سيما البحر ؛ فإنه أضرم لججه نارا، ولقي ريحه إعصارا؛ أخذ كل سفينة غصبا، وأضاف إلى كل رعب رعبا؛ فضجت منه الأرض والسماء، والتقت الشكوى عليه والدعاء**)).[1] ولما صعب أمر العز؛ وتعذر اقتحام سبتة من البر؛ طلب ابن تاشفين من ابن عباد مده بسفينة في غاية الإتقان؛ جاءت إلى طنجة للميرة؛ لكي يستعملها في حصار سبتة من البحر؛ فاستجاب له ابن عباد ووضعها تحت تصرفه؛ وبذلك تقدم أسطول المرابطين في البحر محاصرا سبتة؛ بينما شدد الخناق عليها ـ أيضا ـ من البر.[2] ومع هذا كاد المرابطون أن يخسروا المعركة

---

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 662. ومفاخر البربر، ص ص: 55 ـ 56.

[2] قال ابن بسام في فتح سبتة: ((فلما كان يوم الخميس من صفر سنة ست وسبعين [وأربعمائة] قدّم أمير المسلمين لقتال سبتة أسطولا فخما؛ رجم

في بداية الأمر؛ وذلك عندما استولى العز بن سقوط على أهم سفينة لديهم؛ فبعث هذا فيهم هلعا واستياء؛ ومع ذلك استطاعوا ضبط الأمور، واستعانوا بالصبر على المصاب؛ ثم عاودوا الكرة ـ مرة أخرى ـ بعزيمة أشد وأقوى؛ فانهار لها دفاع جيش يحيى بن سقوط؛ فانهزم جله؛ لما تأكد يحيى بن سقوط من فشل دفاعه؛ حاول الهروب عبر البحر؛ ولكنه استدرك وتراجع عن اختيار الهروب؛ فقبض عليه بعد مقاومة دامت

به مردة عفاريتها رجما؛ ولقيه العز بن سقوت ببقية جمة من أسطول؛ طالما أوسع البلاد شرا، وملأ قلوب أهلها ذعرا. فكان ـ لأول ذلك اليوم ـ ظهور على أسطول المرابطين؛ حتى أخذ منه قطعة جليلة المقدار؛ ظاهرة الحماة والأنصار؛ فكان من إذلال الله للعز بن سقوت ـ يومئذ ـ أن بخل على آخذيها؛ وتكلم كلام أنكر عليه فيه. وارتاعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة؛ حتى هموا بالإحجام؛ وقوضوا بعض الخيام. وغضب أمير المسلمين وناصر الدين ـ رحمه الله ـ إحدى غضباته؛ فكانت إياها؛ وفغرت المنايا على سبتة فاها؛ وتقدمت تلك السفينة حتى أطلت على أسوارها، ورفعت صوتها ببوارها؛ وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها؛ ليلة الجمعة من صفر المؤرخ. ولجأ العز بن سقوت في نُفَيْرٍ من أصحابه إلى البحر؛ فهم بركوبه؛ فأعوزه الفرار؛ ودفع في صدره المقدار؛ وكر راجعا؛ فدخل دارا تعرف بدار تنوير؛ وبدر به جماعة من المرابطين؛ فاقتحموا عليه بعد مرام بعيد، وقتال شديد؛ حتى ضاق اضطرابه، وفر عنه أصحابه. ولما أحس بالشر دفع ذخائر كانت عنده إلى أحد من وفى له من رؤوس حماته. فبلغني أنه عثر عليها؛ وَوُجِدَ فيها جوهرٌ كثيرٌ، ونشب من نشب الملوك خطير؛ وَوُجِدَ في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود. وخرج العز بن سقوت حين وضح الفجر؛ فلقيه المعز بن أمير المسلمين ـ رحمهما الله ـ فجلله الحسام، وحكم فيه الحمام)). الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 663 ـ 664.

ليلة بكاملها. ويقول صاحب مفاخر البربر: أنه لما مثل أمام المعز بن يوسف بن تاشفين ((**فطلب منه المال؛ فقال له: "ألخازن أبيك كنت نجمع المال؟" فحلله الحسام، وحكم فيه الحمام**)).[1] وانتهى بذلك أمر ضياء الدولة العز بن سقوط؛ إذ قتل في ربيع الآخر من سنة 477هـ(1084م). وبذلك انتهت دولة سقوط البرغواطي نهائيا.

****

[1] مفاخر البربر، ص ص: 56 ـ 57.

ـ الحضـــارة والحركـــة الثقافيـــة:

يبــدو أن سبتـــة في عهــد سقــوط البرغــواطي لــم تكــن في مستــوى يؤهلهــا للقيــام بــدور ثقــافي معيــن بيــن سكانهــا. وعــلى الرغــم مــن أنهــا كانــت كرسيــا لحكــم بعــض الأدارســة مــن الحموديــين؛ إلا أنهــا لــم تظهــر أي دور ثقــافي وعلــمي يستحــق التنويــه. وإن كــان البكــري ــ الــذي عاصــر سقوطــا ــ يقــول عــن سبتـــة: ((**ولــم تــزل دار علــم**)).[1] ومــع هــذا فــلا بــد أن يكــون للأندلــس بعــض الأثــر في الحركــة الثقافيــة بتلــك المدينـــة، خاصـــة في بعــض المنجــزات الحضاريـــة والعمرانيـــة كالمساجـد والحمامــات. غيــر أنــه سجــل في الزمــن الــذي تــلا عصــر سقــوط هــذا؛ ازدهــار علــمي ملحــوظ في سبتـــة؛ تلــك المدينـــة الــتي أضحــت مركــز علــم وثقــافــة مرمــوق في المغــرب والأندلــس.[2] أمــا عصــر سقــوط فيمكــن أن يعبــر عنــه خطابــه لابــن جهــور أميــر قرطبــة؛ الــذي يقــال أنــه طلــب فيــه منــه أن يرســل إليــه قارئــا للقــرآن. وربمــا دل هــذا عــلى نــدرة القــراء في سبتـــة في تلــك الأثنــاء.[3] كمــا أن

---

[1] المغــرب، ص: 103.

[2] للتوســع في هــذا الأمــر يمكــن الرجــوع إلى كتــاب المقــري أزهــار الريــاض في أخبــار عيــاض؛ ففيــه مــا يفيــد.

[3] أورد ابــن عــذاري خبــرا قــال فيــه: ((وذكــر عــن أبي الوليــد بــن جهــور صاحــب قرطبــة أنــه قــال: "وردت عــلي مــن الكتــب في يــوم واحــد كتــاب مــن ابــن صمــادح صاحــب المريــة يطلــب جاريــة عــوادة، وكتــاب مــن ابــن عبــاد يطلــب جاريــة زامــرة، وكتــاب مــن سواجــات [سقــوط] صاحــب سبتـــة يطلــب قارئــا يقــرأ القــرآن". فوجــه مــن طلبــة قرطبــة رجــلا يعــرف بعــون اللــه بــن نــوح. وعجــب أبــو الوليــد

الإشارة الساخرة التي أطلقها أبو الوليد الشقندي في رسالته التي يفاخر فيها ببلاد الأندلس والأندلسيين؛ تبرز صورة سقوط التي كانت في ذهن المثقفين آنئذ؛ وذلك حين قال لأبي يحيى بن المعلم الطنجي: ((**وبالله إلا سميت لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية** [يقصد دعوة الموحدين] **أبسقوط الحاجب؟ أم بصالح البرغواطي؟**)).[1] ومع هذا لا سبيل إلى نكران أن بلاط ضياء الدولة يحيى ابن سقوط بسبتة احتضن ـ يوما ما ـ شاعرا مثل علي بن عبد الغني الحصري الضرير؛[2] صاحب القصيدة الذائعة الصيت التي يقول فيها:

يَا لَيْلَ الصَّبِّ مَتَى غَدُهُ   أَقِيَامُ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُ
رَقَدَ السُّمَّارُ فَأَرَّقَهُ   أَسَفٌ لِلبَيْنِ يُرَدِّدُهُ

وقد اتصل هذا الشاعر الفحل ـ أثناء مقامه بسبتة وطنجة ـ بضياء الدولة يحيى بن سقوط

من ذلك وقال: "جاهل يطلب قارئا، وعلماء يطلبون الأباطيل")). البيان المغرب، ج: 3، ص: 250.

[1] نفح الطيب، ج: 3، ص: 191.

[2] ذكره ابن بشكوال فقال: ((ذكره الحميدي وقال:" شاعر أديب رخّم الشعر؛ دخل الأندلس ولقي ملوكها؛ وشعره كثير، وأدبه موفور. وكان عالما بالقراءات وطرقها؛ وأقرأ الناس بالقرآن بسبتة وغيرها. أخبرنا عنه أبو القاسم بن صواب بقصيدته التي نظمها في قراء نافع؛ وهي مائتا بيت وتسعة أبيات. قال لقيته بمرسية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة. وتوفي بطنجة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة)). كتاب الصلة، ج: 2، ص ص: 432 ـ 433.

البرغواطي؛ حيث كانت له حظوة عنده؛ وهذا ما سجله ابن بسام حين قال: ((**وأفضت الدولة البرغواطية إلى الحاجب المعز ابنه** [أي ابن سقوط] **شهاب أفلاكها، وخيرة أملاكها. هبَّ الأدب ريحا، ونفخت دولته في أهله روحا. أعرض به الشعراء وأطالوا، ووجدوا به السبيل إلى المقال فقالوا. وممن خيم في ذراه، ونال من الحظ الجسيم من دنياه؛ الحصري الضرير؛ فإن له فيه ما اذهل الناظر عن الرقاد، وأغنى المسافر عن الزاد؛ والحاجب يكحل عينيه بزينة دنياه، ويفتق لهاته بمواهبه ولهاه. وكان** [يحيى] **سهل الجانب للقصاد، طلق اليد بالمواهب الأفراد**)).[1] لذا فلا يستبعد أن يكون بلاط سقوط ــ وخاصة ابنه ضياء الدولة ــ قد عرف حركة ثقافية ــ ولو متواضعة ــ إذ يكونان قد أرادا بذلك تقليد ملوك الأندلس والمغرب.

****

---

[1] الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص ص: 661 ــ 662. أنظر أيضا مفاخر البربر، ص: 55.

2)ـ دولة بني مدرار:

تنسب هذه الدولة ـ أيضا ـ إلى مدينة سجلماسة ذات الموقع القريب من مدينة تافيلالت الحالية. ويبدو أن هذه الدولة نشأت قبل تشييد مدينة سجلماسة[1] المنسوبة إليها أصلا؛ إذ كانت عبارة عن إمارة قبلية؛ ذات طابع بدوي. وقد سميت ـ أيضا ـ بدولة بني واسول؛ وهو أحد أجداد بني مدرار. هذا وقد تباينت الأخبار ـ بعض الشيء ـ حول بدء قيامها؛ غير أن المهم ـ هنا ـ هو أن هذه الدولة تأسست في عام 140هـ(757م)؛[2] بعد أن تجمعت فئات من قبيلة

---

[1] أنظر رأي ابن خلدون في الكيفية التي يحدث بها ذلك النشوء؛ ضمن "فصل في أن الدول أقدم من المدن والأمصار؛ وأنها إنما توجد ثانية عن الملك" إذ يقول: ((وبيانه أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف، والدعة كما قدمناه؛ وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها. وأيضا فالمدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة، وبناء كبير؛ وهي موضوعة للعموم، لا للخصوص؛ فتحتاج إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون؛ وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى؛ حتى يكون نزوعهم إليها اضطرارا؛ بل لا بد من إكراههم على ذلك، وسوقهم إليه مضطرين بعصا الملك؛ أو مرغبين في الثواب والأجر؛ الذي لا يفي بكثرته إلا الملك والدولة. فلا بد في تمصير الأمصار، واختطاط المدن من الدولة والملك)). المقدمة، ج: 3، ص ص: **965 ـ 966**.

[2] أما البكري فقال أنهم شرعوا في بناء سجلماسة في عام **104**هـ؛ وهذا لا يتطابق مع ما أجمعت عليه بقية المصادر. لذا فالراجح أن يكون ما ورد في المغرب تحريفا في النسخ. المغرب، ص: **149**.

مكناسة البترية؛[1] في تلك الربوع؛ التي هي ــ في حقيقة الأمر ــ تدخل ضمن مواطن مكناسة. وذلك بعد أن التأم شعثهم في ذلك الخلاء؛ أين كانوا يرعون الأغنام وينشغلون بتتبع الكلأ خلف حيواناتهم. وعليه فقد كانت معيشتهم معيشة بداوة وانتجاع. وكانت تلك الفئات المكناسية المجتمعة صفرية المذهب. والظاهر أنهم كانوا من فلول وبقايا الصفرية؛ الثائرين مع ميسرة المطغري، وخالد بن حميد الزناتي؛ فلما عادوا إلى موطنهم؛ سعوا إلى تأسيس دولة تجمع شتاتهم، وتحافظ على مذهبهم. وعند تحقيق ذلك شرعوا في بناء مدينة سجلماسة؛ بعد أن نصبوا عليهم إماما؛ وهو المدعو عيسى بن يزيد بن سعد؛ المعروف بالأسود.[2] ولكنهم سرعان ما تنكروا له، وقتلوه شرّ قتلة.[3]

---

[1] ذكر البكري أنه لما وصل عددهم أربعين رجلا؛ قدموا على أنفسهم إماما؛ وهو عيسى بن مزيد (يزيد) الأسود. غير أن ابن الخطيب قدر عددهم بأربعة آلاف.

[2] نسبه ابن الخطيب إلى مكناسة؛ في خبر مضطرب؛ لا يتفق مع ما ورد في جل المصادر. (أنظر، أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 140). بينما يتجاهل ابن خلدون والبكري ذكر انتسابه لمكناسة بشكل صريح. قال ابن خلدون: ((فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم؛ نقضوا طاعة الخلفاء؛ وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوس الخوارج)). العبر، مج: 6، ص: 267.

[3] وصف ابن الخطيب كيفية مقتله بقوله: ((ثم إن الصفرية غدروه سنة 167هـ؛ فقبضوا عليه، وشدوه وثاقا إلى أصل شجرة في أصل الجبل؛ بعد أن

وهكـذا نـرى كيـف يتكـرر بطـش الصفريـة بأمرائهـم؛ فبعـد قتـل أميـر الصفريـة الأول (ميسـرة)؛ بتدبيـر مـن أصحابـه؛ يقتـل أميـر ثـان ــ مـرة أخـرى ــ بواسطـة أتباعـه مـن الصفريـة بسلجماسـة.[1]

ــ حكومـة أبي القاسم سمغـون بن واسـول المكنـاسي:

وبعـد أن قتـل الصفريـة إمامهـم عيـسى بـن يزيـد؛ ولـوا عليهـم بـدلا منـه أبـا القاسـم سمغـون بـن واسـول بـن يـزلان بـن يـزول المكنـاسي.[2] ويقـول ابـن خلـدون أن أبـا القاسـم سمغـون[3] هـذا هـو الـذي حمـل

طلـوه بالعسـل، وتركـوه حـتى قتلتـه الزنابيـر والنحـل؛ فسـمي ذلـك الجبـل جبـل عيـسى؛ وولـوا بعـده أبا الخطاب الصفري)). أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 140.

[1] للتوسـع في موضـوع دولـة مكناسـة بسجلماسـة يستحسـن الرجـوع إلى: كتـاب المغـرب، ص ص: 148 ـــ 152. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 156 ـــ 157. والعبـر، مج: 6، ص ص: 267 ـــ 273. وأعمال الأعـلام، ق: 3، ص ص: 139 ــ 149.

[2] وذكـر ابـن الخطيـب أن أبـا القاسـم هـذا هـو الملقـب بالمـدرار. دخـل جـده الأندلـس مـع طـارق ابـن زيـاد. كمـا قـال أنـه كـان حـدادا مـن أهـل الربـض بقرطبـة؛ فلجـأ إلى سجلماسـة؛ حيـث تقـرب مـن أبي الخطـاب الصفـري رئيـس الصفريـة فيهـا بسـلاح صنعـه بنفسـه؛ فاستحسنـه أبـو الخطـاب وقربـه وقدمـه عـلى غيـره. ولمـا تـوفي أبـو الخطـاب سنـة 191هـ ولي مكانـه.

[3] عـرف ابـن خلـدون بـأبي القاسـم هـذا بقولـه: ((واجتمعـوا بعـده [أي بعـد عيـسى ابـن يزيـد الأسـود] عـلى كبيرهـم أبي القاسـم سمغـون بـن مصـلات بـن أبي يـزول؛ كـان أبـوه سمغـون مـن حملـة العلـم؛ ارتحـل إلى المدينـة؛ فـأدرك التابعيـن؛ وأخـذ عـن عكرمـة مـولى بـن عبـاس؛ ذكـره عريـب بـن حميـد في تاريخـه. وكـان صاحـب ماشيـة؛ وهـو [أبـو القاسـم] الـذي بايـع لعيـسى بـن يزيـد؛ وحمـل قومـه عـلى طاعتـه؛ فبايعـوه مـن بعـده)). العبـر، مج: 6، ص ص: 267 ــ 268. أمـا البكـري فيـرى أن أبـا القاسـم هـو الـذي لـقي عكرمـة بإفريقيـة وسمـع منـه. المغـرب، ص: 149.

قومه على تنصيب عيسى بن يزيد إماما. ولما ثاروا عليه وقتلوه عادوا إليه؛ فبايعوه بالإمامة.[1] أما ابن الخطيب فيرى أنهم بايعوا ـ بعد عيسى ابن يزيد ـ شخصا غامضا يسمى أبا الخطاب الصفري؛ إذ حكمهم مدة أربع وعشرين سنة؛ ومات سنة 191هـ(806م).[2] وهذا الأخير أشار إليه البكري باقتضاب؛ إذ قال أنه هو الذي حرض الصفرية على قتل عيسى؛ ولكنه لم يقل ببيعته وإمامته.[3] والغريب أن آلفرد بل يقول جازما بأنه عبد الأعلى بن السمح المعافري؛ الأمير الإباضي الذي تغلب على طرابلس والقيروان فيما بعد. غير أن آلفرد بل لم يذكر كيف استنتج هذا ؟ ولا ذكر المصدر الذي استند إليه.[4]

---

[1] قد يكون للعصبية دور في ذلك؛ خاصة إذا ما كان الوازع الديني ضعيف؛ ولا يرقى إلى ما كانت عليه العصبية من شدة وتأثير على الناس. وجاء في قول ابن خلدون أن عيسى هذا كان من موالي العرب؛ وهذا يبعث على الاعتقاد أن وجوده بين المكناسيين فرضته ظروف الصفرية؛ بعد هروبهم في أقصى البلاد.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: **140**.

[3] يفهم من قول البكري أنهم تسرعوا في الحكم على عيسى؛ بانفعال عجيب؛ إذ يقول: ((فأول من وليها عيسى بن مزيد (يزيد) ثم أنكر أصحابه الصفرية عليه أشياء. فقال أبو الخطاب يوما لأصحابه في مجلس عيسى: "السودان كلهم سراق حتى هذا؛ وأشار إلى عيسى؛ فأخذوه، وشدوه وثاقا إلى شجرة في رأس جبل، وتركوه كذلك حتى قتله البعوض؛ فسمي الجبل جبل عيسى إلى اليوم. ووليهم خمسة عشر عاما؛ ثم ولوا أبا القاسم سمغوا)). المغرب، ص: **149**.

[4] الفرق الإسلامية، ص: **170**.

المهم أن سمغون عندما تربع على سرير الحكم أعلن بالدعوة للمنصور والمهدي العباسيَّيْن؛ مع أنه صفري المذهب. وقد بقي أبو القاسم في الحكم حتى توفي أثناء صلاة العشاء، وفي آخر ركعة منها؛ وذلك سنة 168هـ(784م). أما ابن الخطيب فيقول بأنه توفي في آخر ذي القعدة سنة 199هـ(814م). كما قال أنه هو الذي أمر ببناء السور الذي يحيط بمزارع النخيل.

ـ حكومة أبي المنتصر اليسع بن سمغون المكناسي:

ولما توفي أبو القاسم سمغون خلفه ولده أبو الوزير إلياس؛ ولكن حكمه لم يدم طويلا؛ إذ قام عليه أخوه أبو المنتصر اليسع؛ فخلعه وانتصب في مكانه سنة 174هـ(790م) في رواية، أو سنة 200هـ(815م) في رواية أخرى. وكان حكم أبي المنتصر اليسع متميزا عما سبقه؛ ذلك أن هذا الأمير اتصف بشدة الوطأة، وبميل إلى العناد، وحدة الطبع، والحرص على ملكه؛ وكان شغوفا بالضبط والقهر، جبارا في سلوكه. فتمكن بحزمه وعزمه من فرض الخمس على معادن درعة، وفتك بمن حوله من القبائل الأمازيغية.

ومن أهم إنجازاته العمرانية بناء سور سجلماسة؛ الذي كان والده قد بدأه؛ ولكنه حرص أن يدخل عليه تحسينات جديدة؛ إذ أمر العاملين بأن يبنوا أساس السور بالحجارة، ثم يكملوا الجزء العلوي بطوب اللبن. وبعدها قسم مدينة سجلماسة أحياء بين القبائل المتواجدة بها.[1]

ـ حكومة مدرار بن اليسع المنتصر المكناسي:

وعندما توفي اليسع سنة 208هـ(823م)؛ خلفه ابنه المنتصر الملقب بمدرار. وقد حاز من الشهرة والصيت؛ إلى الحد الذي أصبحت هذه الدولة الصفرية تنسب إليه أصلا. كما يبدو أن تحولا مذهبيا حدث في عهد هذا الأمير المكناسي؛ حيث أضحى مذهبها الصفري يميل أكثر فأكثر إلى الاعتدال؛ وبالتحديد يميل إلى المذهب الإباضي. ويبدو أن ذلك قد تعزز أيضا بعد أن تزوج مدرار بأروى بنت عبد الرحمن بن رستم. وفي حياة هذا الأمير حدث خلاف ونزاع بين ولديه اللذين يسمى

---

[1] وعن هذا الأمير يقول ابن خلدون: ((فلم يزل أميرا عليهم. وبنى سور سجلماسة لأربع وثلاثين سنة من ولايته. وكان إباضيا صفريا. وعلى عهده استفحل ملكهم بسجلماسة. وهو الذي أتم بناءها وتشييدها؛ واختط بها المصانع والقصور؛ وانتقل إليها آخر المائة الثانية؛ ودوخ بلاد الصحراء، وأخذ الخمس من معادن درعة؛ وأصهر لعبد الرحمن بن رستم صاحب تاهرت بابنه مدرار في ابنته أروى فأنكحه إياها)). العبر، مج: 6، ص: 268.

كل واحد منهما باسم ميمون. لذا فلا يمكن التميز بينهما إلا بإضافة نسبهما إلى الأم. فأحدهما هو ميمون بن تقية المعروف بالأمير؛ والآخر هو ميمون بن أروى الرستمية؛ ويرى ابن خلدون أن هذا الأخير يسمى أيضا عبد الرحمن. ودامت الفتنة بينهما على الحكم وولاية العهد مدة ثلاث سنين؛ وكان مدرار يميل إلى ابن أروى؛ الذي تمكن من إخراج أخيه ونفيه إلى درعة. ولكنه لم يحسن رد الجميل؛ فاختار سبيل العقوق ونكران الجميل؛ إذ عمل على عزل أبيه؛ طمعا في تولي سدة الحكم بدلا منه. ولكن الرعية ثارت عليه وخلعته؛ ثم استقدموا ابن تقية؛ المدعو (الأمير) من درعة لاستلام الحكم؛ ولكنه رفض القيام بذلك في حياة أبيه؛ لذا فقد اضطروا إلى إرجاع مدرار من جديد. والغريب أن مدرارا أراد – للمرة الثانية – إعادة ولده ابن أروى من منفاه بدرعة؛ فكررت الرعية ثورتها؛ وقاموا بخلعه مرة أخرى؛ ونصبوا ولده ميمون بن تقية؛ الذي اقتنع هذه المرة بوجوب ذلك المسلك؛ لقطع الطريق أمام أطماع أخيه.

هذا ولا يعرف ـ بالضبط ـ سبب ذلك الخلاف بين الأخوين. كما لا يعرف إن كان ميل الرعية إلى ابن تقية مبعثه إلى صلاحه وتقواه، أم إلى سبب آخر؛ ربما تعلق بالعصبية القبلية التي ترى في أروى بنت عبد الرحمن بن رستم أنها من أسرة ليست مكناسية منهم. هذا ولم يطل الزمن بمدرار بعد تلك الأحداث حتى مات سنة 253هـ(866م)؛ وقد دام ملكه كله زهاء خمس وأربعين سنة. أما ولده ميمون بن تقية فقد بقي في الحكم حتى توفي سنة 263هـ(876م).

ـ حكومة محمد بن ميمون المكناسي:

وبموت ميمون بن تقية تولى الحكم من بعده ولده محمد الذي ـ كما قال ابن خلدون ـ كان متمذهبا بالإباضية. وهنا تبرز إشارة لما يمكن أنه حدث من تحول مذهبي في عهد الأمير مدرار. ويقول ابن الخطيب أن محمدا هذا غزا أرض القبلة ـ أي الجنوب ـ حيث تغلب على "**تافلبالت**" [ربما كانت تابلبالت الحالية القريبة من بشار]. هذا وقد توفي محمد بن ميمون في سنة 270هـ(883م). ومع ذلك فقد كانت أخبار عهد محمد هذا شحيحة، وغير كافية لتحديد صورة واضحة لها.

ـ حكومة اليسع بن مدرار المنتصر المكناسي:

وبعد محمد تولى مهام الحكم عمه اليسع بن مدرار المنتصر. وفي عهده ظهر عبيد الله الشيعي؛ حيث لجأ ـ مع ابنه أبي القاسم ـ إلى سجلماسة. ولما تدخل الخليفة العباسي المعتضد لدى اليسع ـ الذي كان معلنا بطاعة العباسيين مثل آبائه ـ فقد لبى طلب المعتضد وقبض عليهما وحبسهما. وكان هذا التصرف هو الحافز المباشر للداعية الفاطمي أبي عبد الله الشيعي لكي يقوم بغزو سجلماسة، قصد إنقاذ سيده من محبسه؛ فتم له ذلك؛ بعد أن أطاح بحكم اليسع وقتله؛ وذلك في سنة 296هـ(908م). وقد دام حكم اليسع زهاء سبع وعشرين سنة. وعلى الرغم من طول مدة حكم اليسع؛ فإن عهده ـ بدوره ـ يكتنفه غموض كثيف.

ـ حكومة واسول الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار المكناسي:

وقبل أن يخرج عبيد الله المهدي من سجلماسة نصب عليها واليا من قبله؛ وهو إبراهيم ابن غالب المزاتي؛ فظل مدة خمسين يوما ثم ثار عليه سكان سجلماسة سنة 298هـ(910م)؛ وقتلوه هو ومن معه من قبيلة كتامة. وبعدها نصبوا الفتح بن ميمون الأمير بن مدرار؛ وميمون هذا كما يعتقد ابن خلدون: ليس هو ابن تقية المشار إليه سابقا. وكان يلقب بواسول؛

وسماه آخرون باسم رسول؛ إن لم يكن ذلك تحريفا. ويقول ابن خلدون أنه كان إباضيا. وبقي في سدة الحكم حتى وفاته سنة 300هـ(912م).

ـ حكومة أبي العباس أحمد بن ميمون بن مدرار المكناسي:

بعد وفاة واسول تولى الأمر أخوه أبو العباس أحمد. وفي عهد هذا الأمير تغلب على سجلماسة القائد الفاطمي مصالة بن حبوس المكناسي؛ القادم إليها في جيش من كتامة ومكناسة معا. فاحتل المدينة، وقتل أميرها أحمد سنة 309هـ(921م). وهذه الحادثة تكشف ما أصاب عصبية مكناسة من خلل؛ إذ يتقاتل أبناء القبيلة الواحدة؛ لمصلحة جهة غريبة عنهم. وبالطبع لا يكون ذلك إلا في حال تغلب قوة معنوية أخرى على قوة العصبية المهزومة. ولم يتحقق ذلك سوى بالمذهب الفاطمي ذي التأثير الخطير؛ إلى جانب العصبية الكتامية المتغلبة على العصبيات الأخرى. ولم يجد المذهب الخارجي الصفري أو الإباضي نفعا لمكناسة؛ إذ لابد من العصبية القوية معه؛ لتحقيق شرط القوة والغلبة.

وذلك ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] حيث احتج بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم القائل: ((**ما بعث الله نبيا إلا في منعة من** قومه)). ثم يضيف: ((**وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد؛ فما ظنك بغيرهم ألا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية**)).[2] ثم أشار إلى بعض الشواهد والأمثلة في البلاد الإسلامية؛ التي فشل فيها الدعاة ورجال الدين في تحقيق أغراضهم؛ بسبب افتقارهم للعصبية النافذة المساندة لهم.

ــ عهد التبعية للفاطميين:

وعلى الرغم مما حدث؛ عندما تغلب الفاطميون على سجلماسة؛ بواسطة جيشهم الذي يقوده مصالة بن حبوس المكناسي؛ فقد بقيت بذور من العصبية دفينة في صدر ذلك القائد الفاطمي من حيث المعتقد، والمكناسي من حيث العصبية والانتماء؛ وذلك أنه ــ قبل عودته إلى إفريقية ــ أسند شئون الحكم إلى رجل آخر من العائلة المالكة المكناسية نفسها؛ إذ نصب على سجلماسة المعتز بن محمد بن بسَّاور أو (ساور) بن مدرار. وقد علل ابن الخطيب ذلك التصرف بقوله: ((**واقتضت سياسة مصالة أن يولي على سجلماسة**

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ـــ 642.

[2] نفسه، ص: 638.

رجلا من بني مدرار ليأمن شغبهم؛ فولى عليها المعتز بن محمد)).[1] وحتى إن كان هذا التعليل صحيحا؛ فلا يمنع أن اختيار مكناسيا؛ من البيت المالك في سجلماسة يكون قد أراحه نفسيا. هذا وقد بقي المعتز في الحكم إلى أن توفي في عام 321هـ(933م). ثم تلاه بعد مماته ولده محمد بن المعتز الذي توفي بدوره في سنة 331هـ(942م). ثم خلفه ولده الصبي المنتصر سمغون؛ فتولت جدته تدبير شئونه؛ ولكن ابن عمه محمد بن الفتح الملقب بالشاكر ثار ضده، وأخرجه من سجلماسة سنة 332هـ(943م).

ـ حكومة الشاكر محمد بن الفتح المكناسي:

انتقل محمد الشاكر ـ هذا ـ نقلة مخالفة تماما لما كان عليه أسلافه؛ إذ دعا إلى نفسه في المنابر؛ ثم تسمى بالشاكر، وتلقب بأمير المؤمنين؛ ثم سك سكة عرفت بالدراهم الشاكرية. ومع هذا فقد أبقى على الدعوة لبني العباس بغرض التمويه؛ كما يعتقد ابن خلدون؛ وأهم نقلة انتقلها هي تخليه عن المذهب الخارجي؛ حيث أخذ بالمذهب المالكي السني.[2] وتجمع المصادر أنه عرف بالعدل والصلاح؛ وذكر ابن حزم أنه:

---

[1] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 146.

[2] المغرب، ص: 151. والعبر، مج: 6، ص: 270. أنظر كتاب نقط العروس في تواريخ الخلفاء لابن حزم، ((رسائل ابن حزم الأندلسي) ج: 2، ص: 85.

((كـان غايـة في إظهـار العـدل، وتسـمى الشاكـر لله، وإليـه تنسـب المثاقيـل الشاكريـة)).[1] ويعتبـر موقـف الشاكـر هـذا كافيـا لاستثـارة الفاطمييـن؛ الذيـن شغلتهـم ــ في البدايـة ــ فتـن بـني أبي العافيـة، وأبي يزيـد مخلـد ابـن كيـداد. ولمـا استتـب الأمـر للدولـة أرسـل المعـز لديـن اللـه الفاطـمي جيشـا مـن كتامـة وصنهاجـة إلى سجلماسـة؛ ووضـع عـلى رأس ذلـك الجيـش جوهـر الكاتـب (الصقـلي)؛ فتغلـب عليهـا. وقـد تمكـن الشاكـر ــ في بدايـة الأمـر ــ مـن الإفـلات واللجـوء إلى حصـن قريـب مـن سجلماسـة يسـمى تاسكـرات؛ ولكـن سـوء حظـه أوقعـه في قبضـة الفاطمييـن؛ عندمـا دخـل سجلماسـة متنكـرا؛ فعرفـه رجـل مـن قبيلـة مطغـرة؛ فأخبـر الفاطمييـن عنـه؛ الأمـر الـذي سهـل القبـض عليـه؛ حيـث نقلـه جوهـر معـه إلى القيـروان في سنـة 347هـ(958م). أيـن حبـس في رقـادة حـتى مـات في سجنـه سنـة 354هـ(965م). أمـا سجلماسـة فقـد أسنـد جوهـر الكاتـب ولايتهـا إلى مبـادر بـن زيـري.

---

[1] رسالـة نقـط العـروس في تواريـخ الخلفاء، ((رسائل ابن حزم الأندلسي))، ج:2، ص:85.

ـ حكومة ولدي الشاكر: المنتصر والمعتز:

ولما ضعف حال الفاطميين بالمغرب الأوسط، ومالت الكفة إلى فائدة بني أمية؛ ثار في سجلماسة أحد أبناء الشاكر؛ وتلقب بالمنتصر بالله؛ ولكن أخاه أبا محمد لم يمهله طويلا؛ إذ انتفض عليه وقتله سنة 352هـ(963م)؛ ثم استولى على الحكم وتلقب بالمعتز بالله.[1] وبقي في الحكم مدة من الزمن؛ حتى زحف إليه أمير مغراوة الزناتية خزرون بن فلفول سنة 366هـ(976م)؛ تبعا لتطور الأوضاع التي استفحل فيها أمر زناتة في المغربين الأوسط والأقصى؛ بحكم ما أصبحت عليه هذه القبيلة من قوة ونفوذ؛ بعد حلفها مع الدولة الأموية بالأندلس. وانتهت المعركة التي دارت أمام سجلماسة بين صاحبها المعتز وخزرون المغراوي بمقتل الأول واحتلال البلدة من طرف المغراويين؛ وبذلك سقطت دولة بني مدرار نهائيا؛ وغدت

---

[1] يختتم ابن خلدون حديثه عن دولة مكناسة بسجلماسة فيقول: ((وأقام على ذلك مدة [يقصد بقوله هذا أبا محمد المعتز آخر أمرائهم] وأمر مكناسة يومئذ قد تداعى إلى الانحلال؛ وأمر زناتة قد استفحل بالمغرب عليهم؛ إلى أن زحف خزرون بن فلفول؛ من ملوك مغراوة إلى سجلماسة سنة 366 هـ؛ وبرز إليه أبو محمد المعتز؛ فهزمه خزرون، وقتله، واستولى على بلده وذخيرته؛ وبعث برأسه إلى قرطبة مع كتاب الفتح... وعقد لخزرون على سجلماسة؛ فأقام دعوة هشام بأنحائها؛ فكانت أول دعوة أقيمت لهم بالأمصار في المغرب الأقصى. وانقرض أمر بني مدرار ومكناسة من المغرب أجمع؛ وأديل منهم بمغراوة وبني يفرن)). العبر، مج: 6، ص ص: 271 ــ 272.

سجلماسة تحت حكم المغراويين؛ الداعين إلى بني أمية.

وجملة القول؛ فالشيخوخة بدأت تغزو دولة سجلماسة؛ نتيجة لما ظهر عليها من وهن؛ بعد فساد عصبية مكناسة في تلك الديار؛ حيث أخذت الخلافات تدب بين أفراد البيت المالك؛ طمعا في السلطة وتطلعا إلى مجدها. وكان لهذا السلوك مفعوله الخطير؛ الذي أضعف الدولة، وجعلها عرضة للاعتداءات؛ فسقطت أولا لقمة سائغة بين أنياب قبائل: كتامة؛ بقيادة أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م)؛ فكانت تلك الغزوة صدمة شديدة أثرت على قوة الدولة المكناسية الصفرية. ثم جاءت الضربة الثانية من قبل أبناء العم؛ أي من قوم ينتمون إلى مكناسة نفسها؛ ولكنهم في خدمة الشيعة الكتاميين؛ فزحفوا معهم إلى مركز عصبيتهم بسجلماسة؛ وكانوا جميعا تحت قيادة مصالة بن حبوس المكناسي؛ وذلك سنة 309هـ(921م). وهنا ظهر التفكك الذي حل بعصبية مكناسة؛ إذ أضحت بعض فئاتهم تحارب إلى جانب كتامة؛ ضد أهل عصبيتها؛ أصحاب سجلماسة.

ومع هذا فثمة بعض الإيجابيات لهذه الدولة الصفرية؛ التي لا بد من ذكرها؛ من ذلك أنها استطاعت ـ قبل هرمها ـ تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي؛ بحكم تواجدها في الطريق التجاري الرابط بين غانة وشمال المغرب؛ نظرا لتوغلها جنوبا في الصحراء. وعلى الرغم من كونها صفرية المذهب، خارجية النزعة؛ فإنها ـ كسابقتها دولة برغواطة ـ كانت دولة تتبع في نظامها السياسي؛ نظاما ملكيا وراثيا. وهذا يخالف المعتقد الصفري الخارجي. أضف إلى ذلك؛ سلوك أمراء الدولة؛ الذين كانوا يخطبون على منابرهم لبني العباس، ويجاهرون بدعوتهم تلك. وهذا الأمر مخالف ـ أيضا ـ لمبادئ الصفرية، والخوارج بصفة عامة.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

وعلى الرغم من الازدهار الاقتصادي الذي تميزت به هذه الدولة؛ فإنها لم تتمكن من تطوير نظمها؛ إذ عجزت عن التخلص من هيمنة النظام القبلي المتشبع بروح البداوة الساذجة. ويبدو أن العصبية المكناسية لعبت ـ بعنفوانها ـ دورا هاما؛ في نشأة هذه الإمارة، كما حافظت على استمرار بقائها مدة من الزمن. وما المذهب الصفري سوى عامل إضافي؛ عزز العصبية المكناسية، ومتن روابطها. ومن هنا نستخلص بأن هذه الإمارة

الصفرية؛ تمكنت فعلا من تحقيق بعض الازدهار الاقتصادي؛ ولكنها بقيت دولة بدوية؛ ذات حضارة محدودة. وربما وقف نظامها القبلي حجر عثرة أمام تطورها الحضاري.

ومع هذا لا تخلو هذه الدولة من بعض السمات؛ التي يمكن وضعها في سياق الحركة الحضارية والثقافية. فمثلا كان لها طابعها العمراني المتأثر بالذوق البدوي. وقد ذكر البكري أن البناءين بسجلماسة كانوا من اليهود.[1] ولما توطدت العلاقات بين هذه الدولة الصفرية والدولة الرستمية ــ بدءا بعهد مدرار ــ أضحى المظهر الحضاري والثقافي في سجلماسة أكثر شبها وقربا من تلك الدولة الإباضية القائمة في تيهرت. كما شرع بعض العلماء والأدباء الإباضيين يترددون على سجلماسة؛ بغرض نشر العلم، وبث الدعوة الإباضية. وإلى جانب ذلك كان بعض الطلبة ــ المتعطشين للعلم ــ ينتقلون من إفريقية إلى سجلماسة للتعلم فيها على مشاهير العلماء الإباضيين المقيمين بها.[2]

---

[1] المغرب، ص ص: 149 ــ 150.

[2] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكرياء، ص: 193 وما بعدها. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب للدرجيني، ج: 1، ص ص: 109 ــ 113. ج: 2، ص: 502.

من ذلك ما أشار إليه أبو زكرياء حين ترجم لأبي الربيع سليمان بن زرقون؛ فقال أنه تعلم ـ مع أبي يزيد ابن كيداد ـ في سجلماسة؛ على عالم مشرقي اسمه ابن الجمع؛ قال عنه أنه من أهل الدعوة، وينتحل جميع الفرق؛ ويتمتع بعلم غزير ومعرفة وافرة. وقال أنه قدم إلى بلاد المغرب كتاجر؛ فلازمه ابن زرقون؛ الذي رافقه في رحلته إلى سجلماسة؛ وبقي معه حتى مات؛ فأوصى بكتبه إلى ابن زرقون.[1] ويدل خبر كهذا ـ طبعا ـ على وجود حركة علمية في سجلماسة؛ استقطبت بعض طلاب العلم من بعض جهات بالمغرب.

****

3)ـ الدولة الرستمية:

تأسست هذه الدولة في أعقاب الاضطرابات التي حدثت بين قبائل الصفرية والإباضية من جهة؛ وبين ولاة القيروان من جهة أخرى. حيث التأمت القبائل الصفرية، والإباضية متجمعة؛ ضمن حلف واحد. ولكنها تفرقت ـ بعد ذلك ـ تبعا لتناقض المصالح القبلية الضيقة. فأخذت كل فرقة منها تعمل منفردة؛ ساعية لإقامة كيان ما؛ في

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 193. أنظر الخبر نفسه ـ أيضا ـ في طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 109 ـ 110.

شكل دولة أو إمارة صغيرة. وهذا ما سعت إليه القبائل الصفرية؛ بالمغرب الأقصى والأوسط؛ كبني يفرن بتلمسان، وبرغواطة بتامسنا، ومكناسة بسجلماسة. أما القبائل الإباضية؛ كـ: هوارة ونفوسة وزناتة ولواتة ولماية ومزاتة؛ فقد تمكنت هي الأخرى من إنشاء إمارة في طرابلس سنة 140هـ(757م)؛ لكنها سقطت عام 144هـ(761م)؛ تحت ضربات الجيش العباسي؛ بقيادة محمد بن الأشعث. والعلة التي عجلت بسقوط هذه الإمارة؛ هي العصبية القبلية بتناقضاتها؛ أي بعد نشوب خلافات بين قبيلتي: هوارة وزناتة. حيث اتهمت هذه الأخيرة الأمير أبا الخطاب بالتحيز لقبيلة هوارة؛ فانسحب الزناتيون من الميدان.[1] وهكذا سقطت تلك الإمارة الفتية؛ نتيجة لقوة أعدائها؛ من جهة، وعبث العصبية، والنخوة القبلية؛ من جهة أخرى.

[1] البيان المغرب، ج: ، 1، ص: 72.

ـ حكومة عبد الرحمن بن رستم:

وبعد فشل الإباضيين في السيطرة على القيروان، والاحتفاظ بإمارتهم في طرابلس؛ توجهوا صوب البلاد الداخلية؛ بعيدا عن نفوذ ولاة القيروان؛ فانتهى بهم المطاف عند جبل كزول؛ موطن قبيلة لماية البترية؛[1] وهناك شرعوا في وضع خطة لبناء مدينة تيهرت من جديد (تنطق تاهرت أيضا)؛ لأن مدينة تيهرت كانت منذ القدم؛ ويرجع تاريخها الأول إلى العهد الروماني؛ ولكنها اندثرت.[2] وعليه فقد بنى الإباضيون مدينة أخرى

[1] يقول البكري: ((في صفر سنة أربع وأربعين وماية هرب عبد الرحمن بأهله، وما خف من ماله؛ وترك القيروان؛ فاجتمعت الإباضية، واتفقوا على تقديمه، وبنيان مدينة تجمعهم. فنزلوا موضع تاهرت اليوم؛ وهو عيصة أشبة؛ ونزل عبد الرحمن منه موضعا مربعا لاشعراء فيه؛ فقال البربر نزل تاقدمت؛ تفسيره الدّف؛ شبهوه بالدّف لتربيعه)). المغرب، ص: 68.

[2] يقول ابن عذاري في تيهرت: ((وكانت حوْلَ تيهرت بساتينُ من أنواع الثمار، كثيرة الأشجار. وهي شديدة البَرْدِ، كثيرة الأمطار. قيل لبعض الظُّرَفاء من أهلها: "كم الشِّتَاءُ عندكم من شهر في السنة؟" قال: "ثلاثة عشر شهرا!". وقال بعضُ شعراء تيهرت من قصيدة أولها (طويل):

فَرَاغُ الهَوَى شُغْلٌ وَمَحْيَا الهَوَى قَتْلُ
وَيَوْمُ الهَوَى حَوْلٌ وَبَعْضُ الهَوَى كُلُّ
وَجُودُ الهَوَى بُخْلٌ وَرِسْلُ الهَوَى عَدَى
وَقُرْبُ الهَوَى بُعْدٌ وَسَبْقُ الهَوَى مَطْلُ
سَقَى اللَّهُ تِيهَرْتَ المُنَا وَسُوَيْقَةً
بِسَاحَتِهَا غَيْثاً يَطِيبُ بِهِ المَحْلُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ وَالدَّارُ جَامِعَةٌ لَنَا
وَلَم يَجْتَمِعْ وَصْلٌ لَنَا لاَ وَلاَ شَمْلُ

تقع إلى الغرب منها؛ وتعرف بتاقدمت؛ ويفسر هذا الاسم الصفة التي كان عليه موقعها الجغرافي؛ الذي يظهر في شكل مربع. وقد يكون بناؤها — حسب بعض الروايات — بدأ بعد قيام الدولة الرستمية.[1] حيث ترعرعت الدولة الرستمية الإباضية ونمت شيئا فشيئا داخلها. وقد كانت هذه الإمارة هي الدولة المستقلة الأولى في ربوع المغرب الأوسط. غير أنها لم تظهر في ثوبها الكامل سوى في سنة

فَلَمَّا تَمَادَى العَيْشُ وَانْشَقَّتِ العَصَى
تَدَاعَتْ أَهَاضِيبُ النَّوَى وَهْيَ تَنْهَلُّ
سَلاَمٌ عَلَى مَنْ لَمْ نُطِقْ يَوْمَ بَيْنِنَا
سَلاَماً وَلَكِنْ فَارَقَتْ وَبِهَا ثُكْلُ
وَمَا هِيَ آمَاقٍ تَفِيضُ دُمُوعُهَا
وَلَكِنَّهَا الأَرْوَاحُ تَجْرِي وَتَنْسَلُّ)).

البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 198 — 199.

[1] ويصف البكري هذه المدينة بقوله: ((ومدينة تيهرت مسورة؛ لها ثلاثة أبواب: باب الصبا وباب المنازل وباب الأندلس وباب المطاحن وغيرها [عدَّ أربعة أبواب بدلا من ثلاثة]. وهي في سفح جبل يقال له جزُّول؛ ولها قصبة مشرفة على السوق؛ تسمى المعصومة؛ وهي على نهر يأتيها من جهة القبلة؛ يسمى مينا؛ وهو في قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتُش؛ ومن تاتش شُرب أهلها، وبساتينها؛ وهو في شرقيها. وفيها جميع الثمار؛ وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما مشما؛ وسفرجلها يسمى بالفارس. وهي شديدة البرد، كثيرة الغيوم والثلج... ونظر رجل من أهل تاهرت إلى توقد الشمس بالحجاز؛ فقال احرقي ما شئت؛ فوالله أنك بتاهرت لذليلة. وهذه تاهرت الحديثة وعلى خمسة أميال منها تاهرت القديمة؛ وهي حصن لبرقجانة؛ وهو في شرقي الحديثة... وبقبليها لواتة وهوارة في قرارات، وبغربيها زواغة، وبجوفها مطماطة وزناتة ومكناسة؛ وقد ذكرنا أن بشرقيها حصن لبرقجانة؛ وهو تاهرت القديمة)). المغرب، ص ص: 66 ـ 67.

160هـ(776م).[1] كما كانت تتمتع بنفوذ معنوي واسع في بلاد المغرب؛ إذ تخضع لها مقاطعات شاسعة في برقة وإفريقية والمغرب الأوسط؛ حيث كانت معظم القبائل الأمازيغية آنئذ تدين بالمذهب الإباضي؛ وعليه فقد أبدوا طاعة ـ ولو شكلية ـ لإمام الدولة الرستمية. ومنذ نشأة هذه الدولة تولى الإمامة فيها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام. وكان فارسيّ الأصل، وهو من موالي عثمان بن عفان؛ وينحدر من أسرة تتصل بملوك الفرس الأكاسرة. ويقال أنه ولد في العراق؛ وقدم إلى القيروان رفقة أمه التي تزوجت ـ بعد أن مات بعلها في الحج ـ من رجل يسكن القيروان. وهكذا يكون هذا الأمير الآباضي من المشارقة الوافدين إلى المغرب؛ مثله مثل أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح؛ مع فارق السن. وبقيام هذه الدولة ـ قبل تشييد عاصمتها تيهرت ـ تكون قد توافقت مع نظرية ابن خلدون السابقة الذكر؛ والتي يرى فيها أن قيام الدولة يحدث قبل تشييد مدينتها.[2]

---

[1] ثمة من يرى أن بناء المدينة تم في سنة **161هـ** تقريبا. أما قيام الدولة فقد حدث بعد شغور منصب الإمامة الإباضية؛ أي بعد مقتل أبي حاتم يعقوب ابن حبيب الملزوزي؛ الذي كان إماما لهم؛ وذلك سنة**154هـ**. ومع هذا فقد بقي تاريخ قيام هذه الدولة يكتنفه بعض الغموض. أنظر كتاب العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: **29 ـ 30**.

[2] المقدمة، ج: **3**، ص ص: **965 ـ 968**.

ومن الضروري التنبيه – هنا – إلى وجود فوارق واضحة بين دولة تيهرت الإباضية، وبين الدولتين السابقتين (دولة برغواطة، ودولة بني مدرار)؛ من حيث نظمها وسيادتها وسعة رقعتها وإنجازاتها الحضارية. فدولة بني رستم كانت متينة الأسس، ديمقراطية النظام والتسيير، سيدة القرار والتنفيذ، واسعة الأطراف والأقاليم، ذات إنجازات حضارية وثقافية متميزة؛ يرأسها إمام؛ يحكم الناس بمساعدة مجلس للشورى؛ أعضاؤه هم أهل الحل والعقد. وكان العامل الديني سائدا، ومهيمنا على الحياة في تلك الدولة. وينسجم هذا مع ما قرره ابن خلدون في مقدمته؛ من أن "**الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك؛ أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**". و"**أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية؛ التي كانت لها من عددها**".[1]

ومع هذا لا يسع المتأمل في تاريخ الدولة الرستمية سوى الاعتراف بما للعصبية من أثر لا ينكر في نشأتها. فعلى الرغم من العامل الديني؛ الذي هذب أخلاق ونفوس الذين أنشئوا هذه الدولة؛ إلا أنها لم تكن تخلوا من تأثيرات العصبية. إذ أن اختيار عبد الرحمن بن رستم بن بهرام الفارسي لمنصب الإمامة فيها؛ جاء نتيجة

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 636 – 638.

لما كانوا يعرفونه عن نسبه وفضله؛ فدخل ـ بهذا الاعتبار ـ في إطار أصحاب النصاب الملكي؛ لأنه منسوب إلى الأكاسرة، وكان عاملا لأبي الخطاب على القيروان في الدولة الإباضية الأولى. كما أن القبائل المتعددة العصبيات ـ التي شاركت في تشييد هذه الدولة ـ تكون قد اختارته؛ لكي تتجنب الصراع على السلطة فيما بينها؛ وخوفا من تأثير النزوات الهوجاء للعصبية الغاشمة. هذا بالإضافة إلى تأثير المذهب الإباضي؛ الذي يستوجب اختيار الأمير من أهل الصلاح والفضيلة؛ دون اعتبار لعروبته أو قريشيته.[1] وبذلك يمكن القول أن دولة بني رستم تأسست بفضل العصبية التي تمثلها قبائل: لماية ولواتة ومزاتة وهوارة وزناتة؛ تلك القبائل التي تحالفت، وعززت عصبيتها بالتعاليم الدينية؛ التي ألفت بين القلوب، وأنارت العقول، ووحدت الصفوف، وأزالت علة التنافس، والحسد

---

[1] ويمكن استشفاف ذلك كله من خلال النص الذي سجله أحد علمائهم وهو أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر؛ في كتابه سير الأئمة وأخبارهم؛ إذ قال: ((أن جماعة من المسلمين ـ من أهل النظر منهم ـ وجدوا في أنفسهم قوة، وأنسوا طاقة؛ فأرادوا التولية؛ فنظروا في عامة القبائل؛ فوجدوا في كل قبيلة رأسا أو رأسين؛ كل يصلح للإمارة؛ فاشتوروا فيما بينهم. فقال بعضهم: "إن عبد الرحمن بن رستم الفارسي رضي الله عنه؛ ممن لا تجهلون فضله، وهو أحد الخمسة الحاملين للعلم، وعامل الإمام أبي الخطاب رضي الله عنه. وقد عرض عليه المسلمون الإمامة؛ قبل تولية أبي الخطاب؛ فأعرض عنها، ودفعها عن نفسه، ولم يردها؛ ولا سيما وأنه ليست له قبيلة تمنعه إذا تغير وتبدل)). ص: 82. أنظر أيضا طبقات المشائخ بالمغرب؛ للدرجيني، ج: 1، ص: 42.

بيـــن النـــاس؛ فهذبـــت بذلـــك طيـــش العصبيـــة، وكبحـــت جموحهـــا؛ فامتلكـــت قـــوة وقـــدرة؛ حققـــت بهمـــا استقلالهـــا، وضمنـــت امتـــداد رقعتهـــا، واكتسبـــت هيبـــة واحتـــرام خصومهـــا.

كـــان إمـــام الإباضييـــن عبـــد الرحمـــن بـــن رستـــم في غايـــة الصـــلاح والزهـــد وفي قمـــة المعرفـــة والعلـــم. ولـــه بعـــض المؤلفـــات منهـــا: تفسيـــر للقـــرآن الكريـــم، وديـــوان خطـــب، ورسائـــل إخوانيـــات. ومـــن علامـــات زهـــده وفضلـــه وتواضعـــه؛ أنـــه كـــان يقـــوم ببنـــاء داره بنفســـه، وبمعونـــة عبـــد لـــه. كمـــا أوردت المصـــادر أنـــه لمـــا وصلتـــه ــ في بدايـــة الدولـــة ــ ثلاثـــة أحمـــال مـــن المـــال؛ بعـــث بهـــا الإباضيـــون في المشـــرق؛ استشـــار أصحابـــه في أمرهـــا؛ فأشـــاروا بقبولهـــا؛ لحاجـــة الدولـــة والرعيـــة إليهـــا أنئـــذ. فعمـــل بمشورتهـــم وقبلهـــا، ثـــم فرقهـــا أمـــام الوفـــد المشـــرقي عـــلى فقـــراء المسلميـــن، وفي شـــراء الأسلحـــة الضروريـــة. ولمـــا وصلتـــه عشـــرة أحمـــال أخـــرى مـــن المـــال ــ بعـــد فتـــرة ــ مـــع وفـــد آخـــر؛ شـــاور أصحابـــه أيضـــا؛ فتركـــوا القـــرار لـــه. عندهـــا أرجـــع الأحمـــال إلى أصحابهـــا؛ بحجـــة أن أصحابهـــا أحـــوج إليهـــا مـــن الدولـــة؛ نظـــرا لاستغنائهـــا ومـــا وصلـــت إليـــه مـــن قـــوة.[1]

---

[1] سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص ص: 83 ــ 84. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 45.

ولما أحس عبد الرحمن بن رستم بدنو أجله؛ انتخب سبعة من الأعيان؛ ثم عرضهم على الناس لاختيار خليفته منهم. وبذلك يكون قد اتبع سنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وهؤلاء السبعة هم: مسعود الأندلسي؛ وكان فقيها من أهل الفضل والعلم والورع، ثم عمران بن مروان الأندلسي، ثم أبو الموفق بغدوس بن عطية، ثم سكر بن صالح الكتامي، ثم مصعب بن سدمان، ثم أبو قدامة يزيد بن فندين اليفرني، ثم عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم. وتبعا لقانون **العصبية**، وطبيعة مفعولها في الأنظمة القبلية، أو الشبيهة بالقبلية؛ فإن الفرز الحقيقي اقتصر على اثنين من السبعة؛ لما لهم من نفوذ على العصبيات الممثلة في تيهرت. وكانت المنافسة الفعالة بين ابن فندين اليفرني الزناتي؛ الذي انحازت إليه قبيلته، وبين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم؛ الذي اختارته القبائل الأخرى؛ كما انضم إلى صفه جماعة من الفرس؛ بحكم العصبية أيضا. وانتهى الأمر بتفوق عبد الوهاب؛ بحكم نصابه الملكي، والتنافس الخفي بين القبائل الأخرى؛ كما أن أم عبد الوهاب كانت من قبيلة بني يفرن الزناتية أيضا.

وثمة رواية أخرى تقول أن الاختيار انحصر ــ في الأول ــ بين مسعود الأندلسي، وعبد الوهاب؛ ولكن مسعود الأندلسي رفض وبايع عبد الوهاب. ولما تيقن ابن فندين من إصرار الناس على عبد الوهاب قال: ((**هو أقرب منا رحما من غيره؛ ولعل ذلك أن يعطفه علينا**)).[1] وهكذا تنطق العصبية، وتعبر عن ذاتها؛ دون أن يشعر ابن فندين بتناقضه مع المذهب الذي يتبعه. فقد رضي بعبد الوهاب لأن أمه من بني يفرن، وطمعا في أن يؤثرهم على غيرهم.[2] وهكذا فلما توفي عبد الرحمن بن رستم سنة 171هـ(787م)؛ خلفه ولده عبد الوهاب.

ــ حكومة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم:

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن متبحرا في علوم الشريعة الإسلامية، والفقه الإباضي؛ وله كتاب جمع تحت عنوان نوازل نفوسة. وكان يقضي وقته في تدبير شئون الدولة، والمطالعة وتدريس العلوم في المسجد. ولما ذهب إلى جبل نفوسة بقي به زهاء السبع سنين في التدريس بالمسجد لعامة الناس. وقد عرف بالدهاء، والحنكة البالغة، وشدة الشكيمة، والحزم، والثروة الزاخرة. وقد اختلفت الروايات حول مدة حكمه فمن قائل

[1] السير، ص: 86. والطبقات، ج: 1، ص: 47.

[2] السير، ص: 86. والطبقات، ج:، 1، ص ص: 46 ــ 47.

بأنها دامت نحو أربعين سنة؛ أي أنه تولى الحكم سنة 168هـ(784م) ومات سنة 208هـ(823م)، وقائل أنها لم تتجاوز التسعة عشر سنة. غير أن سليمان الباروني يقول أنه حكم من عام 171هـ إلى عام 190هـ(805م) سنة وفاته.

وفي عهد الإمام عبد الوهاب بدأت **العصبية** تتململ وتتحرك؛ استجابة لمقتضى طبيعتها المتصفة بالأنانية والغضب. وعلى الرغم من انتماء أم عبد الوهاب إلى القبيلة بني يفرن الزناتية؛ تلك القبيلة القوية النافذة؛ فإنه لم يستطع كسب ولاء كل عشائرها؛ إذ وقف في طريقه يزيد بن فندين اليفرني؛ ذلك الخصم العنيد، المتعصب لنفسه ولقبيلته. ونتيجة لهذا حدث ما يعرف لدى الإباضيين بالافتراق الأول بين الإباضيين. وقد تطور الخلاف بين الطرفين حتى وصل إلى استعمال السلاح، وسفك الدماء. وتكررت الفتن بينهما حتى اختتمت بمقتل يزيد بن فندين؛ في موقعة قتل فيها ما لا يقل عن اثني عشر ألفا.

وعرفت الجماعة المخالفة بعدة ألقاب منها: العمرية أو العمرانية؛ نسبة إلى عيسى بن عمير، والنجوية؛ لأنهم كانوا يتناجون بالإثم والعدوان، والنكارة؛ لإنكارهم إمامة عبد الوهاب، والشغبية؛ بسبب شغبهم، والملحدة؛ لإلحادهم في أسماء الله الحسنى، والنكاث؛ لنكثهم البيعة بغير حجة شرعية.[1]

ولم تكن هذه هي الثورة الوحيدة في عهد الإمام عبد الوهاب؛ بل ثارت عليه أيضا فئة أخرى من قبيلة زناتة. وعلى الرغم من تبعيتهم للدولة الإباضية؛ إلا أنهم كانوا يتمذهبون بالواصلية (وهم أتباع طائفة من المعتزلة؛ ممن اعتنق مذهب واصل بن عطاء الغزال).[2] كما وضع أبو زكرياء في كتابه فصلا خصصه لهذه الفرقة؛ ولدورها في إثارة الفتنة وسط دولة بني رستم؛ وسرد الكيفية التي استطاعت بها هذه الفئة من زناتة الزج بالدولة في دوامة من الاضطرابات والفتن ــ مدة طويلة ــ قبل أن تتمكن من التغلب

---

[1] السير، ص ص: 88 ــ 100. والطبقات، ج: 1 ص ص: 47 ــ 56.

[2] وقد أشار البكري لهذه الفئة من الواصلية؛ المتواجدة بالقرب من تيهرت فقال: ((وكان مجمع الواصلية قريبا من تاهرت؛ وكان عددهم نحو ثلاثين ألفا؛ في بيوت كبيوت الأعراب؛ يحملونها)). المغرب، ص: 67. أنظر أيضا معجم البلدان لياقوت الحموي، مادة تاهرت: 2، ص: 8.

عليهم؛ بمساعدة جماعة من نفوسة.[1] والقصة طويلة؛ ولكن خلاصتها في النهاية؛ انتهت بهزيمة الواصلية في مجالات الحرب، والمجادلات الكلامية. وعندها اختار أصحابها مهادنة الدولة. وثمة من يعتقد بأن محرك هذه الجماعة هو شيخ أوربة بأوليلي إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي؛ المبايع لإدريس بن عبد الله؛ وكان ــ كما قال البكري ــ معتزليا. ومن جهة أخرى فقد ذكر الشهرستاني ــ في فصل الواصلية ــ أن فئة منهم

---

[1] وعن هذا يقول أبو زكرياء: ((وهم قوم من البربر؛ أكثرهم من قبائل زناتة؛ وذلك حين أحسوا ببعض الفرقة في الإباضية؛ وأرادوا أن ينتهزوا بعض الفرصة؛ فبلغ الإمام ذلك؛ فاعتذر إليهم مرة بعد مرة؛ وقد نشأ إذ ذاك من الواصلية شاب حدث السن، شجاع، عظيم، بطل لا يقاوم له شيء؛ وهو ابن سيدهم، وعمدتهم. وفيهم رجل منتحل للمناظرة؛ يذب من مذهبه؛ وقد جرت بينه وبين الإمام مناظرات كثيرة؛ وكان شديد المعارضة، حديد العارضة. فتكاثفت كلمة الواصلية، واجتمعوا من كل نقب، وجازوا من كل أوب؛ فانحازوا عن تاهرت، وأخذوا جبالها؛ وهم أصحاب العمود؛ وأظهروا مخالفة الإمام ــ رضي الله عنه ــ فاعتذر إليهم؛ وخرج إليهم بعساكر كثيرة؛ فقاتلهم مرة بعد مرة. وكان الفتى المعروف بالنجدة والشجاعة؛ لا يدرك أحدا إلا قتله... فلما رأى الإمام ــ رضي الله عنه ــ ذلك، وأن حربهم جد؛ أرسل إلى جبل نفوسة يستمدهم؛ أن يبعثوا إليه جيشا نجيبا؛ يكون فيه رجل ذو علم بفنون الرد على المخالفين، ورجل عالم بفنون التفسير، ورجل شجاع بطل نجد يبارز الفتى المعتزلي الموصوف بالشجاعة... واتفق رأيهم على أن يبعثوا له بأربعة نفر: أحدهم مهدي [النفوسي الويغوي]، والآخر أيوب بن عباس، والثالث محمد بن يانس، والرابع لم يبلغنا اسمه؛ وقد قيل أن اسمه أبو محمد فارس...)). السير، ص:102.

متواجدة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني.[1] وإذا صح هذا فمعناه أن الواصلية تكون قد انتشرت انتشارا واسعا في المغرب الأوسط؛ ووصلت إلى أجزاء من المغرب الأقصى.

ولم تكن هزيمة ابن فندين اليفرني والزناتيين التابعين للواصلية ــ من بعده ــ هي خاتمة الثورات؛ بل انتفضت قبيلة هوارة إثرهما؛ بفعل الغيرة والنخوة وتأثير العصبية؛ إذ استفزهم تصرف الإمام عبد الوهاب؛ من أجل ابنة شيخ قبيلة لواتة؛ التي تقدم إلى خطبتها أحد شيوخ هوارة؛ فخاف الإمام عبد الوهاب عاقبة تمتين أواصر القربى بين القبيلتين: (هوارة ولواتة) فسارع إلى مزاحمة شيخ هوارة؛ وعرض نفسه بديلا وخطيبا منافسا.[2] وبالطبع دخلت في الاعتبار المغريات المالية، والوعود الملوكية؛ فانتهت المنافسة بزواج الأمير عبد الوهاب من الفتاة. وكان هذا بمثابة إعلان حرب بين هوارة والإمام عبد الوهاب. وحدثت أيضا في عهد هذا الإمام فتن أخرى؛ قامت بها بعض العشائر البدوية من مزاتة وسدراتة وعشائر أخرى.

---

[1] الملل والنحل، ج: 1، ص: 46.

[2] سيرة الأئمة الرستميين، ص: 22. الأزهار الرياضية، ج: 2، ص: 137. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ــ 421. 430 ــ 431. 491. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

والسبب ـ على ما يبدو ـ أنهم طالبوا الإمام بعزل بعض الموظفين؛ كالقاضي، وصاحب بيت المال، وصاحب الشرطة؛ فأبى عليهم ذلك ـ في قصة طويلة ـ فثاروا عليه؛ فما كان منه إلا أنه جرد قوة لتأديبهم وإخضاعهم؛ وتم له ذلك بعد جهد.[1]

ـ حكومة أفلح بن عبد الوهاب:

وبعد وفاة الإمام عبد الوهاب خلفه ولده أفلح ابن عبد الوهاب؛ الذي احتل مركزا ممتازا بين أئمة الإباضيين. وقد دام حكمه ما يقارب الخمسين سنة في قول، وستين سنة؛ في قول آخر. وسبب هذا الاختلاف يعود ـ كما يبدو ـ إلى ما ظهر من اضطراب حول السنة التي توفي فيها والده الإمام عبد الوهاب. وبهذا تكون السنة الذي تولى فيها الأمير أفلح غير محققة. ربما حدثت في سنة 188هـ(803م) أو 190هـ(805م) أو 208هـ(823م). ومع ذلك فقد اتفقت المصادر كلها على أن سنة وفاة الإمام أفلح هي 240هـ(854م). ولما تولى هذا الإمام الحكم كانت ثورة خلف بن السمح بن أبي الخطاب عبد الأعلى؛ التي اندلعت في نواحي طرابلس؛ أيام حكم والده ما زالت مشتعلة؛

---

[1] تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص: 457. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 169. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 420 ـ 421. 431. 491 ـ 495. والعلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص: 56.

فواصل جهود والده لإخمادها. هذا وقد وصفت المصادر أفلح بالشجاعة والنجدة والعدل وحب العلم والتبحر فيه؛ وله بعض المؤلفات والرسائل في: الأجوبة والنصائح والمواعظ. وكانت له مشاركة في الآداب ونظم الشعر. وفي عهده ازدهر النشاط الاقتصادي والتجاري في تيهرت، وتوسعت التجارة مع بلاد السودان؛ خاصة مملكة **كوكو**؛ التي يقدر بعدها عن تيهرت بثلاثة أشهر سيرا بالقوافل؛ عبر وارجلان؛ كما كانت لهذه الدولة علاقات طيبة مع الدولة الأموية بالأندلس.

ويبدو أن الإمام عبد الوهاب استطاع بدهائه وحنكته تمهيد الدولة، وتيسير أمر انتقال الحكم فيها إلى أبنائه؛ دون حدوث مشاكل؛ مثلما حدث عند توليه الحكم بعد أبيه عبد الرحمن؛ وعليه لم تتكلم المصادر الإباضية – بدقة – عن الطريقة التي تمت بها بيعة ولده أفلح. مما يبعث على الاعتقاد أنها حدثت كما كان يحدث في الممالك السنية الأخرى؛ إذ رسخت لدى الرعية فكرة أحقية الإرث الملكي للأسرة المالكة؛ كما أقروا بصحة العمل بمبدأ ولاية العهد.

ومع هذا فقد نشبت في عهد الإمام أفلح بعض التيارات المعارضة؛ مثل: الحركة التي سماها الإباضيون بالافتراق الثالث؛ وهي ـ في الحقيقة ـ معارضة مذهبية سلمية؛ قادها نفاث ابن نصر النفوسي؛ وإن كانت المصادر الإباضية ترجع أسبابها إلى عوامل سياسية؛ وإلى الغيرة والحسد نتيجة لاستحواذ بعضهم على المناصب في الدولة دون الآخرين.[1]

ـ حكومة أبي بكر بن أفلح:

وبعد وفاة الإمام أفلح سنة 140هـ تولى ولده أبو بكر الإمامة. وكانت مدة ولايته قصيرة جدا؛ إذ لم يكمل حكمه السنتين. وفي عهد هذا الإمام عرفت دولة بني رستم تحولا ملحوظا في مسارها السياسي. إذ أصبحت الدولة في قمة الثراء والازدهار؛ مما ساق أصحابها إلى الدخول في عهد جديد يتميز بالترف الفائض والنعيم الواسع. ومن الأمثلة على ذلك الثراء الذي كان متفشيا بين رعايا الدولة أن أحدهم؛ وهو يبيب بن زغلين المزاتي كان يمتلك من الإبل ثلاثين ألفا، ومن الغنم ثلاثمائة ألفا، ومن الحمير اثني عشر ألفا. أما ثروة الإمام أبي بكر بن أفلح فلا حصر لها.

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 138 ـــ 146. طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 77 ـــ 82.

وعليه فقد أصيبت الدولة بالأعراض الطبيعية للترف والنعيم الفائضين عن الضروري؛ لذا فقد ابتلي الإمام أبو بكر بالداء الذي ينتج عن الترف وتوابعه؛ وهكذا فقد ركن إلى الدعة والسكون؛ وترك شئون الدولة في يد صهره محمد بن عرفة؛ وهو من أعيان البلد ذوي النفوذ والسمعة الطيبة؛ وينتمي إلى أسرة عربية؛ ولكنه مال إلى الاستبداد بالأمر؛ مما أغضب أهل البيت المالك؛ فأوغروا صدر أبي بكر ضد صهره؛ فقتله غيلة؛ الأمر الذي أشعل في المدينة ثورة أكلت الأخضر واليابس. وما حدث هنا لا يخرج عن المفهوم الذي وضعه ابن خلدون في مقدمته ضمن: "**فصل في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون**". و"**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها، وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[1]

---

[1] ففي المثال الأول يقول ابن خلدون: **((وذلك أن الأمة لا يحصل لها الملك إلا بالمطالبة. والمطالبة غايتها الغلب والملك؛ وإذا حصلت الغلبة انقضى السعي إليها... فإذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه؛ وآثروا الراحة والسكون والدعة؛ ورجعوا إلى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس؛ فيبنون القصور، ويجرون المياه، ويغرسون الرياض، ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المتاعب)). أما المثال الثاني فيقول فيه: ((اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة، وحالات متجددة؛ ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من أحوال ذلك الطور؛ لا يكون مثله في الطور الآخر؛ لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغلب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبغية... فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسْوَة قومه في**

وهــذا هــو الــذي حصــل للرستميين؛ إذ وصــل مؤســس دولتهــم عبــد الرحمــن بــن رستــم إلى إقامــة دولتــه بالكــدِّ والجهــد والمطالبــة المضنيــة؛ فاقتصــر ــ في حياتــه إذ ذاك ــ عــلى الضــروري مــن العيــش. ولــم يهنــأ لــه بــال، ولا استسلــم للراحــة ولا للدعــة أو السكينــة؛ حــتى حقــق أهدافــه. ولمــا خلفــه ابنــه عبــد الوهــاب ضبــط أمــره، وحافــظ عــلى تــوازن ملكــه؛ عــلى الرغــم مــن الثــراء الــذي بــدأ يظهــر عليــه؛ ونظــرا لكونــه قــد عــاش في عهــد والــده؛ وعــرف قيمــة الجهــود الــتي بذلهــا أبــوه للوصــول إلى مــا هــم عليــه؛ فقــد توازنــت حياتــه، ولــم يتــرك لنفســه العنــان.

اكتســاب المجــد، وجبايــة المــال، والمدافعــة عــن الحــوزة والحمايــة... الطــور الثــاني: طــور الاستبــداد عــلى قومــه والانفــراد دونهــم بالملــك، وكبحهــم عــن التطــاول للمساهمــة والمشاركــة. ويكــون صاحــب الدولــة في هــذا الطــور معنيــا باصطنــاع الرجــال، واتخــاذ المــوالي والصنائــع، والاستكثــار مــن ذلــك؛ لجــدع أنــوف أهــل عصبيتــه...الطــور الثالــث: طــور الفــراغ والدَّعَــةِ؛ لتحصيــل ثمــرات الملــك؛ ممــا تَنْــزِع طبــاع البشــر إليــه؛ مــن تحصــل المــال، وتخليــد الآثــار، وبعــد الصيــت... الطــور الرابــع: طــور القنــوع والمسالمــة. ويكــون صاحــب الدولــة في هــذا قانعــا بمــا بَــنَى أوَّلُــوه، سلمــاً لأنظــاره مــن الملــوك وأقتالــه، مقلــدا للماضيــن مــن سلفــه... الطــور الخامــس: طــور الإســراف والتبذيــر. ويكــون صاحــب الدولــة في هــذا الطــور متلفــا لمــا جمــع أوَّلُــوه في سبيــل الشهــوات والمــلاذ والكــرم عــلى بطانتــه... وفي هــذا الطــور تحصــل في الدولــة طبيعــة الهَــرَم، ويستــولي عليهــا المــرض المزمــن؛ الــذي لا تكــاد تخلــص منــه، ولا يكــون لهــا معــه بُــرْءٌ؛ إلى أن تنقــرض)). المقدمــة، ج: 2، ص ص: 651. 663 ــ 666.

ولما تولى ابنه أفلح بدأت بوادر الترف تدخل بيته؛ وإن كان ـ هو في ذاته ـ بقي متمسكا ببعض عادات أبيه؛ غير أن ذلك كان نسبيا. أما ولده أبو بكر فقد بعد به الزمن عن مبدأ قيام الدولة، ولم يعرف للتقشف طريقا؛ ولم يعايش حال الأولين؛ لذا فقد طغت عليه طبيعة الملك؛ المتميزة برخاء العيش؛ فانساق وراء الترف والملذات والمغريات؛ تاركا معاناة الحكم، ومشاق السياسة إلى وزيره ابن عرفة؛ فحدث ـ نتيجة لذلك ـ شرط الاستبداد عليه؛ من طرف صهره ابن عرفة؛ ولكن عصبية البيت المالك أبت عليه تراخيه، وعابت عليه ترك شئون الدولة بين يدي وزير من قبيلة أخرى؛ ليس بينهم وبينها روابط؛ سوى روابط المصاهرة؛ لذا فقد استعملوا سلاح الفتنة والخداع للتفريق بينهما؛ فكانت النتيجة هي ما حدث من مآسي وسفك للدماء. وما تلاها من انتفاضات للعامة، وثورات قام بها: بنو مسالة الهواريين أصحاب قلعة تاسفدالت، وفئة من الفرس المناوئين لبني رستم.

ويبدو أنه تم – وفي عهد أبي بكر هذا – إلحاق بعض الجماعات من الفرس والعرب بالدولة الرستمية؛ وقد قدم هؤلاء الفرس والعرب من المشرق مباشرة، أو من القيروان.[1] ويدل هذا طبعا على التوجه الجديد للدولة الرستمية – في أواخرها – نحو استخدام المصطنعين من الجند والموظفين؛ لتعويض فئات أخرى من القبائل؛ التي قامت الدولة على كاهل أبنائها. وهذا كما سبق شرحه يفسر ظاهرة الشيخوخة التي ابتليت بها الدولة في هذا الطور من حياتها.

وجملة القول فقد شرعت الدولة الرستمية – بدءا بعهد أبي بكر هذا – في الانزلاق عبر منحدرات السقوط والاندثار. وانتهى الأمر بإمامها أبي بكر إلى أسلوب في الحكم لم تعهده الدولة من قبل؛ إذ انغمس في مستنقع الشهوات، تاركا شئون الدولة في يد وزيره؛ الأمر الذي شجعه على الاستبداد؛ وهنا استيقظت في أبي بكر غرائز الغيرة والانتقام؛ فاغتال وزيره ووضع دولته على حافة الهاوية. وكاد الأمر أن يخرج تماما من أيدي بني رستم؛ لولا ظهور أبي اليقظان بن أفلح؛ محفوفا بأنصاره من النفوسيين سنة 241هـ(855م).

---

[1] وفي هذا يقول ابن الصغير: ((وكانت العجم قد ابتنت القصور، ونفوسة قد ابتنت العدوة، والجند القادمون من إفريقية قد بنوا المدينة العامرة اليوم)). سيرة الأئمة الرستميين، ص: 26.

ـ حكومة أبي اليقظان محمد بن أفلح:

بويع أبو اليقظان بالإمامة سنة 241هـ خارج تيهرت؛ أثناء الفتنة التي تسبب فيها أخوه أبو بكر. حدث ذلك بعد لجوئه إلى حصن لواتة المحاذي لتسلونت؛ أين ينبع نهر مينا. ولما ولي شئون الدولة عمل من فوره إلى إخماد الفتنة، وعقد صلحا مع بني مسالة الهواريين الذين تغلبوا على تيهرت. هذا وقد لعبت نفوسة دورا هاما في إعادة المياه إلى مجاريها، وتمهيد الأمر لعودة الدولة بقيادة أبي اليقظان. وبالفعل دخل إمام الإباضية من جديد إلى تيهرت؛ بغرض إصلاح ما تصدع، وعلاج ما أفسده الدهر والعباد.

ومع ذلك لم تجد إصلاحات أبي اليقظان في إنعاش هذه الدولة؛ لأن الداء أصبح مزمنا والعلاج مستحيلا. خاصة عندما اتضح أن العامل الديني ـ هو بدوره ـ أخذ مفعوله يتلاشى ويضعف في حياة تلك الدولة. كما أصبحت عصبية البيت المالك فاقدة لتلاحمها وفاعليتها. عندئذ برز الوجه الآخر للعصبية؛ كاشفا عن العيوب، والسلبيات التي كبحها الدين وضبط مفعولها ومؤثراتها من قبل. غير أن بوادر هذا الأمر السلبي بدأت ـ في الحقيقة ـ تظهر منذ عهد الأمير الثاني؛ ولكن الدولة كانت مازالت قوية بعصبيتها، وبمذهبها الديني. ولما حل عهد أبي بكر أخذ التنافس، والتحاسد يهيمنان على كيان التحالف القبلي المساند للدولة.

وهكــذا؛ أضحــت الخلافــات والمؤامــرات تحجــب ضــوء الشمــس؛ في سمــاء الدولــة الرستميــة؛ وشــرع أفــراد العائلــة المالكــة في حبــك المؤامرات ضــد بعضهــم بعضــا. ووصــل بهــم الحــال إلى سفــك دمــاء قرابتهــم وأهاليهــم. وبذلــك كتــب لهــذه الدولــة صــك فنائهــا واندثارهــا.

ـ حكومــة أبي حاتــم يوســف بــن أبي اليقظــان:

لمــا تــوفي أبــو اليقظــان سنــة 281هــ(894م) ولي بعــده في منصــب الإمامــة ولــده أبــو حاتــم يوســف. وكــان ـ حيــن تــوفي والــده ـ خــارج تيهــرت في مهمــة أسنــدت إليــه مــع جماعــة مــن قبيلــة زناتــة؛ تهــدف إلى حمايــة القوافــل التجاريــة. وعــلى الرغــم مــن غيابــه فقــد خرجــت العامــة في شــوارع تيهــرت هاتفــة باسمــه؛ نظــرا لمــا تخصــه بــه مــن حــب وإجــلال. ولكنــه لــم يبــق في منصبــه أكثــر مــن عــام حــتى بــدأت المصاعــب تظهــر بوجههــا القبيــح؛ إذ تحركــت بعــض المؤامــرات الــتي حاكهــا جماعــة مــن أصحــاب المصالــح؛ حيــث حرضــوا عليــه عمــه يعقــوب بــن أفلــح. فأغــروه بالملــك وواعــدوه بالوقــوف إلى جانبــه إن هــو ثــار عــلى ابــن أخيــه. وبالفعــل تحــرك يعقــوب محــاولا الاستيــلاء عــلى ســدة الحكــم. وظــل الصــراع بينهمــا يتصاعــد؛ وكــان النجــاح سجــالا بينهمــا؛ إلى أن قتــل أبي حاتــم غيلــة بأيــدي طــرف ثالــث في الأســرة المالكــة؛ وهــم أبنــاء اليقظــان أخيــه مــن الأب في سنــة

294هـ(1003م). وبعد أن قتلوه ولوا مكانه أخا لهم اسمه اليقظان أيضا. وهكذا أصبحت حال الأسرة الرستمية؛ حيث انحدرت في مهاوي الصراعات والمؤامرات الدنيئة؛ وذلك من علامات فساد عصبيتهم، وانهيار قيمهم.

ـ حكومة اليقظان بن أبي اليقظان:

غدت الدولة الرستمية بعد مقتل أبي حاتم في مهب الريح؛ فلم يعد حاكمها يحظى بالاحترام والتقدير الذي تحلى به الأسلاف. وهكذا بقي اليقظان في الحكم زهاء العامين؛ إلى أن حانت ساعة سقطته المحتومة على يد أبي عبد الله الشيعي سنة 296هـ(908م). والذي سهل في الإطاحة بهذه الدولة هو ذلك الانقسام الحاصل بين أبناء الأسرة المالكة. وقد ظهر هذا من خلال تحريض الأميرة الرستمية؛ دواسر أو (دوسرة) بنت أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان؛ أبو عبد الله الشيعي على قتل اليقظان واخوته؛ ثأرا لأبيها الإمام الرستمي الذين اغتالوه في سنة 294هـ.[1]

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 169 ـ 170. مختصر تاريخ الإباضية، ص ص: 44 ـ 45. 47 ـ 49. وتاريخ المغرب الكبير، ج: 3، ص ص: 562 ـــ 568. 609. 615. العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص ص: 66 67.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

هذا عن الأوضاع السياسية لهذه الدولة أما بخصوص إنجازاتها الحضارية والثقافية؛ فهي ـ خلافا للدولتين السابقتين ـ قد تميزت بالمآثر الحضارية، والإنجازات الثقافية والعمرانية؛ التي عرفت تطورا ملحوظا؛ بالإضافة إلى الازدهار الاقتصادي، والاستقرار السياسي. وقد نافست تيهرت ـ في عهدها ـ حاضرة القيروان؛ في ميدان العلوم والعمران. حيث كانت ـ في ذلك الوقت ـ مركز إشعاع ثقافي، وحضاري انتشر نوره في ربوع المغرب كلها. ووصل أثره إلى عواصم الدول الإسلامية الأخرى؛ كبغداد، وقرطبة.[1]

---

[1] وفي هذا يقول ألفرد بل: ((وكانت عاصمتها تاهرت مركزا مهما للدراسات الإسلامية؛ وفقا لمذهب الخوارج الإباضية. وبفضل تسامح الأئمة استطاع علماء أهل السنة القدوم لجدال علماء الإباضية في مسائل العقيدة والشريعة؛ وربما راود هؤلاء الأخيرين الأمل في أن يقتعوا علماء أهل السنة باعتناق نحلة الإباضية. ومن هذه الناحية كانت تاهرت ـ شأنها شأن القيروان وتونس، حاضرتي العلم على مذهب أهل السنة ـ مدرسة لشحذ روح الجدل وحب المناقشة والتدقيقات. وأخذ شيوخ البربر في تلقي العلم بحماسة، وأسسوا مدرسة هم بدورهم. هنالك صارت تيهرت ـ بفضل حسن موقعها من الناحية الاقتصادية، وبفضل تسامح أئمتها ـ مدينة مزدهرة. وبفضل الزراعة، والتبادل التجاري خصوصا؛ صارت من أكبر أسواق المغرب... ووسط الرخاء الذي ساد حولهم، وفي هدوء علوم الدين الأثيرة لديهم؛ لم يعد الأئمة الرستميون في تاهرت يفكرون في الحرب، وفي النضال الذي أتى في هذه النواحي بالمؤسس الكبير لدولتهم؛ وهو ابن رستم وأهملوا العناية بإعداد جيش يقدر ولو على الدفاع عن بلادهم وعاصمتهم. ولهذا انهارت

وقد برز في تربة تيهرت علماء وأدباء أجلاء؛ منهم من بقي فيها ومنهم من هاجر إلى القيروان وقرطبة؛ مثل: عبد الرحمن بن عبد الله ابن محمد التميمي التاهرتي؛ فقيه سني في تيهرت أيام الدولة الرستمية؛ وهو والد الفقيه المحدث قاسم الذي هاجر مع ابنه إلى الأندلس. ثم ولده الفقيه قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي؛ وهو من فقهاء السنة في تيهرت؛ كان قد أخذ عن بكر بن حماد؛ وهاجر إلى الأندلس مع ابنه سنة 317هـ(929م). ثم ولده الفقيه المحدث أبي الفضل أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التميمي التاهرتي المعروف بالبزاز؛ الذي ولد في تيهرت سنة 309هـ(921م)، وهاجر مع أبيه إلى الأندلس، حيث توفي بقرطبة سنة 396هـ(1005م). ثم الأديب الشاعر أحمد بن فتح التاهرتي؛ وهو الذي وفد إلى أبي العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس في بصرة، ومدحه بقصيدة ذكرنا بعض أبياتها عند التطرق للحضارة والحركة الثقافية بدولة الأدارسة. ثم الفقيه المتكلم عبد الله بن اللمطي التاهرتي، صنفه الشماخي من بين علماء الإباضية في القرن الثالث الهجري، وقال فيه: ((**كان غاية**

هذه في سنة 909م؛ حين هاجمتها جيوش الشيعة المبتدعة بزعامة الداعي أبي عبد الله الشيعي)). الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص ص: 149 ـ 150.

في علم الكلام، يرد على الفرق، وينقض كلام المبتدعة، وألف كتبا في ذلك)). ثم الفقيه الإباضي محمود بن بكر التاهرتي؛ الذي كان من المقربين من أبي اليقظان محمد بن أفلح؛ وكان بدوره من المهتمين بعلم الكلام، وله فيه تآليف. ثم يهوذا ابن قريش التاهرتي؛ عاش في القرن الرابع الهجري بتيهرت؛ وهو لغوي مدقق؛ تعمق في المقارنة بين اللغات: العربية، والعبرية، والآرامية، والبربرية؛ وقد ألف في ذلك كتابا توجد مخطوطة منه في مكتبة "أوكسفورد" البريطانية؛ وقد اعتبر يهوذا بن قريش بهذا العمل أول من وضع أساس النحو التنظيري. ثم المؤرخ ابن الصغير المالكي؛ ذلك المثقف السني الذي وضع كتابا عن تاريخ الدولة الرستمية. ثم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سهل (أو سهر) الزناتي التاهرتي. ويعتبر هذا الأخير من كبار العلماء والمحدثين السنيين، ومن فحول الشعراء والأدباء الممتازين. وقد عاش في عهد أبي حاتم يوسف بن محمد أبي اليقظان؛ وهو القائل له معتذرا على ما بدر منه خلال الثورة التي قامت ضده؛ وما كان منه عندما انساق وراء المخالفين والثائرين على أبي حاتم:

ومؤنسة لي بالعراق تركتها

وغصن شبابي في الغصون نضير

فقلـــت كمـــا قـــال النـــواسي قبلهـــا

((عزيـــز علينـــا أن نـــراك تســـيـــر))

فقلـــت جفـــاني يوســـف بن محمـــد

فطـــال عـــلي الليـــل وهـــو قـــصيـــر

أبا حاتـــم ما كان ما كـــان بغضـــة

ولكـــن أتـــت بعـــد الأمـــور أمـــور

فأكرهـــني قـــوم خشيـــت عقابـــهـــم

فداريتهـــم، والدائـــرات تـــدور

وأكـــرم عفـــو يؤثـــر الناس أمـــره

إذا مـــا عفـــا الإنســـان وهـــو قديـــر

كمـــا قـــال لـــه لمـــا مثـــل بيـــن يديـــه:

مـــاذَا يُدَبـــرُ رَبنـــا فِي أمْـــرِهِ

سُبحانـــهُ فِي أرْضـــهِ وَسمائِـــهِ

رَدَّ المُلـــوكَ إلَى مَحـــلِّ قرَارِهِـــمْ

مُستَبْشِرِيـــنَ بِفضلِـــهِ وَعَطائِـــهِ

فتبَـــارَكَ اللـــهُ اللطِيـــفُ بِصنُعِـــهِ

مَا أغفـــلَ الثقليْـــنِ عَـــنْ نِعمَائِـــهِ

رَفَــعَ السمــاءَ بــلاَ عِمَــادٍ بَيــنٍ

وَالبَحــر أمْسَكــهُ عَلَى أرْجائـــهِ

لــوْلاَهُ فاضَ عَلَى العِبَــادِ بمَوْجِــهِ

وَعَلى الجبَــالِ الرَّاسِيَاتِ بمَائـــهِ

أخــذَ البــلاَدَ بِسَيفِــهِ فاسْتسْلمَــتْ

وَبعَدْلــهِ وَبفضْلِــهِ وَسَخائـــــهِ

ومــن شعــر أبي عبــد الرحمــن بكــر بــن حمــاد الزنـــاتي في وصــف البــرد بتاهــرت قولــه:

مَــا أخْشَــنَ البَــرْدَ وَرَيعَانـــهُ

وَأطــرَفَ الشمْـــسَ بتاهَــرْتِ

تَبــــدُو مِنَ الغيــمِ إذا مَا بَــدَتْ

كأنهَــا تنشَـــرُ مِــن تخـــتِ

نَحْــنُ فِي بَحْــرٍ بَــلاَ لجَّـــةٍ

تَجْــرِي بِنَا الرِّيــحُ عَلَى السَّمْــتِ

نفــرَحُ بِالشَّمْــسِ إذا مَــا بَــدَتْ

كفرْحَــةِ الــذمِّي بِالسَّــبْــــتِ

ويقول في تيهرت بعد تخريبها من طرف الفاطميين سنة 296هـ(908م)؛ وهي السنة نفسها التي توفي فيها ابن حماد. فقال:

زُرنا مَنازِلَ قومٍ لمْ يَزُورُونا
إنا لفِي غفلةٍ عَما يُقاسونا
لو يَنطِقونَ لقالوا: الزّاد وَيحَكمُ
حَلَّ الرَّحيلُ فمَا يَرْجُو المُقيمِينا
الموْتُ أجْحَفَ بِالدُّنيا فخرَّبهَا
وَفعَلنا فِعْلَ قوْمٍ لاَ يَمُوتونا
فالآنَ فابكوا فقدْ حَقَّ البُكاءُ لكمْ
فالحامِلونَ لِعَرشِ اللهِ باكونا
مَاذَا عَسَى تنفعُ الدُّنيا مُجَمِّعِهَا
لوْ كانَ جَمعَ فِيهَا كنزَ قارُونا

ثم ولده أبو زيد عبد الرحمن بن بكر بن حماد؛ قال فيه ابن الفرضي: ((**عبد الرحمن بن بكر بن حماد التيهرتي الشاعر؛ من أهل القيروان؛ يكنى أبا زيد؛ قدم الأندلس. حدث عن أبيه، وكتب عنه غير واحد من شعر أبيه وحديثه**)).[1] ويقول ابن الفرضي أنه توفي بقرطبة؛

---

[1] **تاريخ علماء الأندلس، ص: 268.**

بينما تذكر مصادر أخرى بأنه توفي سنة 296هـ(908م)؛ أثناء عودته مع والده إلى تيهرت؛ في كمين نصبه لهما بعض اللصوص الأشرار. وقد رثاه والده بكر بن حماد بقصيدة جاء فيها:

بَكيْتُ عَلَى الأحِبةِ إذْ توَلوْا
وَلوْ أنِّي هَلكتُ بَكوْا عَليا
فيا نسْلي بَقاؤُكَ كانَ ذُخراً
وَفقدِكَ قدْ كوَى الأكبادَ كيا
كفَى حُزناً بِأنني مِنكَ خلوٌ
وَأنكَ ميتٌ وَبقيتُ حيا
ولمْ أكُ آيساً فيئسْتُ لمَّا
رَميتُ الترَابَ فوقكَ مِنْ يَدَيا
فليْتَ الخلقُ إذَ خلِقوا أطاعُوا
وَليتكَ لمْ تكُ يَا بَكرُ شيا
تسرُّ بِأشهرٍ تمْضِي سِرَاعاً
وَتطوَي فِي لياليهنَّ طيا
فلاَ تفرَحْ بدنيا ليسَ تبقَى
وَلاَ تأسفْ عَليهَا يَا بُنيا
فقدْ قطعَ البَقاءَ غرُوبَ شمسٍ
وَمَطلعها عَلِيٌّ يَا أخيا

وَليــسَ الهــمُّ يجلــوهُ نهـــارٌ
تــدُورُ لـــهُ الفرَاقــدُ وَالثرَيـــــا

ورثـــاه بقصيـــدة أخـــرى أيضـــا فقـــال:

وَهـــوَّنَ وَجـــدِي أننِي بكَ لاَحِــقٌ
وَأنَّ بَقـــائِي فِي الحيـــاةِ قليـــلُ
وَأنْ ليـــسَ يَبـــقَى لِلحَبيبُ حَبيبـــهُ
وَليـــسَ ببـــاقٍ لِلخليـــلُ خلِيـــلُ
وَلوْ أنَّ طولَ الحـــزْنِ مِما يَـــرُدُّهُ
للاَزَمـــنِي حـــزْنٌ عليـــهِ طوِيـــلُ
بلى رُبما دَارَتْ عَلَى القلبِ لوْعَـــة
فيرجعُهـــا صَبَـــرٌ هنـــاكَ جمِيـــلٌ
تبـــدَّدَ مَا قدْ كـــانَ مِنـــكَ مُجمعـــاً
وَجللـــهُ رَمـــلٌ عليـــك مهيـــــلُ
فـــلاَ عَلـــمٌ يُنبيـــكَ أيـــنَ مَحلـــهُ
وَلاَ جَـــدَثٌ يُشـــفَى عليـــهِ غلِيـــلُ
خلاَ أعْظـــمٍ قدْ بـــدِّدَتْ وَمَفاصِـــلٍ
تمِيـــلُ بها الأرْيـــاحُ حَيثُ تمِيـــلُ

وممن ينسب – أيضا – إلى تيهرت من العلماء والأدباء: أبو العباس الفضل بن نصر التاهرتي؛ وكان من علماء الشافعية؛ وتوفي بالقيروان سنة 344هـ(955م)؛ وهو من الشعراء كذلك؛ ومن شعره:

بلغَ الوُشاةُ عَلَيَّ حَيثُ أرَادُوا
وَاللهُ يَسْألهمْ وَمَا قدْ كادُوا
وَاللهُ يَعلمُ أننِي مَا قلتُ مَا
قالَ الوُشاةُ تأفكاً وَأعادُوا
فهبِ الوُشاةُ أتوْا بأمرٍ بَينٍ
أينَ الكِرَامُ أبدّلوا أمْ بادُوا
عفوُ الملوكِ عَنِ الذُّنوبِ مدَائحٌ
مَدَحوا نفوسَهمُ بها فأجادُوا

ولما وصل إليه خبر – غير مؤكد – بوفاة ابنه في جزيرة شقر؛ قال:

فلوْ كَافتقادِ الناسِ قبلِي بَيْنهمْ
أتِيحَ لهُ مُوْتٌ وَأضمَرَهُ قبرُ

إذَنْ لصَبَرْتُ النفسَ ثمَّ احتسبتهُ
لِيعظمَ لِي مِنْ بَعدِ ميتتِهِ الأجرُ
ولَكِنْ طوَتْ عنِّي المَقادِيرُ أمرَهُ
فمالِي بهِ مِنذُ انتآى شخصُهُ خبرُ
فرَحْمتكَ اللهمَّ قدْ بلَغَ الأسَى
نِهاية مَجهودِي وَقدْ غلِبَ الصَّبرُ

كما كان جل أئمة الدولة – أنفسهم – من العلماء والأدباء. فمؤسس الدولة عبد الرحمن بن رستم؛ يعتبر من كبار علماء الإباضية، كما كان ولوعا بأشغال العمارة، ويباشرها بنفسه؛ وإن اعتبر ما ينجزه منها بسيط المظهر. أما ولده عبد الوهاب فقد عرف بتبحره في العلوم، وولعه الشديد بالكتب؛ إذ تقول المصادر أنه بعث إلى المشرق ألف دينار لشراء الكتب؛ فأرسلت إليه الكتب التي قدرت بأربعين حملا. ويقال أنه كان ضليعا في العلوم الشرعية وعلم الفرائض والتنجيم. أما ولده الإمام أبو سعيد أفلح فكان – بدوره – عالما جليلا في علوم وفنون شتى؛ ومن شعره قصيدة في مدح العلم تصل أبياتها إلى الأربعين؛ منها:

العلـــم أبقى لأهـــل العلـــم آثـــارا

يريـــك أشخاصهم روحا وأبكـــارا

حي وإن مات ذو علـــم وذو ورع

ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا

وذو حيـــاة على جهل ومنقصـــة

كمَيِّت قد ثوى في الرمس أعصارا

للـــه عصبة أهل العلـــم إن لهـــم

فضلا على الناس غيابا وحضـــارا

وتقـــول المصـــادر أنـــه كـــان بتيهـــرت الرستمية مكتبـــة أسمهـــا المعصومـــة؛ تشتمـــل عـــلى أزيـــد مـــن ثلاثمائـــة ألـــف مجلـــد؛ انتـــهى مصيرهـــا إلى النـــار الـــتي أشعلهـــا في معظـــم مجلداتهـــا عبـــد اللـــه الشيـــعي؛ عندمـــا افتتـــح تيهـــرت؛ ولـــم يأخـــذ منهـــا ســـوى مـــا يناســـب مذهبـــه؛ ومـــا وجـــد بهـــا مـــن كتـــب الرياضـــة والصنائـــع والفنـــون.[1] ولـــو بقيـــت هـــذه المكتبـــة لقدمـــت للباحثيـــن معلومـــات وافيـــة عـــن هـــذه الدولـــة الإباضيـــة.

---

[1] وعـــن الآثـــار العمرانيـــة لـــدى الرستميـــين؛ يقـــول شـــارل أندريـــه جوليـــان: ((واقتصـــر الباحثـــون ـــ زمنـــا طويـــلا عنـــد تقييـــم فـــن بـــني رستـــم المعمـــاري ـــ عـــلى آثـــار سدراتـــة (قـــرب ورقلـــة) وهي المدينـــة الـــتي التجـــأ إليهـــا أهـــل تاهـــرت عندمـــا استـــولى الفاطميـــون عـــلى عاصمتهـــم سنـــة **911**م. وتدلنـــا هـــذه الآثـــار عـــلى أن فنهـــا المعمـــاري متصـــل بفـــن إفريقيـــة، وأن زخرفهـــا ينتســـب إلى زخـــرف أديـــرة الأقبـــاط، وان لهـــا عناصـــر معماريـــة متأثـــرة بالمبـــاني المصريـــة المعاصـــرة لهـــا؛

وإلى جانب كل هذا لا بد من الإشارة أيضا إلى إمارتين إباضيتين صغيرتين؛ كانتا ـ حسبما يبدو ـ في طاعة الدولة الرستمية؛ ولم تصل بهما الأهمية إلى البروز كدولتين مستقلتين. وهاتان الإمارتان هما:

ـ أولا: **إمارة بني دمر:** وهم بطن من قبيلة زناتة. وهذه الإمارة ـ في الحقيقة ـ لا تعدو أن تكون مجرد إمارة قبلية بدوية؛ كانت تنتجع في السهول الجنوبية لمتيجة؛ وبالتحديد في الجهة الغربية من بلدة **هاز** وفي الجنوب الشرقي من **سوق كرام**. وقد أشار إليهم البكري حين ذكر بأن جماعة من بني دمر؛ وهم من الإباضيين؛ كانوا

وربما بقصور العراق. وكانت الدور ذات الزخرف الثمين المقامة هناك تذكر بمنازل سكان تاهرت المشارقة التي كان ابن الصغير معجبا بها. وفي سنة 1941م قام جورج مارسي ودوسي لامار بزيارة استطلاعية لمعالم تاهرت، وأجريا تنقيبا على آثارها. والذي زاد في صعوبة مهمتهما هو أن الأمير عبد القادر نزل في سنتي: 1835 و 1841م بموقع عاصمة بني رستم العتيقة، وترك فيها أطلالا بعد رحيله. ورغم هذا فإنهما تمكنا من أن يكشفا بصورة قطعية عن جزء من سور بني رستم، وعن مخازن عظيمة للماء، وبقايا من الفخار؛ كما أنهما ضبطا موقع القصبة؛ مقر أمراء بني رستم؛ وانتهيا بعد البحث إلى أن تاهرت كانت قبل كل شيء قلعة حصينة، مهيأة للصمود عند الحصار الطويل؛ وأن فن القصبة المعماري يذكر بقصور الشام من القرن الثامن. ومن جهة أخرى فإن ما وجداه من بقايا الفخار مكنهما من الجزم بأن فن الزخرف بتاهرت كان بدائيا بسيطا)). تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 2، ص ص: 43 ـ 44.

يقيمون بحصن **تامغيلت** الرابض في الطريق بين المسيلة وتيهرت. ويستدل من خلال النصوص أن هؤلاء الدمريين لا علاقة لهم ــ مذهبياً ــ ببني نوح الدمريين؛ أصحاب الدولة بمورور في الأندلس؛ لأن هؤلاء الأخيرين كانوا ــ كما يبدو ــ من أهل السنة. وسيأتي الكلام عن دولتهم ضمن دول زناتة.
أما الإمارة الإباضية الثانية:
ــ فهي **إمارة بني مسالة الهواريين**: وقد سبقت الإشارة إليهم عند الحديث عن الإمام عبد الوهاب؛ وكيف حاربوه لأنه نافس أميرهم في الزواج من فتاة لواتية. كما ورد الكلام عنهم ــ أيضا ــ عند الحديث عن الفتنة التي وقعت في أواخر عهد أبي بكر؛ حيث احتل أمير مسالة محمد بن مسالة الهواري مدينة تيهرت بعض الوقت. وكان بنو مسالة هؤلاء متمركزين في قلعتهم المحاذية لنهر سيرات والرابضة في الجنوب الغربي من مدينة مستغانم؛ وهي المعروفة في هذه الأيام ــ بالقرب من بلدة **يلل** ــ **بقلعة هوارة**. وقد تكلم البكري عنها حين أشار إلى قلعة هوارة المسماة **تسقدالت** أو تاسفدالت. بالطبع فلا ترقى هاتان الإمارتان إلى مصاف الدول وإن كانت تتمتع بشيء من الاستقلال في حدود تلك القبيلة الصغير. وبقي الآن الكلام عن دولة بني برزال؛ التي لم يتمكن أصحابها من إقامة دولتهم في مواطنهم الأولى بالقرب من المسيلة؛

بينما ساعدتهم الظروف على إقامتها ببلاد الأندلس؛ خلال الفتنة التي أطاحت بالدولة الأموية.

****

4)ـ دولة بني برزال:

قامت هذه الدولة في بلاد الأندلس؛ وذلك بعد أن أعلن البرزاليون قيامها في بلدة **قرمونة**؛ التي اتخذوها عاصمة لهم. هذا وقد نشأت هذه الإمارة الأمازيغية ـ ذات المذهب الخارجي ـ بعد انهيار الدولة الأموية، وانقسام بلاد الأندلس بين شلة من الأمراء، وبعض القبائل العربية والأمازيغية، وجماعات مختلفة من المولي والمماليك؛ وذلك في الفترة المعروفة بعصر الطوائف. وكانت هذه الدولة إباضية المذهب؛ حسبما ذكر كل من: ابن حيان وابن الخطيب.

ويرجع وجود بني برزال في بلاد الأندلس إلى عهد المستنصر الحكم بن عبد الرحمن الأموي ـ تولى من عام 350هـ (961م) إلى عام 366هـ(976م) ـ . وحدث ذلك بسبب وساطة قام بها حليفهم؛ عامل الفاطميين على المسيلة جعفر ابن علي بن حمدون؛ بعد تمرده وهروبه إلى الأندلس؛ فاستأذن لهم من الخليفة الأموي في الانتقال إلى الأندلس؛ فأذن لهم مرحبا بمقدمهم؛

بغرض الاستعانة بهم في حروبه. ويبدو أن السبب الرئيس في ترحيب المستنصر بهم؛ هو ما عرف عنهم من عداوة وبغضاء يكنانهما للشيعة الفاطميين. وكما هو معروف؛ فهؤلاء الفاطميين هم أخطر المنافسين وأشدهم شراسة للدولة الأموية في تلك الأنحاء. ومنذ ذلك التاريخ أضحى البرزاليون جندا في خدمة الدولة الأموية. بل أصبحوا من أقرب المقربين إلى الخليفة؛ إذ كانت لهم حظوة خاصة، نظرا للثقة التي خصهم بها. ولما استبد المنصور ابن أبي عامر على الخليفة هشام؛ بالغ في تكريم البرزاليين مع الوافدين من أمراء القبائل الأمازيغية الأخرى؛ إذ قربهم إليه وخصهم بالإقطاعيات والقيادات.[1]

---

[1] يقول ابن خلدون: ((ولما أراد المنصور بن أبي عامر الاستبداد على الخليفة هشام؛ وتوقع النكير من رجالات الدولة، وموالي الحكم؛ استكثر ببني برزال وغيرهم من البربر، وأفاض عليهم الإحسان؛ فاعتز أمره واشتد أزره؛ حتى أسقط رجال الدولة، ومحا رسومها، وأثبت أركان سلطانه... فأضحوا له عصبة؛ وكان يستعملهم في الولايات النبيهة والأعمال الرفيعة وكان من أعيان بني برزال هؤلاء إسحاق بن...؛ فولاه قرمونة وأعمالها؛ فلم يزل واليا عليها أيام بني أبي عامر. وجدد له العقد عليها المستعين في فتنة البرابرة؛ ووليها من بعده ابنه عبد الله)). العبر، مج: 7 ص: 112.

وفي هذه الأثناء أسند ولاية قرمونة إلى إسحاق البرزالي[1] وهو أحد أمرائهم الأول في الأندلس. وظل البرزاليون ـ بعدئذ ـ محتفظين بولايتهم على قرمونة؛ في عهد أبناء المنصور بن أبي عامر أيضا.

ويبدو أن المصادر التاريخية تجاهلت ذكر ما حدث في ولاية البرزاليين؛ طوال الفترة الممتدة ما بين عهد المنصور بن أبي عامر، إلى عهد المستعين بالله سليمان بن الحكم. على أنهم شرعوا في الحديث عن عبد الله البرزالي في بعض المصادر، أو محمد بن عبد الله البرزالي؛ في مصادر أخرى في أيام المستعين بالله؛ وبالتحديد في سنة 403هـ(1012م)؛ إذ كان الأمير البرزالي طرفا هاما وخطير في إشعال الفتنة الكبرى؛ التي كانت سببا في إزالة الدولة الأموية نهائيا من الأندلس. ويقال أن المستعين بالله عقد في سنة 403هـ لستة

---

[1] ورد الاسم في العبر هكذا: ((إسحاق بن)). وربما يكون الناسخون قد أسقطوا اسم الأب. وهنا لابد من الإشارة إلى أن جل المؤرخين أكثروا من الخلط في أسماء أمراء بني برزال؛ وترتيبها زمنيا؛ حسب الفترات التاريخية التي مرت بهم في الأندلس. فحين الحديث عنهم مثلا أيام المستعين سليمان ابن الحكم؛ يذكرون أحيانا اسم عبد الله البرزالي، وأحيانا أخرى محمد بن عبد الله البرزالي. كما أن اسم إسحاق ورد في كثير من المصادر كحفيد لعبد الله البرزالي؛ بينما يذكر ابن خلدون هذا الاسم كجد للأمراء البرزاليين؛ يكون قد عاش في عهد المنصور بن أبي عامر. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 202 .203 . 206. 235. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ـ 238. والعبر، 4، ص ص: 324. 327. 337. 338. مج: 7، ص ص: 112 ـ 113.

من أمراء العرب والأمازيغ على مقاطعات عديدة بالأندلس.[1] فكان نصيب عبد الله البرزالي في قول، أو محمد بن عبد الله البرزالي في قول أخر؛ هو تثبيته والإقرار له بإمارته السابقة؛ وبذلك ترك له ما كان في يده من مقاطعات من قبل. وهي المقاطعات التي سبق أن عين ابن أبي عامر عليها آباءه منذ مدة.

ولما استفحلت الفتنة داخل الدولة الأموية، ومال حالها إلى السقوط والانهيار؛ بادر بنو برزال إلى الاستبداد بما كان في حوزتهم أصلا. متبعين نهج غيرهم ممن استبد على الدولة من القبائل والطوائف المختلفة الأخرى. وعليه يكون البرزاليون قد أعلنوا ـ منذ تلك الفترة ـ قيام إمارتهم في كل من: **قرمونة وأستجة وحصن المدور**؛ أين تحصنوا في تلك الديار مستقلين بها؛ أسوة ببني جلدتهم: ك: بني زيري وبني يفرن وبني دمر وبني ذي النون وبني خزرون.

---

[1] قال ابن الخطيب: ((وقسم بعض كور الأندلس بين رؤساء القبائل البربرية؛ [تكلم ابن الخطيب هنا أيضا عن رؤساء من غير الأمازيغ] وكانوا ستة: فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد إلبيرة؛ وأعطى مغراوة جوفي البلاد؛ ومنذر بن يحيى سرقسطة؛ وبني برزال وبني يفرن جيان وذواتها؛ والمغاربة من دمر وأزداجة شذونة ومورور. وولى علي بن حمود على سبتة، والقاسم بن حمود على مدينة طنجة وأصيلا والخضراء)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 119. أنظر ذلك أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ـ 114. وهذا الخبر منقول عن ابن حمادة؛ كما أشار ابن عذاري.

هـذا حـال بـني بـرزال يـوم ظهورهـم بالأندلـس. أمـا فيمـا يخـص أصولهـم؛ فالمصـادر تتفـق كلهـا عـلى أنهـم بطـن مـن بطـون بـني دمـر الزناتيـين. وكانـت مواطنهـم الأولى في جبـل سـالات؛ بجهـات المسيلـة حاضـرة الـزاب آنئـذ. وكانـت أعدادهـم وافـرة، وسطوتهـم قاطعـة؛ ونفوذهـم واسعـا في تلـك الجهـات. كمـا كانـوا ـ كمـا يقـول ابـن خلـدون ـ نكاريـة مـن الخـوارج. ومـن أتبـاع أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد؛ حيـث ناصـروه وحمـوه حيـن ثـار عـلى الدولـة الفاطميـة. ولمـا ضاقـت بـه الحـال هـرب إليهـم في جبـل سـالات؛ فوفـروا لـه المـأوى والحمايـة بعـض الوقـت. ولكنهـم عـادوا إلى طاعـة الدولـة الفاطميـة عندمـا فشلـت مقاومتهـم، ويئسـوا مـن جـدوى المدافعـة؛ خاصـة بعـد مـوت أبـي يزيـد. ومنـذ ذلـك التاريـخ أضحـوا في خدمـة جعفـر بـن عـلي والي المسيلـة. ولمـا سـاءت علاقـة جعفـر بالدولـة الفاطميـة سنـة 360هـ(970م) انحـاز بنـو بـرزال إليـه وحالفـوه. لذلـك تكلـم في أمرهـم إلى الحكـم المستنصـر؛ فوافـق عـلى استدعائهـم إلى بـلاد الأندلـس؛ أيـن ألحقهـم بجنـده؛ مثلهـم مثـل بقيـة القبائـل الأمازيغيـة الـتي التحقـت بالدولـة الأمويـة.

وقد اشتهر من أمراء دولة بني برزال بالأندلس محمد بن عبد الله الوردسني البرزالي.[1] ثم خلفه ــ في بعض الأقوال ــ ابنه إسحاق؛ الذي يقال أنه كان عظيم الشأن، عزيز الجانب، شديد الدهاء، حاد الذكاء.[2] أما تاريخ نشأة هذه الإمارة واستبداد أمرائها ــ بصفة نهائية ــ فيعود حسب جل المصادر إلى سنة 404هـ(1013م)؛ إذ تم ذلك بفضل العزيمة التي كان يتحلى بها كل فرد من

---

[1] وفيه أقوال كما سبق ذكره. أما ابن الخطيب فيقول: ((وكان هذا الرئيس يلي باديس ــ من ملوك البرابرة ــ في جلالة الشأن، وقوة السلطان؛ بقية أمراء البرابر المسلطين في هذه الفتنة، وأعظم شأنا في الدهاء والرجولة، وأبصرهم بتدبير العساكر، وأربطهم جاشا على الخطوب المقلقة. وكان مشهورا بذخيرة عتيدة من صامت المال؛ لم يزل يجمعها؛ حائطا لها بالبخل الشديد، واستظهارا بها على الخطب العتيد... وتوفي رئيسهم [رئيس بني برزال] محمد بن عبد الله عن جمع ضخم من قبيل نجيب، وخزين من الطعام؛ لم يجمعه أمير قبله في الفتنة. وصار أمره إلى ولده إسحاق)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 236 ــ 237.

[2] وهو كما يقول ابن الخطيب نقلا عن ابن حيان: ((ورأس إسحاق بعد مهلك أبيه؛ وهو في حد الكهولة. كان مشهورا بالحزم والكفاية والبأس والفروسية؛ يتحلى بشعبة من شعب الكتابة، ويضبط شيئا من الحساب، ويقرأ الدفاتر القريبة. وهو دون أبيه محمد في القسوة والفظاظة، وأذهَبُ منه في فرط العصبية. وكلاهما على ذلك موصوف بالعفة والنزاهة، والبعد عن آفات الملوك الشائنة؛ مع اشتهارهما بالنكوب عن الجماعة، واعتقادهما بمذهب النكاريين من فرق الإباضية الخوارج؛ يستأثران بذلك هما وقومهما من بني برزال؛ أعمالهم وأقوالهم في ذلك معروفة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 237. وللتوسع أنظر أيضا البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 237 ــ 239. ودول الطوائف، ص ص: 146 ــ 149.

قبيلة بني برزال؛ الذين ظلوا طوال مدة إقامتهم ببلاد الأندلس؛ متضامنين ومتجمعين ضمن كتلتهم القبلية المتماسكة والمتلاحمة مع بعضها بعضا. أما إدراج إمارتهم ــ في سياق هذا الفصل المخصص لدول الخوارج ــ فيرجع لما أشيع عن بقائهم على مذهبهم الخارجي في مدة إقامتهم بالأندلس.

وكانت لهذه الإمارة أيام وفتن كثيرة مع القبائل والإمارات المجاورة كـ: بني دمر في مورور، والأدارسة بمالقة أحيانا، وبني عباد في إشبيلية. وثالث أمراء الدولة البرزالية المستبدين هو العزيز بن إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي.[1] إذ يقال أنه عرض على بن ذي النون أن يتنازل له عن قرمونة؛ في مقابل تعويضه بمقاطعة في بلاد ذي النون الجوفية؛ وذلك نكاية في عدوه المعتضد بن عباد؛ المتكالب عليه.[2]

---

[1] يقول ابن خلدون أن العزيز هو ابن محمد وليس ابن إسحاق؛ لأنه يرى في إسحاق جدا لهم، وأبا لعبد الله البرزالي. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 112 ــ 113.

[2] يقول ابن الخطيب: ((ولم تزل الحروب بينهم وبين جيرانهم من قبائل بني دمر وكورة مورور، والمعتضد بن عباد؛ إلى أن ضاقت أحوالهم بقرمونة؛ واضطروا؛ فكتب رئيسهم العزيز بن إسحاق؛ في خبر طويل؛ إلى ابن دنون أن يعطيه قرمونة وأنظارها ليتمكن من نكاية عدوه ابن عباد منها؛ على أن يعطيه المأمون بن دنون عوضا في بلاده الجوفية. فاتفقا على ذلك؛ وخرج العزيز بن إسحاق من قرمونة إلى حصن المدور؛ وقبض رجال ابن دنون ما في المدينة)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 237 ــ 238.

وثمة قول آخر يقولون فيه أنه تنازل عن قرمونة إلى ابن عباد نفسه.[1] ومن ذلك التاريخ المحدد بـ459 هـ(1066م)؛ انقرض ملك بني برزال من الأندلس. كما زال ذكرهم ـ كقبيلة ـ نهائيا في المغرب الأوسط. وبذلك يكون سقوط هذه الإمارة قد تم بفعل التطاحن بين القبائل، والطوائف المتكالبة على السلطان والملك في بلاد الأندلس. حيث ظل أمراء هذه الدولة في حروب وفتن؛ دارت بينهم وبين أبناء عمومتهم الأمازيغ وغيرهم؛ من المنافسين والطامعين؛ كـ: بني دمر في مورور، وبني عباد بإشبيلية؛ وبني حمود بمالقة، وبني الأفطس ببطليوس.

وجملة القول فقد جاءت نهاية الدولة البرزالية؛ كما تحل نهاية أي كيان اعتمد في حياته على المغامرات، والفتن، والمؤامرات. وهكذا انتهت بعد حروب ومعاناة وتقلبات. هذا وقد اندثرت تلك الإمارة دون أن تخلف وراءها أية مآثر حضارية تذكر؛ ولم تترك من التراث الثقافي ما يمكن نقله أو الحديث عنه. وعلى الرغم من وجود هذه الإمارة في بيئة تزخر بالمآثر الثقافية، والإنجازات الحضارية؛ فقد شحت تربتها من ثمرات الحضارة. لأنها لم تكن سوى إمارة قبلية؛ ذات طابع

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 113.

عسكري بحت. ودامت على ذلك الحال حتى سقطت.

هذا ما أمكن ذكره عن الدول الإباضية؛ بدءا بالدولة الرستمية العظيمة؛ التي كانت متفوقة بقيمها الإنسانية، ومزدهرة بعلومها الدينية والدنيوية، ومتقدمة بتسامحها وتفتحها. كما تم التطرق – هنا – إلى بعض الإمارات القبلية الإباضية الصغرى المنضوية تحت مظلة الدولة الرستمية. بالإضافة إلى ذلك تم الحديث عن دولة بني برزال الإباضية بالأندلس. وهكذا.. فما بقي الآن سوى الانتقال إلى موضوع آخر تابع لهذا السياق مع بعض الاختلاف؛ وذلك بالإشارة – في إيجاز – للكيانات الخارجية الأخرى؛ التي لم ترق إلى مستوى الدولة ذات المؤسسات. وإن كانت تشكل شكلا من أشكال الإمارات ذات طابع القبلي حربي.

****

أمراء الحرب والثورة من الخوارج

لا بـد مـن الإشـارة ـ في هـذا المجـال؛ ولـو باقتضـاب ـ إلى الكيانـات الصفريـة الـتي ترأسهـا بعـض القـادة الصفريـة الثائريـن؛ منهـم: ميسـرة المطغـري، وخالـد بـن حميـد الهتـوري الزنـاتي، وعكاشـة بـن أيـوب الفـزاري، وعبـد الواحـد بـن يزيـد الهـوارى، وأبـو قـرة اليفـرني، وعاصـم بـن جميـل الورفجـومي، وثابـت بـن وزيـدون الصنهـاجي، وعبـد الملـك بـن سكرديـد الصنهـاجي؛ وغيرهـم. ثـم الحديـث ـ أيضـا ـ عـن الكيانـات الإباضيـة برئاسـة: عبـد اللـه بـن مسعـود التجيـبي، والحـارث بـن تليـد الحضـرمي، وعبـد الجبـار بـن قيـس المـرادي، وإسماعيـل بـن زيـاد النفـوسي، وأبي الخطـاب عبـد الأعـلى المعافـري، وأبي حاتـم الملـزوزي وآخـرون. بالإضافـة إلى الكيـان الـذي تزعمـه أبـو يزيـد مخلـد بـن كيـداد اليفـرني؛ المنحـرف عـن المذهـب الإبـاضي.

على أنه من الضروري الإفادة بأن تلك الكيانات لا تخرج عن كونها تجمعات قبلية ذات توجهات مذهبية؛ يرأسها بعض الشيوخ والرؤساء؛ الذين توصلوا إلى مرتبة الرئاسة ضمن كتل قبلية – بعض الوقت – بحكم الحلف المعقود بينها في إطار مذهب معين؛ بغرض مواجهة ولاة القيروان أتباع الخلافة الأموية، ثم العباسية بعدها. وعلى هذا فتلك الكيانات الخارجية؛ لم تكن سوى هياكل ظرفية لأحلاف قبلية أمازيغية؛ انتهجت سبيل المذهب الخارجي. وبذلك لا يمكن وضعها في مصاف الدول؛ ذات المؤسسات الدائمة والمستقرة؛ لأنها – كما يبدو – لم تتوصل إلى مرتبة الدولة وشروطها. هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ فلا يمكن اعتبار تلك التجمعات القبلية تجمعات زناتية أو هوارية أو صنهاجية لا غير؛ لأنها كانت تشتمل على خليط متنوع من الانتماءات القبلية؛ وحتى زعماء تلك الأحلاف لم يكونوا – بالضرورة – من الأمازيغ؛ إذ كان فيهم من هو عربي النسب.

هذا وتعود أسباب ظهور تلك الأحلاف القبلية الثائرة ضد الحكم الأموي؛ إلى الانحرافات التي بدأت تميز سلوك ولاة المغرب. وقد انطلقت البوادر الأولى للثورة خلال ولاية يزيد بن مسلم؛ مولى الحجاج بن يوسف الثقفي وصاحب شرطته؛ الذي كان موصوفا بالظلم والطغيان؛ لذا فقد حاول تقليد

سيده، وتطبيق سياسته في بلاد المغرب.[1] إذ أنه كان إلى جانب احتقاره لحراسه من الأمازيغ ــ الذين كانوا؛ كما يقول ابن عبد الحكم: ((**من البتر خاصة؛ وليس فيهم من البرانس أحد**))[2] كما حاول أيضا أن يفرض الجزية على السكان الأصليين؛ على الرغم من دخولهم في الإسلام. ونتيجة لسياسته الجائرة؛ ثار عليه حراسه البتر وقتلوه. فلم يجد الخليفة الأموي ــ يزيد بن عبد الملك ــ بُدّا من تجاوز الأمر، والسكوت عن الحادث.[3]

---

[1] قال ابن خلدون في هذا: ((ولما تولى يزيد بن عبد الملك؛ ولى على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه؛ فقدم سنة إحدى ومائة، وأساء السيرة في البربر، ووضع الجزية على من أسلم من أهل الذمة منهم؛ تأسيا بما فعله الحجاج بالعراق؛ فقتله البربر لشهر من ولايته)). العبر، مج: 4، ص: 403.

[2] قال ابن عذاري: ((وفي سنة 102هـ قدم على إفريقية ــ واليا عليها ــ يزيد بن أبي مسلم. وكان ظلوما غشوما. وكان البربر يحرسونه. فقام على المنبر خطيبا؛ فقال: "إني رأيت أن أرسم اسم حرسي في أيديهم كما تصنع ملوك الروم بحرسها. فأرسم في يمين الرجل اسمه، وفي يساره ((حرسي))؛ ليعرفوا بذلك بين سائر الناس؛ فإذا وقفوا على أحد؛ أسرع لما أمرت به". فلما سمعوا ذلك منه ــ أعني حرسه ــ اتفقوا على قتله؛ وقالوا: "جعلنا بمنزلة النصارى!"؛ فلما خرج من داره إلى المسجد ــ لصلاة الصبح ــ قتلوه في مصلاه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 48. أنظر أيضا فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم، ص: 289. وتاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني، ص ص: 99 ــ 100.

[3] قال الطبري: ((وكان سبب ذلك أنه كان ــ فيما ذكر ــ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل العراق؛ ممن ردهم إلى قراهم

ونتيجة لذلك استقام الحال ــ بعض الوقت ــ وانطفأت جذوة الثورة في النفوس. غير أن هذا الهدوء لم يدم طويلا؛ إذ كان بمثابة الهدوء الذي يسبق العاصفة. حيث اندلعت ــ بعد ذاك ــ ثورة أمازيغية عظيمة؛ كادت أن تقضي على حكم الأمويين ــ نهائيا ــ في بلاد المغرب. حدث ذلك خلال ولاية عبيد الله بن الحبحاب ــ الذي ولي على إفريقية سنة 116هـ(734م) ــ حدث ذلك تبعا لسوء تدبير عامله على طنجة؛ عمر بن عبد الله المرادي؛ الذي اتسم حكمه بالتعسف والتعصب واحتقار السكان من الأمازيغ؛ الأمر الذي أغراه باتخاذ قرار مخالف للشرع؛ إذ فرض الجزية على المسلمين من الأمازيغ؛ مما تسبب في تفجير ما بالنفوس من ضغائن مكبوتة، وضغوط مكتومة؛ فانفلت ما كانت تنطوي عليه صدور سكان

ورساتيقهم، ووضع الجزية على رقابهم؛ على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم؛ فلما عزم على ذلك؛ تآمروا في أمره؛ فأجمع رأيهم فيما ذكر على قتله؛ فقتلوه؛ وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان عليهم قبل يزيد بن أبي مسلم؛ وهو محمد بن يزيد مولى الأنصار؛ وكان في جيش يزيد بن أبي مسلم. وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: "إنا لم نخلع أيدينا من الطاعة؛ ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى [به] الله والمسلمون؛ فقتلناه، وأعدنا عاملك". فكتب إليهم يزيد ابن عبد الملك: "إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم؛ وأقر محمد بن يزيد على إفريقية")). تاريخ الأمم والملوك، ج: 8، ص: 167.

المغرب من شحنات مدمرة.[1] ويبدو أن الأوضاع العامة كانت جاهزة للانفجار؛ ولم يبق سوى الشرارة التي ستشعل الفتيل.[2]

ونتيجة لهذا فقد دخلت بلاد المغرب عهدا جديدا قاتما؛ سادت فيه الثورات، التي تسببت في تقلص نفوذ الخلافة الأموية، وتراجعه. وأصبحت البلاد ــ منذ ذلك التاريخ ــ مقسمة بين القبائل الأمازيغية المختلفة؛ التي استطاعت ــ في ظل الوضع المتردي ــ الخروج عن نفوذ الدولة الأم؛

---

[1] وفيه يقول ابن عذاري: ((ثم إن عمر بن عبد الله المرادي ــ عامل طنجة وما والاها ــ أساء السيرة، وتعدى في الصدقات والعشر؛ وأراد تخميس البربر. وزعم أنهم فيء المسلمين؛ وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله؛ وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام. فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير القتل في العباد. نعوذ بالله من الظلم؛ الذي هو وبال على أهله)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 51 ــ 52. أنظر عن هذا ــ أيضا ــ تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 100. والكامل لابن الأثير، ج: 4، ص: 222. والعبر، مج: 4، ص: 405.

[2] وقد أشار ابن خلدون إلى بعض الأسباب التي شحنت النفوس، وأغضبت الناس من ولاة الدولة الأموية؛ إذ قال: ((ولما ولي عبيد الله بن الحبحاب على إفريقية؛ من قبل هشام بن عبد الملك... استعمل عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى، وابنه إسماعيل على السوس وما وراءه. واتصل أمر ولايتهم، وساءت سيرتهم في البربر، ونقموا عليهم أحوالهم، وما كانوا يطالبونهم به من الوصائف البربريات، والأفرية العسلية الألوان، وأنواع طُرف المغرب؛ فكانوا يتغالون في جمعهم ذلك وانتحاله. حتى كانت الصرمة من الغنم تستهلك في الذبح؛ لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها؛ ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه. فكثر عيثهم بذلك في أموال البربر وجورهم عليهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 239 ــ 240.

وحتى إن قامت بعض الدول والإمارات في تلك الربوع؛ فقد كانت خاضعة لسلطان العصبيات والقبائل المتباينة والمتنافرة بهذه الديار. وهكذا غدت بلاد المغرب مسرحا واسعا ترتع فيه كيانات فوضوية؛ لا هدف لها سوى المكاسب المؤقتة؛ التي تأتي عن طريق المغامرات الجنونية، والفتن المدمرة. وعليه فقد انتشرت ثورات الصفرية بشكل واسع؛ بقيادة بعض الثائرين؛ الذين ترأسوا ما يمكن تسميته ــ مجازا ــ إمارة مثل:

ــ إمارة ميسرة الخفير المطغري الصفري: يعود ظهور ميسرة المطغري في مسرح الأحداث؛ كنتيجة حتمية لما أبداه ولاة الدولة الأموية من نهب وعسف واستهانة بأهل البلاد من المسلمين[1]. فبسبب كل ذلك انطلقت ثورة عارمة في سنة 122هـ(739م) بدءا بطنجة؛ حيث قتل فيها عمر ابن عبد الله المرادي؛ العامل الذي عينه ابن الحبحاب فيها؛ ثم انتشر لهيب الثورة ــ بعد

---

[1] قال ابن عذاري: ((وكان السبب في ثورة البربر بالمغرب، وقيام ميسرة؛ أنها أنكرت على عامل ابن الحبحاب سوء سيرته كما ذكرنا. وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية؛ فيبعثون لهم البربريات السنيات. فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب؛ مناهم بالكثير، وتكلف لهم ــ أو كلفوه ــ أكثر مما كان. فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة؛ فحينئذ عدت البرابر على عاملهم؛ فقتلوه وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 52.

ذلك – إلى أماكن أخرى في بلاد المغرب. وكانت الفكرة السائدة التي فجرت هذه الثورة مستمدة من عقيدة خارجية، وصفرية بالذات كما يقال.

وانتصب ميسرة المطغري الصفري قائدا للقبائل الأمازيغية الثائرة؛ بل يقال أنه بويع بالخلافة؛ ولكن أنصاره انتفضوا عليه، ثم قتلوه بعد فترة قصيرة؛ ربما حدث له ذلك العزل، ثم القتل؛ بسبب خروجه عن الضوابط المتفق عليها في تسيير شئونهم؛ أو لعجزه وضعف كفاءته الحربية؛ خاصة وأن انسحابه أمام جيش القيروان بالقرب من طنجة؛ دون سبب مقنع؛ قد يجيز ما تعرض له من عزل. أما ما تذكره المصادر التاريخية – دون تفسير أيضا – عن قتل الصفرية لميسرة؛ فربما حدث ذلك بسبب رفضه ترك منصب القيادة. ويبدو أن ضعف موقفه – أيضا – جاء من كون قبيلته مطغرة؛ لم تكن تمثل القوة الرئيسية الضاربة في ذلك الحلف القبلي الصفري. وهذا يتفق مع نظرية ابن خلدون التي فسرها ضمن: "**فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية**".[1]

---

[1] **ويقول فيها: ((أعلم أن كل حي أو بطن من القبائل – وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام لهم – ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم... والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم؛ ولا تكون في الكل. ولما كانت الرياسة إنما بالغلب؛ وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب؛ ليقع الغلب بها وتتم**

ـ إمارة خالد بن حميد الهتوري الزناتي الصفري:
وبعد أن قتل ثوار الصفرية قائدهم ميسرة المطغري في سنة 122هـ(739م)؛ أسندوا قيادتهم إلى خالد بن حميد الزناتي؛ الذي ينتمي إلى بطن من زناتة يسمى هتورة. فتولى أمرهم بجدارة واقتدار؛ إذ قادهم في معارك ضد الأمويين؛ برهن فيها على قدرات عسكرية كبيرة. افتتح انتصاراته بالهزيمة التي ألحقها بجيش الأمويين في الموقعة المسماة غزوة الأشراف.[1] وكانت تلك الهزيمة ضربة شديدة المفعول؛ بحيث هزت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وأغضبته إلى أبعد الحدود؛ فلم يتمالك نفسه حين قال بعصبية عربية واضحة: **((والله لأغضبن لهم غضبة عربية، ولأبعثن لهم جيشا**

الرياسة لأهلها... ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه؛ لما قلناه من سر الغلب؛ لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر؛ فلا بد من غلبة أحدها؛ وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 ـ 599.

[1] قال ابن الأثير في ذلك: ((ثم التقى خالد بن حميد [الزناتي] ـ ومعه البربر ـ خالد بن حبيب [الفهري] ـ ومعه العرب وعسكر هشام ـ وكان بينهم قتال شديد صبرت فيه العرب؛ وظهر عليهم كمين من البربر؛ فانهزموا؛ وكره خالد بن حبيب [الفهري] أن ينهزم من البربر؛ فصبروا معه؛ فقتلوا جميعهم؛ وقتل في هذه الوقعة حماة العرب وفرسانها؛ فسميت وقعة الأشراف؛ فانتقضت البلاد، ومرج أمر الناس؛ وبلغ أهل الأندلس الخبر؛ فثاروا بأميرهم عقبة بن الحجاج؛ فعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن؛ فاختلطت الأمور على ابن الحبحاب)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223. أنظر أيضا تاريخ إفريقية والمغرب للقيرواني، ص ص: 100 ـــ 101.

أولــه عندهــم وآخــره عنــدي. ثــم لا تركــت حصــنَ بربــري إلا جعلــت إلى جانبــه خيمــة قيــسي أو تميــمي)).[1]
وهكــذا لا تخلــو قولتــه هــذه ــ طبعــا مــن عاطفــة ونزعــة مفعمــة برواســب العصبيــة العربيــة المعهــودة في بــني أميــة:

وكانــت معركــة الأشــراف إشــارة خطيــرة لبــني أميــة؛ كــان مــن المفــروض تداركهــا بعــلاج سليــم يسمــح بــلأم الجــراح وشفــاء النفــوس العليلــة؛ ولكــن غضــب الخليفــة لــم يتــرك لــه مجــالا لإصــلاح مــا فســد. وعليــه فيمكــن اعتبــار ردود أفعــال الخليفــة هشــام بمثابــة الخطــوة الخطيــرة؛ الــتي أدت إلى خــروج مناطــق كثيــرة مــن بــلاد المغــرب ــ الأقــصى والأوســط ــ عــن النفــوذ الأمــوي نهائيــا. هــذا بالإضافــة إلى مــا حــدث مــن عصيــان في بــلاد الأندلــس. تلــك الديــار الــتي ثــار بهــا ــ أيضــا ــ جمــع مــن الأمازيــغ ومــن العــرب كذلــك؛ أولئــك العــرب الذيــن كانــت تتقاذفهــم الصراعــات القبليــة؛ بيــن يمنيــة وقيسيــة. الأمــر الــذي حــال دون أن تتمكــن أي عصبيــة مــن التغلــب عــلى العصبيــات والقبائــل الأخــرى المنتشــرة في ربــوع الأندلــس الواسعــة.

---

[1] تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 111. والكامــل في التاريــخ، ج: 4، ص: 223. والبيــان المغــرب، ج: 1، ص: 54.

وهذا يؤكد ما فسره ابن خلدون في الفقرات السابقة؛ التي تتكلم عن ضرورة تغلب أحد العناصر على بقية العناصر لكي يتحقق المزاج في المتكون.[1]

وحتى الجيش الذي بعث به الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ـ بقيادة كلثوم بن عياض القشيري ـ سنة 123هـ (740م)؛ بهدف تأديب الأمازيغ؛ أضحى ـ في حد ذاته ـ عامل فرقة لصفوف العرب؛ أكثر من أن يكون عامل وحدة والتحام. إذ بمجرد وصول طليعة ذلك الجيش العربي ـ التي كان على رأسها بلج بن بشر القشيري (ابن عم الوالي الجديد كلثوم بن عياض القشيري) ـ إلى القيروان؛ حتى انقسم الناس بين عرب استوطنوا القيروان من قبل؛ وعرب وفدوا إليها حديثا. فها هو بلج بن بشر يستفز الناس بعنجهيته، وبعصبيته القيسية الحمقاء؛ حين أراد ـ بكل صفاقة وغرور ـ إنزال عساكره في منازل أهل المدينة. حيث تفوه بكلام أغضبهم ـ كما جاء في المصادر ـ فبعثوا شكواهم إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري؛ الذي كان مرابطا في مواجهة الأمازيغ بتلمسان. فكتب إلى كلثوم بن عياض يقول له: ((**إن ابن عمك السفيه قال كذا وكذا. فارحل بعسكرك عنهم؛ وإلا حولنا**

---

[1] أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 598 ـ 599.

أعنــة الخيــل إليــك)).[1] فســارع كلثــوم بــن عيــاض إلى الاعتــذار لحبيــب؛ وضــرب لــه موعــدا في شلــف. غيــر أن كلثــوم بــن عيــاض تمــادى في سلوكــه الخــاطئ؛ إذ أن سكوتــه عــن حماقــة بلــج؛ شجعــه عــلى معــاودة تهــوره؛ حيــن اشتبــك ـ أيضــا ـ مــع حبيــب عنــد التقائهمــا بشلــف.[2] هــذه هي العصبيــة عندمــا تصبــح قاتلــة ومدمــرة. إذ انتــهى الحــال بالعــرب إلى هزيمــة أفظــع مــن الأولى؛ حيــث كــان الخــلاف بينهــم شديــدا، والشنــآن يقســم صفوفهــم؛ فــلا يتفقــون عــل خطــة، ولا يجتمعــون عــلى رأي سليــم.[3]

---

[1] البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 54. أنظــر أيضــا الكامــل في التاريــخ، ج: 4، ص: 123. والعبــر، مج: 4، ص: 406.

[2] وقــد أورد ابــن عــذاري نصــا مهمــا يشــرح مــا دار بيــن الطرفيــن. وهــذا النــص التاريــخي يفســر الحــال المزريــة؛ الــتي أضــحى عليهــا العــرب في ديــار المغــرب. فممــا قالــه: ((فاستخلــف كلثــوم عــلى القيــروان عبــد الرحمــن بــن عقبــة الغفــاري؛ وســار حــتى وصــل عسكــر حبيــب فرفضــه، واستهــان بــه؛ وســب بلــج بــن بشــر لحبيــب وتنقصــه؛ وقــال: "هــذا الــذي يحــول أعنــة الخيــل إلينــا"؛ فقــام إليــه عبــد الرحمــن بــن حبيــب؛ وقــال: "يــا بلــج! هــذا حبيــب! فــإذا شئــت؛ فأعــرض لــه للمقابلــة!" وصــاح النــاس: "الســلاح! الســلاح!" فمــال أهــل إفريقيــة إلى ناحيــة، ومعهــم أهــل مصــر. ثــم ســعى بينهــم في الصلــح. فكــان هــذا الاختــلاف سبــب هلاكهــم؛ مــع ســوء رأي كلثــوم وبلــج)). البيــان المغــرب، ج: 1، ص ص: 54 ــ 55. أنظــر أيضــا تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 113.

[3] شــرح ابــن الأثيــر مــا جــرى بقولــه: ((وتقــدم إليهــم البربــر مــن طنجــة؛ فقــال لهــم حبيــب: "اجعلــوا الرجالــة للرجالــة، والخيالــة للخيالــة؛ فلــم يقبلــوا منــه؛ وتقــدم كلثــوم بالخيــل؛ فقاتلــه رجالــة البربــر فهزمــوه؛ فعــاد كلثــوم منهزمــا؛ ووهــن النــاس ذلــك؛ ونشــب القتــال، وانكشفــت خيالــة البربــر، وثبتــت رجالتهــا؛ واشتــد القتــال، وكثــر البربــر عليهــم؛ فقتــل كلثــوم بــن عيــاض، وحبيــب بــن أبي عبيــدة،

وكانت النتيجة هي قتل كلثوم وأكثر قادة جيشه وفرسانه؛ بينما فر بلج ابن بشر ومن لحق به من أهل الشام إلى سبتة؛ حيث بقي بها محاصرا إلى سنة 124هـ(741م)؛ أين تمكن مع أتباعه من الالتحاق بأرض الأندلس.

وغدا ــ بعد ذاك ــ المغرب كله مسرحا واسعا ترتع فيه مختلف القبائل والفرق الخارجية: من صفرية وإباضية. وقد يعتبر هذا التاريخ؛ هو نهاية العهد الذي كانت فيه الخلافة العربية ــ في الشام ثم بغداد بعدئذ ــ هي السلطة المركزية؛ المهيمنة بنفوذها وسلطانها على تلك الأنحاء؛ إذ غدت ديار المغرب ــ منذئذ ــ أقطارا خارجة عن حكم الخلافة؛ تلك الخلافة التي لم يبق لها سوى ربوع إفريقية بقاعدتها القيروان. وحتى هذه الأخيرة أصبحت في أيدي بعض الولاة المستبدين بالبلاد دونها.

وبهذا أصبح العرب منشغلين بحماية القيروان نفسها؛ ضد هجمات الأمازيغ؛ سواء كانوا من أتباع المذهب الصفري، أو من أصحاب المذهب الإباضي. ولم تعد الغزوات البعيدة تستهويهم؛ بسبب تغلب الخوارج ــ من صفرية وإباضية ــ على تلك المناطق النائية. وهكذا.. فقد أذهلتهم الهزيمة

ووجوه العرب؛ وانهزمت العرب وتفرقوا؛ فمضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر، وعبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة، وعاد بعضهم إلى القيروان)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 223.

الأخيـرة؛ الـتي لحقـت بالجيـش العـربي؛ وانكشـف للنـاس مـا أضـحى عليـه العـرب مـن ضعـف وتفكـك بسبـب العصبيـة الهوجـاء. كمـا ظهـرت لهـم عيـوب الـوالي الجديـد كلثـوم بـن عيـاض؛ الـذي لا رأي لـه ولا حكمـة. وعليـه فقـد وجـدوا أنفسهـم ــ فجـأة ــ بـدون قائـد عـام؛ ينسـق بيـن القيـادات، ويـرعى شئـون العامـة.

ــ إمـارة عكاشـة بـن أيـوب الفـزاري الصفـري:

ينتسـب هـذا الثائـر الصفـري إلى قبيلـة عربيـة[1] ــ كمـا يظهـر مـن اسمـه ــ وهي قبيلـة فـزارة العدنانيـة القيسيـة. وكـان في البدايـة أحـد القـادة الفرسـان في جيـش عبيـد اللـه بـن الحبحـاب؛ إذ قـدم معـه إلى المغـرب؛ ضمـن جنـد الشـام.[2] ولكنـه انضـم ــ رفقـة أخيـه ــ إلى الصفريـة، ولا يعـرف حـتى الآن مـتى اعتنـق مذهبهـم؛ هـل حـدث ذلـك بعـد وصولـه إلى إفريقيـة؛ أم جـاء مـن المشـرق بقناعاتـه الخارجيـة. المهـم أنـه أصبـح بسهولـة ــ في ظـروف غامضـة ــ قائـدا وزعيمـا لفئـة مـن الثـوار الأمازيـغ الصفريـة. ومـع هـذا يبـدو أنـه كـان أضعـف مـن بقيـة الثـوار الأمازيـغ.

---

[1] أخطـأ كثيـر مـن المؤرخيـن المحدثيـن حيـن نسبـوه إلى زناتـة؛ نظـرا لقيادتـه لجماعـة مـن زناتـة.

[2] أنظـر تاريـخ إفريقيـة والمغـرب للرقيـق القيـرواني، ص: **114**.

وربما رجع السبب إلى ما تفرضه سنن العصبية؛ التي لا يستهويها سوى الانتساب المطلق إليها؛[1] ولما كان عكاشة من المنتسبين إلى العرب فقد قل أنصاره، وضعفت شوكته. غير أن عاملي: الدين والمذهب ساعداه ـ شيئا ما ـ في جمع بعض الفئات الزناتية الساخطة على الحكم الأموي. ومع ذلك لا يكفي العامل الديني والمذهبي وحده؛ إذ لا بد من توفر شرط العصبية؛ كما قال ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[2] المهم أنه انطلق بثورته في جهات قابس؛ منتهزا فرصة خروج كلثوم بن عياض بالجند إلى طنجة. وكان كلثوم قد استخلف على القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وعقد لمسلمة بن سوادة القرشي لواء الحرب فيها. فبدأ عكاشة حركته بإرسال أخيه إلى (صبرة) قصد تعبئة عشائر زناتة ـ في تلك الجهات ـ والعمل على التغلب عليها.

---

[1] يقول ابن خلدون ضمن: "فصل في أن الرياسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم" ((والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية فيهم بالنسب؛ إنما هو ملصق لزيق؛ وغاية التعصب له بالولاء والحلف؛ وذلك لا يوجب له غلبا عليهم ألبته)). المقدمة، ج: 2، ص: 599.

[2] أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 638 ـ 642.

وبالفعل تمكن أخو عكاشة من جمع أعداد كبيرة من الزناتيين؛ الذين حاصر (**صبرة**) بهم؛ إلا أن عامل طرابلس صفوان بن مالك تفطن للخطر المداهم؛ فسارع إلى الخروج إليه؛ أين تمكن من التغلب عليه؛ وأجبره على الانهزام إلى حيث أخيه في جهات قابس. وكرد فعل غير مدروس خرج مسلمة بن سوادة في جيش من القيروان؛ قصد تأديب عكاشة الفزاري في قابس؛ ولما التقى الجمعان حلت الهزيمة بمسلمة بن سوادة؛ حيث قتل من أتباعه عدد كبير؛ فعاد إلى القيروان منهزما؛ وهناك عزله عبد الرحمن بن عقبة الغفاري، وكلف بدلا منه سعيد بن بجرة الغساني؛ فاختاروا التحصن خلف أسوار القيروان خوفا من عكاشة.[1]

وبقيت الحال ــ بين عكاشة وعمال الدولة الأموية في القيروان وطرابلس ــ متشنجة ومضطربة؛ اضطر فيها عكاشة إلى شن حرب عصابات عليهم ــ انتصر فيها حينا وانهزم حينا آخر ــ ومن نتائجها قتل عبد الرحمن بن عقبة الغفاري؛ الذي وجهه لقتال عكاشة والي إفريقية الجديد حنظلة بن صفوان الكلبي؛ الذي قدم إليها في سنة 124هـ(741م).[2]

---

[1] **فتوح مصر والمغرب، ص ص: 294 ــ 295.**

[2] **نفسه، ص: 298.**

وكان حنظلة بن صفوان يختلف كثيرا عن سابقه كلثوم بن عياض؛ حيث اتصف بالحنكة والذكاء والدهاء. وفي خضم هذه الأحداث؛ ظهر ــ في الأفق ــ قائد صفري آخر؛ وهو عبد الواحد ابن يزيد الهواري ــ سيأتي الحديث عنه لاحقا ــ حيث اتفق معه عكاشة على التعاون والتنسيق بهدف احتلال القيروان؛ فزحف عكاشة من جنوبها؛ بينما أتاها عبد الواحد من الشمال.

ويبدو أن منافسة خفية كانت بين القائدين الصفريين؛ فعلى الرغم من مظهر التنسيق بينهما؛ إلا أن عكاشة تسرع في زحفه نحو القيروان قبل وصول عبد الواحد إليها.[1] وقد يكون ذلك تعبيرا عما في نفسه من أطماع؛ أغرته بمحاولة احتلال القيروان قبل وصول حليفه عبد الواحد الهواري. الأمر الذي سيعزز مركزه أمامه.

---

[1] **قال في هذا ابن عبد الحكم: ((ثم مضى عبد الواحد بن يزيد؛ فأخذ تونس واستولى عليها؛ وسلم عليه بالخلافة، ثم تقدم إلى القيروان؛ وانتبذ الفزاري بعسكره ناحية؛ وكلاهما يريد القيروان؛ يتبادران إليها؛ أيهما يسبق صاحبه فيغنم)). فتوح مصر والمغرب، ص ص: 298 ــ 299.**

وبالفعل فقد التقى عكاشة مع الوالي الجديد ــ حنظلة بن صفوان ــ في موضع قريب من القيروان يسمى (القرن)؛ وانتهت المعركة بهزيمة كاسحة لجيش عكاشة؛ الذي فرّ؛ ولكن أدركه من ساقه أسيرا إلى حنظلة؛ حيث أمر بقتله في سنة 125هـ(742م).[1] وهكذا ارتكب عكاشة خطأ فادحا؛ بمخالفته الخطة التي اتفق عليها مع حليفه عبد الواحد بن يزيد؛ إذ تعجل في القدوم إلى مشارف القيروان؛ قبل أن يصل إليه جيش عبد الواحد؛ الأمر الذي جعل حنظلة بن صفوان يسارع إلى انتهاز الفرصة؛ قبل اجتماع الجيشين عليه؛ فبدأ بالهجوم على عكاشة؛ الذي ظهر لحنظلة أنه يشكل الطرف الضعيف بين خصميه. وهكذا استغل والي القيروان المحنك هذا النصر في رفع معنويات جنوده، وشحذ هممهم؛ استعدادا للمعركة القادمة.

---

[1] اختلفت رواية ابن عبد الحكم عن روايات: الرقيق القيرواني، وابن الأثير وابن عذاري؛ حيث ذكر ابن عبد الحكم أن أول من التقى به جيش حنظلة هو عبد الواحد؛ ثم توجه بعده إلى عكاشة. بينما يخالفه في ذلك الرقيق وابن الأثير وابن عذاري الذي يقول: ((فرأى حنظلة أن يعجل قتال عكاشة؛ قبل أن يجتمعا عليه. فزحف إليه بجماعة أهل القيروان. فالتقوا بـ(القرن)؛ وكان بينهم قتال شديد. فهزم الله عكاشة ومن معه؛ وقتل من البربر ما لا يحصى كثرة)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 58. وتاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والكامل، ج: 4، ص: 223.

ـ إمارة عبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري:

كان ظهوره الأول في شرق طرابلس؛ حيث استنجد به عكاشة؛ في قتاله ضد عبد الرحمن بن عقبة. ولما انتصرا في الموقعة التي قتل فيها عبد الرحمن؛ اتفق الاثنان على الذهاب إلى المغرب الأوسط؛ لكي يبحثا عن أنصار جدد، ويحرضا الصفرية فيه على احتلال مركز الولاية الأموية بالقيروان. وبالفعل تمكن الاثنان من جمع أعداد كبيرة من المتحمسين للقضاء على الحكم الأموي وإزالته من ديار المغرب. وقبل انطلاق المتحالفين من منطلقهم في ناحية من نواحي الزاب؛ وضعوا خطة محكمة؛ ربما كانت كفيلة بنجاح مسعاهم ـ لو طبقت بدقة ـ إذ تقتضي الخطة أن يزحف جيشان إلى القيروان: الأول بقيادة عكاشة؛ من جهة الجنوب؛ والثاني بقيادة عبد الواحد؛ من الشمال؛ على أن يلتقيا في وقت واحد حول القيروان؛ وبذلك يكونان كماشة تنقض على عدوهما؛ فيعجز عن المقاومة ويسقط فريسة بين أيديهم.

وبالفعل انطلق عكاشة عبر السهول الممتدة جنوب الأوراس؛ في اتجاه تبسة وباجة ثم القيروان. أما عبد الواحد فقد زحف من الشمال؛ عبر المناطق الجبلية[1] الصعبة؛ التي كانت كفيلة بتعطيل حركته؛ كما أنه ـ بسعيه لجمع متطوعين جدد

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 116. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 58.

مــن القبائــل الأمازيغيــة ــ زاد في ثقــل حركتــه وبــطء سيــره. ولكنه استفــاد إذ حقــق نجاحــات معتبــرة؛ عندمــا التحــق بــه عــدد كبيــر مــن أبنــاء تلــك القبائــل. وقــد ــ تمكــن في خــط سيــره ــ مــن احتــلال مدينــة باجــة؛ أيــن اشتبــك ــ هنــاك ــ مــع جيــش القيــروان مــرات عديــدة؛ حالــف النصــر فيهــا عبــد الواحــد. وبعدهــا انتقــل عبــد الواحــد إلى تونــس فدخلهــا منتصــرا. وفي الأخيــر زحــف إلى القيــروان؛ حيــث وصلــه خبــر هزيمــة حليفــه عكاشــة؛ بعــد أن خالــف الخطــة المتفــق عليهــا؛ إذ انتهــز فرصــة تعطــل عبــد الواحــد؛ فسولــت لــه نفســه الانفــراد باحتــلال القيــروان؛ الأمــر الــذي سيساعــده عــلى التفــوق عليــه؛ وبذلــك يمكنــه تعديــل الكفــة؛ الــتي مالــت إلى صالــح حليفــه ومنافســه عبــد الواحــد؛ بحكــم امتلاكــه لعامــل العصبيــة الأمازيغيــة؛ تلــك العصبيــة الــتي يفتقــر إليهــا عكاشــة.

وبعــد سمــاع عبــد الواحــد بهزيمــة عكاشــة، والتأكــد مــن مقتلــه؛ اضطــر إلى خــوض المعركــة بجيشــه منفــردا. وبالفعــل حدثــت المعركــة الكبــرى الفاصلــة؛ في موضــع يبعــد عــن القيــروان بثلاثــة أميــال تقريبــا؛ يســمى (الأصنــام). وكانــت معركــة مهولــة؛ حالــف النصــر فيهــا حنظلــة بــن صفــوان؛ حيــث تمكــن جيشــه مــن قتــل آلاف مــن الصفريــة؛ بمــا فيهــم عبــد الواحــد بــن يزيــد نفســه؛ وذلــك في سنــة 125هــ(742م).

هذا وتجدر الإشارة أن أهل القيروان تمكنوا من النصر؛ بفضل شعورهم بوحدة المصير، وبفضل المجهودات التي بذلها علماء المدينة؛ حيث كثفوا نشاطهم في الدعوة إلى القتال، وحث الناس على المقاومة، إذ حذروهم من مغبة الفرقة أو التهاون والخذلان؛ كما ذكروهم بما قد يلحق بهم وبنسائهم من طرف الصفرية؛ الذين يستحلون سبي المسلمات، ويجيزون استعباد الأبناء؛ كما يبيحون سفك دماء المسلمين من أطفال وشيوخ. وبالفعل حققت دعوتهم نجاحات كبيرة؛ إذ حميت همم الناس؛ فكسروا أجفان سيوفهم؛ وخرجوا للقتال ومعهم نساؤهم يحرضنهم ويشحذن هممهم. ونتيجة لتلك العوامل النفسية؛ تمكنوا[1] من التغلب على الصفرية؛ وفتكوا بهم فتكا عظيما؛ على الرغم من قلة عددهم؛ وكثرة أعداد أعدائهم.

ـ إمارة ثابت بن وازيدون الصنهاجي الصفري: لا يعرف عن هذا الرجل ما يمكن به تكوين فكرة واضحة عنه؛ إذ يكتنف أخباره غموض كثيف؛ ويبدو أنه كان من أتباع عبد الواحد بن يزيد الهواري الصفري؛ ولم تذكر المصادر التاريخية عنه سوى خبر ثورته في باجة، وتغلبه عليها سنة 130هـ(747م)؛ في أيام عبد الرحمن بن حبيب

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 119 ـ 122.

الفهري ـ الذي عزل حنظلة وافتك منه القيروان ـ وبعدها صمتت المصادر ـ نهائيا ـ عن الحديث في شأن ثابت الصنهاجي هذا؛ ولم تشر إن كان قد فر حيا أم قتل.

ـ إمارة عاصم بن جميل الورفجومي الولهاصي الصفري:
لقد ترك هذا الرجل ـ وأخوه المدعو مكرم ـ أثرا سيئا في تاريخ إفريقية والمغرب؛ نتيجة للفظائع وللوحشية التي ارتكبها هو وأتباعه من صفرية ورفجومة في القيروان سنة 138هـ(755م). ويقول فيه ابن الأثير: **((وكان مقدم ورفجومة رجلا اسمه عاصم بن جميل؛ وكان قد ادعى النبوة والكهانة؛ فبدل الدين، وزاد الصلاة، وأسقط ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من الأذان... ودخل عاصم ومن معه القيروان. فاستحلت ورفجومة المحرمات؛ وسبوا النساء والصبيان؛ وربطوا دوابهم في الجامع وأفسدوا فيه)).**[1] وذكر ابن خلدون؛ اسم رجل آخر كان بين المرافقين لعاصم بن جميل ـ في

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 280. أما القيرواني فيقول: ((ودخلت ورفجومة القيروان؛ فاستحلوا المحارم، وارتكبوا العظائم؛ نزل عاصم ـ بعسكره ـ في الموضع الذي يسمى (مصلى روح) واستخلف على القيروان عبد الملك بن أبي الجعد النفزي... ولما حكمت ورفجومة على القيروان؛ قتلوا من كان بها من قريش، وساموهم العذاب؛ وربطوا دوابهم في المسجد الجامع)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 141.

زحفه إلى القيروان. وقال أنه: يزيد بن سكوم الولهاصي.

ـ أمير ولهاصة يزيد بن سكوم الولهاصي النفزاوي.
ولا يوجد ما يفيد عن هذا الرجل؛ سوى ما ذكره ابن خلدون؛ إذ قال أنه كان يرافق رئيس ورفجومة عاصم بن جميل؛ حين غزا القيروان سنة 138هـ.

ـ إمارة عبد الملك بن أبي الجعد النفزي الصفري:
قدم هذا الرجل مع عاصم بن جميل إلى القيروان أيضا في سنة 138هـ؛ حيث ولاه عليها؛ عند خروجه لمطاردة أعدائه. ولما قتل عاصم أصبح أمر ورفجومة بين يدي عبد الملك بن أبي الجعد؛ فحكم القيروان بيد من نار وحديد؛ وسار على نهج عاصم في العيث والفساد وارتكاب المحرمات. وكانت نهايته بواسطة أبي الخطاب عبد الأعلى الإباضي؛ الذي استاء مما سمعه عن عيث ورفجومة؛ وما قامت به من فساد في القيروان؛ فزحف إليها، حيث تغلب على القيروان، وأخرج ورفجومة منها؛ بعد أن قتل عبد الملك بن الجعد، وفتك بأتباعه؛ من تلك الفئة الباغية سنة 140هـ(757م).

ـ إمـارة عبـد الملـك بن سكرديـد الصنهـاجي الصفـري: هكـذا سمـاه ابـن عـذاري؛ ولا يعـرف عـن هـذا القائـد الصفـري؛ سـوى أنـه كـان يقـود ألفيـن مـن الصفريـة؛ خـلال حصارهـم ـ ضمـن الحلـف الصفـري الإبـاضي ـ لعمـر بـن حفـص بـن قبيصـة والي إفريقيـة؛ بمدينـة طبنـة حاضـرة الـزاب في سنـة 153هـ(770م). غيـر أن ابـن خلـدون سمـاه عبـد اللـه بـن سكرديـد؛ وقـال أنـه أحـد أمـراء الصفريـة الصنهاجييـن؛ ومـن أتبـاع ثابـت ابـن وازيـدون الصنهـاجي المذكـور آنفـا.

ـ إمـارة أبي قـرة بـن دونـاس اليفـرني الصفـري: ينسبـه بعضهـم إلى مغيلـة؛ غيـر أن المحققيـن مـن المؤرخيـن ينسبونـه إلى بـني يفـرن.[1] وكـان أول ظهـور لهـذا الرجـل ـ في مسـرح الأحـداث بشكـل واضـح ـ أثنـاء زحـف عبـد الواحـد بـن يزيـد الهـوري إلى القيـروان؛ حيـث ذكـرت الأخبـار أن عبـد الواحـد جعلـه عـلى رأس مقدمـة جيشـه.[2] وإن كـان ـ في الحقيقـة ـ مـن بيـن زعمـاء الصفريـة؛ المتحالفيـن في السابـق مـع ميسـرة المطغـري؛ إلا أنـه لـم يلفـت نظـر المؤرخيـن.

---

[1] العبـر، مج: 7، ص: 24.

[2] فتـوح مصـر والمغـرب، ص: 299. والبيـان المغـرب، ج: 1، ص: 58.

ولما قدم عبد الواحد بن يزيد الهواري ــ مع عكاشة ــ إلى المغرب الأوسط طالبين المؤازرة والدعم؛ بغرض الهجوم على القيروان؛ كان أبو قرة هذا من الملبين لدعوتهما. فانضم إلى عبد الواحد؛ حيث تولى أمر مقدمة جيشه.

ولما حلت الهزيمة بالصفرية، وقتل قائدهم عبد الواحد بن يزيد؛ عاد أبو قرة إلى المغرب الأوسط؛ حيث لعب ــ مرة أخرى ــ دور المشاغب في سنة 150هـ(767م)؛ خلال ولاية الأغلب بن سالم التميمي على القيروان. إذ عمل على استفزاز الأغلب في جهات طبنة؛ وتظاهر بالانسحاب والتراجع إلى داخل البلاد؛ محاولا استدراج الأغلب، وإبعاده عن مركز قيادته في القيروان؛ إلا أن بعض القادة في جيش القيروان؛ تخوفوا من تلك المغامرة؛ وتفرقوا عن الأغلب؛ عائدين إلى القيروان؛ فعاد ــ عند ذلك ــ عما كان قد عزم عليه. وتقول المصادر التاريخية أن أبا قرة بويع بالإمامة ــ أو الخلافة ــ من طرف أنصاره من الصفرية. وقد دامت قيادته عليهم أربعين سنة كما يقال.

كما كانت لأبي قرة بن دوناس ـ بجيشه المقدر بأربعين ألفا ـ مشاركة رئيسية في حصار والي إفريقية عمر بن حفص بن قبيصة؛ بين جدران حاضرة الزاب طبنة سنة 153هـ(770م)؛ ولكن أخاه أفشل حصار الصفرية والاباضية؛[1] بعد أن استسلم لأطماعه؛ عندما عرض عليه عمر بن حفص ـ بوساطة إسماعيل بن يعقوب المكناسي ـ مبلغا من المال قدر بأربعين ألف درهم؛ على أن يسعى لفك الحصار، وانفضاض جموع الثوار عن طبنة. وبالفعل تمكن من ذلك؛ حينما أغرى قادة جيش أخيه ـ أبي قرة ـ بالعودة إلى ديارهم في جهات تلمسان؛ إذ تقول المصادر أن أبا قرة لم يشعر إلا وجموع جيشه تعمل على الرحيل؛ فاضطر إلى مسايرتهم. وهكذا تكون سلطة رؤساء القبائل؛ التي تفتقد لشروط سلطة ملك الدولة؛ تلك السلطة التي تتطلب حكما قاهرا متغلبا؛ حسبما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[2]

---

[1] اتفق القيرواني، وابن خلدون على أنه ابن أبي قرة؛ بينما اتفق ابن الأثير وابن عذاري على انه أخوه. أنظر تاريخ إفريقية والمغرب، ص: **143**. والعبر، مج: **6**، ص: **226**. ومج: **7**، ص: **25**. ثم الكامل في التاريخ، م: **5**، ص: **32**. والبيان المغرب، ج: **1**، ص: **76**.

[2] إذ يقول: ((وقدمنا أن الآدميين ـ بالطبيعة الإنسانية ـ يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع يزع بعضهم عن بعض؛ فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية؛ وإلا لم تتم قدرته على ذلك. وهذا التغلب هو الملك؛ وهو أمر زائد على الرياسة؛ لأن الرياسة إنما هي سؤدد وصاحبه متبوع؛ وليس له

ومع هذا ذكرت المصادر التاريخية ـ أيضا ـ بأن أبا قرة عاد إلى مواصلة الحصار بمن تبقى معه من الأنصار ـ بعد خروج عمر بن حفص من طبنة ـ بهدف ابتزاز عامل عمر بن حفص على طبنة؛ المهنأ بن مخارق بن عفان الطائي؛[1] ولكنه هزم مدحورا. ومنذ تاريخ هذه الموقعة لم تعد جل المصادر التاريخية تذكر أباقرة بشيء؛ ما عدا الإشارة الخاطفة التي ذكرها الطبري؛[2] ـ ثم نقلها عنه ابن عذاري ـ مع ما فيها من خلط. إذ يبدو أنه التبس عليه الأمر؛ وخلط بين ما

عليهم قهر في أحكامه؛ ،وأما الملك فهو التغلب والحكم بالقهر. وصاحب العصبية إذا بلغ إلى رتبة طلب ما فوقها؛ فإذا بلغ رتبة السؤدد والإتباع ووجد السبيل إلى التغلب والقهر لا يتركه؛ لأنه مطلوب للنفس. ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متبوعا. فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت)). المقدمة، ج: 2، ص **609**.

[1] إذ يقول القيرواني: ((فلما بلغ أبو قرة مسير عمر بن حفص؛ أقبل في جمع كثير حتى حصر المهنأ؛ فأرسل إلى أبي قرة يسأله الانصراف عنه؛ فأرسل أبو قرة إليه:"نصيبي منك ومن قبلك أحرار؛ ولكن لا سبيل إلى ترك غنيمة المسلمين". فلما قال له ذلك تحمّلوا عليه؛ فانهزم أبو قرة، واستباحوا عسكره)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: **143**.

[2] حين قال: ((وفي هذه السنة [أي سنة 153هـ] قتل عمر بن حفص بن عثمان بن أبي صفرة بإفريقية؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو عادٍ [أبو قادم كما يبدو لأنه لقب أبي حاتم]، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا فيما ذكر ثلاثمائة ألف وخمسين ألفا؛ الخيل منها خمسة وثلاثون ألفا؛ ومعهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا؛ وكان يسلم عليه ـ قبل ذلك ـ بالخلافة أربعين يوما. [ربما قصد أربعين سنة. وهي الفترة الزمنية التي أجمعت المصادر أنها مدة حكمه])). تاريخ الأمم والملوك، ج: **9**، ص: **284**.

حدث في حصار طبنة؛ وما يمكن أن يكون حصل في القيروان. لأن أبا قرة ـ كما يبدو ـ قد اضطرته الظروف للعودة إلى نواحي تلمسان؛ بعد حصار طبنة.

ـ إمارة جرير بن مسعود المديوني الصفري:[1]
كان ظهوره الأول في سنة 153هـ(770م)؛ أثناء الحصار المضروب على عمر بن حفص بطبنة. ولما انفضت الجيوش المحاصرة لطبنة؛ انضم إلى صفوف أبي حاتم الملزوزي؛ في حربه ضد والي إفريقية بالقيروان. وعلى هذا ظهر من جديد في أيام أبي حاتم الملزوزي الإباضي؛ حيث استعان به هذا الأخير في مطاردة بعض القادة الثائرين ضد الإباضيين المتغلبين على القيروان؛ منهم: عمر بن عثمان والمخارق بن غفار الطائي. وكان أولئك الهاربون قد التحقوا بجيجل؛ حيث احتموا ببعض العشائر من كتامة. فانتصروا لهم؛ وتصدوا لجرير ابن مسعود الصفري؛ فهزموه وقتلوه في سنة 154هـ(770م).

---

[1] سماه الرقيق القيرواني: حريز بن مسعود المديوني. تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 148. أما ابن الأثير فسماه: مسعود الزناتي الإباضي. الكامل في التاريخ، ج" 5، ص: 32. أما ابن خلدون فسماه جرير بن مسعود؛ العبر، مج: 6، ص: 226. وفي موضع آخر قال: ((وكان من رجالاتهم المذكورين جرير بن مسعود؛ كان أميرا عليهم؛ وكان مع أبي حاتم وأبي قرة في فتنتهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 256.

ـ إمارة أبو زرجونة الورفجومي الصفري:
ظهر في عهد والي إفرقية يزيد بن حاتم بن المهلب؛ حيث ثار مع عشيرته ورفجومة ضد السلطة المركزية؛ فأرسل إليهم يزيد بن حاتم ــ والي إفريقية ــ قوة بقيادة ابن مجزأ المهلبي؛ ففشل في مواجهتهم؛ وقتل في المعركة عدد من جند القيروان. فعاود يزيد بن المهلب ــ في سنة 156هـ(772م) ــ إرسال قوة أخرى؛ على رأسها ولده المهلب، ويزيد بن العلاء بن سعيد بن مروان المهلبي؛ فتغلب على ورفجومة واجتثهم، وطارد مقاتليهم في كل جهة.[1] هذا ولم يعرف مصير أبي زرجونة الورفجومي بعد هذه الموقعة.

ـ إمارة عبد الرزاق الفهري الخارجي الصفري:
ظهر هذا الرجل في جبال ويلان بعمالة فاس؛ في العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة. وبذلك تكون الصفرية قد حولت ثوراتها وحروبها من إفريقية والقيروان؛ إلى ديار المغرب الأقصى؛ حيث توجد الدولة الإدريسية. ولم تأت المصادر بما يفيد عن هذا الثائر شيئا كافيا؛ أكثر من اسمه المقتضب، ومنطلق ثورته. حيث اكتفت معظم المصادر بالقول عنها: أنها انطلقت من جبل

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ــ 162.

مديونة.[1] ويبدو أن الذي توسع في الحديث عنه ـ ولو باحتشام ـ هو علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي؛ حيث ذكر بأن اسمه هو عبد الرزاق الفهري ـ الأمر الذي يفهم منه أنه ينحدر عن أسرة الفهريين؛ إن لم يكن قد اكتسب هذا الاسم بواسطة الولاء ـ ثم قال إنه من مدينة وشقة بالأندلس؛ قدم إلى العدوة المغربية؛ حيث ثار في جبال ويلان؛ التي تبعد عن مدينة فاس بمسافة تقدر بمسيرة يوم ونصف يوم. وهناك التحق به عدد كبير من الأمازيغ؛ التابعين لقبائل عديدة؛ منها: مديونة وغياتة وغيرهم. وقام عبد الرزاق هذا ببناء قلعة حصينة في جبل سلا ـ بنواحي مديونة ـ سماها وشقة؛ تيمنا بمدينته في الأندلس.

ويقول ابن زرع أنه اتجه نحو قرية صفراو؛ حيث دخلها، وبايعه فيها الصفرية من الأمازيغ بكاملهم؛ فانطلق بهم جميعا إلى مدينة فاس ـ عاصمة الدولة الإدريسية آنذاك ـ فتصدى له سلطان الدولة الإدريسية علي بن عمر بن إدريس الحسني؛ إذ حدثت بينهم حرب عظيمة؛ انتهت بتغلب عبد الرزاق الخارجي؛ وانهزام علي بن عمر وتقهقره إلى بلاد أوربة. ولما انهزم سلطان الأدارسة تمكن عبد الرزاق من دخول عدوة

---

[1] أنظر المغرب، ص: 125. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص:47 ـ 48. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 212. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص ص: 208 ـ 209. والعبر، مج: 4، ص: 30.

الأندلسيين من فاس؛ بينما امتنعت عنه عدوة القرويين. وبقي على ذلك إلى أن قدم يحيى بن القاسم بن إدريس الحسني؛ الذي زحف نحو فاس من الريف؛ أين اشتبك مع جيش عبد الرزاق؛ وأخرجه من عدوة الأندلسيين وطرده منها. وهنا توقف ابن أبي زرع عن مواصلة الحديث عن كل ما كان يعرفه عن هذا الثائر الخارجي الصفري. وحتى ابن عذاري فقد تعمد الإشارة إليه بجملتين خاطفتين؛ مع أنه يعترف بأن خبر تلك الحوادث كان طويلا.[1] وكما هو واضح من النص الذي كتبناه؛ لم نتمكن من تحديد تاريخ ظهور عبد الرزاق هذا بدقة؛ نظرا للغموض الذي غلف أحداث تلك الفترة بمدينة فاس.

المهم هنا؛ أنه يمكن اعتبار ثورة عبد الرزاق الصفري؛ هي آخر ثورة هامة لهذه الفئة المتطرفة؛ من الخوارج بإفريقية وبلاد المغرب: الأوسط والأقصى. حيث لوحظ – بعد ذلك – انتقال مركز القوة إلى فئة أخرى؛ صنفها المؤرخون السنيون ضمن الخوارج. وتلك الفئة الصاعدة كانت تتشكل من الإباضيين؛ الذين

---

[1] قال ابن عذاري: ((ثم قام عليه [أي علي بن عمر الحسيني] عبد الرزاق الخارجي الصفري من مديونة؛ فدارت بين علي وعبد الرزاق حروب كثيرة؛ إلى أن هزمه الخارجي)). ((ثم ملك [أي يحيى بن القاسم] بعد ذلك عدوة الأندلسيين؛ وأخرج منها عبد الرزاق؛ في خبر طويل)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 212.

استطاعوا ـ باعتدالهم وثباتهم ـ استقطاب عدد كبير من الأتباع والأنصار؛ المنتمين إلى مختلف القبائل في تلك الجهات. الأمر الذي ساعدهم على تحقيق شروط الاستمرار والدوام؛ بفضل بساطة مذهبهم الديني والسياسي، وبفضل ما يدعوا إليه من مساواة بين الناس كافة؛ سواء كانوا من العرب أو من الأمازيغ أو أجناس أخرى. وعليه فقد أضحت المناطق الجنوبية من إفريقية والمغرب الأوسط؛ مناطق نفوذ للإباضيين؛ حيث خضعت ـ فيما بعد ـ لنفوذ الدولة الإباضية التي قامت بتيهرت؛ نتيجة لثورات الإباضيين المتتالية. وقد تحقق ذلك كله بجهود متواصلة شارك فيها عدد من القادة الإباضيين، ومن رؤسائهم الثوار. وتم ذلك خلال فترة زمنية بدأت بالعقد الثالث من القرن الثاني للهجرة، وحتى سنة 160هـ(776م) سنة قيام الدولة الرستمية.

***

ـ إمارة عبد الله بن مسعود التجيبي الإباضي:

ظهر ـ لأول مرة ـ اسم هذا الرجل في مسرح الأحداث بالمغرب؛ خلال الفترة التي اغتصب فيها عبد الرحمن بن حبيب ولاية القيروان؛ بعد انقلابه على والي إفريقية حنظلة بن صفوان سنة

126هـ(743م). وتم ذلك عندما بايع الإباضيون من قبيلة هوارة بطرابلس عبد الله بن مسعود هذا إماما عليهم؛ ولكن عبد الرحمن بن حبيب لم يمهله طويلا؛ إذ سارع إلى إرسال أخيه إلياس؛ لاجتثاث بوادر الثورة والانفصال. وبالفعل فقد قضى إلياس على تلك الحركة بعنف شديد؛ ثم قبض على عبد الله بن مسعود التجيبي وقتله. والمعلومات عن شخصية هذا الرجل شحيحة للغاية، وغير كافية تماما. وكل ما يستحق الذكر أن ابن عبد الحكم هو أول من ذكره؛ إذ سماه بهذا الاسم منسوبا إلى تجيب اليمنية؛[1] بينما تجاهل ذكره كل من: القيرواني وابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون. وحتى المراجع الإباضية تجنبت الحديث عنه في غالب الأحيان.[2] بينما ذكره علي يحيى معمر في سياق رده على الطاهر الزاوي؛ بما يفهم أنه أمازيغي الأصل.[3] فإن كان عبد الله بن مسعود التجيبي هذا حقيقة أمازيغيا؛ يمكن في هذه

---

[1] إذ قال: ((ثم بعث عبد الرحمن أخاه ابن حبيب عاملا على أطرابلس؛ فأخذ عبد الله بن مسعود التُجيبي؛ وكان إباضيا ورئيسا فيهم؛ فضرب عنقه؛ واجتمعت الإباضية بأطرابلس)). فتوح مصر والمغرب، ص: **301**.

[2] لم يتكلم عنه أبو زكرياء صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم، كما تجاهل أمره الدرجيني في طبقات المشائخ بالمغرب، وكذلك سليمان الباروني صاحب كتاب مختصر تاريخ الإباضية؛ بينما أشار إليه بسطحية وغموض محمد علي دبوز.

[3] الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية القسم الأول)، ص: **33**.

الحال اعتباره من بين الذين نسبوا إلى قبيلة تُجيب الحضرموتية اليمنية بواسطة الولاء والالتحاق.

ـ إمارة الحارث بن تليد الحضرمي الإباضي:[1]
أقامه الإباضيون من هوارة في طرابلس إماما عليهم؛ بعد مقتل عبد الله بن مسعود. هذا وقد شاركه في شئون الحكم **عبد الجبار بن قيس المرادي**؛ الذي كان بمثابة الوزير أو القاضي داخل هذا الكيان الإباضي؛ غير أن ابن عبد الحكم جعل عبد الجبار بن قيس المرادي هو الإمام؛ بينما وضع الحارث بن تليد الحضرمي في مرتبة المساعد له. وقد خالفته المراجع الإباضية في هذا الرأي.[2] أما القيرواني وابن الأثير وابن خلدون

---

[1] يكتفي ابن الأثير وابن خلدون باسم مفرد له؛ وهو الحرث بدون الألف بعد الحاء.

[2] إذ يقول: ((وكان على الإباضية ـ حين اجتمعت ـ عبد الجبار بن قيس المرادي؛ ومعه الحارث بن تليد الحضرمي... واستولى عبد الجبار على زناتة وأرضها)). فتوح مصر والمغرب، ص: 301. وفي هذا يقول سليمان الباروني: ((والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه)). مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33. ويقول علي يحيى معمر معلقا على رأي طاهر الزاوي: ((بويع الحارث بن تليد إماما؛ وعين زميله وصديقه عبد الجبار المرادي قاضيا؛ خلافا لما ضنه الزاوي)). الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة الثانية ـ القسم الأول)، ص: 34. ويؤكد هذا أيضا محمد علي دبوز حين قال: ((وبايعوا الحارث؛ فطهر طرابلس من ظلم الملوكيين وجبروتهم. وكان إنشاء هذه الإمامة في سنة ثلاثين ومائة. وكان الحارث بن تليد الحضرمي، ووزيره عبد الجبار بن قيس المرادي)).تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 411.

فيفهم من رواياتهم أن الحارث وعبد الجبار كانا يحكمان الناس حكما جماعيا. ومع هذا فهم يقدمون اسم الحارث على اسم عبد الجبار؛ إذ يكتبون في سياق الحديث: ((**الحارث وعبد الجبار**)).

أما نسبهما فيكتنفه بعض الغموض أيضا؛ لأن كلمتي: حضرمي، ومرادي؛ لا تعنيان ــ بالضرورة ــ الانتساب إلى حضرموت أو لقبيلة مراد اليمنية؛ إذ ربما كانت الكلمتان ترميان إلى الانتماء بالولاء لقبيلة من قبائل حضرموت أو لقبيلة مراد. المهم أن القيرواني يصرح بأنهما من الأمازيغ؛[1] ويسايره في ذلك ابن خلدون الذي يقول أنهما من هوارة.[2] أما سليمان الباروني فيقول: ((**والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه. وهما إخوان لأم أو أبنا خالة؛ وقبيلتهما هوارة**)).[3]

---

[1] يقول القيرواني: ((وخرج بناحية طرابلس رجلان؛ يقال لأحدهما عبد الجبار، والآخر الحارث؛ وهما من البربر؛ يدينان بدين الخوارج)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 128.

[2] يقول: ((وثار بطرابلس عبد الجبار والحرث؛ من هوارة؛ وكانا يدينان برأي الإباضية... ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنة إحدى وثلاثين [ومائة] فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). العبر، مج: 6، ص: 223.

[3] مختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

ويتفق – أيضا – القيرواني وابن خلدون حول رواية مقتلهما؛ إذ يقولان أن عبد الرحمن بن حبيب هو الذي قتلهما في سنة 131هـ(748م)؛ دون شرح للكيفية التي تم بها القتل.[1] وهذا الرأي يخالف رواية ابن عبد الحكم الذي يرى أنهما اقتتلا؛ فقتل بعضهما بعضا؛ بعد الفتنة التي نشبت بينهما.[2] أما بعض المراجع الإباضية؛ فتشير إلى دسيسة؛ قد يكون حبكها عبد الرحمن بن حبيب؛ فنجح فيها بتمكنه من قتل الأميرين غيلة.[3]ويبدو أن هذا الرأي يمكن تأييده؛ خاصة إذا اعتمد على ما أورده ابن عبد الحكم؛ حين ذكر أن عبد الرحمن بن حبيب أرسل مجاهد بن مسلم الهواري إلى قبيلة هوارة؛ لكسب أنصار في القبيلة التي

---

[1] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 128 ـــ 129. والعبر، مج: 6، ص: 223.

[2] يقوا ابن عبد الحكم: ((واستفحل أمر عبد الجبار والحارث؛ ثم اختلف أمرهما؛ وتفاقم ما بينهما؛ فاقتتلا؛ فقتل عبد الجبار والحارث جميعا)). فتوح مصر والمغرب، ص: 302. أنظر أيضا كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 57. ومختصر تاريخ الإباضية، ص: 33.

[3] إذ يقول محمد علي دبوز: ((وكانت العصابة التي دسها عبد الرحمن بن حبيب في طرابلس ترقب الحارث وعبد الجبار، وتتحين الفرصة فيهما؛ حتى كانا ذات يوم وحدهما في دار الندوة والحكم؛ والمكان خال؛ فتظاهروا بأنهم من ذوي الحاجات؛ فدخلوا عليهما فقتلوهما؛ ثم أدخلوا في كل واحد منهما سيفا، وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر؛ ليتوهم الناس أنهما تنازعا فتقاتلا؛ فقتل كل منهما صاحبه)). تاريخ المغرب الكبير، ج: 2، ص: 413. وقد أورد الرواية نفسها صاحب كتاب الإباضية في موكب التاريخ، (الحلقة: 2، القسم: 1). ص ص: 46 – 47.

ينتمي إليها؛ طمعا في تحريك سنن العصبية فيهم؛ ولكنه ــ كما يقول ابن عبد الحكم ــ فشل؛ حيث طردته هوارة؛ بعد أن أقام بينهم أشهرا عديدة.

وهنا يمكن التساؤل: ألا يكون قتل الحارث وعبد الجبار حدث بتدبير من مجاهد بن مسلم هذا؟ خاصة إذا أخذ بعين الاعتبار الفشل الذي لحق بحملات عبد الرحمن بن حبيب العسكرية؛ ضد الحارث وعبد الجبار. إذ يقول ابن عبد الحكم أنهما تصديا لقوة يقودها محمد بن مقرون، مرفوقا بعامل طرابلس يزيد بن صفوان، ومجاهد بن مسلم الهواري؛ وكانت النهاية هي مقتل محمد بن مفروق ويزيد بن صفوان؛ بينما انهزم مجاهد مع من بقي معه من الأحياء. ولما أعاد عبد الرحمن الكرة؛ بإرسال عمر بن عثمان؛ انهزم هو أيضا أمامهما في طرابلس. وعاود المحاولة عمر ابن عثمان مرفوقا بمجاهد بن مسلم الهواري في دَغُوغَا؛ ولكنهما هزما، وجرح عمر بن عثمان.[1]

ــ إمارة إسماعيل بن زياد النفوسي الإباضي:

ذكره ابن عبد الحكم وابن خلدون؛ بينما تجاهل ذكره القيرواني وابن الأثير وابن عذاري. وحتى بعض المصادر والمراجع الإباضية أغفلت ــ هي الأخرى ــ أمر هذا الأمير الثائر. لعل سبب ذلك

---

[1] أنظر فتوح مصر والمغرب، ص ص: 301 ــ 302.

يكمن في قصر الفترة الزمنية التي تولى فيها. المهم فقد ولي الإمامة في سنة 132هـ(749م)؛ أي بعد مقتل الحارث وعبد الجبار. ولم يمهله عبد الرحمن بن حبيب؛ حيث زحف نحوه؛ فالتقيا بجهات قابس؛ أين جرت موقعة بين إسماعيل بن زياد النفوسي؛ وجيش القيروان بقيادة شعيب بن عثمان؛[1] وانتهت المعركة بمقتل إسماعيل وهزيمة أنصاره الإباضيين. كان ذلك في سنة 132هـ؛ حيث لم تتجاوز فترة حكم إسماعيل بن زياد النفوسي أشهرا قليلة. وبعد ذلك تحول عبد الرحمن بن حبيب نحو سكان طرابلس؛ ففتك بهم، وسلط عليهم آلة القتل والانتقام بشكل فظيع.[2]

---

[1] قال ابن عبد الحكم أن عبد الرحمن بقي في المعسكر ولم يشهد الموقعة. فتوح مصر والمغرب، ص: 302.

[2] وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وثار إسماعيل بن زياد فيمن معه من نفوسة؛ وتغلب على قابس. ثم زحف إليهم عبد الرحمن بن حبيب سنه إحدى وثلاثين؛ فقتل عبد الجبار والحارث، وأوعب في قتل البربر، وأثخن فيهم)). أما القيرواني فتكلم عن فتك عبد الرحمن بالخوارج دون ذكر إسماعيل بن زياد؛ حيث قال: ((وأوعب عبد الرحمن في قتل البربر؛ وامتحن الناس بهم وابتلاهم بقتل الرجال صبرا: يؤتى بالأسير من البربر؛ فيأمر من يتهمه بتحريم دمه بقتله. فابتلى جماعة من الناس؛ فما سلم منهم غير عبد الرحمن بن زياد بن أنعم؛ أبى ذلك؛ وعصمه الله منه)). تاريخ إفريقية والمغرب، ص: 129. وقد أشار ابن عذاري لهذه المجزرة؛ بأسلوب القيرواني نفسه، البيان المغرب، ج: 1، ص: 61.

ـ إمـــارة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافــري الإبـــاضي:
ينســب هــذا الرجــل إلى قبيلــة معافــر الكهلانيــة اليمنيــة. نشــأ في المشــرق وكـــان مـــن دعـــاة الإباضيـــة بالشـــام قبــل مجيئـــه إلى المغـــرب.[1] وقــد كـــان مـــن بيـــن طلبـــة العلــم الخمســـة؛ الذيـــن بعثـــوا في سنـــة 132هـــ(749م)؛ مـــن طـــرف الإباضييـــن في بـــلاد المغـــرب؛ بغـــرض تلـــقي العلـــم في البصـــرة؛ عـــلى يـــد شيـــخ الإباضيـــة في المشـــرق أبي عبيـــدة مسلـــم بـــن أبي كريمـــة.[2] ولمـــا عـــادوا في سنـــة 139هـــ(756م)؛ محمليـــن بعلـــوم المذهـــب الإبـــاضي؛ بـــادروا بإنشـــاء دولتهـــم الإباضيـــة؛ حيـــث بايعـــوا أبـــا الخطـــاب عبـــد الأعـــلى إمامـــا عـــلى الإباضييـــن في ديـــار المغـــرب. وكـــان الإعـــلان عـــن هـــذه الدولـــة في سنـــة 140هـــ(757م)؛ خـــارج طرابلـــس ـــ في بدايـــة الأمـــر ـــ[3] في موضـــع غـــربي طرابلـــس يقـــال لـــه (صيـــاد). وقـــد أشاعـــوا أنهـــم ينظـــرون في خـــلاف بيـــن جماعتيـــن عـــلى قطعـــة أرض. ويبـــدو ـــ مـــن كـــلام الرقيـــق القيـــرواني وابـــن الأثيـــر ـــ أن منشـــأ هـــذه الدولـــة تـــم أيـــام احتـــلال ورفجومـــة للقيـــروان.[4]

---

[1] سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 57. والفـــرق الإسلاميـــة لآلفـــرد بـــل، ص: 170.

[2] طلبـــة العلـــم الخمســـة هـــم: أبـــو الخطـــاب عبـــد الأعـــلى بـــن السمـــح المعافـــري، وعبـــد الرحمـــن بـــن رستـــم الفـــارسي، وعاصـــم الســـدراتي، وإسماعيـــل بـــن درار الغدامـــسي، وأبـــو داود القبـــلي النفـــزاوي.

[3] أنظـــر كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 57. وكتـــاب طبقـــات المشائـــخ بالمغـــرب، ج:، 1، ص ص: 22 ـــ 23. ومختصـــر تاريـــخ الإباضيـــة، ص: 33.

[4] وقـــد كـــان نـــص ابـــن الأثيـــر أكثـــر وضوحـــا إذ قـــال: ((فاتفـــق أن رجـــلا مـــن الإباضيـــة دخـــل القيـــروان؛ لحاجـــة لـــه؛ فـــرأى ناســـا مـــن الورفجومييـــن قـــد أخـــذوا

وقد تمكن هذا الأمير الإباضي من الاستيلاء على أجزاء كبيرة من إفريقية وبرقة؛ ثم امتد سلطانه جنوبا حتى فزان. وأهم إنجاز حققه لدولته هو احتلال القيروان؛ التي كانت تعتبر بمثابة مركز السلطة العامة، وعاصمة شرعية لبلاد المغرب كله؛ ولو كان ذلك بصورة نظرية؛ وذلك على الرغم مما كان يحدث من تقلص نفوذها بين الحين والآخر. كما أن أبا الخطاب قد اكتسب احتراما وتقديرا عظيمين؛ من قبل المسلمين كافة؛ نتيجة لما قام به من تطهير للقيروان، وما حققه في القضاء على فساد وعيث الصفرية من قبيلة ورفجومة. وقد اشتهر عن أبي الخطاب تدينه وورعه وصلاح حكمه.

امرأة قهرا ـ والناس ينظرون ـ فأدخلوها الجامع. فترك الإباضي حاجته، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري فأعلمه ذلك؛ فخرج أبو الخطاب وهو يقول: "بيتك اللهم بيتك"؛ فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان، وقصدوا طرابلس الغرب، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم. وسير إليهم عبد الملك ـ مقدم ورفجومة ـ جيشا فهزموه، وساروا إلى القيروان؛ فخرجت إليهم ورفجومة واقتتلوا واشتد القتال؛ فانهزم أهل القيروان الذين مع ورفجومة وخذلوهم؛ فتبعهم ورفجومة في الهزيمة، وكثر القتل فيهم؛ وقتل عبد الملك الورفجومي، وتبعهم أبو الخطاب يقتلهم حتى أسرف فيهم؛ وعاد إلى طرابلس؛ واستخلف على القيروان عبد الرحمن بن رستم الفارسي؛ وكان قتل ورفجومة في صفر سنة إحدى وأربعين)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281.

ومع هذا لم يهنأ بشيء من الاستقرار والأمن؛ إذ تعرض مرارا عديدة لهجمات العباسيين القادمين من مصر. وكان النصر حليفه في كل مرة؛ حتى حلول عام 144هـ(761م)؛ العام الذي اشتبك فيه مع جيش العباسيين بقيادة محمد بن الأشعث الخزاعي. وكانت هذه المعركة هي الفاصلة؛ حيث تمكن ابن الأشعث ـ بفضل خدعة بارعة ـ من إيهام الإباضيين بأنه امتثل لأمر الخليفة العباسي بالعودة إلى مصر؛ فعاد؛ ولكنه بقي على مسافة أيام؛ ثم رجع مسرعا إلى جيش أبي الخطاب؛ الذي تفرق عنه عدد كبير من أنصاره. وكانت المعركة النهائية في صالح العباسيين؛ حيث قتل فيها أمير الإباضيين أبو الخطاب، وانكسر جيشه، وتشتت أنصاره.

حدث ذلك جراء العقلية القبلية البدوية، وتبعا لسلبيات العصبية القبلية المميتة؛ إذ تقول المصادر أن فئة كبيرة من جيش أبي الخطاب تفرقت عنه قبل وصول ابن الأشعث إلى برقة؛ وذلك عندما حل وقت حصاد الزرع؛ إذ فضل هؤلاء المقاتلون حصاد زرعهم على البقاء في الميدان؛ منتظرين موعد المعركة.[1] وثمة فئة أخرى انفضت وانسحبت

---

[1] يقول الدرجيني: ((فلما وصلت عيون أبي الخطاب إليه من عسكر ابن الأشعث تخبره برجوعه ـ وقد اجتمع على أبي الخطاب زهاء تسعين ألفا ـ ابتدرت الناس إلى مواطنهم؛ وذلك في زمان الحصاد؛ فقال لهم أبو الخطاب: يا قوم إن العرب أهل مكر وغدر؛ فلا تتفرقوا عن ملككم؛ حتى تستيقنوا

من الميدان بفعل النعرة الهوجاء والعصبية القبلية؛ وذلك عندما اختلفت قبيلة زناتة مع قبيلة هوارة؛ بسبب قتيل سقط بينهما. فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالتحيز لهوارة؛ فانفضوا عنه. ولم يبق مع أبي الخطاب العدد الكافي من المقاتلين؛ كي يتصدى بهم للجيش العباسي؛ فكانت الهزيمة الكبرى التي أسقطت إمارة الإباضيين بطرابلس والقيروان نهائيا.[1]

برجوع القوم؛ وغلبت عليه العامة؛ فأذن لهم باللحاق بأهليهم؛ فساروا وتفرقوا عنه)). طبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 33. أنظر – أيضا – كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 68.

[1] شرح ابن الأثير ما جرى بقوله: ((ثم إن جماعة كثيرة من المسودة سيرهم محمد بن الأشعث الخزاعي – أمير مصر للمنصور – إلى طرابلس؛ لقتال أبي الخطاب؛ وعليهم أبو الأحوص عمر بن الأحوص العجلي؛ فخرج إليهم أبو الخطاب، وقاتلهم وهزمهم سنة اثنين وأربعين؛ فعادوا إلى مصر؛ واستولى أبو الخطاب على سائر إفريقية. فسير إليه المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي أميرا على إفريقية؛ فسار من مصر سنة ثلاث وأربعين؛ فوصل إليها في خمسين ألفا؛ ووجه معه الأغلب بن سالم التميمي. وبلغ أبا الخطاب مسيره؛ فجمع أصحابه من كل ناحية؛ فكثر جمعه وخافه ابن الأشعث لكثرة جموعه؛ فتنازعت زناتة وهوارة بسبب قتيل من زناتة؛ فاتهمت زناتة أبا الخطاب بالميل إليهم؛ ففارقه جماعة منهم؛ فقوي جنان ابن الأشعث، وسار سيرا رويدا؛ ثم أظهر أن المنصور قد أمره بالعود، وعاد إلى ورائه ثلاثة أيام سيرا بطيئا؛ فوصلت عيون أبي الخطاب؛ وأخبرته بعوده؛ فتفرق عنه كثير من أصحابه، وأمن الباقون؛ فعاد ابن الأشعث وشجعان عسكره مجدا؛ فصبح أبا الخطاب وهو غير متأهب للحرب؛ فوضعوا السيف في الخوارج؛ واشتد القتال؛ فقتل أبو الخطاب وعامة أصحابه في صفر سنة أربع وأربعين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. ويتفق ابن عذاري مع ابن الأثير في هذه الرواية، أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 71 – 73.

ولما وصل خبر الهزيمة إلى عبد الرحمن بن رستم ــ وهو بالقيروان ــ سارع إلى الخروج؛ طلبا للنجاة.[1] وقد نتج عن حركته هذه قيام الدولة الإباضية الثانية بالمغرب؛ وهي الدولة الرستمية.

ــ **إمارة عاصم السدراتي الإباضي:** وهو من بين طلبة العلم الخمسة؛ الذين أرسلهم إباضيو المغرب إلى البصرة؛ لأخذ العلم عن أبي عبيدة مسلم. وقد ذكره ابن عذاري ضمن قادة الجيوش الصفرية والإباضية؛ الذين حاصروا عمر بن حفص في طبنة سنة 153هـ(770م)؛ حيث قال أنه كان يقود زهاء ستة آلاف مقاتل.[2] مع العلم أن بقية المصادر لم تذكره في هذا الحصار. وبهذا يفهم أنه يكون قد انضم إلى صفوف أبي حاتم. ومما يؤكد الالتباس الذي وقع فيه ابن عذاري؛ أن المصادر الإباضية تقول أنه توفي مسموما بقثاء؛ أثناء حصار الإباضيين للقيروان؛ بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى ابن السمح في سنة 140هـ(757م). فإذا كان ما

---

[1] تقول رواية أخرى لبعض الإباضيين؛ أن عبد الرحمن بن رستم عندما سمع بقدوم ابن الأشعث؛ خرج في قوة عسكرية لدعم أبي الخطاب؛ ولما وصل إلى قابس علم بمقتل أبي الخطاب وهزيمة جيشه؛ فافترقت عنه القوة التي جاءت معه؛ فقرر العودة إلى القيروان؛ ولكنه فوجئ بثورة أهل القيروان عليه؛ فخرج منها خائفا مع ابنه عبد الوهاب وعبد لهما. أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 70. وطبقات علماء المغرب، ج: 1، ص: 35.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 75.

ذكرتـــه تلـــك المصـــادر صحيحـــا؛ فكيـــف ـــ إذن ـــ يكـــون مـــن بيـــن قـــادة الإباضيـــة الذيـــن حاصـــروا عمـــر بـــن حفـــص سنـــة 153هـــ(770م)؟[1]

ــ **إمـــارة أبي هريـــرة الزنـــاتي الإبـــاضي:** هكـــذا ورد اسمـــه دون تفصيـــل. ويبـــدو أنـــه كـــان زعيمـــا لبطـــن مـــن بطـــون زناتـــة في جهـــات طرابلـــس؛ ولمـــا قتـــل أبي الخطـــاب؛ انتهـــز غفلـــة مـــن ابـــن الأشعـــث؛ وهجـــم عليـــه؛ في ستـــة عشـــر ألفـــا؛ ولكـــن ابـــن الأشعـــث تـــدارك الأمـــر؛ وتمكـــن مـــن صـــد هـــذه القـــوة، وقتـــل قائدهـــا أبي هريـــرة الزنـــاتي. وتـــم ذلـــك في السنـــة الـــتي قتـــل فيهـــا أبي الخطـــاب؛ وهي سنـــة 144هـــ(761م). والـــذي يلفـــت النظـــر ـــ هنـــا ـــ أن المصـــادر الإباضيـــة أغفلـــت ذكـــر أخبـــار أبي هريـــرة؛ ولـــم يشـــر إليـــه ســـوى محمـــد عـــلى دبـــوز في جملـــة مقتضبـــة.[2] وكذلـــك الحـــال بالنسبـــة للمؤرخيـــن السنييـــن؛ إذ تجاهـــل ذكـــره أكثرهـــم؛ ولـــم يتكلـــم عنـــه ســـوى: ابـــن الأثيـــر، وابـــن عـــذاري؛

---

[1] قـــال أبـــو زكريـــاء يحـــيى بـــن أبي بكـــر: ((ثـــم إن عاصمـــا الســـدراتي مـــرض مرضـــا شديـــدا؛ وكـــان مـــن خيـــار العسكـــر؛ وهـــو أحـــد الخمســـة الحملـــة للعلـــم؛ وأشـــد شوكـــة عـــلى أهـــل القيـــروان. فسمـــع أهـــل القيـــروان بمرضـــه؛ وأنـــه اشتـــهى قثـــاة؛ فبعـــث أهـــل القيـــروان رجـــلا بياعـــا يبيـــع القثـــاء؛ فسمـــوا منهـــا قثـــاة، وأمـــروه أن لا يبيعهـــا إلا لعاصـــم الســـدراتي... واشتـــرى لعاصـــم أصحابـــه القثـــاة المسمومـــة وأتـــوه بهـــا فأكلهـــا؛ فقطعـــه الســـم فمـــات،؛ وهـــرب البيـــاع حيـــن باعهـــا لهـــم)). كتـــاب سيـــر الأئمـــة وأخبارهـــم، ص: 62.

[2] تاريـــخ المغـــرب الكبيـــر، ج: 3، ص: 19.

في جملة قصيرة أيضا.[1] وقد يكون هذا القائد من بين الزناتيين الذين انسحبوا غاضبين على أبي الخطاب من قبل؛ ولما سمعوا بهجوم أبي الأشعث عادوا إلى المعركة؛ فوجدوا أن المبادرة خرجت من أيديهم.

ـ إمارة عبد الله بن حيان الزويلي الإباضي:
وهو ـ كما يبدو ـ هواري النسب. وكان في زمن أبي الخطاب رئيسا في زويلة؛ فبعث ابن الأشعث جيشا إلى تلك الجهات سنة 145هـ(762م)؛ حيث افتتح ودان وزويلة؛ أين قتل من بهما من الإباضيين؛ ومن جملتهم عبد الله بن حيان هذا.

ـ إمارة المسور بن هانئ الزناتي الإباضي[2]:
ذكره بعض المؤرخين ضمن جيوش الصفرية والإباضية؛ الذين كانوا محاصرين لعمر بن حفص بطبنة في سنة 153هـ(770م)؛ إذ قالوا أنه كان يقود عشرة آلاف مقاتل من زناتة؛ قدموا معه من شمال تيهرت. وما عدا هذا؛ لا يوجد ما يمكن إضافته من أخباره.

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 4، ص: 281. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 72.

[2] سماه ابن عذاري: المصور ـ بالصاد ـ الزناتي؛ دون الإشارة إلى مذهبه هل هو صفري أم إباضي. البيان المغرب، ج: 1، ص: 75. أما ابن خلدون فقد سماه المسور ـ بالسين ـ الزناتي؛ ثم ذكر أنه إباضي المذهب. العبر، مج: 4، ص: 413. أما في مج: 4، ص: 226؛ فسماه المسور بن هانئ.

ـ إمــارة أبي حاتــم يعقــوب بن حبيب بن مُدين بن يطوفــت الملزوزي المغيــلي المعروف بأبي قــادم:[1]

هكــذا سمــاه ابــن خلــدون؛ إذ نسبــه إلى قبيلــة ملــزوزة المنحــدرة عــن قبيلــة مغيلــة. أمــا المصــادر الأخــرى فقــد اكتفــت بالقليــل عنــد ســرد اسمــه؛ عــلى أن بعضهــم ينسبــه ـ بالــولاء ـ إلى قبيلــة كنــدة العربيــة.[2] ويقــول محمــد عــلي دبــوز أن أبــاه ـ أو أحــد أجــداده ـ انتقــل إلى طرابلــس؛ فانتســب إلى قبيلــة هــوارة بالالتحــاق. المهــم أن بعــض الآراء تقــول أن أبــا حاتــم هــذا تــولى أمــر الإباضييــن في سنــة 145هــ(762م).[3] أي بعــد فتــرة مــن مقتــل أبي الخطــاب. إذ كــان يجمــع الصدقــات، ويبعــث بهــا إلى عبــد الرحمــن بــن رستــم؛ قبــل أن يتــولى ولايــة الظهــور؛ أي الولايــة المعلنــة للمــلأ. وهــذا يبعــث عــلى الاعتقــاد أنــه قــد ولي أمــر الإباضييــن ســرا في سنــة 151هــ(768م) أو قبلهــا.

---

[1] سمــاه أبــو زكريــاء يحــيى بــن أبي بكــر: أبــا حاتــم يعقــوب بــن لبيــب الملــزوزي. كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 73. أمــا الدرجيــني فسمــاه: أبــا حاتــم يعقــوب بــن لبيــب الملــزوزي الهــواري، ج: 1، ص: 36. أمــا سليمــان البــاروني فسمــاه: أبــا حاتــم يعقــوب بــن حبيــب، مختصر تاريخ الإباضيــة، ص: 34.

[2] الكامــل في التاريــخ، ج: 5، ص: 32. والعبــر، مج: 4، ص: 412.

[3] كتــاب سيــر الأئمــة وأخبارهــم، ص: 73. وفي كتــاب طبقــات المشائــخ بالمغــرب: ولي سنــة 154هــ. وفي مختصــر تاريــخ الإباضيــة في سنــة 154هــ.

هـذا وقـد سـمى أبـو زكريـاء ولايـة أبي حاتـم بولايـة الدفـاع. وذكـر أنـه بويـع خـارج طرابلـس؛ بالطريقـة السريـة ذاتهـا؛ الـتي تمـت في بيعـة أبـي الخطـاب مـن قبـل. إذ تظاهـروا أنهـم مجتمعـون مـن أجـل إصـلاح بيـن زوج وامرأتـه؛ بينمـا هـم ــ في الحقيقـة ــ يأتمـرون فيمـا بينهـم لإعـلان الإمامـة، والبيعـة للإمـام. ولكـن عيـون عامـل طرابلـس كشفـت أمرهـم؛ فحـاول إفسـاد مـا اجتمعـوا عليـه؛ عندهـا لـم يجـدوا أمامهـم بـدا مـن إعـلان العصيـان؛ وانطلقـوا إلى طرابلـس فاحتلوهـا وقتلـوا مـن بهـا مـن الجنـد. ثـم أمـر أبـو حاتـم أتباعـه بالزحـف نحـو إفريقيـة؛ وفي الطريـق التقـوا بجيـش القيـروان؛ زاحفـا في اتجاههـم؛ فاشتبكـوا معـه وهزمـوه.

وحسـب مـا يبـدو فهـذا الأمـر يكـون قـد تـم بعـد سنـوات مـن التاريـخ الـذي اتفـق فيـه الإباضيـون علـى إمامـة أبي حاتـم. لأن ظهـوره بشكـل علـني ربمـا حـدث في سنـة 153هـ(770م)؛ وهي السنـة الـتي تحـرك فيهـا لحصـار القيـروان؛ منتهـزا فرصـة غيـاب الجنـد عنهـا؛ أي عندمـا لاحـظ أنهـم خرجـوا مـع والي إفريقيـة عمـر بـن حفـص؛ بهـدف بنـاء وتحصيـن عاصمـة الـزاب طبنـة.

ويظهر أن الفترة الزمنية الفاصلة بين مقتل أبي الخطاب، ومقتل أبي حاتم يكتنفها غموض كثيف. وهذا ما جعل المؤرخين يخلطون في السنوات التي تؤرخ للأحداث. وقد اعترف ابن عذاري بالخلل الحاصل في التحقق من الأحداث.[1]

والواقع أن الفترة الممتدة من 144هـ (761م) إلى 154هـ (770م)؛ كلها تحمل أخبارا مضطربة ومتناقضة. فهذا على سبيل المثال صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم ـ حين تكلم عن بدء ولاية أبي حاتم ـ يقول أنها تمت في رجب من سنة 145هـ (762م)؛ ثم يضيف أن أبا حاتم بقي في طرابلس أربع سنين؛ وبعدها سكت عن ذكر التواريخ؛ حتى أن مقتل أبي حاتم لم يذكر تاريخه. أما صاحب كتاب طبقات المشائخ بالمغرب فقد اختلف مع أبي زكرياء في تاريخ بدء الولاية؛ الذي قال أنها تمت في رجب من سنة 154هـ(770م). أما باقي الأخبار فيبدو أنه نقلها عنه؛ دون إضافة شيء جديد. أما سليمان الباروني فيجعل تاريخ بدء الولاية في سنة 154هـ؛ ثم يحدد وفاة أبي حاتم بسنة 155هـ(771م).

---

[1] إذ قال: ((ولم يعط الحال تفصيل هذه السنين من سنة 151 إلى 153 بعدها سنة سنة: فأجملت أمرها هنا إجمالا مختصرا؛ يغني عن إعادتها في كل واحدة منها)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 76.

ولكنه يعود فيشكك في صحة ما أورده.[1] ومع هذا يمكن اعتبار إعلان خبر ولاية أبي حاتم، وخروجه من العمل السري؛ قد تم في سنة 153هـ(770م)؛ وهي السنة التي استفحل فيها أمره. حيث ذكرت المصادر خبر مشاركته مع الإباضيين والصفريين؛ في حصار عمر بن حفص بطبنة في هذه السنة بالذات. وإن كان بعض المؤرخين يخلطون ـ أيضا ـ في السنة التي حدث فيها الحصار. حيث يقرون ببدء ولاية عمر بن حفص لإفريقية في سنة 151هـ(768م)؛ ثم يذكرون أنه تمتع بفترة من السكينة والهدوء؛ تقدر بثلاث سنين؛ ظل فيها في القيروان لا يبرحها؛ ومن جهة أخرى يجعلون تاريخ حصاره بطبنة سنة 151هـ(768م).[2] فكيف يكون ذلك؟

---

[1] إذ يضيف: ((فتكون مدة إمامته سنة واحدة فقط. والظاهر أن الواقع غير هذا؛ بل الصحيح لا بد أن تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جدا؛ لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصرا لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين؛ فكيف يتصور هذا؛ مع أن المؤرخين فضلا ـ عن ذلك ـ ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا؛ كان له النصر فيها حليفا؛ وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الألوف من المشاة، وعشرات الألوف من الفرسان. ولا يخفى أن حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها ـ من مكان إلى مكان بعيد عنه بمراحل وأسابيع ليس بالأمر السهل الهين في ذلك الوقت المفقودة فيه وسائل النقل السريعة)).

[2] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـ 33. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 75 ـ 78. والعبر، مج: 4، ص ص: 412 ـ 413. ومج: 6، ص: 226.

وجملة القول هي أن أبا حاتم هذا تولى شئون الإباضيين بمرتبة إمام عليهم؛ في الوقت الذي بايعت فيه الصفرية أبا قرة خليفة عليهم ببلاد المغرب. ويبدو أنهما كانا يتنافسان على قيادة الفرق المصنفة ضمن المذهب الخارجي؛ وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال تصرفهما؛ حينما التقيا في حلف واحد؛ غير متجانس على أبواب طبنة. ويبدو أن أبا حاتم تمكن من حصار القيروان مدة تجاوزت السنة.[1] وفي الأخير تحقق له اجتياح

---

[1] ذكرت مصادر عديدة خبر حصار أبي حاتم للقيروان؛ وأهم خبر هو ما ذكره ابن الأثير؛ حين قال: ((فقدم القيروان [أي عمر بن حفص] في صفر سنة إحدى وخمسين ومائة في خمسمائة فارس؛ فاجتمع وجوه البلد؛ فوصلهم وأحسن إليهم. وأقام والأمور مستقيمة ثلاث سنين؛ فسار إلى الزاب لبناء مدينة طبنة؛ بأمر المنصور؛ واستخلف على القيروان حبيب بن حبيب المهلبي؛ فخلت إفريقية من الجند؛ فثار بها البربر؛ فخرج إليهم حبيب فقتل. واجتمع البربر بطرابلس، وولوا عليهم أبا حاتم الإباضي ـ واسمه يعقوب بن حبيب مولى كندة ـ وكان عامل عمر على طرابلس الجنيد بن بشار الأسادي؛ وكتب إلى عمر يستمده فأمده بعسكر؛ فالتقوا وقاتلوا أبا حاتم الإباضي فهزمهم؛ فساروا إلى قابس؛ وحصرهم أبو حاتم ـ وعمر مقيم بالزاب على عمارة طبنة ـ وانتفضت إفريقية من كل ناحية. ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكرا؛ منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا، وأبو حاتم في عسكر كثير... فلما سارت الصفرية... فضعف أمر الإباضية عن مقاومة عمر؛ فساروا عن طبنة إلى القيروان؛ فحصرها أبو حاتم وعمر بطبنة يصلح أمورها، ويحفظها ممن يجاوره من الخوارج. فلما علم ضيق الحال بالقيروان سار إليها... وأما أبو حاتم فإنه لما حصر القيروان كثر جمعه، ولازم حصارها وليس في بيت مالها دينار ولا في أهرائها شيء من الطعام؛

عاصمة ولاية إفريقية العباسية، وإلحاقها بطرابلس. إلا أن الأمر لم يطل به كثيرا؛ حيث قدم يزيد ابن حاتم المهلبي من المشرق؛ فأعاد السيطرة على القيروان وإفريقية كلها؛ بعد أن قتل أبا حاتم، وهزم جيشه، وفرق شمل الإباضيين. وتم ذلك حسبما ذكرت بعض المصادر في سنة 154هـ (770م).

ـ إمارة أبو يحيى بن قرياس الهواري الإباضي:
ذكره ابن عذاري بهذا الاسم؛[1] حين نسب إليه الثورة التي يكون قد قام بها في طرابلس سنة 156هـ(772م)؛ في عهد يزيد بن حاتم؛ فتصدى له عبد الله بن السمط الكندي؛ قائد طرابلس من طرف يزيد بن حاتم؛ فهزم الإباضيين وفرق جمعهم. ولكن ابن عذاري سكت عن الحديث في

فدام الحصار ثمانية أشهر... حتى جهدهم الجوع، وأكلوا دوابهم وكلابهم؛ ولحق كثير من أهلها بالبربر؛ ولم يبق غير دخول الخوارج إليها. فأتاهم الخبر بوصول عمر ابن حفص من طبنة؛ فنزل الهريش وهو في سبعمائة فارس؛ فزحف الخوارج إليه بأجمعهم وتركوا القيروان؛ فلما فارقوها سار عمر إلى تونس؛ فتبعه البربر؛ فعاد إلى القيروان مجدا، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وغير ذلك. ووصل أبو حاتم والبربر إليه؛ فحصروه؛ فطال الحصار حتى أكلوا دوابهم... فلما ضاق الأمر بعمر وبمن معه... وخرج وقاتل فقتل منتصف ذي الحجة سنة أربع وخمسين ومائة)). الكامل في التاريخ، ج: 5، ص ص: 31 ـــ 32.

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص: 79. أما ابن الأثير فسماه: أبا يحيى فاتوس الهواري، الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 40.

مصيــر هــذا الثائــر الإبــاضي؛ ولــم يذكــر إن كــان قتــل أم لا. وحــتى ابــن الأثيــر لــم يشــر إلى مصيــره النهــائي.

ـ إمــارة صالــح بــن نصيــر النفــزي الإبــاضي:[1]
وكــان مــن رؤســاء نفــزاوة الإباضييــن؛ إذ ثــار مــع قبيلتــه سنــة 161هـ (777م) عــلى والي إفريقيــة بالقيــروان؛ داود بــن يزيــد بــن حاتــم ـ في حيــاة والــده يزيــد الــذي أقعــده المــرض ـ فأرســل داود إليهــم قــوة لتأديبهــم؛ بقيــادة سليمــان بــن الصمــة بــن يزيــد بــن حبيــب بــن المهلــب؛ في عشــرة آلاف مــن الجنــد؛ ففتــك بهــم، وفــرق جمعهــم؛ غيــر أن صالــح بــن نصيــر ـ كمــا يبــدو ـ استطــاع الإفــلات؛[2] ولــم يعــرف مصيــره بعدئــذ.

ـ إمــارة أيــوب الهــواري: أورد خبــره ـ باقتضــاب شديــد ـ ابــن الأثيــر؛ إذ قــال أنــه ثــار مــع قبيلــة ورفجومــة في الــزاب سنــة 164هـ(780م)؛ خــلال عهــد يزيــد بــن حاتــم؛ الــذي سيــر إليهــم عسكــرا كثيــرا؛ بقيــادة يزيــد بــن مجــزأ المهلــبي؛ حيــث قتــل في تلــك الأحــداث، وانهــزم جيشــه؛ كمــا قتــل فيهــا أيضــا المخــارق عامــل الــزاب. فاسنــد يزيــد بــن المهلــب القيــادة إلى العــلا بــن سعيــد المهلــبي؛ فتمكــن مــن دحــر

---

[1] سمــاه ابــن عــذاري: نصيــر بــن صالــح الإبــاضي. البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 83.
[2] أنظــر تاريــخ إفريقيــة والمغــرب، ص: 169. والعبــر مج: 6، ص: 228.

ورفجومة واستلحمهم؛ حيث تتبعهم في كل مكان؛ حتى قضى عليهم[1]. ولم يذكر ابن الأثير مذهب هذا الرجل؛ هل هو صفري أم إباضي.؟ وكالعادة بقي مصير هذا القائد الثائر غير معروف.

وخلاصة القول ـ هنا ـ أنه حصل ـ كما يبدو ـ بعض الالتباس؛ إذ أورد هذه الرواية ـ الرقيق القيروان ـ الذي نسب أفعالها إلى ثائر صفري يسمى أبا زرجونة الورفجومي؛ على أن الأحداث وقعت في سنة 156هـ(772م).[2] ولا يعرف إن كانت ثورة أبي أيوب ـ هذه ـ هي ثورة أبي زرجونة نفسه؛ أم يتعلق الأمر بثورتين مختلفتين؛ قادهما شخصان متباينان.

وبحلول الربع الأخير من القرن الثاني للهجرة؛ أصبح الوضع السياسي في بلاد المغرب غير ما كان عليه في السابق. حيث شهدت هذه الربوع بعض التحولات الجوهرية؛ صبغت ثورات الخوارج ضد حكم العباسيين بالمغرب؛ بمفاهيم جديدة أعطت شرعية لشكل من أشكال الاستقلال للخوارج؛ حيث قامت دولة للصفرية في أقصي المغرب، ودولة للإباضية في المغرب الأوسط. (بالإضافة إلى دولة برغواطة المنحرفة).

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 33.

[2] تاريخ إفريقية والمغرب، ص ص: 161 ـــ 162.

وعليه فلم يبق للخلافة في بغداد إلا القليل القليل؛ المتمثل في الدعاء على المنابر؛ لحفظ ماء الوجه لا غير. ومنذ هذا التاريخ أصبحت المواجهات المسلحة تتم بين دول خارجية في هذه الديار، وبين ولاية إفريقية في القيروان؛ التابعة شكليا إلى الخلافة العباسية ببغداد.

ولما سقطت الدول التي كانت سائدة في بلاد المغرب مثل: الدولة الأغلبية السنية في القيروان، والدولة السنية الإدريسية بفاس، والدولة الرستمية الإباضية في تيهرت، والدولة المدرارية الصفرية بسجلماسة. وبعد أن التهمت تلك الدول كلها دولة جديدة صاعدة؛ تتمثل في الدولة الشيعية الفاطمية؛ لم يجد الخوارج أمامهم سوى الثورة ـ من جديد ـ في ظل قيادة ثائرة أخرى؛ يمكنها أن تحقق آمالهم؛ في عودة دولتهم الخارجية وبروزها إلى الوجود. وهكذا ظهر رجل خارجي؛ في ثورة أقلقت الدولة الشيعية وزعزعت أركانها.

***

ـ **إمـارة أبي يزيـد مخلـد بـن كيـداد اليفـرني الزنـاتي الملقـب بصاحـب الحمـار:** ظهـر هـذا الرجـل في بـلاد قسطيليـة بالنـواحي الجنوبيـة مـن إفريقيـة؛ بعـد سقـوط الدولـة الرستميـة الإباضيـة؛ وبعـد أن التهمهـا الفاطميـون. وتتلمـذ هـذا الثائـر الخـارجي ـ في صغـره ببـلاد قسطيليـة ـ عـلى بعـض النكاريـة؛ منهـم عبـد الحميـد بـن عبـد اللـه الحميـدي الحجـري؛ الملقـب بـأبي عمـار الأعـمى؛ الـذي قـال عنـه محمـد الصنهـاجي أنـه كـان مقدمـا في الإباضيـة، وقـال فيـه ابـن خلـدون أنـه رأس النكاريـة.[1] كمـا تذكـر مصـادر الإباضييـن أنـه درس عـلى بعـض العلمـاء في سجلماسـة. ونظـرا لفقـر أبي يزيـد، وشـدة حاجتـه؛ فقـد عمـل في تعليـم القـرآن للصبيـان؛ فكانـت فرصـة لـه؛ كي يبـث فيهـم مذهـب النكاريـة.

وتقـول المصـادر التاريخيـة أنـه ذهـب إلى الحـج، وعـاد في سنـة 325هـ(926م)؛ حيـث أخـذ ـ بعـد عودتـه ـ في التشويـش والمشاغبـة وتأليـب العامـة عـلى الحكـام. فقبـض عليـه ابـن فركـان ـ مقـدم تـوزر ـ وأودعـه السجـن؛ بتهمـة مـا كـان يدعـو إليـه مـن تكفيـر المسلميـن، وسـبِّ عـلى كـرم اللـه وجهـه؛ ومـا كـان يصـرح بـه مـن وجـوب الخـروج عـن السلطـان. عـلى أن أبـا يزيـد استطـاع التخلـص مـن سجنـه؛ إمـا بتقديـم بعـض الأعـذار؛ كمـا جـاء في قـول؛ وإمـا

[1] أخبـار ملـوك بـني عبيـد، ص: 30. والعبـر، مج: 7، ص: 27.

بالقوة والتمرد؛ حين تمكن من الهرب من سجنه؛ بمساعدة شيخه أبي عمار؛ وجماعة من قبيلة زناتة؛ في قول آخر ذكره ابن خلدون.[1] عندها اتجه أبو يزيد – أولا – إلى وركلا، ثم التجأ – بعد ذلك – إلى جبل أوراس عند عشيرة بني كملان وهم من هوارة؛ وكانوا على مذهبه.[2] ومنها أخذ يتردد مرة على بني برزال جنوب المسيلة، ومرة أخرى على بني زنداك المغراويين. وفي تلك الأثناء أخذ له أبو عمار البيعة من القبائل المنضوية تحت طاعته؛ فتلقب بشيخ المؤمنين.[3]

ولما أحس بقوة أنصاره وصدق طاعتهم وانصياعهم لأوامره؛ أعلن الثورة على الفاطميين؛ في عهد ثاني ملوكهم أبي القاسم محمد بن عبيد الله. وتمكن – في البداية – من جمع كتلة قبلية هامة حوله؛ وقد تمكن من تحقيق ذلك نظرا لما كان يظهره – في البداية – من تدين وورع وانسجام مع المذاهب الأخرى – سنية أم خارجية – تلك المذاهب المعادية للمذهب الفاطمي.[4] ومن جهة

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 27.

[2] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 30.

[3] البيان المغرب، ج: 1، ص: 217. والعبر، مج: 7، ص: 28.

[4] قال ابن عذاري: ((قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنده؛ وقام المسلمون معه. وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه"؛ وسماهم ابن سعدون في كتابه رَجُلاً رَجُلاً. "فركبوا معه؛ ونهضوا إلى القيروان؛ فدخلوها في صفر العام، [يقصد عام 332هـ] وأظهر لأهلها خيرا؛ وترحم على أبي بكر وعمر – رضي الله

أخـــرى فقــد استغــل كراهيـــة فئـــة عريضــــة مــــن القبائـــل والعشائـــر فـي بـــلاد المغـــرب لحكـــام الدولـــة الفاطميـــة. أضـــف إلى ذلـــك كلـــه؛ أن علمـــاء المذاهـــب السنيـــة في هـــذه الديـــار أشاعـــوا عـــلى الفاطميـيـــن صفـــات كريهـــة؛ وضعتهـــم في مصـــاف المخالفيـــن لشــــرع اللـــه، واتهمتهـــم بانتحـــال البـــدع والأكاذيـــب؛ بـــل اتهمتهـــم بالكفـــر أحيانـــا؛ كمـــا كذبـــوا روايـــة انتسابهـــم إلى فاطمـــة البتـــول رضي اللـــه عنهـــا.[1]

عنهمـــا ــ ودعـــا النـــاس إلى جهـــاد الشيعـــة؛ وأمرهـــم بقـــراءة مذهـــب مالـــك. فخـــرج الفقهـــاء والصلحـــاء في الأســـواق بالصـــلاة عـــلى النـــبي صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم وعـــلى أصحابـــه وأزواجـــه؛ حـــتى ركـــزوا بنودهـــم عنـــد الجامـــع؛ فلمـــا كـــان يـــوم الجمعـــة؛ اجتمعـــوا بالمسجـــد الجامـــع، وركبـــوا مـــع أبي يزيـــد بالســـلاح؛ ومعهـــم البنـــود والطبـــول... فلمـــا اجتمـــع النـــاس، وحضـــر الإمـــام، وطلـــع إلى المنبـــر؛ خطـــب خطبـــة أبلـــغ فيهـــا، وحـــرض النـــاس عـــلى جهـــاد الشيعـــة، وأعلمهـــم بمـــا لهـــم فيـــه مـــن الثـــواب؛ ثـــم لعـــن عبيـــد اللـــه الشيـــعي وابنـــه؛ ثـــم نـــزل فخـــرج، وخـــرج النـــاس معـــه لقتـــال الشيعـــة الفجـــار؛ فلـــم يـــزل قاهـــرا لهـــم، غالبـــا عليهـــم، قاتـــلا لجنودهـــم؛ حـــتى لـــم يبـــق لهـــم مـــن بـــلاد إفريقيـــة إلا اليسيـــر)). البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 217 ــ 218.

[1] أورد ابـــن عـــذاري بعـــض التهـــم الـــتي وجهـــت إلى الفاطمييـــن؛ منهـــا نحلـــة التشريـــق الإلحاديـــة؛ الـــتي زعـــم أعداؤهـــم أنهـــا صـــدرت عنهـــم وعـــن أنصارهـــم. وأورد أيضـــا موجـــزا لمـــا خطـــه محمـــد بـــن سعـــدون بـــن عـــلي في كتابـــه "تعزيـــة أهـــل القيـــروان بمـــا جـــرى عـــلى البلـــدان؛ مـــن هيجـــان الفتـــن، وتقلـــب الأزمـــان" وكـــان هـــذا الكتـــاب مشحونـــا بالتهـــم والأوصـــاف الكريهـــة للفاطمييـــن؛ الذيـــن يسميهـــم العبيدييـــن؛ وينكـــر نسبهـــم للرســـول محمـــد صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم. أنظـــر البيـــان المغـــرب، ج: 1، ص ص: 185 . 281 ــ 287.

وبفضل ذلك كله، وبسبب عوامل أخرى كثيرة؛ تمكن أبو يزيد من استقطاب أهم تجمع قبلي ثائر على الدولة الفاطمية؛ حيث كانت قبائل زناتة فيه هي الركيزة الكبرى ــ بحكم أنها قبيلته التي انحدر منها أبوه ــ بالإضافة إلى هوارة ــ وهي قبيلة أمه ــ ثم القبائل ذات المعتقد الإباضي مثل: مزاتة ونفزة ونفوسة؛ وقبائل أخرى كانت ساخطة على الحكم الفاطمي. ولكن الإباضيين ما فتئوا ــ بعد فترة ــ حتى اكتشفوا مخالفته للمذهب الإباضي الوهبي؛[1] الذي لا يكفر بقية المسلمين من أهل المذاهب الأخرى، ولا يبيح سفك دمائهم، ولا يسمح بسلب أموالهم وسبي نسائهم وذريتهم. وهذا الأمر كله كان يخالفه أبو يزيد؛ إذ يجيز تكفير أهل

---

[1] أورد أبو زكرياء حوارا دار بين فقيه الإباضية أبي الربيع سليمان بن زرقون النفوسي ورجل من الإباضيين؛ فقال: ((فسأل رجل أبا الربيع؛ فقال له: "ما تقول في النكارة يا شيخ.؟" فقال: "هم كفار")). وقد أورد أبو زكرياء أيضا حوارا دار بين أبي الربيع وأبي يزيد مخلد بن كيداد؛ أثناء جولة لهما في نواحي سجلماسة؛ التي كانا يتعلمان فيها على يد عالم الإباضية ابن الجمع. فمرا ببعض الوهبية؛ فلم يضيفوهما كما تمنيا؛ ومرا بجماعة أخرى من النكارة فأكرموهما وضيفوهما؛ فقال أبو يزيد لأبي الربيع: (("يا أبا الربيع؛ ألا ترى ما بين الرجال والرجال؛ فهل لك في الرجوع بنا إلى مذهب هؤلاء القوم" فقال له أبو الربيع: لست أريد الدنيا؛ ولو كانت مرادي؛ إذاً لنلتها بعلمي". قال: فافترقا؛ فرجع أبو يزيد نكاريا؛ وثبت أبو الربيع على مذهب الحق)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص: 195.

الملة، ويستبيح الغنائم والسبي فيهم.[1] وعليه فقد أعتبره الإباضيون الوهبيون نكاريا ومخالفا لمذهبهم.[2] وصنفوه ضمن فئات الخوارج المتطرفين. ومع هذا فقد كان يرى في نفسه الوارث الشرعي للدعوة الإباضية؛ بعد سقوط الدولة الرستمية. لذا فقد حاول استعادة مجد الإباضيين، والنهوض بدولتهم من جديد؛ ولكنه فشل في الأخير.[3] وانتهت حركته

---

[1] أجمعت المصادر التاريخية كلها على سماح أبي يزيد بسفك دماء المسلمين المنتمين لغير مذهبه؛ كما أجمعت على استباحته للمحرمات، وتحريضه على سلب أموال المسلمين، وسبي نسائهم واستعباد أطفالهم. وهذا نص ـــ كعينة ـ كتبه أبو زكرياء ـ وهو أحد العلماء الإباضيين ـ يصف فيه أبا يزيد بصفات تضعه في مصاف الكفرة؛ إذ قال: ((ثم إن عدو الله [يقصد أبا يزيد] سار يريد القاسم بالقيروان؛ وكل قرية ومدينة مر بها ـ في طريقه ـ خربها، وسبا ذريتها، وغنم أموالها؛ كفعل نافع بن الأزرق وغيره من الخوارج؛ بل قد زاد عليهم وأربى... وذكروا أنه بلغ عدة ما خرب على يده ـ في إفريقية ـ ثلاثون ألف قرية؛ لم تعمر إلى يومنا هذا. وفعل في إفريقية من الفسوق والمعاصي والفجور ما لم يبلغنا مثله عن الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والجبابرة... وبلغنا أنه نزل بالساحل؛ فاخذ أهل عسكره صبيتين؛ فجاءته أمهما تشكو إليه؛ فقالت له: "يا شيخ؛ إن العزابة سبوا لي ابنتين؛ وهما حرتان؛ وغصبوهما"؛ فلم يجبها عدو الله بجواب؛ غير أنه قال: "هل في إفريقية حرة". فخافت المرأة على نفسها؛ فهربت ونجت بنفسها)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 180 ـ 182.

[2] أنظر كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ـ 187. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ـ 104. فكلها تتبرأ منه، وتخرجه من المذهب الإباضي الوهبي.

[3] وهذا ما جعل أبا القاسم بن عبيد الله يقول: ((لقد فتح فيهم [أي في الإباضيين] بابا؛ إلا أنه لم يحسن السيرة)). كتاب سير الأئمة وأخبارهم؛ ص: 181.

بانتهاء حياته؛ إذ قتل مسلوخا، وممثلا به في سنة 335هـ(949م) بالمهدية.

وقد تمكن هذا الثائر الخارجي من زعزعة أركان الدولة الفاطمية ـ بعض الوقت ـ حيث شغلها بالفتن مدة من الزمن؛ وكاد أن يطيح بأركانها ويسقطها نهائيا؛ لولا معاكسة الأقدار له.[1] وقد استند أبو يزيد ـ في بدية أمره ـ إلى روح العصبية الموغلة في نفوس أبناء القبائل الزناتية؛ ذات الطابع البدوي. كما استطاع ـ بواسطة الدعوة الدينية ـ أن يحقق التلاحم بين القبائل السائرة خلفه؛ تبعا للقاعدة التي تنص على تزايد قوة العصبية؛ عندما تعتمد على الدعوة الدينية.[2]

---

[1] أنظر قصة أبي يزيد في كتاب سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 175 ـ 187. وكتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 29 ـ 47. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 302 ـ 311. وكتاب طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 96 ـ 104. وكتاب البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ـ 220. وكتاب العبر، مج: 7، ص ص: 26 ـ 35. وكتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ص: 109 ـ 125.

[2] يقول ابن خلدون في هذا: ((إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية؛ وتُفْرِد الوجهة إلى الحق. فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء؛ لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عندهم؛ وهم مستميتون عليه؛ وأهل الدولة التي هم طالبوها ـ وإن كانوا أضعافهم ـ فأغراضهم متباينة بالباطل؛ وتخاذلهم لتقية الموت حاصل؛ فلا يقاومونهم؛ وإن كانوا أكثر منهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 337.

غير أنه عجز عن المحافظة على مكتسباته؛ بسبب ما كان يصدر عنه من نزوات؛ لم يتمكن من كبتها.[1] حيث أدى الشك في صدق دعوته إلى نكسة؛ أثرت على حركته؛ فأخذ العامل الديني يتلاشى؛ بفعل الشكوك التي غزت بعض أنصاره؛ فضعف تماسكهم، وانحلت وحدتهم؛ بفساد العصبية المناصرة له وتفككها[2]، وافتراق القبائل المتحالفة

---

[1] فمما قاله محمد الصنهاجي: ((وكان أبو يزيد في أول أمره يلبس خشن الثياب، ويمسك العصا، ويسمى شيخ المسلمين؛ ثم انتقل عن ذلك، وركب عتاق الخيل، ولبس الديباج؛ وكان يرى الجمع بين الأختين بملك اليمين، ويستبيح نساء المسلمين ممن خالفه، ويسفك الدماء. وكان أصحابه البربر يقتلون كل من ظفروا به من الناس؛ كائنا من كان؛ عيثا وعبثا؛ خاصة من خرج من المهدية عند حصارهم إياها؛ فرارا من الجوع والحصار؛ ويشقون بطونهم أحيانا فتشا عن المال؛ توهما منهم أنهم ابتلعوه)). أخبار ملوك بني عبيد، ص: 31. وقال أيضا ابن خلدون: ((واستخف أبو يزيد بالناس؛ بعد قتل ميسور؛ فلبس الحرير، وركب الفاره؛ ونكر عليه أصحابه ذلك، وكاتبه به رؤساؤهم من البلاد... وعذله أبو عمار فيما أتاه من الاستكثار من الدنيا؛ فتاب وأقلع؛ وعاود لبس الصوف والتقشف)). العبر، مج: 7، ص ص: 30 – 31.

[2] ويشرح ابن خلدون الكيفية التي تكسر فيها العصبية؛ تبعا لضعف الصبغة الدينية؛ يقوله: ((واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت؛ كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها؛ دون زيادة الدين؛ فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها؛ الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها؛ ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بداوة)). المقدمة، ج: 2، ص: 638.

معـــه؛ حيـــث عـــادت إلى سابـــق عهدهـــا؛ عصبيات عديـــدة؛ تفرقهـــا الأهـــواء والأطمـــاع.[1]

وهنـــا تظهـــر الحاجـــة إلى العصبيـــة، والدعـــوة الدينيـــة معـــا. فغيـــاب إحداهمـــا؛ يخـــل باستقـــرار الأخـــرى. وهكـــذا أخمـــدت ثـــورة أبي يزيـــد؛ بواسطـــة عصبيـــة أقـــوى مـــن عصبيتـــه؛ كانـــت هي الأخـــرى معـــززة بدعـــوة دينيـــة تتمتـــع بفعاليـــة وقـــدرة عـــلى تحقيـــق أهدافهـــا. وربمـــا عـــاد سبـــب فشلـــه ــ في تحقيـــق هدفـــه ــ إلى مـــا لاقـــاه مـــن خـــذلان، وتنكـــر مـــن قبـــل حلفائـــه قبائـــل زناتـــة؛ وذلـــك بعـــد تخليهـــم عـــن مناصرتـــه ومساندتـــه؛ في أشـــد الظـــروف الـــتي مـــرت بـــه؛ حيـــث تركـــوه فريســـة سهلـــة؛ بيـــن براثـــن أعدائـــه. هـــذه هي العصبيـــة القبليـــة؛ حيـــن تظهـــر في زيهـــا السلـــبي البشـــع.

فثـــورة أبي يزيـــد كانـــت ــ فـــي الظاهـــرــ ثـــورة خارجيـــة المذهـــب؛ نشبـــت ــ بضـــراوة ــ ضـــد دولـــة شيعيـــة المذهـــب؛ ومـــع هـــذا فتلـــك الثـــورة لا تخلـــو مـــن نفحـــات العصبيـــة القبليـــة ونزواتهـــا؛ حيـــث كانـــت تلـــك الثورة تتغـــذى بشحنـــات مـــن العصبيـــة الأمازيغيـــة الزناتيـــة والهواريـــة؛ تلـــك العصبيـــة المناهضـــة لتسلـــط قبائـــل كتامـــة، وقبائـــل صنهاجـــة؛ الـــتي تستتـــر تحـــت ستـــار المذهـــب الشيـــعي. لأن الفكـــرة المذهبيـــة ــ في الحقيقـــة ــ

---

[1] أنظـــر أخبـــار بـــني عبيـــد وسيرتهـــم، ص ص: 31. 33. 34. 38 ــ 41. والكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص ص: 309 ــ 310. واتعـــاظ الحنفـــا، ص ص: 115. 116. والعبـــر، مج: 7، ص ص: 31. 32 ـــ 33

أخفت ظاهرة العصبية، وغلفتها بالوشاح الديني. وقد أكدت هذا التفسير الأحداث التي وقعت بعد موت أبي يزيد؛ إذ ظلت بعض القبائل الأوراسية التي كانت ثائرة معه من قبل ــ كقبيلة هوارة ــ في عصيانها مشاغباتها؛ حتى عهد المعز لدين الله؛ إذ تقول المصادر أنه شن عليها حملات تصفية وتطهير في نواحي الأوراس سنة 342هـ (953م).[1]

والمهم هنا هو أن إخماد ثورة أبي يزيد؛ تم ــ في الظاهر ــ بواسطة عصبية مناوئة للعصبية الزناتية؛ وهي عصبية كل من: كتامة وصنهاجة؛ ولكن من الواجب الاعتراف ــ أيضا ــ بأن خذلان أبي يزيد من طرف القبائل الزناتية؛ لعب دورا حاسما في إمالة الكفة لصالح الشيعة. ويمكن التحقق من ذلك؛ بالإطلاع على الكيفية التي انفضت بها عصبيته؛ أثناء حصاره للمهدية سنة 334هـ(945م)، والكيفية التي تتكر بها أمير مغراوة الزناتية لأبي يزيد؛ مما أدى إلى انفضاض قبيلة مغراوة عنه. إن هذا الأمر كله أضعف العصبية الزناتية وأفسدها؛ وعزز ــ بالمقابل ــ موقف الشيعة، والعصبية: الكتامية والصنهاجية.

---

[1] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ص: 48 ــ 49. والعبر، مج: 4، ص: 95. واتعاظ الحنفا، ص: 134.

وهكذا تبددت أحلام زناتة؛ في إنشاء دولة قوية وموحدة بالمغرب الإسلامي؛ بزعامة أبي يزيد. وبهذا بقي الحديث عن ثورة أبي يزيد في حدود الكيان الثائر، المتمرد؛ الذي لم يصل إلى مرتبة الدولة؛ لأنه – حتى وإن كاد أبو يزيد أن يقضي على الدولة الفاطمية – لا يمكن وضع كيانه في مصاف الدول؛ إذ لم يكن سوى ثائر؛ حالفه الحظ أحيانا، وخانه أحيانا أخرى.

– إمارة أبي خزر يغلي بن زلتاف الوسياني الإباضي:
وهو من علماء الإباضية الوهبيين المعتدلين. وقد قام هذا الرجل – مع رفيقه وصنوه في العلم – **أبي نوح سعيد بن زنغيل الوسياني** – بثورة مضادة للدولة الفاطمية؛ وذلك في بلاد قسطيلية أيضا سنة 358هـ(968م). أي بعد ثلاث وعشرين سنة – تقريبا – من مقتل أبي يزيد مخلد بن كيداد. وتقول المصادر أن السبب في تلك الثورة كان بدافع الثأر؛ وليس بحافز عقائدي أو سياسي. وحدث ذلك بعد إعدام أحد علماء الإباضية الأعيان – ظلما كما يقال – من طرف سلطان الدولة الفاطمية – آنذاك – المعز لدين الله تميم ابن إسماعيل.

وهذه الحركة الإباضية ـ في الحقيقة ـ لم تصل إلى درجة الثورة العارمة؛ إذ كانت عبارة عن عصيان وسخط على سلطان الدولة الفاطمية؛ الذي قتل ـ كما يعتقدون ـ ظلما أحد علمائهم؛ وهو أبو القاسم يزيد بن مخلد الوسياني.[1]

والجدير بالملاحظة هنا؛ أن جل المصادر التاريخية السنية صمتت عن هذه الحركة، ولم تشر إليها؛ وقد يكون ذلك بسبب عدم أهميتها، ونظرا لقلة تأثيرها على الدولة الفاطمية. ولم تتكلم عنها سوى المصادر الإباضية؛ التي أضفت عليها ـ بدورها ـ صفة العصيان القبلي؛ احتجاجا على قتل أحد الأعيان المبجلين في: قسطيلية، وبلاد ريغ، ومنطقة الزاب. لذا فقد نهض الساخطون في تلك الجهات؛ وطالبوا بالثأر لأبي القاسم. ويقال أن الذين اجتمعوا للقتال؛ من مزاتة وحدها اثنا عشر ألف فارس؛ باستثناء الراجلين؛ الذين كان عددهم أكثر

[1] يقول أبو زكرياء في هذا الموضوع: ((ذكر أبو الربيع سليمان بن يخلف رضي الله عنه ؛ أن أبا القاسم رضي الله عنه تحدث مع يهودي؛ فجرى بينهما كلام في أمر أبي تميم [المعز لدين الله] فقال له أبو القاسم رضي الله عنه ليس بيننا وبينه إلا يسيرا؛ فنقوم عليه؛ ونخرجه من تلك المدينة ـ إن شاء الله ـ يعني مدينة القيروان. فلما افترقا قام اليهودي مبادرا؛ فبلغ قوله لأبي تميم. وبلغ المشائخ ما قاله أبو القاسم لليهودي؛ فأتوه وعاتبوه على ذلك ولاموه. وقالوا له: "لو كنت على ذلك؛ فمثلك لا يفشي سره، ولا يهتك ستره؛ أحسن الله عزاءنا فيك")). سير الأئمة وأخبارهم، ص ص: 210 ـ 211. وذكر الدرجيني الرواية نفسها في طبقات المشائخ بالمغرب؛ ج: 1، ص: 124.

من ذلك.[1] ويقول أبو زكرياء أن جموع الثائرين عقدوا لأبي خزر ولاية الدفاع؛ بهدف المطالبة بدم أبي القاسم. على أن يعقدوا له ـ بعد تحقيق هدفهم الأول ـ ولاية الظهور؛[2] أي الولاية المعلنة صراحة.

ويبدو أن أبا خزر لم يكن على درجة من الحنكة العسكرية. ذلك لأنه تسرع في زحفه نحو باغاي. ويقول أبو زكرياء أنه لم ينتظر إمدادات أصحابه كلهم؛ الممثلين في جموع أهل الزاب وورجلان.[3] وعليه فلم يكن في وسعه الصمود أمام قوة الأعداء؛ إذ أنه بعد أن حاصر باغاي ـ بعض الوقت ـ بقوة من قبيلة مزاتة؛ تلك القوة التي كانت في معظمها تتشكل من طلبة العلم؛ انتهى الأمر بهم جميعا إلى الهزيمة والهرب.

---

[1] سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216. وطبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص: 124.

[2] قال أبو زكرياء: ((ثم إن الشيخ أبا خزر (رضي الله عنه) عقدوا له الولاية على الدفاع والطلب بحق الشيخ رضي الله عنه فإن أدركوا حاجتهم عقدوا له ولاية الظهور)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 216.

[3] يقول أبو زكرياء: ((لما استنفر أهل الزاب وأريغ وورجلان؛ خرجوا في جموع عظيمة؛ فخرج خزرون بن فلفول؛ فلما وصل خزرون ـ ومن معه ـ إلى الموضع الذي يقال له أفودان تطلا (أو أفوداد لكلا)؛ كان بينه وبين باغاي مسافة قصيرة ـ فيما قيل والله أعلم ـ سمع بخبر الهزيمة فرجع)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 218.

على أنه من الجدير التنبيه والإشارة لما فعلته الأطماع، والأهواء الذاتية في ضعضعة موقف الثائرين، وإحباط نفوسهم. لقد انجر عن العصبية القبلية الضيقة — التي فعلت فعلها السيئ في صفوف مناصري أبي خزر من بني يليان — أن شرخا خطيرا حدث في صفوف الثوار.

وبذلك انبثقت في وسطهم — فجأة — علة عاتية؛ تشخص ما في العصبية من عيوب ومفاسد؛ حيث تسببت — بفعل عواملها السلبية — في هزيمة جيش الإباضيين؛ وفي تشتت أفراده في الآفاق.[1] عندها لم يجد قائد الثورة أبو خزر وصاحبه أبو نوح أمامهما من وسيلة؛ إلا الهرب والاختفاء ؛ متنكرين في الصحراء وجبل نفوسة؛ انتظارا وطمعا في عفو السلطان؛ الذي عفا عنهما فيما بعد.

---

[1] قال أبو زكرياء واصفا ما جرى في باغاي: ((وبلغنا أن أهل باغاي جاعلوا ناسا من مزاتة؛ يقال لهم بنو يليان؛ على أن يجعلوا في أنفسهم الهزيمة — فكان بينهم وبين (بدنة) [أو يدبة] ضغائن ودحول [أي مخادعات] وثارات — فلما التحم القتال؛ تنحت بنو يليان، وانحازوا إلى ناحية، وألقوا في مسامع العسكر أن بني بدنة تخلفت لهم لتستولي على أموالهم وأنعامهم ومواشيهم وأحيائهم؛ وجعلوا في أنفسهم الهزيمة؛ وانهزم العسكر)). سير الأئمة وأخبارهم، ص: 217. وقد أورد القصة الدرجيني بأسلوب واضح ومفصل، أنظر طبقات المشائخ بالمغرب، ج: 1، ص ص: 129 — 130.

وبهـذا القـدر مـن المعلومـات ــ حـول دور العصبيـة القبليـة في تشييـد دول الخـوارج، وتحريـك كياناتهـم الثائـرة ببـلاد المغـرب والأندلـس ــ يمكـن إنهـاء هـذا الفصـل؛ عـلى أن يتبعـه ــ لاحقـا ــ فصـل آخـر، يعالـج موضـوع نشـأة الدول العلويـة بتأثيـر العصبيـة القبليـة بهـذه الديـار أيضـا.

****

الدول العلوية

المقصود بالدول العلوية هي تلك الدول التي أنشأها أحفاد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أو المنتسبون إليه من أهل الشيعة. وقد يحدث أن تكون الدولة علوية النسب؛ ولكنها سنية المذهب. وهذا هو الخط الفاصل بينها وبين الدولة الشيعية؛ ذات المذهب المخالف للمذاهب السنية؛ في الجوانب الكلامية والفقهية. أما الجانب السياسي؛ الذي ينص على وجوب إسناد الإمامة إلى عائلة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؛ فهو متفق عليه؛ بين أنصار النموذجين من هذه الدول. ولا يدخل في هذا المجال الدول الشيعية التي يحكمها أمراء من غير العلويين؛ مثل: بني زيري أمراء إفريقية والمغرب، وبني أبي الحسين أمراء صقلية.

بدأت الخلافات السياسية تظهر، وتنمو بين المسلمين؛ منذ اليوم الأول لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان منطلقها؛ اختلافهم في اختيار خليفة له. فأهل يثرب قالوا بأنهم أجدر الناس بمنصب الخلافة؛ لكونهم أنصار محمد عليه الصلاة والسلام. ولكن المهاجرين تصدوا لهم؛ وأعطوا لأنفسهم الحق في الخلافة؛ كونهم أهل رسول الله، وأسبق الخلق إسلاما.

ولما توصل الطرفان إلى الاتفاق؛ على أن تكون الخلافة في قريش؛ ظهر فريق ثالث ينادي بأحقية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بمنصب الخلافة؛ نظرا لكونه ابن عم الرسول، وزوج ابنته فاطمة، ووالد الحسن والحسين. ثم شرعت كل جماعة في نشر آرائها خفية وجهارا. وانجر عن ذلك كله حدوث بعض الفتن بين المسلمين؛ بدءا بالفتنة التي قتل خلالها عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ ثم الفتن الدامية الأخرى؛ المشتعلة بين علي بن أبي طالب وخصومه؛ في وقعة الجمل، ووقعة صفين وغيرهما.

وبعد تمام الغلبة للأمويين؛ لم يستسلم العلويون، ولا شيعتهم؛ بل ظلوا في صف المعارضة؛ حتى سقوط الدولة الأموية؛ تحت ضربات الهاشميين، وحلفائهم. ولكن خلافا جديدا ظهر بين أهل البيت؛ وذلك عندما استبد بنو العباس بالسلطة، وانفردوا بها دون بقية الهاشميين؛ من أبناء علي بن أبي طالب. وعليه فقد ثار ــ نتيجة لذلك ــ العلويون وشيعتهم ــ مرات عديدة ــ بسبب إحساسهم بالظلم والغبن.[1]

---

[1] وقد فسر ابن خلدون هذا الأمر في مقدمته؛ طبقا لنظريته عن العصبية؛ فقال: ((وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب؛ بعصبية بني عبد مناف... ثم تلاشت عصبية بني أمية؛ بما أصابهم من الترف؛ فانقرضوا. وجاء بنو العباس؛ فغضوا أعِنَّة بني هاشم، وقتلوا الطالبيين، وشردوهم؛ فانحلت عصبية عبد مناف وتلاشت، وتجاسر العرب عليهم؛ فاستبد عليهم

ونتج عما لحق ببني علي بن أبي طالب – من شتات وتشرد في الآفاق – أنهم انتشروا في الأقطار النائية؛ حيث تمكن بعضهم من إقامة إمارات خاصة بهم في مشرق البلاد ومغربها؛ بعيدا عن مركز الخلافة العباسية. وقد عُرفت هذه الإمارات بالدول العلوية. وإذا كان مصير بعضها انتهى بالسقوط السريع؛ فإن بعضها الآخر تميز بالصمود والمقاومة؛ إذ استطاعت – بإصرار أصحابها، وبصبرهم – مزاحمة الدولة العباسية، ومنافستها في ميادين عديدة. وسيقتصر الحديث في هذا السياق على الدول العلوية ببلاد المغرب والأندلس؛ وأهم تلك الدول:

****

أهل القاصية؛ مثل: بني الأغلب بإفريقية، وأهل الأندلس، وغيرهم؛ وانقسمت الدولة. ثم خرج بنو إدريس بالمغرب. وقام البربر بأمرهم؛ إذعانًا للعصبية التي لهم، وأمنًا أن تصلهم مقاتلة، أو حامية للدولة المقدمة، ج: 2، ص: **865.**

1)ــ الدولــــة الإدريسيـــة:

نشـــأت الدولـــة الإدريسيـــة بواسطـــة إدريـــس بـــن عبـــد اللــــه الكامـــل ابـــن الحســـن المثـــنى ابـــن الحســـن السبـــط ابـــن عـــلي كـــرم اللـــه وجهـــه.[1] وذلـــك سنـــة 172هــ (788م) ببلـــدة وليـــلي في المغـــرب الأقـــصى؛ حيـــث تـــم ذلـــك في حمايـــة قبيلـــة أوربـــة البرنسيـــة. ولمـــا كـــان إدريـــس مـــن أهـــل النصـــاب الملـــكي؛ فقـــد انقـــادت إليـــه هـــذه القبيلـــة الأمازيغيـــة بسهولـــة ويســـر؛ وذلـــك حينمـــا قبـــل أعضاؤهـــا بتوليـــه الحكـــم فيهـــم؛ ملكـــا وإمامـــا. وقـــد تعـــزز انقيادهـــم وتحقـــق قبولهـــم بـــه نظـــرا لأنـــه حفيـــد لرســـول اللـــه محمـــد صـــلى اللـــه عليـــه وسلـــم.

وهكـــذا تحقـــق ــ أيضـــا ــ مـــا قـــرره ابـــن خلـــدون؛ مـــن أنـــه يحـــدث لأهـــل النصـــاب الملـــكي؛ أن يقيـــم أحدهـــم دولـــة؛ بفضـــل عصبيـــة أخـــرى؛ غريبـــة عنـــه؛ فتغنيـــه عـــن الحاجـــة إلى عصبيتـــه الخاصـــة.[2] وهكـــذا.. فقيـــام الدولـــة الإدريسيـــة ببـــلاد المغـــرب جـــاء ــ إذن ــ كنتيجـــة طبيعيـــة لمـــا وصلـــت إليـــه عصبيـــة بـــني هاشـــم

---

[1] أنظـــر جمهـــرة أنســـاب العـــرب لابـــن حـــزم، ص: **49**.

[2] وذلـــك بقولـــه: ((لمـــا انتبـــذ الطالبيـــون مـــن المشـــرق إلى القاصيـــة، وابتعـــدوا عـــن مقـــر الخلافـــة، وسَمَـــوْا إلى طلبهـــا مـــن أيـــدي بـــني العبـــاس؛ بعـــد أن استحكمـــت الصبغـــة لبـــني عبـــد منـــاف. لبـــني أميـــة أولا، ثـــم لبـــني هاشـــم؛ مـــن بعدهـــم. فخرجـــوا بقاصيـــة المغـــرب، ودَعَـــوْا لأنفسهـــم، وقـــام بأمرهـــم البرابـــرة؛ مـــرة بعـــد أخـــرى؛ فأوربـــة، ومغيلـــة؛ للأدارســـة. وكتامـــة، وصنهاجـــة، وهـــوارة؛ للعبيديـــين. فشيـــدوا دولهـــم، ومهـــدوا بعصائبهـــم أمرهـــم. واقتطعـــوا مـــن ممالـــك العباسيـــين المغـــرب كلـــه، ثـــم إفريقيـــة)). المقدمـــة، ج: 2، ص: **635**.

المركبة؛ من ضعف وانقسام؛ الأمر الذي استدعى اللجوء إلى عصبية أخرى؛ يمكنها تعويض العصبية المفككة؛ التي تسرب الوهنِ والانحلال إليها.

وحتى تتعمم الفائدة أذكر ـ هنا ـ بما تضمنه كتابي المعنون بـ: العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية؛ من شروح وافية تخص نظرية ابن خلدون بخصوص الكيفية التي تسقط بها الدول؛ حينما يتسرب الخلل إليها؛ وذلك بعد أن يتنكر حاكم الدولة لأهل عصبيته؛ فيسعى لتأديبهم، ويتمادى في إذلالهم؛ لذا يلجئون إلى أقصى البلاد؛ هاربين من بطشه؛ حيث يتطلعون ـ في تلك الجهات ـ إلى إنشاء دول خاصة بهم؛ بمؤازرة قبائل خارجة عن سلطان الدولة الأم القائمة. وهذا هو الذي حدث ـ بالفعل ـ للعلويين الذين انفصلوا عن عصبيتهم المركبة؛ التي تشمل بني هاشم كافة.[1]

---

[1] يقول ابن عذاري: ((أن إدريس وسليمان ابني عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضهم ـ فروا من الوقعة التي كانت في أيام جعفر المنصور؛ وهي وقعة فخ؛ وكانوا ست اخوة: إدريس، وسليمان، ومحمد، وإبراهيم، وعيسى، و يحيى. أما محمد فخرج بالحجاز؛ وقتل. وأما إبراهيم فقام بالبصرة من العراق؛ فقتل في أيام المنصور. وأما يحيى فقام في الديلم ـ في خلافة الرشيد ـ وهبط على الأمان، ثم سُم ومات. وأما إدريس ففر إلى المغرب؛ ودخل إليه ـ في أيامه ـ من الطالبيين: أخوه سليمان؛ فاحتل بتلمسان، وداود بن القاسم بن إسحاق بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب؛ ثم رجع داود إلى المشرق؛ وبقيت ذريته بالمغرب. واحتل إدريس بن عبد الله بالغرب سنة **170**هـ؛ واستوطن وليلي ـ وكانت أزلية ـ

ـ حكومة إدريس بن عبد الله:

يقول البكري بخصوص إدريس بن عبد الله؛ حينما وصل إلى المغرب الأقصى: أنه وجد شيخا على رأس قبيلة أوربة ـ عندما نزل عليهم ـ يسمى إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ وكان على مذهب المعتزلة.[1] وكما يقول البكري فإن إدريسا يكون قد تابعه في اعتقاده، وأظهر اعتناقه لهذا المذهب.[2] فقام ذلك الشيخ بعقد البيعة لإدريس؛ معلنا إمامته للمؤمنين. فأجمعت أحياء قبيلة أوربة كلها على طاعته. وعندما سمعت به عشائر من: زناتة وزواغة ولواتة ولماية وسدراتة وغياتة ونفزة ومكناسة وغمارة؛ أوفدت إليه الوفود،

وكان وصوله مع مولاه راشد؛ ثم نزل على إسحاق بن عبد الحميد سنة 172هـ؛ فقدمه قبائل المغرب وأطاعوه)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 210.

[1] المعتزلة فرقة من الكلاميين ذات اتجاهات دينية خالصة. وقد انبثق هذا المذهب بين تلاميذ الحسن البصري؛ ومنهم: عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء. وهذا الأخير تنسب إليه الجماعة المسماة بالواصلية؛ وهم طبعا من المعتزلة؛ وعن هذه الفرقة يقول الشهرستاني: ((الواصلية؛ أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء الغزال الألثغ. كان تلميذا للحسن البصري؛ يقرأ عليه العلوم والأخبار. وكانا في أيام عبد الملك بن مروان، وهشام ابن عبد الملك. وبالمغرب الآن منهم شرذمة قليلة في بلد إدريس بن عبد الله الحسني؛ الذي خرج بالمغرب في أيام أبي جعفر المنصور)). الملل والنحل، ج: 1، ص: 46. وكان قد أشار إلى الواصلية هؤلاء البكري عندما تكلم عن مدينة تيهرت؛ في كتابه المغرب، ص: 67. كما تكلم عنهم أيضا أبو زكرياء في كتابه سير الأئمة وأخبارهم، ص: 102. ويبدو أن ياقوت الحموي اقتبس قول البكري حين أشار إلى الواصلية؛ في كتاب معجم البلدان، ج: 2، ص: 8.

[2] المغرب، ص: 118.

وبايعتــه طوعــا؛ عــلى السمــع والطاعــة؛ اعترافــا منهــا بفضلــه ونبلــه، وتبركــا بنسبــه الشريــف. هــذا مــن جهــة، ومــن جهــة أخــرى يبــدو أنهــا وجــدت فيــه عامــلا هامــا؛ يساعدهــا في كبــح أطمــاع ولاة القيــروان.

هــذا ولــم يبــق إدريــس في موقــف المنتظــر بعــد إعــلان البيعــة لــه؛ بــل نهــض إلى الغــزو والجهــاد بمجــرد إحساســه باكتمــال قوتــه. فزحــف عــلى بقايــا اليهــود والنصــارى والوثنييــن؛ في: قنــدلاوة وبهلوانــة وفــازاز وتامسنــا وشالــة وتادلــة. ولمــا أخضــع تلــك الديــار بقبائلهــا؛ اتجــه شرقــا؛ حيــث فتــح تلمســان صلحــا؛ بعــد أن خــرج إليــه محمــد بــن خــزر بــن صــولات المغــراوي؛ طالبــا الأمــان، ومقدمــا بيعتــه، وبيعــة أعيــان قبيلــه، ووجــوه تلمســان.[1]

وهكــذا أصبحــت الدولــة الإدريسيــة قــوة يحســب حسابهــا. فأحــس الخليفــة العبــاسي ـــ هــارون الرشيــد ـــ بالخطــر الــذي يمثلــه إدريــس؛ بوجــوده عــلى رأس تلــك الدولــة النائيــة؛ والــتي تــزداد قــوة وثــراء كلمــا مــر الزمــن. كمــا تشتــد صلابــة وحصانــة مــع مــرور الأيــام؛ بفضــل تلــك القبائــل الأمازيغيــة الملتفــة حولهــا، والحارســة عــلى أمنهــا وأمــن عــدوه. ولمــا شعــر بهــول الموقــف؛ قــرر مــن فــوره اللجــوء إلى الأسلــوب المتــاح لديــه؛ والأكثــر أمانــا لــه ولجيوشــه. ويتمثــل ذلــك الأسلــوب في الخديعــة والاغتيــال.

---

[1] الأنيــس المطــرب بــروض القرطــاس، ص ص: 7 ـــ 8. وأعمــال الأعــلام؛ ق: 3، ص ص: 191 ـــ 192. والعبــر، مج: 4، ص: 24.

لأنه بعد أن تأكد هارون الرشيد من صعوبة القيام بأي عمل ذي طابع عسكري؛ ورأى استحالة نجاح ذلك العمل المكلف؛ ذي الأبعاد الخطيرة. خاصة عندما يتخيل وجوب حدوث ذلك العمل في مناطق اعتبرت ـ منذ أيام الدولة الأموية ـ مناطق مستقلة عن الخلافة؛ ولا تخضع لنفوذها المباشر. لذا فإنه لم يكن أمامه سوى التحرك بسرعة ـ بمعاونة مساعديه ـ قصد وضع خطة لقتل إدريس ابن عبد الله. وبالفعل استطاع هارون تحقيق ذلك؛ بتدبير وزيره يحيى بن خالد؛ وبتنفيذ أحد أتباع الدولة العباسية؛ اسمه سليمان بن حريز الجزري، وسماه آخرون الشماخ اليمني. وكان هذا الرجل من القائلين بمذهب الزيدية؛ بل من المتكلمين المدافعين عن هذا المذهب الشيعي.[1]

---

[1] ثمة روايات عديدة عن اغتيال إدريس؛ منها هذه الرواية التي ذكرها البكري؛ فقال: ((حتى انتهى إلى الرشيد خبره [أي خبر إدريس] فكربه، وشكا ذلك إلى يحيى بن خالد؛ فقال: "أنا أكفيك خبره يا أمير المؤمنين". فأرسل إلى سليمان بن حريز الجزري؛ وهو رجل من ربيعة، وكان متكلما؛ ممن يرى رأي الزيدية؛ وكان حلوا شجاعا؛ أحد شياطين الأنس. وكانت له إمامة في الزيدية؛ إذ كان متكلمهم؛ وهو الذي جمع الرشيد بينه وبين هشام بن الحكم؛ حين ناظره في الإمامة. فأرغبه يحيى بن خالد في مال، ووعده ـ عن نفسه وعن الخليفة ـ بمواعد عظيمة؛ ودعاه إلى قتل إدريس، والتلطف في ذلك؛ فأجابه؛ فأعطاه مالا جزلا، ووجه معه رجلا يثق به وبشجاعته. ودفع إلى سليمان قارورة فيها غالية مسمومة [والغالية هي خليط من السم]؛ فانطلق مع صاحبه؛ فلم يزالا يتغلغلان حتى وصلا إلى إدريس. وكان إدريس عالما بسليمان ورياسته في الزيدية. فلما وصل إليه قال: "إنما جيتك وحملت

وتـم ــ بالفعـل ــ مـا خطـط لـه يحـيى بـن خالـد؛ إذ قـام حريـز الجـزري هـذا ــ بفضـل مـا كـان يتمتـع بـه مـن دهـاء ومكـر ــ بتنفيـذ الخطـة بدقـة

نفسي على ما حملته عليه؛ لمذهبي الذي تعرفني به؛ وإن السلطان طلبني هذا لمحبتي في الخروج معكم أهل البيت. فجيتك لآمن في ناحيتك وأنصرك بنفسي"؛ فسره قوله، وقبله وأحسن مثواه، وأكرم نزله، وأنس به. وكان سليمان يجلس في مجالس البربر، ويظهر الدعاء إلى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحتج لأهل هذه المقالة؛ كاحتجاجه بالعراق. فاعجب ذلك إدريس منه؛ فمكث عنده مدة؛ وهو يطلب غرته، ويرصد الفرصة في أمره، ويرمق باب الحيلة عليه؛ حتى غاب راشد مولاه؛ غيبه في بعض أموره؛ فدخل عليه ومعه القارورة؛ فلما انبسط إليه وخلا وجهه؛ فقال: "جعلني الله فداك؛ في هذه القارورة غالية؛ حملتها معي؛ وليس ببلدك من الطيب ما يتخذ هذا منه؛ فجيتك بها لتطيب بما فيها". ووضعها بين يديه؛ ففتحها إدريس؛ وتغلف منها، وشمها. وانصرف سليمان إلى صاحبه ــ وقد أعدا فرسين قبل ذلك مضمرين ــ فركباهما وخرجا مركضين؛ يطلبان النجاة؛ فلما وصل السم إلى دماغ إدريس وكان في خياشيمه؛ سقط مغشيا عليه؛ لا يعقل ولا يدري من يختص به ما شأنه؛ فبعثوا إلى راشد؛ فجاء مسرعا؛ وتشاغل بمعالجته، والتخبر في أمره ــ وقطع سليمان وصاحبه على فرسيهما بلادا في مدة ذلك ــ وأقام إدريس في غشيته عامة نهاره وعروقه تضرب؛ ثم مات. وتبين راشد أمر سليمان بن حريز؛ فركب في طلبه ــ في جماعة من أصحابه ــ فجعلت الخيل تنقطع تحت أصحابه، ويتخلفون لشدة السير، وحث الطلب؛ حتى لحقه راشد؛ فانحرف إليه سليمان ليمنعه من نفسه؛ فخبطه راشد بالسيف فكنع يده، وضربه على وجهه ورأسه ثلاث ضربات؛ كل ذلك لا يصيب مقتلا؛ مع دفع سليمان عن نفسه؛ وما كان عليه من الجنة؛ وقام فرس راشد لشدة حمله عليه؛ ونجا سليمان بحشاشة نفسه؛ وصاحبه قد خذله؛ فلم يغن عنه شيئا؛ ولم يكن عنده إلا الهرب)). المغرب، ص ص: **120 ــ 121**. أنظر القصة مفصلة أيضا في كتاب الأنيس المطرب، ص ص: **8 ــ 10**. وكتاب أعلام الأعلام؛ ق: **3**، ص ص: **192 ــ 194**.

ودهاء؛ حيث سافر إلى أقصى المغرب؛ ومثل أمام إديس في وليلي؛ مقدما نفسه كنصير للعلويين، ومظهرا تشيعه لأهل البيت. ولما كان إدريس ــ كما تقول بعض المصادر ــ يعرف عنه بعض الأخبار التي تفيد بأنه زيدي المذهب؛ فقد سهل أمر اقترابه منه؛ دون حذر أو شك فيه. وبذلك تمكن من اغتيال إدريس بن عبد الله؛ بعد أن كسب ثقته التامة. إذ يقال أنه ناوله سما؛ زعم أنه دواء ناجع لألم الأسنان. وربما يكون ما قدمه إليه هي زجاجة من الطيب المسموم؛ كما جاء في رواية ثانية. وثمة أيضا أقوال كثيرة أخرى لا تهم هنا. والخلاصة هي أن وفاة إدريس الأول حدثت بوليلي سنة 175هـ (791م)؛ بعد أن حكم الدولة ثلاثة أعوام ونصف. ولما مات إدريس؛ نصب رؤساء القبائل الفاعلة في الدولة راشدا وصيا على العرش. في انتظار اليوم الذي تلد فيه زوجة إدريس التي كانت حاملا آنئذ؛ حيث سيعرف عندئذ جنس المولود المنتظر؛ وعندها يقررون مصير الدولة بصفة نهائية.[1]

[1] في هذا يقول ابن زرع: ((لم يكن لإدريس ــ حين وفاته ــ ولد؛ إلا وليدة تركها حبلى. ــ قال عبد الملك بن محمود الوراق ــ في كتاب المقباس ــ والبكري، والبرنوسي وغيرهم ممن عني بتاريخ أيام الأدارسة: " أن الإمام إدريس بن عبد الله ـــ لما توفي ــ لم يترك ولدا مولودا؛ إلا أنه ترك جارية له ــ مولدة من تاليد البربر اسمها كنزة ــ حاملا منه؛ في الشهر السابع من حملها. فجمع راشد رؤساء القبائل، ووجوه الناس ــ بعد فراغه

ـ حكومة إدريس الثاني:

هذا ولم يحقق هارون الرشيد هدفه الأساسي؛ على الرغم من كل ما حشده؛ من تحرشات ومؤامرات؛ بغرض القضاء على الدولة الإدريسية، والإطاحة بها؛ خاصة بعد مقتل أميرها ومؤسسها إدريس بن عبد الله. إذ أنها تمكنت من البقاء والاستمرار في الوجود؛ خاصة بعد ميلاد ولي العهد الذي سمي ـ أيضا ـ إدريسا؛ تيمنا بأبيه وإحياء لذكراه. بل ظهر ـ كذلك ـ أن هذه الدولة تعزز شأنها، وشاع ذكرها، وقوي ملكها، واستفحل أمرها في عهد إدريس بن إدريس؛ خاصة عندما أضحى عاهل الدولة ـ هذه المرة ـ يجمع بين عصبيتين: الهاشمية والأمازيغية. إذ أصبح له فضل أبيه؛ بنسبه الشريف، إلى جانب ما له من لحمة وانتساب للأمازيغ؛ بحكم نسب أمه؛ التي ينسبها بعضهم إلى قبيلة نفزة البترية؛ أو قبيلة أوربة البرنسية كما يرى آخرون. هذا وقد سهر الوصي على إدريس

من دفن إدريس ـ فأخبرهم أن إدريس لم يترك ولدا؛ إلا حملا بجاريته كنزة؛ وهي في الشهر السابع من حملها؛ فإن رأيتم أن تصبروا على الجارية حتى تضع حملها؛ فإن كان ذكرا ربيناه؛ فإذا بلغ مبلغ الرجال؛ بايعناه تبركا بأهل البيت، وذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وإن كانت جارية؛ نظرتم لأنفسكم من ترونه أهلا لذلك. فقالوا له: " أيها الشيخ المبارك؛ مالنا رأي إلا ما رأيت؛ فإنك عندنا عوض من إدريس... حتى تضع هذه الجارية)). الأنيس المطرب، ص: 10. أنظر أيضا: المغرب، ص: 122. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 195.

وعلى ملكه – مولاه راشد – في تربيته تربية مكتملة وسديدة؛ أعده بها للقيام بأعباء الدولة أحسن قيام؛ حيث مكنه من حفظ القرآن وهو في الثامنة من عمره؛ كما أشرف على تدريسه علوم: الحديث والفقه واللغة والنحو؛ وسهر على ضمان استيعابه لفنون الأدب والشعر؛ بالإضافة إلى تدريبه على ركوب الخيل، وفنون القتال؛ حتى قيل: أنه استوعب هذه العلوم والفنون كلها حينما وصل سنه إلى الحادية عشر.

وهكذا باءت محاولات الدولة العباسية كلها بالفشل. حتى المؤامرات التي نفذت بواسطة أتباعها – ولاة القيروان – والتي ذهب ضحيتها مولى إدريس راشد؛ (الوصي على إدريس الثاني وعلى عرشه) لم تحقق أهدافها. حيث انتصب وصي آخر؛ هو أبو خالد يزيد بن إلياس العبدي؛ فواصل نهج راشد، وتابع طريقه الصالح في بناء مؤسسات الدولة الإدريسية؛ حتى اشتد ساعد الأمير وكبر. وقد عقدت البيعة لإدريس الثاني سنة 186هـ (802م) في قول؛ بينما جعلها آخرون في سنة 187هـ أو 188هـ (803م).

ولما خابت مساعي العباسيين؛ التي كانت تستهدف إزالة الدولة الإدريسية نهائياً ـ بعد قتل إدريس بن عبد الله، ثم تلاه اغتيال الوصي راشد ـ شرعوا في حوك مؤامرات جديدة ترمي ـ أيضا ـ إلى تصفية إدريس الثاني جسديا.[1] وبعد أن فشل العباسيون في مساعيهم السابقة؛ تحولوا إلى تطبيق خطة أخرى؛ مفادها: بث الفوضى داخل صفوف القبائل المناصرة للدولة الإدريسية؛ وعليه فقد أخذوا ـ مرة أخرى ـ يسعون لضرب السبب الأساسي الذي جمع شمل تلك القبائل؛ والعمل على إزالته. لذا فقد استماتوا في سبيل تفكيك التركيبة القبلية القوية؛ التي اجتمعت خلف الإمام إدريس. وهكذا لم يجدوا وسيلة أكثر فعالية من استثارة سلبيات العصبية القبلية داخلهم؛ وبث روح الفرقة بين القبائل المساندة لإدريس؛ وزرع التناقضات بين مصالح كل منهم؛ بهدف تفكيك لحمتهم، وتشتيت شملهم.

---

[1] وهذا هو الذي صرح به والي القيروان إبراهيم بن الأغلب؛ في رسالة بعث بها إلى هارون الرشيد؛ ضمنها هذه الأبيات:

أَلَمْ تَرَنِي بِالكَيْدِ أَرْدَيْتُ رَاشِداً
وَإِنِّي بِأُخْرَى لابْنِ إِدْرِيسَ رَاصِدُ

تَنَاوَلَهُ عَزْمِي عَلَى بُعْدِ دَارِهِ
بِمَخْتُومَةٍ قَدْ هَيَّأَتْهَا المَكَايِدُ

وَتَاهَ أَخُو عَكٍّ بِمَهْلَكِ رَاشِدٍ
وَقَدْ كُنْت فِيهِ سَاهِراً وَهْوَ رَاقِدُ

وعليه فقد توصل ابن الأغلب ـ والي العباسيين على القيروان ـ إلى كسب ولاء شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد ـ بعد فترة سيأتي ذكرها ـ ثم شيخ قبيلة مطغرة بهلول بن عبد الواحد؛ غير أن تلك المحاولات اليائسة أجهضها إدريس الثاني؛ بفضل حزمه وحسن سياسته.

وازدادت الدولة الإدريسية ـ مع مرور الوقت ـ عزة وعنفوانا؛ تبعا لمن وفد إليها من وجوه العرب وفرسانهم أصحاب الخبرة والكفاءة. إذ جاء بعضهم من إفريقية، وبعضهم الآخر من الأندلس.[1] وتقدر المصادر عدد الوافدين من العرب ـ خلال سنة واحدة فقط؛ وهي سنة 189هـ (804م) ـ بحوالي: خمسمائة فارس؛ ينتمون إلى قبائل عربية مختلفة؛ كبني يحصب، والأزد، ومدلج. فسر إدريس بالوافدين، وقربهم إليه، ورفع منازلهم، واتخذهم بطانة، وخاصة له؛ فاستوزر بعضهم، واستكتب آخرين، وأسند القضاء لأصحاب الكفاءة منهم.[2]

---

[1] **كما قدم جماعة من الفرس وافدين إلى فاس من بغداد؛ وهم الذي قال فيهم ابن أبي زرع: ((ووفد عليه [أي إدريس] في تلك الأيام جماعة من الفرس؛ من بلاد العراق؛ فأنزلهم بناحية عين علون؛ ومنهم بنو ملونة)). الأنيس المطرب، ص: 29.**

[2] **فمما قاله ابن أبي زرع: ((وفي سنة تسع وثمانين ومائة وفدت على إدريس وفود العرب من بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ـ في نحو الخمسمائة من القيسية والأزد ومذحج والصدف وغيرهم ـ فسر إدريس بوفادتهم، وأجزل صلاتهم وقربهم، ورفع منازلهم وجعلهم بطانته دون البربر؛ فاعتز بهم؛ لأنه**

غير أن هذا السلوك أغضب شيخ قبيلة أوربة إسحاق بن محمد بن عبد الحميد؛ فطفح كيله في هذه المرة؛ وتململت عصبيته؛ خاصة أنه سبق أن استاء من تصرف إدريس الثاني؛ بعد أن رأى قبيلته وأهل عصبيته يفقدون ـ يوما بعد يوم ـ مواقعهم المتميزة؛ وأخذت حظوتهم السابقة في البلاط تتلاشى.

وذلك أنه بعد اتساع نفوذ الدولة، وانضمام قبائل أمازيغية عديدة (بترية وبرنسية) إليها؛ نال بعضهم حظوة عظيمة، وقربا ملحوظا في بلاط الإمام إدريس. فلم يستسغ شيخ أوربة هذا الأمر؛ ولكنه سكت على مضض. غير أنه رأى ـ مرة أخرى ـ تماديا؛ في ذلك السلوك الذي اعتبره مجحفا ومثيرا. فلم يتقبل ما شاهده من حظوة وعناية تلاقيهما وفود العرب؛ تلك الحظوة التي كانت في السابق موقوفة عليه، وعلى قومه لا غير. نظرا لكونهم أصحاب الفضل الأول في قيام الدولة.

كان فريدا بين البربر؛ ليس معه عربي؛ فاستوزر عمير بن مصعب الأزدي؛ وكان من فرسان العرب وساداتهم؛ ولأبيه مصعب مأثرة عظيمة بإفريقية والأندلس، ومشاهد في غزو الروم كثيرة. واستقضا منهم عامر بن محمد ابن سعيد القيسي ـ من قيس غيلان ـ وكان رجلا صالحا ورعا فقيها؛ سمع مالكا وسفيان الثوري، وروى عنهم[ا] كثيرا؛ ثم خرج إلى الأندلس برسم الجهاد؛ ثم جاز إلى العدوة؛ فوفد بها على إدريس؛ فيمن وفد عليه من العرب)). الأنيس المطرب، ص: 13.

وعليه فقد تحركت في داخله بذور العصبية؛ التي كانت كامنة في صدره؛ تنتظر موعد الإنبات؛ فدفعته نخوته وعصبيته إلى الاتصال بعدو الدولة اللدود ابن الأغلب؛ (والي القيروان) التابع للدولة العباسية؛ بغرض التآمر على إدريس. وهنا.. كشرت طبيعة الملك على أنيابها؛ طبقا لمقتضاها في الرد؛ بقوة وحزم وبدون شفقة. فكان مصير شيخ أوربة إسحاق بن عبد الحميد هو القتل.[1] ولم تشفع له مواقفه السابقة مع إدريس الأول؛ خاصة وأن هذا السلطان ــ الثاني في الدولة ــ لم يعش الأيام التي نشأت فيها الدولة، ولم يشاهد ــ بنفسه ــ الخدمات الجليلة التي قدمها شيخ أوربة إلى أبيه إدريس. وبهذا يصح ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أطوار الدولة، واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الأطوار**".[2]

---

[1] المغرب، ص: 123. العبر، م: 4، ص: 26.

[2] **حيث قال واصفا سلوك بعض الحكام : ((الطور الثاني: طور الاستبداد على قومه، والانفراد دونهم بالملك، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال، واتخاذ الموالي والصنائع، والاستكثار من ذلك؛ لجدع أنوف أهل عصبيته، وعشيرته المقاسمين له في نسبه، الضاربين في الملك بمثل سهمه فهو يدافعهم عن الأمر، ويصدهم عن موارده، ويردهم على أعقابهم أن يخلصوا إليه؛ حتى يُقِرَّ الأمرَ في نصابه، ويُفْرِدَ أهل بيته بما يبني من مجده. فيعاني من مدافعتهم، ومغالبتهم مثل ما عاناه الأولون في طلب الأمر أو أشد؛ لأن الأولين دافعتهم الأجانب؛ فكان ظهراؤهم على مدافعتهم أهل العصبية**

وبعد هذا تفاقمت عزلة أوربة، وازداد نفوذها ضعفا وفتورا. حدث ذلك ــ على الخصوص ــ بعد انتقال عاصمة الدولة من وليلي إلى مدينة فاس ــ الحاضرة الجديدة للدولة ــ وهي التي أنشأها إدريس الثاني لهذا الغرض؛ حتى تستوعب القبائل التابعة للدولة جميعها؛ خاصة وأن من القبائل ــ التي التحقت بخدمة الدولة الإدريسية ــ ما يفوق قبيلة أوربة عددا وعدة. فتعزز بهم مركز مدينة فاس، وازدهر العمران بها، وأينعت حضارتها، فغدت مصدر إشعاع حضاري وثقافي عظيم بالمغرب. وقد ساعدها مركزها المتميز، وموقعها الجيد، وثرواتها: المائية والفلاحية والمعدنية؛ على مضاهاة كبريات الحواضر الإسلامية آنئذ.[1]

بأجمعهم؛ وهذا يدافع الأقارب؛ لا يظاهره على مدافعتهم إلا الأقل من الأباعد؛ فيركب صعبا من الأمر)). المقدمة، ج: 2، ص: 664.

[1] أنظر الأنيس المطرب؛ ففيه عرض وافي لمدينة فاس.

وعندما يئس الأغالبة من تفكيك وحدة القبائل المناصرة للأدارسة؛ وأحسوا بالعجز في القضاء على دولتهم؛ تحولوا إلى استعمال سلاح آخر؛ وهو سلاح الإشاعة، والحرب النفسية؛ إذ عملوا على بث الشك في انتساب إدريس الثاني إلى الهاشميين؛ وذلك بنشر إشاعة مفادها أنه ابن راشد الوصي؛ ولكن سعيهم هذا باء بالفشل أيضا.[1]

هذا وتوفي إدريس بن إدريس بوليلي سنة 213هـ (828م) مختنقا بحبة عنب؛ تسربت في مجرى الهواء بحلقومه.[2] وأولاد إدريس الثاني هم: إدريس، ومحمد، وأحمد، وعبد الله، وعبيد الله، وداود،

---

[1] ومما يدخل في سياق هذه الإشاعة الواهية؛ قول أحدهم؛ ويسمى محمد بن السمهري؛ يهجو القاسم بن إدريس بن إدريس أمير بصرة وطنجة ونواحيهما:

قُـلْ للزَّنِيمِ زَنِيـمِ طَنجَة عِـشْ بهَـا
لاَ يَحْسدَنَّـكَ فِي بِـلاَدِكَ حَاسِـدُ
مَنَّتْـكَ نَفْسُـكَ أنْ تَكُـونَ خَلِيفَـةَ
هَيْهَـاتَ هَـذا مِـنْ حَدِيثِـكَ بَـارِدُ
لَمَّـا رَأَيْتُـكَ للِّئَـامِ مُصَافِيـاً
أيْقَنْـتُ حَقـًّا أنْ جَـدَّكَ رَاشِـدُ

وفي هذا السياق يقول ابن خلدون: ((وعجز الأغالبة من بعد ذلك عن مدافعة هؤلاء الأدارسة؛ ودافعوا خلفاء بني العباس بالمعانير؛ بالغض من إدريس، والقدح في نسبه إلى أبيه إدريس؛ بما هو أوهن من خيوط العناكب)). العبر ، مج: 4، ص: 27.

[2] المغرب، ص: 123.

ويحيى، والحسن، والحسين، وعيسى، وعمر، وجعفر، وحمزة، والقاسم.[1]

ـ حكومة محمد بن إدريس بن إدريس:

ولما توفي إدريس الثاني خلفه ولده محمد؛ الذي قام بتقسيم مقاطعات الدولة بين اخوته؛ تبعا لوصية جدته كنزة أم إدريس. إذ أبقى لنفسه حاضرة الدولة (مدينة فاس)؛ بينما خص أخاه القاسم بطنجة وبصرة ونواحيهما، أما صنهاجة وغمارة فكانتا من نصيب أخيه عمر، وبلاد هوارة وتسول وتازي لأخيه داود، وأغمات ونفيس والمصامدة ولمطة والسوس الأقصى لعبد الله، وأصيلا والعرائش وبلاد زواغة ليحيى، وشالة وسلا وأزمور وتامسنا لعيسى، ووليلي وأعمالها لحمزة.[2] أما تلمسان وبعض الجهات من المغرب الأوسط فكانت من نصيب بني عمه سليمان بن

---

[1] الجمهرة، ص: 49. أما البكري وابن أبي زرع فأسقطا اسمي الحسن والحسين؛ وذكرا البقية؛ وكان عددهم اثني عشر ولدا ذكرا هم: محمد وأحمد وعبيد الله وعيسى وإدريس وجعفر وحمزة ويحيى وعبد الله والقاسم وداود وعمر. المغرب، ص ص: 123 ـ 124. الأنيس المطرب، ص: 27. وحتى ابن الخطيب ذكر أن عددهم اثنا عشرة؛ ولكنه لم يسمهم. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 202.

[2] أنظر المغرب، ص: 124. والأنيس المطرب، ص: 28. أعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 202 ـ 205.

والعبر، مج: 4، ص ص: 27 ـ 28.

عبد الله.[1] وقد نتج عن هذا التصرف بعض المشاكل؛ إذ شجع بعض اخوته على المطالبة بالمزيد، ومحاولة الاستبداد بما تحت أيديهم. فأعلنوا العصيان والثورة عليه. عندها نشبت الفتن بينهم؛ غير أن أخاه عمر بقي وفيا له؛ فكلفه بمحاربة إخوانه العصاة؛ فنفذ له أمره؛ ولما حقق له ما أراد؛ جازاه خير الجزاء؛ إذ ضم إليه ولايات اخوته العاصين. وعمر هذا هو جد ملوك بني حمود؛ الذين امتلكوا الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية. وكانت وفاة عمر في عام 220هـ (835م) ودفن بفاس. فأسند محمد أعمال أخيه عمر لولده علي ابن عمر؛ ولم تطل الحياة بمحمد هو الآخر؛ إذ التحق بأخيه عمر سنة 221هـ. وذكر ابن الخطيب من أولاد محمد بن إدريس ثلاثة هم: علي وإدريس وعبد الله.[2] أضف إليهم الأمير يحيى الذي خلف أخاه عليا فيما بعد.

[1] العبر، مج: 4، ص: 28. غير أن ابن الخطيب يقول أن الذي ولي تلمسان هو حمزة. والراجح أنه أخطأ. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 205.

[2] أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 207. يبدو أن هناك أسماء أخرى لم يذكرها ابن الخطيب؛ وإلا فكيف نفسر تولي من يدعى يحيى بن محمد بعد أخيه علي؟

ـ حكومة ابني محمد: علي ويحيى:

وخلف محمدا ـ بعد وفاته ـ ابنه عليٌّ؛ وكان يلقب بحيدرة؛ تيمنا بجد العلويين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. ونسبت المصادر لعلي هذا ـ على الرغم من صغر سنه؛ إذ كان سنة عند توليه تسعة سنوات وأربعة أشهر ـ النباهة والفطنة والذكاء؛ كما يقال أن أيام حكمه مرت في هدوء وسكينة وهناء.[1] ويرجح أن السمعة الحسنة التي أضفيت على عهده؛ ترجع في الأساس إلى سهر القائمين على تسيير دولته؛ من رجال بلاط أبيه. هذا وتولى ـ بعد موته سنة 234هـ (848م) ـ أمر الدولة أخوه يحيى بن محمد.[2] فقام بشئون الدولة على أحسن وجه؛ إذ تجلت عظمة الدولة

---

[1] قال فيه ابن خلدون: ((بعد أن استخلف ولده عليا ـ في مرضه ـ وهو ابن تسع سنين؛ فقام بأمره الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر البربر وصنائع الدولة وبايعوه غلاما مترعا؛ وقاموا بأمره، وأحسنوا كفالته وطاعته؛ فكانت أيامه خير أيام)). العبر، مج: 4، ص: 29.

[2] هنا يختلف المؤرخون حول من تولى الحكم بعد علي بن محمد. فالبكري وابن الخطيب يقولان بان الذي خلف علي هو ابن أخيه يحيى بن يحيي ابن محمد. أما ابن أبي زرع وابن خلدون فيريان أن الذي تولي الحكم هو يحيى بن محمد نفسه. ومن جهة أخرى فقد تجاهل ابن عذاري تماما ولاية علي بن محمد؛ إذ انتقل مباشرة إلى أخيه يحيى. وبذلك تعتبر الفترة التي تلت موت محمد بن إدريس سنة 221هـ؛ وحتى قيام حكومة يحيى ابن إدريس بن عمر بن إدريس سنة 292هـ شديدة الغموض والإبهام. أنظر: المغرب، ص: 124. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 211. والأنيس المطرب، ص: 29. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. والعبر، 29.

الإدريسية في عهده كما قيل.[1] حيث اهتم بالعمران والبناء، وتنشيط التجارة في مملكته، وتشجيع القادمين إليها من الأندلس والأقطار الأخرى. كما بنيت في عهده النواة الأولى لجامع القرويين في سنة 245هـ (859م)؛ بأموال تبرعت بها امرأة ثرية محسنة من أهل القيروان تدعى فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني. والغريب أن المصادر التاريخية التي اطلعنا عليها لم تشر إلى سنة وفاة يحيى بن محمد. وفي العبر بقي موضع تاريخ الوفاة فارغا؛ إذ جاء فيه: ((**وهلك يحيى هذا سنة....**)).[2]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وولي بعد وفاة أخيه علي، وبعهده إليه في حياته؛ فسار بسيرة أخيه وأبيه وجده. وفي أيامه كثرت العمارة بفاس؛ وقصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب؛ فضاقت بسكانها؛ فبنا الناس الأرباض بخارجها؛ وبنا الأمير يحيى بها الحمامات والفنادق للتجارة؛ وفي أيامهم بني جامع القرويين شرفه الله)). الأنيس المطرب، ص: 29. أنظر أيضا العبر، مج: 4، ص ص: 29 ـــ 30.

[2] العبر، مج: 4، ص: 30.

كما أن المصادر كلها خلت المصادر من التفاصيل الضرورية التي تستحقها هذه الفترة التاريخية المزدهرة – حسب قولهم – من عهد الدولة الإدريسية.

– حكومة يحيى بن يحيى بن محمد:

وبعد وفاة يحيى بن محمد[1] خلفه ولده يحيى ابن يحيى. وكان هذا الأخير سيئ السيرة، سكيرا، عربيدا، فاسد الخلق. وقد ارتكب حماقة قضت على حكمه؛ وذلك عندما تهجم على امرأة يهودية في الحمام؛ فأثارت تلك الحادثة عليه الرعية، وأخرجوه إلى عدوة الأندلس؛ حيث توفي بعد ليلتين من خروجه كمدا وحرقة.[2] وقدم – بعد ذلك – والد زوجته، وابن عمه عليٌّ بن عمر بجيشه من بلاد الريف فدخل فاسا وتولى الحكم بدلا من يحيى بن يحيى بن محمد. وبذلك انتقل الحكم في الدولة الإدريسية من أسرة محمد بن إدريس إلى أسرة عمر بن إدريس. هذا ولا يوجد ما يمكن قوله بخصوص حكومة يحيى هذا. إذ يبدو أن فترة حكمه لم تدم طويلا؛ ولم يسجل التاريخ عنه سوى فضائحه الخلقية.

---

[1] لم تذكر المصادر المتوفرة تاريخ وفاته، ولا تاريخ ولاية الذي خلفه.

[2] المغرب، ص: 124. الأنيس المطرب، ص: 46. البيان المغرب، ج: 1، ص: 211. أعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 207. العبر، مج: 4، ص: 30.

ـ حكومة علي بن عمر بن إدريس:

كان هذا الأمير يحكم بلاد الريف؛ ولما ثار سكان فاس على أميرهم يحيى؛ استدعى أعيان الدولة عليا هذا ليتولى الحكم بفاس؛ فقدم إليها في ظروف غامضة؛ حيث بويع من طرف أهل الحل والعقد. ولم تشر المصادر المتوفرة إلى تاريخ ولايته، ولا تاريخ سقوط حكمه. وكل ما ذكر هو أن الدولة في عهده مرت بمراحل حرجة ـ نتيجة لظروف خارجية وداخلية ـ سادت فيها الاضطرابات والفتن بين الأمير علي وبعض الثوار من الصفرية؛ بقيادة عبد الرزاق الفهري الخارجي؛[1] الذي كان متمركزا بجبال ويلان بمديونة؛ جنوب فاس. فتغلب هذا الثائر الصفري على علي بن عمر، وأخرجه من فاس؛ ثم اضطره للفرار إلى بلاد أوربة. هذا ولم يتمكن عبد الرزاق الصفري من الاستيلاء على عدوة القيروانيين؛ فاكتفى بعدوة الأندلسيين؛[2] حيث بقي فيها إلى أن ظهر الأمير يحيى بن القاسم. وهو كما يظهر من اسمه يتبع الفرع الثالث من أبناء إدريس؛ أي فرع القاسم ابن إدريس.

---

[1] سبق الحديث عنه عند التطرق للأمراء الثائرين من الخوارج؛ في الفصل السابق.

[2] تبقى الفترة الزمنية الفاصلة ما بين موت علي بن محمد؛ وتولي يحيى ابن إدريس بن عمر غامضة وغير واضحة المعالم. والمصادر التاريخية كلها تتخلص من الموضوع بجمل خاطفة لا تفيد.

ـ حكومـــة يحـــيى بـــن القاســـم بـــن إدريـــس:

ولمـــا انهـــزم عـــلي بـــن عمـــر أمـــام عبـــد الـــرزاق الصفـــري؛ ودخـــول هـــذا الأخيـــر عـــدوة الأندلسييـــن؛ أرســـل أهـــل العـــدوة الأخـــرى في طلـــب يحـــيى بـــن القاســـم بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس الملقـــب بالمقـــدام أو العـــدام؛[1] وقـــد تمكـــن هـــذا الأميـــر الحـــازم مـــن استرجـــاع عـــدوة الأندلسييـــن؛ بعـــد أن طـــرد منهـــا الخـــوارج. وشـــدد ـ مـــن هنـــاك ـ الضغـــط عـــلى أولئـــك الثـــوار الصفريـــة، ولاحقهـــم في معاقلهـــم، وكانـــت لـــه معهـــم وقائـــع هامـــة؛ ولكنـــه لـــم يهنـــأ طويـــلا؛ إذ اغتالـــه شخـــص سمتـــه المصـــادر ـ دون توضيـــح يذكـــر ـ بالربيـــع بـــن سليمـــان سنـــة 292هـــ (904م). وبموتـــه عـــاد عـــرش الدولـــة إلى أســـرة عمـــر بـــن إدريـــس مـــرة أخـــرى؛ مـــن خـــلال الأميـــر يحـــيى بـــن إدريـــس بـــن عمـــر. وعـــلى الرغـــم مـــن الأحـــداث الكبـــرى الـــتي عرفتهـــا هـــذه الفتـــرة ـ ولـــو كانـــت قصيـــرة ـ فـــإن المصـــادر التاريخيـــة وقفـــت عاجـــزة عـــن تقديـــم شـــيء مهـــم للقـــارئ.

---

[1] يقـــول البكـــري وابـــن الخطيـــب: أنـــه عـــرف باســـم العـــدام، أمـــا ابـــن أبي زرع وابـــن عـــذاري فيسميانـــه العـــوام، أمـــا ابـــن خلـــدون فيسميـــه الصـــرام. ويبـــدو أن الاســـم تعـــرض للتحريـــف.

ـ حكومة يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس:

وهكذا رجع الحكم في فاس ـ من جديد ـ إلى أسرة عمر بن إدريس؛ وذلك بعد أن انتصب يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس صاحب الريف على عرش فاس سنة 292هـ (904م). فقام هذا الأمير بأمر الدولة خير قيام.[1] وأعلنت الخطبة بطاعته في بلاد المغرب الأقصى بكاملها. وتعتبر المصادر الأمير يحيى هذا أفضل بني إدريس شأنا، وأوسعهم ملكا، وأهمهم ذكرا، وأعلاهم قدرا، وأزكاهم عدلا؛ نظرا لسعة علمه، وفضل أدبه، وسداد فقهه، وفصاحة لسانه، وصواب حفظه للحديث الشريف.[2] ومع هذا لم يسعفه الحظ

---

[1] وفيه يقول ابن خلدون نقلا عن ابن زرع بتصرف: ((فملك جميع أعمال الأدارسة، وخطب له على سائر أعمال المغرب، وكان أعلى بني إدريس ملكا وأعظمهم سلطانا؛ وكان فقيها، عارفا بالحديث؛ ولم يبلغ أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة. وفي أثناء ذلك كله خلص الملك للشيعة بإفريقية، وتغلبوا على الإسكندرية، واختطوا المهدية ـ كما نذكره في دولة كتامة ـ ثم طمحوا إلى ملك المغرب؛ وعقدوا لمصالة بن حبوس كبير مكناسة، وصاحب تاهرت على محاربة ملوكه سنة خمس وثلاثمائة؛ فزحف إليه في عساكر مكناسة وكتامة؛ وبرز لمدافعته يحيى بن إدريس صاحب المغرب بجموعه من المغرب، وأولياء الدولة من أوربة، وسائر البرابرة والموالي؛ فالتقوا على مكناسة، وكانت الدبرة على يحيى وقومه؛ ورجع إلى فاس)). العبر، مج: 4، ص: 31. الأنيس المطرب، ص: 48.

[2] كتب البكري: ((قال علي النوفلي: "كان يشهد مجلس يحيى بن إدريس العلماء والشعراء؛ وكان أبو احمد الشافعي من جلسائه، وممن يتكلم عنده في العلم؛ وكان ينسخ له عدة الوراقين، وينتجعه الناس من الأندلس وغيرها؛ فيحسن إلى جميعهم، وينصرفون عنه أكرم منصرف)). المغرب، ص: 132.

طويلا؛ حيث شاءت الأقدار أن تسوق إليه مصالة ابن حبوس المكناسي؛ في جيش الفاطميين؛ وذلك سنة 305هـ (917م). فتصدى له يحيى؛ ولكن مدافعته لم تجد نفعا؛ فاضطر إلى اللجوء خلف الأسوار عندما شعر بالعجز. وأخيرا اضطرته الأوضاع إلى خيار المصالحة والتسليم لمصالة؛ بشرط أن يتركه في سدة العرش مقابل قدر من المال؛ مع إعلان بيعته للخليفة الفاطمي أبي عبيد الله. ولما تم ذلك عاد مصالة إلى إفريقية.

واتضح أن هذه الهزيمة قد أثـرَتْ سلبا على استقرار الدولة الإدريسية وسيادتها؛ وخاصة بعد أن أجبر أميرها على إعلان طاعته وولائه للدولة الفاطمية. وكان هذا الأمر بداية انحدار الدولة الإدريسية نحو السقوط النهائي. إذ كان لظهور مصالة بن حبوس المكناسي على مسرح الأحداث وقع خطير على أمن الدولة؛ حيث أنه كان يميل إلى عصبيته المكناسية؛ وتبعا لذلك فقد انحاز إلى أبناء عمه بني أبي العافية المكناسيين؛ المعروفين بشدة العداء للأدارسة؛ أين تآمر معهم على إسقاط الدولة الإدريسية؛ مع أنه عقد مع سلطانها صلحا قائما على شروط؛ لم ينكثها يحيى بن إدريس.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان موسي بن أبي العافية ـ صاحب تسول وبلاد تازا ـ قد خدم القايد مصالة، وهاداه وتقرب إليه بالإحسان؛ وقاتل معه في جميع حروبه بالمغرب. فلما انصرف مصالة إلى القيروان؛ قدمه على المغرب، واختصه من بين سائر أمرائه. فكان موسى بن أبي العافية كلما أراد

وهكذا ظهر أنه كما قامت الدولة الإدريسية بواسطة عصبية قبيلة أوربة البرنسية؛ شاءت لها الأقدار أن تتفكك، وتنهار بواسطة عصبية قبيلة أخرى منافسة؛ وهي قبيلة مكناسة؛ التي انضمت إلى حلف: كتامة وصنهاجة؛ المسخر لخدمة الدولة الفاطمية. تم ذلك حين أرسل عبيد الله المهدي قائد جيوشه؛ مصالة بن حبوس بن منازل بن بهلول المكناسي إلى فاس؛ بغرض إخضاعها. فتمكن من الانتصار على الأدارسة – كما سبق ذكره – حيث انتزع بيعتهم للمهدي سنة 305هـ (917م). ولكن أضاف بعض الأشياء التي أوحت بها إليه عصبيته المكناسية؛ إذ استهوته فكرة تقسيم النفوذ والسلطان – في تلك الديار – بين الأدارسة وأهل عصبيته الممثلين في قبيلة مكناسة. فبادر – من فوره – إلى منح شيخ مكناسة – موسى بن أبي العافية ابن أبي باسل بن أبي الضحاك المكناسي –

الظهور بالمغرب والاستبداد فيه؛ غمره يحيى بن إدريس الحسني؛ بشرفه وكرمه ودينه وعدله؛ وقطع به على كل ما يريد؛ فكان على قلبه منه حملا ثقيلا. فلما قدم مصالة المغرب في كرته الثانية؛ وذلك في سنة تسع وثلاث مائة؛ سعى موسى بن أبي العافية بيحيى بن إدريس عنده؛ حتى وغر صدره عليه؛ فعزم مصالة على القبض عليه. فلما قرب من مدينة فاس؛ خرج إليه الأمير يحيى بن إدريس ليسلم عليه – في قوم من وجوه عسكره – فقبض عليهم مصالة؛ وقيد يحيى بالحديد. ودخل مصالة مدينة فاس؛ ويحيى بن إدريس بين يديه مقيدا على جمل؛ فعذبه بأنواع من العذاب؛ حتى أخرج إليه جميع أمواله وذخائره. فلما قبض مصالة الأموال أطلقه ونفاه إلى ناحية مدينة أصيلا)). الأنيس المطرب، ص ص: 48 – 49.

ما طلبه من نفوذ واسع خارج أسوار فاس. وفي المقابل حصر نفوذ الدولة الإدريسية داخل تلك الأسوار. وهنا اشتعل الصراع بين القبيلة الفتية؛ المتطلعة إلى الملك، وبين الدولة التي تسرب إليها الوهن والانحلال. فكان هذا الإجراء ــ المتخذ من طرف مصالة ــ يعتبر بمثابة الضوء الأخضر؛ الذي أطلق يد ابن عمه موسى بن العافية؛ لكي يتحرش بيحيى بن إدريس أمير الأدارسة. وعليه فقد وجد ابن أبي العافية فرصة مواتية لمواصلة استفزازه وتحرشه بالأدارسة. وذلك لأنه لم يقتنع بما حصل عليه من نفوذ وسلطات ورئاسة؛ إذ كان ــ في الحقيقة ــ يطلب مرتبة الملك نفسه؛ ذلك الملك الذي تسعى إليه كل عصبية تحس في ذاتها القدرة على الوصول إليه. فالعصبية المكناسية في هذه الحال ينطبق عليها ما جاء في مقدمة ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1]

---

[1] حيث يقول: ((ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها؛ طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإذا كافأتها، ومانعتها كانوا أقتالا وأنظارا؛ ولكل واحدة منها التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية في التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها الدولة. فإن أدركت الدولة في هَرَمِهَا ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجْمَعُ لها. وإن انتهت إلى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وإنما قارن حاجتها إلى الاستظهار بأهل

وهكــذا استمــر مــوسى بــن العافيــة في إلحاحــه علــى ابــن عمــه مصالــة؛ حــتى حقــق لــه مآربــه كلهــا. حــدث ذلــك عندمــا قــدم في المــرة الثانيــة إلى غــرب البــلاد؛ أيــن قبــض علــى أميــر الدولــة الإدريسيــة يحــيى بــن إدريــس؛ في سنــة 309هــ (921م)؛ بخديعــة دبرهــا وأحكمهــا؛ ثــم سلــط عليــه صنوفــا مــن العــذاب والإهانــة. كمــا سلبــه ذخائــره وممتلكاتــه؛ وبعدهــا نفــاه إلى أصيــلا؛ حيــث ســاءت حالــه؛ واشتــدت عزلتــه؛ وتعاظمــت حاجتــه، وازداد فقــره؛ فخــرج منهــا إلى الريــف في رعايــة بــني عمــه الأدارســة هنــاك؛ ولكنــه قــرر بعــد ذلــك التوجــه إلى إفريقيــة؛ طمعــا في استعطــاف السلطــان الفاطــمي؛ فاعتــرض طريقــه مــوسى ابــن العافيــة؛ وسجنــه عنــده زهــاء عشــر سنيــن، ثــم أطلــق سراحــه؛ فســار إلى المهديــة ــ الــتي كانــت آنئــذ محاصــرة مــن قبــل أبي يزيــد صاحــب الحمــار ــ فمــات بهــا جوعــا وكمــدا سنــة 332هــ (943م).[1] أمــا فــاس فقــد ولى مصالــة عليهــا ريحــان بــن علــي الكتــامي؛ إلى أن قــام عليــه أميــر آخــر مــن أســرة الأدارســة.

العصبيــات انتظمتهــا الدولــة في أوليائهــا؛ تستظهــر بهــا علــى مــا يعــن مــن مقاصدهــا)). المقدمــة، ج: 2، ص: 610.

[1] المغــرب، ص: 126. والأنيــس المطــرب، ص: 49. والعبــر، مج: 4، ص: 32.

ـ **حكومة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس:**

وبذلك يتضح؛ أن ثمة بقية من الحياة مازالت تنبض بالنشاط والحيوية في الأسرة الإدريسية؛ حيث ظهر على مسرح الأحداث أمير إدريسي آخر؛ وهو الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام؛ وذلك حين ثار سنة 310هـ (922م)[1] على ريحان بن عليّ الكتامي؛ الذي ولاَّه مصالة على أعمال فاس؛ قبل عودته إلى إفريقية. ولما تغلب عليه الحسن بن محمد نفاه عن فاس إلى إفريقية. وكان الأمير الحسن موصوفا بالشجاعة والإقدام والفروسية. وقد عرف بلقب الحجام؛ لأنه حدث أن كان ـ في بعض حروبه ـ لا يطعن أحدا إلا في موضع المحاجم؛ فقيل عنه صار حجاما؛[2] ومن هنا قال هو أو قال أحدهم على لسانه:

وَسُمِيتُ حَجَّاماً وَلَسْتُ بحَاجِمٍ

وَلَكنْ لِضَرْبِي فِي مكانِ المَحَاجِمِ

---

[1] يقول البكري أن تولية ريحان الكتامي تمت في سنة 307هـ؛ وثار عليه الحسن الحجام في سنة 316هـ؛ المغرب، ص: 126. أما ابن خلدون فيقول أن تولي ريحان على فاس تم في سنة 309هـ؛ أما قيام الحسن عليه فحدث في سنة 313هـ. العبر، مج: 4، ص: 32. ومج: 6، ص: 447.

[2] أما ابن حزم فيقول: ((سمي الحجّام لكثرة سفكه للدماء)). الجمهرة، 50.

وبعد أن استولى الحجام على فاس؛ خرج لحرب موسى بن أبي العافية؛ فوقعت بينهما معركة حامية؛ سنة 311هـ (923م). قال عنها المؤرخون أنها كانت أشد معركة حدثت في عهد دولة الأدارسة؛ منذ وفاة جدهم إدريس؛ إذ قتل فيها من المكناسيين نحو ألفين وثلاثمائة قتيل؛ منهم ولد لموسى بن العافية واسمه منهل؛ ومن جيش الأدارسة قتل حوالي سبعمائة. ومع هذا لم يهنأ الأمير الحسن طويلا بالنصر؛ إذ تعرض لمؤامرة غادرة؛ قام بها مساعده وعامله على فاس؛ حامد ابن حمدان الهمداني؛ المعروف باللوزي؛ نسبة إلى قرية بإفريقية تسمى لوزة؛ وثمة من ينسبه إلى قبيلة أوربة.[1] انتهز هذا الرجل فرصة عودة سيده إلى المدينة منفردا؛ فانقض عليه واعتقله؛ ثم بعث إلى موسى بن العافية؛ داعيا إياه للقدوم؛ بعد أن أقفل أبواب فاس في وجه جيش الأدارسة. وبهذا تمكن موسى بن أبي العافية من دخول فاس واحتلالها. كما تعزز ملكه بموت الحسن الحجام.

[1] الأنيس المطرب، ص: 50. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 213. والعبر، مج: 4، ص: 32.

ومن الواجب التنبيه هنا إلى أن المصادر قد اختلفت؛ حول الكيفية التي مات بها الحسن الحجام؛ إذ قال بعضهم أنه مات مسموما؛ وبعضهم الآخر قال أنه مات بتأثير السقوط من السور الذي فرّ منه.[1]

والمهم هنا أنه مات بعد هذا الحادث. ولم تشر المصادر بشكل صريح إلى السنة التي مات فيها؛ وإن كانت قد قالت أن مدة حكم الحسن نحو عامين. وإذا كان قد ثار على ريحان الكتامي في سنة 310هـ (922م)؛ واشتبك مع ابن العافية سنة 311هـ (923م)؛ تكون إذن سنة سقوط حكمه هي أواخر عام 311هـ أو بداية عام 312هـ (924م). ولما استولى موسى بن أبي العافية على مدينة فاس؛ تحرش بصاحب الفضل عليه حامد بن حمدان؛ فخاف منه؛ فلم يجد أمامه منجى سوى الفرار إلى المهدية.[2] وذكر ابن حزم من ذرية

---

[1] المغرب، ص: 127. الأنيس المطرب، ص: 50.

[2] رواية ابن خلدون تقول: ((وغدر به حامد بن حمدان الأوربي واعتقله. وبعث إلى موسى فوصل إلى فاس؛ وملكها؛ وطالبه بإحضار الحسن؛ فدافعه عن ذلك؛ وأطلق الحسن متنكرا؛ فتدلى من السور فسقط؛ ومات من ليلته. وفر حامد بن حمدان إلى المهدية... وذهب ملك الأدارسة؛ واستولى ابن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة؛ واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد ابن القاسم ـ أخي الحسن ـ وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هناك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة. ونزلوه. وبنو عمر

الحسن الحجام: ((**القاسم بن محمد بن الحسن؛ الفقيه الشافعي بالقيروان؛ المعروف بابن الزبيري**)).[1]

وهكذا يتضح بأن تلك المحاولات اليائسة التي قام بها الحسن الحجام؛ لبعث الحياة في الدولة الإدريسية لم تُجْدِ نفعا؛ لأن حال الدولة الإدرسية أضحى مهلهلا ومتهالكا؛ إذ يبدو أنها دخلت في سن الشيخوخة؛ حيث تفشت بين أصحابها عاهات الفساد والانحلال، واستهوتهم مغريات الترف والسكينة والارتخاء؛ هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى فقد غدت قوى أعداء هذه الدولة متفوقة عليها؛ بفضل تحالفهم مع الفاطميين. وعليه فقد وصلت دولة الأدارسة إلى الحد الذي يشير إليه ابن خلدون في نظريته بقوله: ((**وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهَرَم؛ ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه، ولا يكون لها معه برءٌ؛ إلى أن تنقرض**)).[2]

ابن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيجساس إلى سبتة وطنجة. وبقي إبراهيم كذلك)). العبر، مج: 4، ص: ص: 32 ــ 33.

[1] الجمهرة، ص: 50. أما البكري فذكر أربعة من أولاد عمر وهم: علي، وإدريس، وعبيد الله، ومحمد. المغرب، ص: 131.

[2] المقدمة، ج: 2، ص: 666.

وعلى الرغم مما حل بهذه الدولة من أوضاع مزرية؛ وما أضحت عليه من وهن وتشرذم؛ فقد بقيت المواجهات بين أمرائها وأعدائهم قائمة؛ ـ وإن تغير الأشخاص واختلفت المواقع ـ إذ ظهر أن الأحداث لم تهدأ والأحوال لم تسكن أبدا. وجوهر الاختلاف يتمثل في تبدل المقاتلين، وتنوع ميادين الصدام والقتال. ومع ذلك فقد حل الموعد المحتوم لنهاية هذه الدولة؛ وذلك بعد مدة من الزمن ـ كما سبق ذكره ـ وصح ما قرره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص**".[1] وفي النهاية، وبعد مد

---

[1] حيث يقول: ((أما أعمار الدول ـ أيضا ـ وإن كانت تختلف بحسب القرانات؛ إلا أن الدولة ـ في الغالب ـ لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال. والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط؛ فيكون أربعين؛ الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايته. قال تعالى: "حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة" [من آية 15 من سورة الأحقاف] ولهذا قلنا إن عمر الشخص الواحد هو عمر الجيل... وإنما قلنا إن عمر الدولة لا يعدو ـ في الغالب ـ ثلاثة أجيال: لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها؛ من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد. فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم؛ فحدهم مرهف، وجانبهم مرهوب، والناس لهم مغلوبون. والجيل الثاني تحول حالهم ـ بالملك والترفه ـ من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى انفراد الواحد به، وكسل الباقين عن السعي فيه، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستكانة؛ فتنكسر سورة العصبية بعض الشيء؛ وتؤنس منهم المهانة والخضوع. ويبقى لهم الكثير من ذلك؛ بما أدركوا الجيل الأول، وباشروا أحوالهم، وشاهدوا من اعتزازهم وسعيهم إلى المجد، ومراميهم في المدافعة والحماية؛ فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية؛ وإن ذهب منه ما ذهب؛ ويكونون

وجـــزر؛ خلـــص الأمـــر إلى سقـــوط مـــا بـــقي مـــن قـــلاع للصمـــود في الدولـــة الإدريسيـــة؛ تحـــت ثقـــل الدولـــة الأمويـــة بالأندلـــس سنـــة 365هـــ (975م). ولكـــن كيـــف حـــدث كـــل ذلـــك..؟

****

ـ عصـــر التفكـــك والشتـــات:

أخـــذت الدولـــة الإدريسيـــة في التفكـــك إلى أجـــزاء صغيـــرة، وأطـــراف منفصلـــة؛ اعتبـــارا مـــن تاريـــخ سقـــوط حكومـــة الحســـن الحجـــام؛ أي في بدايـــة العقـــد الثـــاني مـــن القـــرن الرابـــع الهجـــري ـ حيـــث غـــدت تشبـــه قطـــرة مـــن زئبـــق سقطـــت عـــلى مسطـــح؛ فتفتتـــت إلى جزيئـــات؛ تتاثـــرت في كـــل الجهـــات. ومـــع هـــذا فقـــد بقيـــت خلايـــا تلـــك الدولـــة تنبـــض بالحيـــاة؛ وإن تفككـــت

عـلى رجـاء مـن مراجعـة الأحـوال الـتي كانـت للجيـل الأول؛ أو عـلى ظـن مـن وجودهـا فيهـم. وأمـا الجيـل الثالـث فينسـون عهـد البـداوة والخشونـة كـأن لـم تكـن، ويفقـدون حـلاوة العـز والعصبيـة؛ بمـا هـم فيـه مـن ملكـة القهـر؛ ويبلـغ فيهـم التـرف غايتـه؛ بمـا تفنقـوه [أي تنعمـوا] مـن النعيـم، وغضـارة [أي النعمـة والسعـة] العيـش؛ فيصيـرون عيـالا عـلى الدولـة؛ ومـن جملـة النسـاء والولـدان المحتاجيـن للمدافعـة عنهـم؛ وتسقـط العصبيـة بالجملـة... وهـذه الأجيـال الثلاثـة عمرهـا مائـة سنـة عـلى مـا مـر. ولا تعـدو الـدول ـ في الغالـب ـ هـذا العمـر؛ بتقريـب قبلـه أو بعـده؛ إلا إذا عـرض لهـا عـارض آخـر؛ مـن فقـدان المطالـب؛ فيكـون الهـرم حاصـلا مستوليـا؛ والطالـب لـم يحضرهـا؛ ولـو قـد جـاء الطالـب؛ لمـا وجـد مدافعـا. "فـإذا جـاء أجلهـم لا يستأخـرون ساعـة ولا يستقدمـون" [مـن الآيـة 61 مـن سـورة النحـل])). المقدمـة، ج: 2، ص ص: 655 ـــ 657.

لحمتها، وانشطرت كتلتها، وتناثرت أجزاء وأطرافا. وأضحت عبارة عن مجموعة من الكيانات التي تحكم المدن.. وإمارات مجهرية ذات طابع قبلي؛ موزعة عبر التراب المغربي كله؛ وكانت كلها تحظى بحماية ورعاية عجيبة من طرف القبائل المغربية المختلفة. وحدث ذلك خاصة في مناطق الساحل الشمالي للمغرب، وبلاد الريف، وجبال غمارة.

غير أنه برز من بين تلك الإمارات إمارتان إدريسيتان منفصلتان ومتنافستان: الأولى إمارة بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛[1] وكانت تحت قيادة إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس. وهو الذي بنى قلعة منيعة ليتحصن فيها مع أسرته وبني عمومته؛ وتسمى حجر النسر؛ وذلك في سنة 317هـ (929م)؛[2] وكانت هذه القلعة تربض على ذروة جبل شاهق صعب

---

[1] ذكر البكري أنهم: ((حسن وجنون [واسمه الحقيقي أحمد. ومعنى جنون بالأمازيغية القمر] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم. وكان محمد متخلفا في إخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه. وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون وحنون ابنا إبراهيم. واسم جنون [قنون] القاسم [وهو غير جنون الأول ابن محمد بن القاسم بن إدريس؛ الذي يسمى أحمد])). المغرب، ص ص: 128 ـ 129. أنظر أيضا الجمهرة، ص: 49.

[2] المغرب، ص: 127. واضطرب ابن خلدون في هذا الخبر؛ حيث ذكر ـ مرة ـ أن باني القلعة هو إبراهيم بن محمد؛ ـ ومرة أخرى ـ قال أن الذي بناها هو محمد بن إبراهيم بن محمد. العبر، مج: 4، ص: 33. ومج: 6، ص: 447.

المنال؛ في نواحي الريف بجبال غمارة. أما الإمارة الثانية فهي لبني عمر بن إدريس بن إدريس؛ بقيادة أبي العيش[1] بن إدريس بن عمر بن إدريس؛[2] وقامت في جهات تيقيساس (تيكيساز) وسبتة وطنجة من بلاد غمارة. وعلى هذا تكون قبيلة غمارة قد برهنت على أنها من أخلص قبائل المغرب لبني إدريس؛ حيث احتضنوهم، وآووهم في بلادهم، وأخلصوا الطاعة لهم جميعا؛ سواء كانوا من بنى إبراهيم بن محمد بن القاسم، أو من بني عمر بن إدريس.[3]

---

[1] منعا لكل التباس؛ من الواجب التنبيه إلى أن اسم أبي العيش مستعمل في عائلتي الأدارسة وبني سليمان. وثمة عدد من الأشخاص يسمون بهذا الاسم.

[2] يقول البكرى: ((وأما إدريس بن عمر بن إدريس فهو لباب ولد عمر ابن إدريس؛ وبولده تكرر الأمر؛ إلى أن أكثرهم بنو محمد بن القاسم. ومحمد بن إدريس بن عمر هو المعروف بابن ميالة؛ يكنى أبا العيش؛ ولم يزل مواليا للناصر عبد الرحمن رحمه الله... وكان لإدريس بن عمر خمسة من الولد الذكور غير هذين [يقصد أبا العيش محمدا ويحيى الذي تولى الملك بفاس]؛ ولهم عقب كثير)). ثم يضيف: ((وأما أبو العيش بن عبيد الله فولد حمودا ويحيى. فأما يحيى فله بنون بتازغدرا. وأما حمود فولد القاسم وعليا وفاطمة. فأما علي فولي الخلافة بالأندلس سنة سبع وأربعمائة)). المغرب، ص ص: 132 ـ 133.

[3] يقول ابن خلدون في هذا: ((واستولى ابن أبي العافية على فاس، وأعمال المغرب؛ وأجلى الأدارسة وأحجرهم بحصنهم حجر النسر؛ وتحيزوا إلى جبال غمارة وبلاد الريف. وكان لغمارة في التمسك بدعوتهم آثار ومقامات؛ واستجدوا بتلك الناحية ملكا؛ توزعوه قطعا. كان أعظمها لبني محمد هؤلاء، ولبني عمر بتيفيساس ونكور وبلاد الريف)). العبر، مج: 6، ص: 448.

غير أن موسى بن أبي العافية لم يكتف بما افتكه من أيدي الأدارسة؛ بل شحن عليهم بسعيه في مطاردتهم عبر البلاد المغربية كلها؛ إذ عمل جاهدا لتصفيتهم نهائيا، وإزالة وجودهم من تلك الديار؛ سواء كان ذلك بالقتل، أو بالنفي الأبدي.[1] حدث ذلك بعد أن تغلب موسى بن أبي العافية على معظم المغرب الأقصى؛ وبعض والأجزاء الغربية من المغرب الأوسط. وطارد الحسنيين في كل مكان؛ حتى أوشك أن يقضي على وجودهم نهائيا من تلك البلاد. ولم يفلت من مخالبه أو يتقي سطوته إلا الذين انحازوا إلى الريف؛ متحصنين بقلعة حجر النسر المنيعة؛ كما سبق قوله. وحتى هؤلاء حاول استئصالهم نهائيا لولا المعارضة التي واجهه بها أصحابه.[2]

---

[1] وصفت بعض المصادر والمراجع ما أحدثه ابن أبي العافية من مجازر في بلاد المغرب؛ كان الأدارسة من ضحاياها. وقال إسماعيل العربي؛ دون أن يشير إلى مصدره: ((وعقب ذلك؛ بدأ ابن أبي العافية في مطاردة الأدارسة وتقتيلهم جماعات وأفرادا؛ حتى أطلق على نهر فاس اسم النهر الأحمر؛ لغزارة الدماء ـ دماء الأدارسة خصوصا ـ التي سالت فيه)). كتاب دولة الأدارسة، ص: **154**.

[2] قال في هذا ابن أبي زرع: ((واستولى ابن أبي العافية على جميع بلاد المغرب؛ وبايعه القبائل والأشياخ؛ فأجلا جميع الأدارسة من بلادهم، وأخرجهم من ديارهم، وملك مدينة أصيلا، ومدينة شالة وغيرها من بلادهم. وساروا بأجمعهم إلى قلعة حجر النسر؛ مقهورين، مغلوبين؛ فانحصروا بها؛ وهي حصن منيع؛ بناه محمد بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس؛ طلع في عنان السحاب. فنزل عليهم ابن أبي العافية؛ واشتد عليهم الحصار؛ وأراد استيصالهم،

وذلك أنه لما حاصرهم في قلعتهم، وتمادى في التضييق عليهم قصد استئصالهم نهائيا؛ اعترض عليه أصحابه؛ ومنعوه من تحقيق رغبته في القضاء ــ نهائيا ــ على الأدارسة. فعاد إلى فاس؛ بعد أن ترك حامية تقدر بألف فارس لمراقبتهم والتضييق عليهم. ولما عاد إلى مركز إمارته بفاس؛ طور زحفه نحو إمارة بني سليمان بن عبد الله بتلمسان. تلك الإمارة التي كان يقودها الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان الحسني.[1] وقد كان هذا الأمير ــ في تلك

وقطع دابرهم؛ فعدله على ذلك رؤساء المغرب، وأكابر أهل دولته؛ وقالوا له: "أتريد أن تقطع دابر أهل البيت من المغرب، وتقتلهم أجمعين. هذا شيء لا نوافقك عليه، ولا نتركك له"؛ فاستحيا لذلك وارتحل عنهم إلى مدينة فاس؛ وخلف عليهم قائده أبا الفتح التسولي [في المغرب والبيان المغرب سمي أبا قمح] في ألف فارس؛ يمنعهم من التصرف؛ وذلك في سنة سبع عشرة وثلاثمائة)). الأنيس المطرب: ص: 51. أنظر أيضا المغرب، ص:128. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 214.

[1] وهو من أبناء سليمان؛ كما هو واضح من اسمه؛ وبذلك تكون يد ابن أبي العافية قد امتدت حتى إلى أبناء سليمان. وكان أبو العيش عيسى هو الذي شيد مدينة جراوة. وحول هذا يقول لكري: ((عيسى أبو العيش بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ هو الذي بنا جراوة؛ وكان أميرها؛ وبها توفي)). المغرب، ص: 77. ويضيف ابن عذاري: ((أسسها أبو العيش في سنة 257هـ؛ ووليها بعده ابنه الحسن بن أبي العيش في سنة 291هـ؛ وخرج منها إلى حصن المنصورة في سنة 319هـ؛ ثم عاد إليها في سنة 323هـ؛ ثم انتقل منها إلى تلمسان في سنة 325هـ)). ثم يكمل في موضع لاحق: ((فظهر أمر موسى من ذلك الوقت في العدوة؛ وتجمع إليه كثير من قبائل البربر؛ وتغلب على مدينة جراوة؛ وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس

الأثناء ــ داخلا في طاعة الفاطميين؛ فحاصره ابن أبي العافية، وأخرجه من تلمسان، ومن جراوة في سنة 319هـ (931م)؛ واضطره للالتحاق بمدينة مليلة؛ حيث تحصن بها؛ إلى أن تحين الفرصة المواتية. وبعد ذلك توجه ابن أبي العافية إلى مدينة نكور؛ فاحتلها هي الأخرى سنة 320هـ (932م). وكان في هذه الأثناء؛ قد نقل بيعته من الفاطميين بإفريقية، إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي بالأندلس.

وتعتبر هذه الخطوة التي قام بها ابن أبي العافية هي بداية نهايته؛ إذ أرسل عبيد الله الشيعي جيشا فاطميا ــ في البداية ــ بقيادة حميد بن يصليتن أو يصلي (عمه هو مصالة). فتمكن من طرد موسى من فاس، وإجباره على التحصن في نواحي تسول. ولما لم تكن حملة يصلي حاسمة فقد جرد عبيد الله الشيعي جيشا آخر بقيادة

العلوي. ودارت بينهما محاربات ومواقعات. وبنى الحسن بن أبي العيش حصنا منيعا؛ بجبل بينه وبين جراوة أربعة أميال؛ وحوله قرى لمدغرة وبني يفرن وغيرهم من القبائل. وكان لأبي العيش أيضا وبنيه مدينة تلمسان وما والاها؛ يسكنها مثل زواغة ونفزة وغير ذلك. وفي ذلك يقول بكر بن حماد [كامل]:

سَائِلْ زُواغَةَ عن طعان سُيوفِه ... وَرماحه في العَارِضِ المُتَهَلِل
وديار نَفزة كَيفَ دَاسَ حَريمَها ... والخيلُ تمرغ في الوشيج الذبَّل
وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلَّة ... وسقىَ جَراوة من نَقِيع الحنظل)).

وجراوة في البيت الأخير؛ تعني القبيلة؛ وليست المدينة. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 196. 199 ــ 200.

ميسور الفتى في سنة 323هـ (934م). فتمكن هذا الجيش من اكتساح كل ما سبق أن استولى عليه موسى بن أبي العافية؛ بل طارده وشرده في مجالات بعيدة عبر الصحراء والآفاق النائية. وظل موسى على حاله في التشرد والانقطاع حتى قتل في نواحي ملوية؛ وقد حدث ذلك في تاريخ يكتنفه غموض كبير؛ إذ اختلفت فيه الأقوال.[1] وهنا تمكن الأدارسة، وأبناء عمومتهم بنو سليمان من استعادة المبادرة؛ إذ استطاعوا تخليص مراكزهم وإماراتهم من براثن ابن أبي العافية. خاصة إذا أخذ بالاعتبار ما كانوا عليه؛ من تعاون مطلق مع الفاطميين؛ في حربهم ضد موسى بن أبي العافية وفي مطاردته. وقد تم ذلك — على الأخص — انطلاقا من الإمارتين المنيعتين؛ اللتين شيدهما أبناء محمد بن القاسم بن إدريس؛ أصحاب قلعة حجر النسر، وربما أبناء عمر بن إدريس بن إدريس أيضا؛ الأمراء في غمارة وبلاد الريف؛ من تيقيساس إلى طنجة. حيث واصل من تلك النواحي بنو إدريس — بفرعيهم — حركة المقاومة؛ واستمروا في نضالهم بغرض استعادة مجدهم، واسترجاع دولتهم بفاس.

---

[1] اختلفت الأقوال — أيضا — حول سنة وفاة موسى؛ إذ يقول بعضهم أنها في سنة 328هـ، وآخرون يرونها في سنة 341هـ، وفي قول سنة 350هـ، وآخر في 360هـ، وآخر في 363هـ. الأنيس المطرب، ص: 52.

فكانوا بذلك يترصدون الأحداث، ويتربصون حلول الفرص المناسبة ـ من تلك المواقع المنيعة ـ للانقضاض على أعدائهم. وقد اضطروا أحيانا؛ إلى عقد أحلاف، وعهود مع خصومهم السابقين؛ من أجل تحقيق أهدافهم الأساسية؛ التي تتمثل: في القضاء على عدوهم الرئيسي موسى بن أبي العافية؛ ثم العودة إلى فاس؛ الأمر الذي يحقق لهم تطهير أراضيهم بعد ذلك نهائيا من الدخلاء والمحتلين؛ سواء كانوا من الفاطميين الشيعة، أم من الأمويين.[1]

وبالفعل فقد سارعوا إلى عقد حلف مع الفاطميين ـ وإن كان ذلك لبعض الوقت ـ حينما كانت جيوش الشيعة تطارد موسى بن أبي العافية؛ الأمر الذي مكنهم من استرجاع معظم أملاكهم بالمغرب.[2] كما سعوا إلى مصانعة، الأمويين

---

[1] كانوا يناورون بين الأمويين والفاطميين. أنظر: المغرب، ص ص: 128 ـ 134. وروض القرطاس، ص ص: 53 ـ 59. والعبر، مج: 6، ص ص: 448 ـ 454.

[2] ومما قاله عنهم البكري: ((ثم قدم ميسور الفتى إلى المغرب في سنة ثلاث وعشرين وثلاث مائة... حاصر موسى بن أبي العافية؛ وتولى معاظم تلك الحروب بنو إدريس؛ حتى جلى موسى بن أبي العافية إلى الصحراء؛ وصار ما كان بيده إلى آل إدريس؛ والرياسة منهم في بني محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهم: حسن وجنون [كنون] وإبراهيم؛ بنو محمد بن القاسم؛ وكان محمد متخلفا في اخوته وعشيرته؛ لا قدر له؛ ثم صارت النباهة والقدر لبنيه؛ وإبراهيم بن محمد هو المعروف بالرهوني. وكان الذي يلزم صخرة النسر منهم جنون [كنون] وحنون ابنا إبراهيم؛ واسم جنون [كنون] القاسم... وكان أعلى بني محمد كلهم أيدا أبو العيش بن جنون [كنون] بن محمد؛ وكان له من البلد ما بين أجاجن؛ وهو بقبلي حجر

بالأندلس؛ مظهرين رغبة في التقرب إليهم بواسطة ــ التظاهر بالبيعة ومخادعتهم ــ أملا في كسب الوقت؛ حتى يتحقق لهم جمع شعثهم ولَمِّ شملهم. غير أن ذلك ــ كما يبدو ــ صعب المنال؛ لأن عصبية بني إدريس فسدت، وانكسرت سورتها بالتمام. والشاهد على ذلك ما كان يحدث بين الأسرتين الإدريسيتين المتنافستين من شنآن وفرقة؛ زادت في ضعفهم جميعا؛ وأعطت لأعدائهم فرصا ثمينة لكي يكتسحوهم، ويقضوا عليهم بالكامل.[1]

النسر إلى مدينة فاس. وكان أحمد بن إبراهيم بن محمد عالمهم؛ كان يحفظ السير والتواريخ، وكان نسابة، عاقلا حليما؛ وكان مبجلا لعلمه؛ وكان يعرف أحمد الفاضل؛ وكان له ما جرَّ من أجاجن إلى مدينة سبتة؛ وكان شديد الميل إلى خلفاء بني أمية... ولم يكن في بني إدريس من شهر بالعلم شهرته إلا أحمد الأكبر ابن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ وهو المعروف بالكرتي؛ كان له علم وقدر وجاه بالمغرب؛ وهو الذي استجلب بكر بن حماد)). المغرب، ص ص: 128ــ 130.

[1] أرجع إلى الرسائل التي بعث بها الطرفان إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ حيث كان كل طرف منهما يشنع بأخيه، ويحاول شحن صدر الخليفة الأموي عليه. وطبعا هذا شاهد حي على ما وصلت إليه العصبية الإدريسية من ضعف ومهانة. لقد عرض إسماعيل العربي بعض المقطوعات من تلك الرسائل؛ نقلا عن قطعة من المقتبس؛ نشرها شالميتا بمدريد. دولة الأدارسة، ص ص: 156 ــ 159. وكعينة لما يقولونه؛ هذه فقرة من رسالة بعث بها بنو عمر إلى السلطان الأموي يحرضونه على بني عمومتهم: ((ولا نأمن سلطان بني عمنا ــ بني محمد ــ المباينين لنا؛ إذ هم الحاجزون بيننا وبين أعدائه؛ الذين زحفوا إلى من بسبتة من جنده المنصور؛ إذ هم أهل الإنكار لدعوته، والدفع لبعثه، والكراهية لدولته، والمناهضة بالعداوة لجنده؛ وكنا معشر ولد عمر على خلاف ذلك؛ من الصغو له؛ أيده الله؛ والميل

وهكـــذا فما أن خلصـــوا مـــن أطمـــاع مـــوسى بـــن أبي العافيـــة والشيعـــة؛ حـــتى تورطـــوا في أطمـــاع أخـــرى أشـــد وأكثـــر شراهـــة ونفـــاذا؛ تلـــك هـــي أطمـــاع عبـــد الرحمـــن الناصـــر حاكـــم الأندلـــس؛ الـــذي وضـــع كـــل مـــا في حوزتـــه مـــن قـــوة ودهـــاء؛ لـــكي يمنـــع وصـــول الفاطميـــين إلى حـــدود مملكتـــه. إذ أن خوفـــه مـــن امتـــداد نفـــوذ الفاطميـــين الأقويـــاء إلى حـــدود دولتـــه الجنوبيـــة؛ في الطـــرف المقابـــل مـــن العـــدوة؛ ألزمـــه وحتـــم عليـــه العمـــل الجـــاد؛ لـــكي يحـــول بيـــن الفاطميـــين وبيـــن تحقيـــق أهدافهـــم البعيـــدة المـــدى. تلـــك الأهـــداف الـــتي تـــرمي إلى الانفـــراد بالخلافـــة الإسلاميـــة غربـــا وشرقـــا؛ بحكـــم أنهـــم يـــرون في أنفسهـــم أحـــق النـــاس بهـــا؛ لأنهـــم مـــن أبنـــاء فاطمـــة الزهـــراء؛ الـــتي تجعلهـــم خيـــر مـــن يمثـــل أهـــل البيـــت.

إليـــه، والاعتـــراف بحقـــه)). دولـــة الأدارســـة، ص: 158. هـــذه حـــال بـــني إدريـــس؛ بعـــد أن غـــزت الشيخوخـــة دولتهـــم، وبعـــد فســـاد عصبيتهـــم. وعليـــه فقـــد وجـــد الخليفـــة الأمـــوي الأرضيـــة صالحـــة لاكتســـاح بلادهـــم وضـــم أراضيهـــم وأملاكهـــم إليـــه.

وعليه فما أن أحس بضعف الأدارسة، وعجزهم عن صد الفاطميين، ومنعهم من احتلال ديار المغرب الأقصى؛ حتى سارع إلى التكفل بأمر الدفاع عن تلك الجهات الغربية بنفسه. لذا لم يجد عبد الرحمن الناصر خيارا آخر أمامه ـ بعد ذلك ـ سوى التدخل المباشر؛ وبكل ما يملكه من قوة، وبكل ما لديه من حكمة ودهاء. حيث استعمل في ذلك سلاح الضغوط والإغراء والتوجيهات. ومع هذا فقد وجد أن تدخله بقوة الاحتلال في بلاد المغرب أصبح من الأمور الضرورية الملحة؛ قبل فوات الأوان.

وعليه فقد اكتسح ـ هو ومن بعده ابنه؛ المستنصر بالله ـ المناطق التي يتمركز فيها الأدارسة؛ الذين اتضح لهما أنهم كانوا مذبذبين في ولائهم وطاعتهم التامة إليهما؛ نتيجة لخوفهم وضعفهم؛ من جهة، وكراهيتهم لبني أمية من جهة أخرى. هذا وقد سهل على عبد الرحمن الناصر مهمة إخضاع الأدارسة؛ نظرا لما كان يلاحظه من انقسام في صفوفهم؛ إذ أنه لمس ـ بسهولة ـ ما كان يحدث بينهم من صراع وشنآن. وإذا كان عبد الرحمن الناصر قد اكتفى باحتلال سبتة وطنجة؛ كموضع قدم له في الضفة المغربية؛ بغرض تحويلهما إلى رأس جسر يسهلان مرور جيوشه فيما بعد ـ بالإضافة إلى احتلال بعض المواقع الهامة في تلك الديار ـ فإن ابنه الحكم

تجاوز ذلك الحد؛ بالعمل الجاد على الاحتلال الكامل للمغرب الأقصى؛ وإسقاط ما فيه من جيوب وكيانات إدريسية. ولما احتل المستنصر بالله بلاد المغرب الأقصى كلها كما خطط؛ نقل كل الأدارسة إلى بلاد الأندلس؛ وذلك في حدود سنة 365هـ (975. حيث فتحت لهم أبواب تلك الديار واسعة. إذ أصبحت بالنسبة إليهم ميدانا جديدا للسعي نحو الملك والسلطان مرة أخرى.[1]

---

[1] للتوسع في موضوع الدولة الإدريسية يستحسن الإطلاع على الكتب التالية: **المغرب، ص ص: 115 ـ 134. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 4 ـ 93. والبيان المغرب، ج: 2، ص ص: 210 ـ 214. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 188 ـ 224. والعبر، مج: 4، ص ص: 23 ـ 36. والاستقصاء، ج: 1. ودولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة. ولمزيد من التوثيق؛ هذا نص لابن خلدون عن الذي جرى ـ في الأيام الأخيرة ـ لمن بقي من الأدارسة؛ جاء فيه: ((واستولى موسى بن أبي العافية على جميع المغرب؛ وأجلى بني محمد بن القاسم بن إدريس، وأخاه الحسن إلى الريف؛ فنزلوا البصرة، واجتمعوا إلى كبيرهم إبراهيم بن محمد بن القاسم؛ أخي الحسن [الحجام] وولوه عليهم؛ واختط لهم الحصن المعروف بهم هنالك؛ وهو حجر النسر سنة سبع عشرة وثلاثمائة وأنزلوه. وبنو عمر بن إدريس يومئذ بغمارة؛ من لدن تيفيساس إلى سبتة وطنجة، وبقي إبراهيم كذلك. وشمر الناصر المرواني لطلب المغرب؛ وملك سبتة على بني إدريس سنة تسع عشرة [وثلاثمائة]؛ وكبيرهم يومئذ أبو العيش بن إدريس بن عمر؛ فانجابوا له عنها، وأنزل بها حاميته. وهلك إبراهيم بن محمد كبير بني محمد؛ فتولى عليهم من بعده أخوه القاسم الملقب بكنون؛ وهو أخو الحسن الحجام؛ واسمه القاسم بن محمد بن القاسم؛ وقام بدعوة الشيعة؛ انحرافا عن أبي العافية ومذهبه. واتصل الأمر في ولده؛ وغمارة أولياؤهم، والقائمون بأمرهم... وأقام الأدارسة بالريف؛ مع غمارة؛ وتجدد لهم به ملك في بني محمد، وبني عمر بمدينة البصرة، وقلعة حجر النسر، ومدينة سبتة، وأصيلا. ثم**

ـ حكومة أبي العيش أحمد بن القاسم (قنون):

وبهذا العرض يتضح أن الدولة الإدريسية الأولى بفاس؛ قد انقطعت في حدود سنة 311هـ (923م) تقريبا. وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة الزمنية التي كان فيها الأدارسة يناضلون من أجل استعادة دولتهم؛ وذلك انطلاقا من مواقعهم المنيعة في بلاد الريف وغمارة؛ تكون دولة الأدارسة الثانية قد أخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه من قبل؛ حيث تقلص نفوذ أصحابها؛ بل أضحوا تابعين لغيرهم. كما اتخذت الدولة الإدريسية الجديدة عاصمة أخرى لها غير مدينة فاس. وقد تم ذلك ـ في البداية ـ بقلعة صخرة النسر؛ وأخيرا بمدينة البصرة.[1] إذ بدأت ـ في تلك النواحي ـ تتبلور صورة دولتهم الجديدة؛ تلك الدولة التي برز فيها

تغلب عليهم المروانيون، وأشخصوهم إلى الأندلس ثم أجازوهم إلى الإسكندرية. وبعث العزيز العبيدي ابن كنون منهم لطلب ملكهم بالمغرب؛ فغلبه عليه المنصور بن أبي عامر، وقتله. وعليه كان انقراض أمرهم، وانقراض سلطان أوربة من المغرب. وكان من أعقاب الأدارسة الذين أووا إلى غمارة؛ فكانوا الدائلين من ملوك الأموية بالأندلس. وذلك أن الأدارسة لما انقرض سلطانهم؛ صاروا إلى بلاد غمارة، واستجدوا بها رياسة، واستمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس بن إدريس؛ وكانت للبربر إليهم ـ بسبب ذلك ـ طاعة، وخاصة. وكان بنو حمود هؤلاء من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ حين أجازوا في مظاهرة المستعين. ثم غلبوه ـ بعد ذلك ـ على الأمر، وصار لهم ملك الأندلس)).العبر، مج: 4، ص ص: 33 ـ 34.

[1] هذا طبعا بالنسبة إلى فرع القاسم بن إدريس؛ لأنهم هم الذين يمثلون صمود الأسرة الإدريسية.

الحسن بن قنون بالبصرة في حدود سنة 347هـ (958م) تقريبا؛ إلى سنة تغلبه على مدينة فاس في حدود أواخر عام 372هـ (982م) ـ بمساعدة الفاطميين ـ إلى أن تم القبض عليه من طرف الأمويين؛ أين قتل في سنة 375هـ (417م)؛ وفي هذا التاريخ سقطت الدولة الإدريسية نهائيا وزالت من بلاد المغرب.

ومن هنا وجب علينا الاستمرار في الحديث عن هذه الدولة؛ من خلال عرض الكيفية التي نشأت بها مرة أخرى بعد سقوطها. ولتوضيح الصورة التي بدأت بها هذه الدولة؛ لابد من العودة قليلا إلى أيام التشرد، والامتناع في بلاد الريف وغمارة. وبالتحديد إلى أخبار فرع من بني إدريس؛ وهم بنو محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس؛ الذين امتنعوا في قلعة النسر. حيث برز من بين أعضاء تلك الأسرة أبو العيش أحمد بن القاسم (قنون).[1] وكان هذا الأمير فقيها، وعالما بالسير والأنساب. كما اشتهر بالعفاف والورع والحلم والكرم والشجاعة؛ وكان يعرف باسم أحمد الفاضل.[2] ويعتبر هذا الأمير من أشد بني إدريس ميلا إلى الأمويين بالأندلس؛ حيث سارع إراديا ـ بعد أن خلف والده ـ إلى قطع الدعوة عن

---

[1] تكتب أحيانا كنون، وأحيانا أخرى جنون أو قنون بجيم مصرية؛ حسب النطق بها.

[2] أنظر المغرب، ص ص: 127 ـ 128.

الفاطميين؛ وتحويلها إلى الأمويين. ولكن عبد الرحمن الناصر طمع في أكثر من البيعة؛ إذ ساومه على التخلي له عن مدينتي: طنجة وسبتة؛ فلم يقبل أبو العيش – في الوهلة الأولى – بذلك الشطط والغلو الذين أبداهما عبد الرحمن الناصر. ولكنه لم يجد أمامه سوى الإذعان للأمر الواقع – في الأخير – نتيجة للضغوط؛ ذات الطابع العسكري؛ التي لجأ إليها عبد الرحمن الناصر. إذ تدخل هذا السلطان النافذ بالقوة المسلحة؛ دون انتظار أو تلكؤ؛ حيث بادر فورا بإرسال جيش لاحتلال المدينتين. وهكذا لم يجد أبو العيش مفرا من الخضوع للأمر الواقع المعلن بالقوة العسكرية؛ وترك ما كان قد أظهره من اعتراض؛ بل سارع في الحال إلى الاعتذار والتأسف وإبداء الندم؛ فقبل عبد الرحمن الناصر منه ذلك؛ بل أبدى له مودة وإكبارا عظيمين.

ومع ذلك فإن العاهل الأموي لم يقف عند حدود المدينتين: طنجة وسبتة؛ لأنه – في حقيقة الأمر – لم يكن يرى فيهما سوى رأسي جسر؛ يمكنانه من تمديد ونشر سلطانه الفعلي على بلاد المغرب كلها. وبالفعل فقد تمادى ذلك السلطان الأموي في مشاريعه التوسعية؛ حيث استطاع – بعد مدة – أن يهيمن على معظم بلاد المغرب؛ تاركا لبني إدريس أصيلا والبصرة فقط. ولما شاهد أبو العيش تغلب عبد الرحمن الناصر على بلاد

المغرب؛ وانقياد القبائل الأمازيغية إليه؛ بعث إليه يستأذنه في الانتقال إلى الأندلس بهدف الجهاد في الثغور. فلبى عبد الرحمن طلبه؛ مبديا فرحه وسروره.[1] وتقول المصادر أن حياة أبي العيش انتهت باستشهاده في ميدان الجهاد بالأندلس سنة 347هـ (958م).[2] وكان أبو العيش قد استخلف في أعماله ـ عند مسيره للأندلس ـ أخاه الحسن بن قنون (كنون). وهذا الأخير هو صاحب الدولة الإدريسية الثانية بالبصرة وفاس. كما يعتبر آخر ملوك هذه الدولة في المغرب الأقصى. وهنا لا بد من عرض الكيفية التي وقعت بها تلك الأحداث.

---

[1] يقول في هذا ابن أبي زرع: ((فلما رأى أبو العيش غلبة الناصر على بلاد العدوة؛ كتب إليه ـ إلى قرطبة ـ يستأذنه في الجهاد؛ فأذن له؛ وأمر أن يبنى له في كل منزل ينزله قصرا؛ من الجزيرة الخضراء إلى الثغر؛ وأن يجرى له فيه ألف دينار في كل يوم ضيافة؛ ومن الفرش والأثاث والطعام والشراب ما يقوم بالقصر. فلم يزل في ذلك حتى وصل إلى الثغر. فكانت منازله في رحلته من الجزيرة ثلاثين منزلا)). الأنيس المطرب، ص: 54. أنظر أيضا المغرب، ص: 120. وأعمال الأعلام، ق: 3، ص ص: 218 ـــ 219.

[2] اختلفت الأقوال حول تاريخ وفاته؛ فابن أبي زرع وابن خلدون يقولان أنها حدثت في سنة 343هـ؛ بينما يرى ابن الخطيب أنها وقعت في سنة 346هـ؛ بينما يخطئ البكري حين يقول أنها حصلت في سنة 332هـ. أما إسماعيل العربي فيجزم بأنها حدثت في سنة347هـ. الأنيس المطرب، ص: 54. وأعمال الأعلام؛ ق: 3، ص: 219. والعبر، مج: 6، ص: 450. ودولة الأدارسة، ص: 179.

ـ حكومة الحسن بن أحمد قنون الأولى:

فلما تولى الحسن بن قنون شئون الحكم؛ بعد أخيه أبي العيش ظل ـ في بداية عهده ـ محافظا على المواثيق المتفق عليها مع الدولة الأموية؛ إذ واصل إعلان الدعوة لخلفائها. ولكنه اضطر إلى تغيير موقفه المعلن ـ على ما يبدو أو تظاهر بذلك ـ عند قدوم الجيش الفاطمي من إفريقية سنة 348هـ (959م)؛ بقيادة جوهر الصقلي ـ إذ لم يكن أمامه سوى مسايرة مقتضى الحال؛ حيث أنه بتغير الأوضاع؛ تغيرت مواقف الحسن بن قنون كذلك. وعليه فقد بادر حالا إلى نقل ولائه من الأمير الأموي إلى الخليفة الفاطمي؛ لأنه ـ كما يبدو ـ رأى في الفاطميين مزايا؛ لم يجدها لدى الأمويين؛ إذ يبدو أنه اعتقد أنهم الأقوى عددا وعدة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد رأى أن مصلحته تقتضي التعامل مع دولة بعيدة ـ جغرافيا ـ عنه؛ أفضل من التعامل مع دولة قوية وقريبة من أرضه؛ لأن هذه الميزة تمكنه من الحركة والعمل بحرية مطلقة؛ دون أن يلجأ أولئك الحكام المتغلبين إلى التدخل في شئونه في كل لحظة ولأتفه الأسباب. وأهم فائدة قد يجنيها مع الدولة الفاطمية؛ هي ما تحققه له من شروط التخلص من هيمنة القبائل الزناتية المشاغبة؛ تلك القبائل التي اختارت التحالف مع الدولة الأموية؛ وكانت تشكل عامل تهديد يقف في طريق استقرر دولته.

ومع هذا فقد استعمل ورقة المناورة والخداع؛ التي تسمح بها الظرف آنئذ؛ وذلك حينما عاد جوهر الصقلي إلى إفريقية سنة 349هـ(960م)؛ حيث لم يجد الحسن بن قنون أمامه – من مخرج – سوى أنه أعاد ولاءه ودعوته للأمويين؛ متعللا لهم – طبعا – بضعفه، وعجزه عن مواجهة الشيعة. كما ظل على عهده بعد وفاة عبد الرحمن الناصر، وخلافة ولده الحكم المستنصر بالله سنة 350هـ؛ وإن كان ذلك قد تم خوفا منهما؛ لأنه ما أن زحف بلغين يوسف بن زيري الصنهاجي إلى المغرب الأقصى؛ لإخضاع القبائل الناكثة للعهد، وأخذ ثأر أبيه من القبائل الزناتية. حتى سارع الحسن بن قنون إلى الانضمام إليه، ومساعدته في حروبه ضد القبائل المتحالفة مع الدولة الأموية. وبهذا يكون قد أضاع كل الفرص الممكنة؛ للتعلل بأعذاره المعهودة؛ كالضعف، واستحالة المقاومة، وانعدام الحيلة.[1]

---

[1] يقول ابن أبي زرع: ((في آخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة نكث الحسن بن قنون بيعة العبيديين، وعاد إلى بيعة المروانيين؛ تتمسك بدعوة الناصر، ودعوة ولده الحكم المستنصر من بعد؛ خوفا منهم لا محبة فيهم؛ لقرب بلاده منهم. فلم يزل في طاعتهم، قائما بدعوتهم إلى أن قدم بلقين بن زيري ابن مناد الصنهاجي؛ من إفريقية قاصدا إلى المغرب؛ لأخذ ثأر أبيه؛ فقتل زناتة، واستأصلهم، وملك المغرب بأسره؛ وقطع أيضا منه دعوة الأمويين، وقتل أولياءهم؛ وأخذ البيعة – على جميع بلاد المغرب – لمعد بن إسماعيل؛ كما فعل جوهر من قبله. فكان أول من سارع إلى بيعته ونصرته، وقتل أولياء المروانيين، وقطع دولتهم من أمراء المغرب الحسن بن قنون

وبالطبع فقد انجر عن ذلك التصرف من قبل الحسن بن قنون؛ أنه صدرت عن الدولة الأموية قرارات هامة وحاسمة؛ إذ قرر الخليفة الأموي الحكم المستنصر ـ بعد هذا ـ أن يزيل نهائيا أي كيان للأدارسة ببلاد المغرب. لأنه ـ كما يبدو ـ وصل الحال بين الأسرتين القريشيتين في بلاد المغرب إلى القطيعة التامة؛ التي لا تقبل أي ترقيع، أو مسوغات ممكنة. وعليه فقد عبأ قوات ضخمة؛ ووجهها إلى بلاد المغرب؛ لكي يلحقها ـ تماما ـ بمملكته في الأندلس. غير أنه ـ كما يبدو ـ تسرع في تنفيذ قراره؛ ولم يقدر قوة خصمه حق قدرها؛ إذ انتهت المعارك الطاحنة؛ التي دارت بين الجيشين ـ والتي كان أغلبها في البدء سجالا ـ بهزيمة شنيعة للجيش الأموي؛ في سنة 362هـ(972م).

صاحب مدينة البصرة. وكشف وجهه في ذلك؛ وعمل فيه جهده؛ فاتصل خبره بالحكم المستنصر؛ فحقد له ذلك. فلما انصرف بلقين بن زيري إلى إفريقية؛ بعث الحكم قائده ـ محمد بن القاسم ـ في جيش كثيف إلى قتال الحسن بن قنون؛ فجاز إليه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة في خلق عظيم؛ وعدد كثير، وقوة وعدة كاملة؛ وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة؛ فزحف إلى قتاله الحسن بن قنون في قبائل البربر... فقتل فيها محمد بن القاسم؛ قائد الحكم المستنصر؛ وقتل معه خلق كثير من أصحابه؛ وفر الباقون فدخلوا سبتة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

حيث قتل فيها قائده محمد بن القاسم؛ مع عدد كبير من أفراده؛ قدرهم ابن حيان بنحو خمسمائة فارس وألف مقاتل مترجل[1]. بينما انهزمت بقيتهم، وانحصروا خلف الأسوار؛ منتظرين المدد، والمساعدة من طرف الخليفة الأموي.

بالفعل فقد بادر الحكم المستنصر بإصدار أوامره المستعجلة؛ يطلب من قواته فيها البقاء في مراكزهم حتى يأتيهم المدد؛ ومعه الأوامر الجديدة. ثم أرسل إليهم ـ بعد ذلك ـ القائد الأعلى لجيشه غالب بن عبد الرحمن؛ مكلفا بمهمة شن حرب محكمة، وشاملة، وطويلة النفس ضد الحسن بن قنون في بلاد العدوة. ويبدو أن الحرب في هذه المرة لا تشبه سابقتها؛ حيث روعيت فيها عدة اعتبارات: عسكرية وسياسية؛ كان من شأنها تحقيق النصر لا محالة. فمن بين القرارات المتخذة:

ـ أولا: حسن اختيار القيادة المكلفة بمهمة الحرب في أرض العدوة. حيث أسند المستنصر هذه المهمة العظيمة إلى قائد محنك؛ وخبير بالشئون العسكرية والقتالية. وهو الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن ـ مولى الخليفة الناصر لدين الله؛ وصاحب مدينة سالم والثغر الأعلى. ويعتبر هذا القائد من أهم أمراء الجيش الأموي ـ آنئذ ـ إذ لا تسند إليه ـ في العادة ـ إلا المهمات الصعبة

---

[1] المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق عبد الرحمن علي الحجي؛ ص: **96**.

والخطيرة. ووصفه ابن خلدون بقوله: ((**البعيد الصيت، المعروف بالشهامة**)).[1]

ـ ثانيا: إعداد خطة محكمة لقتال الحسن بن قنون. لأنه من خلال تجربة الوقائع الأولى؛ ثبت عدم صلاحية الخطط المتبعة فيها؛ بسبب ما شابها من ارتجال واستخفاف بالعدو. لذلك فقد أخذ الخليفة الحكم بعض الوقت لنفسه؛ بهدف التفكير والتشاور وضبط الخطة القتالية التي ستتبع؛ قبل أن يغامر مرة أخرى. وحتى قواته التي مازالت متمركزة في بلاد العدوة؛ فقد أرسل لهم أمرا باجتناب الاشتباك مع قوات حسن بن قنون؛ وأن ينتظروا الأوامر الجديدة.[2] ولما كان الحسن بن قنون قد اعتمد حرب الكر والفر؛ التي تعرف الآن بحرب العصابات؛ فقد كان على المستنصر ومعاونيه أن يبلوروا خطة عسكرية فعالة؛ حتى يتمكنوا من كسر عنفوان وشدة الهجمات؛ التي اعتاد الحسن بن قنون شنها على حين غرة.

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 451. أما ابن أبي زرع فيقول: ((فبعث إليهم قائد عسكره وصاحب حروبه غالبا مولاه. وكان غالب على غاية من الحزم والنجدة والدهاء والإقدام)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] في هذا يقول ابن حيان: ((فتضمن الجواب إليهم [أي جواب الخليفة المستنصر إلى قواده في بر العدوة] أن الرأي؛ ترك الحركة إليه [أي إلى الحسن] والتعرض لحربه؛ حتى يلحق بهم الوزير القائد الأعلى غالب بالقوة إن شاء الله)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس؛ تحقيق: عبد الرحمن علي الحجي، ص: 103.

ومن هنا فقد وجدوا أنه من الضروري كسب ولاء القبائل الأمازيغية؛ المنتشرة عبر بلاد العدوة. لأنه أصبح من الضروري؛ عزل الحسن بن قنون عن أنصاره؛ بغرض إفشال خططه وإرباكه.[1]

ــ ثالثا: حشد القوات المقاتلة بثبات وتأني؛ بحيث يتم اختيار الرجال الأكفاء؛ وتوفير العدد الكافي. وهذا ما تم بالفعل؛ إذ عمل الخليفة المستنصر ــ هذه المرة ــ على حشد عدد كبير من الجند؛ جلبوا من الثغر الأعلى؛ بالإضافة إلى غيرهم ممن كانوا في قرطبة ونواحيها. كما تميز التحضير بالروية ودقة الإعداد؛ بحيث تطلب التحضير ــ لهذه الحملة ــ ثلاثة أو أربعة أشهر تقريبا؛[2] قد يكون ذلك تم ابتداء من شهر جمادى الثانية إلى منتصف شهر رمضان؛ الذي ركب فيه القائد

---

[1] يتضمن كتاب المقتبس عينات كثيرة مبعثرة في صفحاته بخصوص العطايا والهدايا التي يقدمها المستنصر وأعوانه لرؤساء القبائل الأمازيغية؛ لكي يستميلهم إليه ويضمن طاعتهم وولاءهم. وفيما يلي نص لابن أبي زرع يقول فيه: ((فأعطاه الحكم [أي أعطى إلى غالب] أموالا جليلة، وعددا كثيرة، وجيوشا وافرة؛ وأمره بقتال العلويين، واستنزالهم من معاقلهم؛ وقال له عند وداعه: " يا غالب سر مسير من أذن له بالرجوع حيا إلا منصورا أو ميتا معذورا؛ ولا تشح بالمال، وابسط يدك به يتبعك الناس)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[2] قال ابن أبي زرع: ((فخرج غالب بالعساكر والجيوش والعدد والأموال من قرطبة في آخر شوال من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة)). الأنيس المطرب، ص: 57.

غالب بن عبد الرحمن الأسطول ـ بجيشه ـ متجها إلى طنجة. [1] ومع ذلك لم يتوقف مدد المستنصر لجيش غالب بالعساكر والمال والعتاد الحربي؛ بل استمر ذلك الخليفة الحازم في إرسال التعزيزات وراء التعزيزات؛ دون تحفظ أو تردد. [2]

---

[1] قال ابن حيان: ((وفي جمادى الآخرة احتل الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بمحلة فحص السرادق ـ شرقي قرطبة ـ مستدعىً من مولاه الخليفة الحكم؛ مهيبا به لحرب الغوي حسن بن قنون؛ المنازع له عمله بأرض العدوة؛ عندما تفاقم أمره، وأعيا مراسه، وأثخن في قتل الجند، وانتحل ولاية الدعي الشيعي معد. فاضطرب غالب بمحلته تلك ـ يومئذ ـ في يومين في الدَّهم [أي العدد الكثير] الذين أمر باستنفارهم؛ من حشد الثغر الأعلى إلى من استنهضهم من جيش السلطان لديه؛ ثم تقدم بهم في اليوم الثالث إلى الزهراء وطن الخليفة مولاه؛ مشتقا قرطبة؛ واجتهر أهلها من احتفال جيشه، واكتمال عدده واطراد ترتيبه ما امتلأت به قلوبهم فرحا،= =وشمخت له أنوفهم عزا. وأقام بقرطبة أياما؛ اتصل فيها عمل السلطان ورجاله في تجهيزه، وإزاحة علله، وتقوية أيده؛ إلى أن بلغ منه ما ارتضاه؛ ففصل عند ذلك في جموعه يوم الثلاثاء لتسع خلون من رجب منها)). ((وفي هذا الوقت [أي شهر رمضان] ورد الخبر بركوب الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن البحر في الأسطول؛ من مدينة الجزيرة؛ فرضة المجاز إلى بلد الأندلس؛ بعد طول مقامه فيها؛ بعد أن استكمل أهبته فيها؛ وقدم إجازة الأجناد والخيل والأثقال وآلات الحروب؛ فتوافت إلى هناك كاملة؛ وإن ركوبه من الجزيرة كان في يوم الأحد لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان منها؛ وأقلع رافعا إلى جهة طنجة من أرض العدوة)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص ص: 102. 115.

[2] وهاتان عينتان لذلك: ((وورد كتاب صاحب الشرطة وقائد البحر عبد الرحمن بن رماحس؛ يذكر حركته بالأسطول إلى أصيلا؛ لما في القرب من الوزير القائد الأعلى واجتماع الأسطولين من صواب التدبير، والأخذ بالحزم... وأرسلت إليه [إلى غالب] كسي فخمة، وسرج وألجم محلاة؛ ففضها فيمن

ـ رابعــا: تخصيــص أكبــر قــدر مــن الأمــوال؛ لصرفهــا عــلى جيــش الخلافــة، أو الاستعانــة بهــا في حملــة واسعــة؛ قــررت لاستمالــة وكســب ولاء القبائــل الأمازيغيــة المتعاطفــة مــع الحســن بــن قنــون. ومــن يتصفــح كتــاب المقتبــس في أخبــار بلــد الأندلــس لابــن حيــان؛ سيلاحــظ ــ بــلا شــك ــ مــا كــان يبعــث بــه المستنصــر ــ بــدون تحفــظ ــ مــن أمــوال ضخمــة وتحــف ثمينــة، وعتــاد حــربي، إلى غالــب بــن عبــد الرحمــن؛ لــكي يعــزز بهــا قوتــه العسكريــة، ويستميــل بهــا القبائــل المناصــرة للحســن بــن قنــون.[1]

جــاءه مــن الرؤســاء)). المقتبــس، 116. ((فلمــا كــان يــوم الإثنيــن لسبــع منــه [مــن ذي القعــدة] خــرج الوزيــر القائــد يحــيى بــن محمــد بــن هاشــم مــن قرطبــة؛ نافــذا إلى العــدوة؛ خروجــا ظاهــرا؛ بيــن يديــه التعبئــة الكاملــة، والترتيــب المنظــوم؛ وخــرج بخروجــه اخوتــه المتقدمــة تسميتهــم، وبنــو عمــه التجيبيــون؛ في عسكــر ضخــم؛ ممــن ضــم إليــه مــن طبقــات الأجنــاد؛ وفيهــم قطــع مــن العبيــد الرمــاة، ومــن الرمــاة الأحــرار، وغيرهــم مــن جنــد المملكــة؛ راق إبصارهــم النظــارة؛ فاحتــل يومــه ذلــك عــلى نهــر شــوش. وخــرج بخروجــه الخــازن أحمــد بــن محمــد بــن حاجــب؛ وبيــن يديــه ستــة عشــر حمــلا مــن المــال العيــن، وعــدة أحمــال مــن الكــسي الفخمــة، والسيــوف الحاليــة المرسلــة إلى الوزيــر القائــد غالــب بــن عبــد الرحمــن لفضهــا فيمــن يستأمــن إليــه مــن أكابــر البرابــرة)). المقتبــس، ص129.

[1] أنظــر المقتبــس، ص ص: 106. 108. 109. 110. 111. 115. 116. 123. 128. 129. 130. 131. 132. 133. 135. 139. 151.

ـ خامسا: تكثيف عمل الاستخبارات، وبث الجواسيس بشكل واسع؛ لتتبع حركة العدو، ومعرفة نواياه؛ وبث الإشاعات الهدامة في صفوف قواته وأنصاره.[1]

ـ سادسا: مراعاة العوامل النفسية، واعتماد سياسة إعلامية محكمة للتأثير على أنصار الحسن بن قنون، وبث روح الكراهية له بين عامة المسلمين. ويتجلى هذا العمل في الميدان النفسي؛ من خلال ما حصل من عروض عسكرية؛ أقيمت عند تقدم الجيش نحو الزهراء، ودخوله مدينة قرطبة في مظاهرة ضخمة، بغرض إضفاء هالة كثيفة من الهيبة والأبهة على قيادة غالب بن عبد الرحمن؛ وأهم دليل على ذلك؛ ما قام به المستنصر حين بعث إلى هذا القائد بقبة القيادة الحمراء.[2]

---

[1] مما جاء في رسالة المستنصر لقادته بأرض العدوة يوصيهم بالإصرار على المقاومة: ((إن أفضل ما احتمل عليه، وعمل به، استشعار الحزم، وإدراع التحفظ، واستنصاح الاتهام، وإذكاء العيون، وبث الجواسيس والاستكثار منهم ومن حملة الأخبار؛ حتى لا يخفى لحسن ـ أهلكه الله ـ حركة، ولا يتوارى له مذهب)). المقتبس في أخبار بلد الأندلس، ص: 97. ومن جهة أخرى؛ حتى الحسن بن قنون كانت له عيون وجواسيس في صفوف الأمويين؛ ومن الشواهد على هذا ما قاله ابن حيان: ((فقدم الأدلاء والنزّاع في قطيع من الخيل نحوه [أي نحو الحسن]؛ كمنوا على الناحية وتفرقوا في جهاتها وتقطعوا في نواحيها؛ فاتملص منهم جاسوس خالطهم لم يشعروا به؛ وأتى إلى الحسن؛ فأعلمه بخبر العسكر المتقرب، وبما ينوي؛ فأزعج من وقته، وركب مع ولده وأهله وجميع من كان معه ـ من فارس وراجل ـ وأحاط بالجبل الذي ظن أنه يوتى منه...)). المقتبس، ص: 140.

[2] وعنها قال ابن حيان: ((وفي هذا الوقت أرسل الخليفة المستنصر بالله إلى الوزير القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن بالقبة الحمراء الفخمة المرأى،

أما الجانب الإعلامي فقد تولاه ـ في غالب الأحيان ـ الشعراء، وأئمة المساجد. ويتجلى ذلك من خلال القصائد الكثيرة التي قيلت في المناسبات كلها، وكانت مليئة بالهجاء والسخرية من الحسن ابن قنون.[1] كما أن إضافة كلمة (ملحد) إلى اسم الحسن ـ كلما ذكر ـ يدل على ما كان يستهدفه أعداءه من بث الكراهية له بين عامة الناس.

وهكذا فقد حظيت هذه الحملة الحربية المنظمة بنجاح كبير؛ إذ حققت أهدافها المسطرة لها. وتمكن غالب بن عبد الرحمن من عزل الحسن بن قنون، وشل حركته نهائيا؛ مما اضطره إلى الإذعان والاستسلام والقبول بشروط الأمويين. وعليه فقد سلم نفسه في سنة 363هـ (973م).[2] حيث تم نقله ـ

البديعة الصنعة؛ التي أمر باتخاذها له على حدّه، ووصفه كيما يرفعه وسط محلته، ويكون نزوله وقعوده فيها؛ إسماء لقدره، ورغما لقلب عدوه؛ وكانت غريبة الابتداع، عجيبة الاختراع، لها منظر رائق، ومرأى فائق؛ جرى في اتخاذها كلام كثير)). المقتبس ص: **116**.

[1] يدخل في هذا السياق ما ذكره ابن حيان عن طلب غالب بن عبد الرحمن من الخليفة المستنصر إمداده بالشاعر محمد بن حسين التميمي المعروف بالطبني؛ لكي يستعين به في حربه الإعلامية ضد عدوه. وبالفعل لم يتردد الخليفة المستنصر في إرساله إلى بر العدوة. أنظر المقتبس، ص ص: **108 ـ 109**.

[2] قال ابن أبي زرع: ((وأخرج غالب الأموال؛ فبعث بها إلى رؤساء البربر الذين مع الحسن بن كنون؛ ووعدهم، وأمنهم؛ ففروا عن الحسن وأسلموه؛ حتى لم يبق معه إلا خاصته ورجاله؛ فلما رأى ذلك سار إلى حصن حجر النسر؛ فتحصن فيه؛ وأتبعه غالب فحاصره به، ونزل بجميع جيوشه عليه، وقطع عنه المواد؛ وأمده الحكم بالعرب الذين ببلاد الأندلس كافة، ورجال الثغور؛ فوصل المدد إلى غالب غرة محرم سنة ثلاث وستين وثلاثمائة؛

مع أهله وحاشيته ـ إلى قرطبة؛ أين بقي فيها إلى سنة 365هـ (975م)؛ سنة إجلائه ـ مع أهله أيضا ـ إلى مصر؛ نظرا لما حدث بينه وبين المستنصر من جفاء؛ بسبب قطعة من العنبر؛ رفض الحسن بن قنون التنازل عنها للحكم؛ الذي يقال أنها أعجبته وطمع فيها. فكان رد فعل المستنصر عنيفا؛ إذ استولى عليها وعلى أموال الحسن وأهله بالقوة؛ ثم أجلاهم جميعا إلى مصر.[1]

فاشتد الحصار على الحسن بن كنون؛ فطلب من غالب الأمان على نفسه وأهله وماله ورجاله؛ وينزل إليه؛ فيسير معه إلى قرطبة؛ فيكون بها؛ فأجابه غالب إلى ذلك، وعاهده عليه. فنزل الحسن بأهله وماله ورجاله؛ وأسلم الحصن إلى غالب فملكه؛ واستنزل غالب جميع العلويين الذين بأرض العدوة من معاقلهم، وأخرجهم عن أوطانهم؛ ولم يترك في العدوة رئيسا منهم)). الأنيس المطرب، ص: 57.

[1] يقول ابن أبي زرع: ((وكان له [أي الحسن بن قنون] قطعة عنبر غريبة الشكل، كثيرة الجرم؛ ظفر بها في بعض سواحله من بلاد العدوة أيام ملكه بها؛ فسواها منشورة يتوسد بها؛ فبلغ أمير المؤمنين الحكم خبرها؛ فسأله حملها إليه، وضمها إلى ذخائره؛ على أن يرضيه عنها بحكمه؛ فامتنع من ذلك، وأبى أن يسلمها إليه؛ فنكبه عليها؛ وأخذ أمواله، وسلبه من جميعها، وأخذ القطعة؛ فبقيت في خزانته إلى أن ظهر علي بن حمود الحسني ـ على ملك الأندلس ـ ودخل قرطبة، وسكن القصر، وظفر ببني أمية؛ فأصاب تلك العنبرة متاع ابن عمه الحسن في الخزانة؛ قد أعفتها الأيام؛ حتى صارت إلى أيدي العلوية أربابها. ولما نكب الحكم الحسن بن كنون، وأخذ أمواله؛ أمر به وبالعلوية؛ فأخرجوهم عن قرطبة، وأجلاهم إلى المشرق؛ فجازوا من المرية إلى تونس؛ ليستريح من نفقاتهم؛ وذلك في سنة خمس وستين وثلاثمائة؛ فسار الحسن وبنو عمه إلى مصر؛ فنزلوا على نزار بن معد؛ وبالغ في إكرامهم، ووعد للحسن النصرة)). الأنيس المطرب، ص: 58.

ويبدو من هذا التصرف؛ أن المستنصر كان يترصد أقرب فرصة لكي يتخلص من الحسن وأهله. ذلك أنه – كما يقال – أثقله بالتكاليف المادية التي كانت تصرف عليه وعلى عائلته.

– حكومة الحسن بن قنون الثانية بفاس:

ومن مصر بدأ الحسن بن قنون مرحلة جديدة لاستعادة ملكه وملك آبائه. وقد وجد تجاوبا وحماسا من طرف الخليفة الفاطمي نزار بن معد؛ الذي أرسله في سنة 373هـ(983م) – مع توصية – إلى بلغين بن زيري في إفريقية؛ طالبا منه مساعدته على استعادة ملكه في فاس. وبالفعل فقد أمده زيري بثلاثة آلاف فارس؛ رافقوه إلى المغرب الأقصى؛ حيث تمكن بواسطتهم من احتلال مدينة فاس؛ وإعلان قيام الدولة الإدريسية فيها من جديد. وذلك في السنة نفسها. وبادرت قبائل أمازيغية عديدة بإعلان طاعتها وانقيادها للدولة الإدريسية العائدة إلى أحضان المغرب.

ولما بلغ الخبر إلى المنصور بن أبي عامر – حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد – سارع في الحال إلى إرسال ابن عمه الوزير عمر بن عبد الله بن أبي عامر؛ على رأس جيش ضخم؛ بغرض محاربة الحسن بن قنون.

ولم يقف الحاجب المنصور عند هذا الحد؛ بل أرسل أيضا ولده عبد الملك في جيش كثيف أيضا؛ بهدف دعم المجهود الحربي، وتعزيز صفوف الوزير عمر. ولما تكاثرت الجيوش على الحسن بن قنون؛ وضاقت به السبل؛ طلب من الوزير عمر الأمان؛ على أن يذهب إلى الأندلس؛ ولما أعلم المنصور بذلك؛ تظاهر بالمصادقة على الأمان الذي أعطاه الوزير عمر؛ وطلب منه الإسراع بإرسال الحسن إلى قرطبة. وفي طريقه إليها بعث من اغتاله؛ في جمادى الأولى من سنة 375هـ(985م). وبذلك طويت صفحة الدولة الإدريسية المستقلة نهائيا ببلاد المغرب؛ على أنها ظهرت في ثوب جديد ببلاد الأندلس؛ بعد سقوط الدولة الأموية.

وفي حال مقابلة الدولة الإدريسية بالدولة الفاطمية؛ سيتجلى ضعف الدولة الإدريسية، وقصورها، وانكماش نفوذها. ويرجع ذلك إلى عجزها عن تحقيق بعض الشروط؛ التي تمكنت الدولة الفاطمية من تحقيقها. أهمها: قوة العصبية، وكثرة الأتباع، وفعالية الدعوة الدينية. فعصبية الأدارسة كانت ضعيفة أمام عصبية الفاطميين. وأتباع الأدارسة أيضا قليلون. كما أنهم يفتقرون إلى دعاة أكفاء، وتعاليم مذهبية تشكل قاعدة فكرية، ذات شحنات نفسية؛ تنمي الحماس وتشحذ الهمم؛ في سبيل تحقيق أهداف الدولة. فالدولة تحتاج ـ لتعزيز

قوتها ـ إلى قدرة نافذة، وتحكم دقيق في سير سياسة الدعوة والدعاة. فبفضل ذلك توفر الدولة الأنصار الأوفياء، وتحقق التزامهم المستميت بأهدافها، وتفانيهم في خدمتها وحماية مؤسساتها. وهذه العوامل كلها توفرت للفاطميين؛ وافتقر إليها الأدارسة؛ وبذلك عظمت دولة الأوليين؛ بل امتد نفوذها حتى شمل الأدارسة أنفسهم.

****

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

أما إنجازات الدولة الإدريسية: العمرانية منها والثقافية؛ فيبدو أنها كانت بالمغرب ـ هي الأخرى ـ قاصرة ومحدودة أمام إنجازات الدولة الفاطمية. إذ أن أبرز أعمال الأدارسة تتجلى في مدينة فاس؛ تلك المدينة التي أضحت ـ في عهدهم ـ مركزا هاما؛ يستقطب نشاطات عديدة منها: ما هو عمراني، وما هو ثقافي؛ بالإضافة إلى الدور الاقتصادي الهام؛ الذي أضحت تتميز به مدينة فاس في تلك الربوع.[1] وقد تضمنت الكتب التالية: ـ المغرب

---

[1] يقول ابن خلدون واصفا عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس في فاس: ((وعظمت دولته، وحسنت آثار أيامه، واستجدت فاس في العمران، وبنيت بها الحمامات، والفنادق للتجار، وبنيت الأرباض، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية. واتفق أن نزلتها امرأة من أهل القيروان تسمى أم البنين؛ بنت محمد الفهري ـ وقال ابن أبي زرع اسمها فاطمة، وأنها من

للبكري، ونزهة المشتاق للإدريسي، والأنيس المطرب بروض القرطاس لابن أبي زرع، ودولة الأدارسة لإسماعيل العربي، ـ معلومات لا بأس بها؛ تخص الإنجازات العمرانية ـ الدينية منها والثقافية ـ التي تمت في عهد الأدارسة بفاس. ويظهر أن تحولا كبيرا حدث في المظهر الحضاري والثقافي لهذه الدولة؛ بدءا بتوافد عدد من المهاجرين العرب؛ ذوي الثقافة الرفيعة، والصناعة المحكمة، والإبداع والابتكار غير المسبوقين في تلك البلاد؛ قدم أولئك العلماء والمثقفون والفقهاء من القيروان، ومن قرطبة بعد حادثة الربض فيها. حيث تمركز القيروانيون

هوارة ـ وكانت مثرية بموروث أفادته من ذويها، واعتزمت على صرفه في وجوه الخير؛ فاختطت المسجد الجامع بعدوة القرويين؛ أصغر ما كان سنة خمس وأربعين [ومائتين]؛ في أرض بيضاء كان أقطعها الإمام إدريس، وأنبطت بصحنها بئراً شراباً للناس؛ فكأنما نبهت بذلك عزائم الملوك من بعدها؛ ونقلت إليه الخطبة من جامع إدريس؛ لضيق محلته، وجوار بيته)). العبر، مج: 4، ص: 29. ومما قاله أيضا ابن أبي زرع عن فاس: ((وهي قاعدة بلاد المغرب، وقطرها ومركزها، وقطبها؛ وهي ملك الأدارسة الحسنيين؛ الذين اختطوها... وبها منازل مونقة، وبساتين مشرقة، ورياض مورقة، وأسواق مرتبة)). ((وكان أهل عدوة الأندلس أهل نجدة وشدة؛ وأكثرهم ينتحل الحراث والفلاحة؛ وأهل عدوة القرويين أهل رفاهة، ونخوة في البناء، واللباس، والفرش والمطعم، والمشرب؛ وأكثرهم صناع وتجار)). ((فأقامت مدينتيْ فاس [عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين] على ما بناه [أي إدريس] طول مدته، وأيام ولده من بعده؛ إلى أيام زناتة؛ فكثرت العمارات بها، وبنيت الأرباض عليها، واتصل البناء حولها من كل جهة؛ فبنيت بها الفناديق، والحمامات، والأرحا، والمساجد والأسواق؛ من باب إفريقية إلى عين إيصيلن)). الأنيس المطرب، ص ص: 15 ـ 16، 23، 25.

في الموضع الذي عرف بعدوة القرويين؛ بينما سكن القرطبيون بعدوة الأندلسيين.

ونتيجة لهذا التقسيم السكاني أخذت تظهر عليهم بعض الفروق الثقافية؛ التي ميزت كل فئة بمميزات خاصة اشتهروا بها. ويمكن اعتبار أهم إنجازين عمرانيين شيدا — آنئذ — بالعدوتين؛ هما المسجدان الذين بنتهما الأختان الوافدتان من القيروان: فاطمة المعروفة بأم البنين، وأختها مريم: بنتي محمد الفهري؛ إذ بَنَتْ فاطمة جامع القيروانيين في سنة 245هـ(859م)؛ أيِ في عهد الأمير يحيى بن محمد بن إدريس. وبَنَتْ — أيضا — أختها مريم جامع الأندلس. وكان بالعدوتين جامعين بناهما — قبل ذلك العهد — إدريس بن إدريس؛ وهما: جامع الشرفاء بعدوة القرويين، والثاني جامع الأشياخ بعدوة الأندلسيين. ومع مرور الوقت قدر لمسجد القرويين — الذي بنته فاطمة الفهرية — أن يكون أهم معلم ثقافي بالمغرب الأقصى؛ إذ تحول — مع الأيام — إلى جامعة كبرى، ومركز إشعاع ثقافي وديني في منتهى الأهمية. حيث تخرج منه عدد كبير جدا من الفقهاء والأدباء؛ الذين تركوا بصماتهم في ثقافة المغرب عبر العصور.

ومـــا يمكـــن الاستشهـــاد بـــه مـــن نصـــوص أدبيـــة؛ ترجـــع إلى الفتـــرة الزمنيـــة الـــتي أظلـــت الدولـــة الإدريسيـــة؛ ليـــس بالـــشيء الكثيـــر؛ مـــن حيـــث الكيـــف والكـــم. مـــن ذلـــك ــ مثـــلا ــ مـــا ورد في بعـــض المصـــادر مـــن نصـــوص شعريـــة ونثريـــة نسبـــت إلى الملـــوك الأدارســـة؛ وإلى الأدبـــاء المقيميـــن أو الوافديـــن إلى بـــلاط الدولـــة الإدريسيـــة. فهـــذا ــ عـــلى سبيـــل المثـــال ــ نـــص قصيـــر جـــدا مـــن خطبـــة قالهـــا إدريـــس الأول عندمـــا بويـــع بالإمامـــة؛ قـــال فيهـــا: ((**بعـــد حمـــد اللـــه، والصـــلاة عـــلى نبيـــه، لا تمـــدّن الأعنـــاق إلى غيرنـــا؛ فـــإن الـــذي تجدونـــه عندنـــا مـــن الحـــق لا تجدونـــه عنـــد غيرنـــا**)).[1] أمـــا إدريـــس بـــن إدريـــس؛ فيختلـــف حالـــه بعـــض الـــشيء؛ إذ وصلـــت إلينـــا بعـــض النصـــوص المنسوبـــة إليـــه؛ فـــإن صـــح ذلـــك؛ فـــذاك شاهـــد عـــلى مكانتـــه الشخصيـــة في ميـــدان الأدب؛ وإن لـــم تصـــح نسبتهـــا إليـــه فـــهي بـــدون شـــك تعـــطي صـــورة لمـــا كـــان عليـــه بـــلاط الدولـــة الإدريسيـــة في هـــذا المجـــال. ومـــن خـــلال تلـــك النصـــوص يمكـــن تحديـــد فكـــرة ــ ولـــو متواضعـــة ــ عـــلى المستـــوى الأدبي لهـــذا الملـــك مـــن جهـــة، والمستـــوى الـــذي كـــان عليـــه الأدبـــاء في تلـــك الدولـــة أو القادميـــن إليهـــا مـــن جهـــات أخـــرى.

---

[1] العبـــر، مج: 4، ص: 24.

ومن الشعر المنسوب إلى إدريس الثاني هذه المقاطع:[1]

لَوْ مَالَ صَبري بصَبرِ الناسِ كُلِّهمُ
لَضَلَّ في رَوْعَتِي أوْ ضَلَّ في جَزَعِي

وَمَا أرِيعُ إلَى يَأسٍ لِيسْلِينِي
ألا [..........] يَأس إلى طمعِ

وكَيفَ يَصْبرُ مَطْوِيٌّ هَضَائِمهُ
علَى وَسْوَاسِ هَمٍّ غَير مُنقطِعِ

إذا الهُمُومُ توَافتْ بَعْدَ هَجْعَتِهِ
كرَّتْ علَيهِ بِكأسٍ مُرَّة الجُرَعِ

بَانَ الأحِبة واستَبْدَلت بُعْدَهمُ
هَماً مُقِيماً وَشَمْلاً غَيْرَ مُجْتَمِعِ

كَأنِّي حِينَ يُجرِي الهَمُّ ذِكرَهمُ
علَى ضَمِيرِي مَخْبولٌ مِنَ الفَزَعِ

---

[1] قد يشك بعضهم في صحة إسناد هذه النصوص إلى إدريس؛ غير أن المهم هنا هو تقديم عينة من النصوص الأدبية التي قيلت في ذلك الوقت؛ ولا يهم ـ في هذه الحال ـ إن كان قائلها هو إدريس نفسه، أو قيلت نيابة عنه؛ من طرف أدباء كانوا في بلاط دولته.

تأوِي هُمــومِي إذْ حَرَّكــت ذِكرَهــمُ

إلَى جَوَانِــحِ جسْــمٍ دَائِــمِ الولَــعِ

كمــا بعــث بأبيــات ـ نسبتهــا المصــادر إليــه ـ محــذرا شيــخ قبيلــة مطغــرة بهلــول بــن عبــد الواحــد مــن مغبــة انسياقــه في المؤامــرة الــتي يحــوك خيوطهــا إبراهيــم بــن الأغلــب؛ فقــال:

أبَهْلــولُ قدْ شَمَّمْتَ نفسَــكَ خُطــة

تبَدَّلــتَ مِنهَــا ضَلَــــة برَشَــــادِ

أضلَــكَ إبرَاهِيــمُ مِــنْ بعْــدِ دَارِهِ

فأصبَحْــتَ مُنقــاداً بغيــرِ قِيَــادِ

كَأنكَ لمْ تَسْمَــعْ بِمَكــرِ ابْنِ أغلــبٍ

وَقدْمــاً رَمَى بِالكيــدِ كــلَّ بــلاَدِ

وَمِنْ دُونِ مَا مَنتــكَ نفسُــكَ خَالِيــاً

وَمَنــاكَ إبرَاهيــمُ شــوْكَ قتــادِ

وثمــة أبيــات أخــرى نسبــت إليــه أيضــا؛ وهي موجهــة إلى ابــن الأغلــب؛ يقــول فيهــا:

أذَكــرُ إبْرَاهِيــمَ حــقَّ مُحَمَّــدٍ

وَعِترَتِــهِ وَالحَــقُّ خيْــرَ مَقــولِ

وَأدْعوهُ لِلأمْــرِ الذِي فِيهِ رُشْــدُهُ
وَمَــا هوَ لَــوْلاَ رَأيــهُ بِجهــولِ
فــإنْ آثــرَ الدُّنيــا فــإِنَّ أمامَــهُ
زَلاَزِلُ يــوْمٍ لِلعقــابِ طوِيــلِ

ومممــا نســب إليــه مــن نثــر؛ هــذه الخطبــة الــتي ألقاهــا يــوم بيعتــه في سنــة 188هــ (803هــ)؛ وجــاء فيهــا: ((**الحمــد اللــه، أحمــده وأستغفــره، وأستعيــن بــه، وأتوكــل عليــه، وأعــوذ بــه مــن شــرّ نفــسي، ومــن شــر كــل ذي شــر، وأشهــد أن لا إلــه إلا اللــه، وأنّ محمــداً عبــده ورسولــه المبعــوث إلى الثقليــن بشيــراً ونذيــراً، وداعيــا إلى اللــه بإذنــه، وسراجــا منيــرا، صــلى اللــه عليــه وعــلى آل بيتــه الطاهريــن الذيــن أذهــب اللــه عنهــم الرجــس، وطهرهــم تطهيــراً. أيهــا النــاس: إنــا قــد ولِّينــا هــذا الأمــر الــذي يضاعــف فيــه للمحســن الأجــر، وعــلى المــسيء الــوزر، ونحــن والحمــد للــه عــلى قصــد جميــل، فــلا تمــدوا الأعنــاق إلى غيرنــا، فــإن الــذي تطلبونــه مــن إقامــة الحــق إنمــا تجدونــه عندنــا**)).[1]

---

[1] الأدب المغــربي، ص ص: 121 ــ 122. وكمــا يظهــر فقــد اقتبــس هــذه العبــارة الأخيــرة مــن خطبــة أبيــه. راجــع مــا سبــق.

وورد في المصادر أيضا قصيدة شعرية نسبت إلى القاسم بن إدريس صاحب سبتة وطنجة؛ بعث بها إلى أخيه محمد يعتذر فيها عن تنفيذ أمر وجه إليه من طرفه؛ يطلب فيه تأديب أخيهما عيسى صاحب شالة وتامسنا. وفي هذه القصيدة يقول القاسم:

سَأتـرُكُ لِلرَاغِـبِ الغرْبَ نَهباً
وَإنْ كنتُ فِي الغَرْبِ قيلاً وَندْبا
وَأسْمو إلَى الشرقِ فِي هِمةٍ
يعِزُّ بها رُتباً مَنْ أحَبَّا
وَأتـرُكُ عِيسَى عَلَى رَأيـهِ
يُعَالجُ فِي الغرْبِ هَمًّا وَكرْبا
ولَوْ كانَ قلبِي عَن قلبهِ
لكنتُ لهُ فِي القرَابةِ قلبَا
وَإنْ أحدَثَ الدَّهرُ مِنْ رَيبهِ
شِقاقاً عَليْنا وَأحدَثَ حَرْبا
فإنِّي أرَى البُعْدَ سِتراً لنا
يُجَدِّدُ شَوقاً لدَينا وَحبا
ولَمْ نَجْنِ قطعاً لأرْحامنا
نلاَقِي بهِ آخِرَ الدَّهرِ عَتبَا

وَتَبْـقَى العَـدَاوَة فِي عَقبنـــا

وَأكــرِمْ بــهِ حِينَ نعْقِـبُ عَقبَــا

وَأوفــقُ مِنْ ذَاكَ جَــوْبُ الفــلاَةِ

وَقَطــعِ المَخارِمِ نقبــاَ فنقبَـــا

هــذا عــن ملــوك وأمــراء الدولــة الإدريسيــة؛ أمــا الأدبــاء والشعــراء مــن عامــة النــاس؛ فالمعلومــات عنهــم ــ هي الأخــرى ــ شحيحــة للغايــة؛ ومــع هــذا يمكــن الاستشهــاد ببعــض العينــات المتناثــرة في عــدد مــن المصــادر والمراجــع. وكمثــال عــلى ذلــك يــأتي: أحمــد ابــن القاســم بــن إدريــس وأبــو العيــش عيــسى بــن إبراهيــم بــن القاســم بــن إدريــس أميــرا البَصْــرة (أو كــرت كمــا تســمى أيضــا) في مقدمــة الذيــن يهتمــون بــالأدب والشعــر؛ إذ كانــا يستقبــلان في مجالسهمــا الشعــراء مــن كــل الأقطــار؛ ويقصدهمــا الشعــراء والأدبــاء مــن ربــوع المغــرب والأندلــس كلهــا؛ حيــث كانــوا يتوافــدون إلى مجالسهمــا الثريــة الزاهيــة. ويفهــم مــن بعــض المصــادر أن بكــر بــن حمــاد الزنــاتي التاهــرتي كــان يراســل أحمــد بــن القاســم ــ إن لــم يكــن قــد زاره في بلاطــه ببصــرة ــ ويمدحــه بقصائــد كثيــرة؛ لــم يصلنــا منهــا إلا هــذه القطعــة الــتي يقــول فيهــا:

إنَّ السَّمَاحــةَ وَالمُــرُوءَة وَالنــدَى
جُمِعــوا لأحْمَــدَ مِنْ بَنِي القاسِــمِ
وَإذَا تفاخــرَتِ القبَائِــلُ وَانتمَــت
فَافخــرْ بِفضــلِ مُحمَّــدٍ وَبِفَاطِــمِ
وَبِجَعْفــرِ الطيــارِ فِي دُرَجِ العُــلَى
وَعَلِيٍّ العَضبِ الحُسَــامِ الصــارِمِ
إنِّي لمشتـــاقٌ إليـــكَ وَإنمَـــا
يَسموا العقــابُ إذَا سَمَــا بِقــوَادِمِ
فابعــثْ إلَيَّ بِمركــبٍ أسْمــو بــهِ
عَــلي أكــونُ عليــكَ أوَّلَ قــادِمِ
وَاعْلَــمْ بِأنــكَ لــنْ تنــالَ مَحبــة
إلاَّ ببعــضِ ملاَبــسٍ وَدَرَاهـــمِ

وقــال ابــن عــذاري هنــا: ((**فبعــث إليــه ببغلــة سنيــة، وصلــة جزلــة. وكــان لــه فيــه أمــداح كثيــرة**)).[1] ويفهــم مــن البيتيــن الأخيريــن أنــه ربمــا يكــون زار بــلاط أحمــد بــن القاســم. ومــن بيــن الشعــراء الذيــن وفــدوا عــلى أبي العيــش عيــسى الشاعــر التاهــرتي أحمــد بــن الفتــح؛ حيــث مدحــه بقصيــدة استهلهــا

[1] البيــان المغــرب، ج: 1، ص: 236

ـ كعادة العرب ـ بالنسيب ووصف جمال نساء البصرة؛ فقال:

قبَّحَ الإلهُ اللهْوَ إلاَّ قيْنةٌ
بصْرِيّة فِي حمْرَةٍ وَبياضِ[1]
الخمْرُ فِي لَحَظاتِهَا وَالوَرْدُ فِي
وَجَنَاتِهَا، وَالكشْحُ غيْرُ مُفاضِ
فِي شَكلِ مَرْجِى، وَنسْكِ مُهَاجِرِ
وَعفافُ سُنِيّ وَسَمْتِ إباضِ
تاهرْتُ أنتِ خليَّة وَبرِية
عَوَضْتُ مِنكِ ببَصْرَة فاعْتاضِ
لاَ عُذرَ لِلحَمَرَاءِ فِي كلفِي بِهَا[2]
أوْ تَسْتفِيضَ بِأبحُرٍ وَحياضِ
مَا عُذرُها وَالبَحْرُ عيسَى رَبهَا
مَلِكُ المُلوكِ وَرَايضُ الرُّوَاضِ

[1] جاء هذا البيت في الأدب المغربي هكذا:
مَا حَازَ كُلُّ الحُسْنِ إلاَّ قَيْنَةَ بِصْرِيَّة في حُمْرَةٍ وَبيَاضِ، ص: 109.

[2] الحمراء هنا هي بصرة؛ إتسمى بهذا الاسم أيضا، كما تسمى بصرة الكتاب، وبصرة الذبان. المغرب، ص: 110.

وهـذا مقطـع قالـه شاعـر آخـر عـاش في القـرن الرابـع الهجـري اسمـه إبراهيـم بـن محمـد الأصيلـي؛ وهـو في مـدح حيّ مـن هـوارة يعـرف ببـني زيـاد؛ كانـوا ساكنيـن حـول مدينـة أصيـلا:

سَقَى غـرْبِيَّ أَرْضِ بَـنِي زِيَـادٍ
سَحَائِـبُ مَا يَجِـفُّ لهَـا غـرُوبُ
وَلاَ زَالَ النعِيـمُ يَعُـمُّ قوْمـاً
إِزَاؤُهـمْ مِـنَ الشـرقِ الكثِيـبُ

ومـن شعـراء ذلـك الزمـن الشاعـر محمـد بـن إسحـاق المعـروف بالبجيـلي أو النحيـلي؛ وهـو القائـل في عـدوة القروييـن بفـاس:

يا عـدْوَة القرَوِييـنَ التِي كرِّمـتْ
لاَزَالَ جانِبُكِ المَحْبُـورِ مَسْطـورَا
وَلاَ سَرَى اللـهُ عنكِ ثوْبَ نِعْمتِـهِ
أَرْضٌ تَجنبَـتِ الآثـامَ وَالـزُّورَا

وقد يكون هذا الشاعر هو الذي سمَّاه البكري مرة البجيلي ومرة أخرى النحيلي؛ وقد أورد له أبياتا شعرية مقذعة هجا فيها القاسم جنون ابن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس؛ وكان قد أخذ منه جارية له يحبها؛ فقال:

أَتـَرَى سِلاَحك إذْ كدَدْتَ قَصِيدَتِي
يَنفِيهِ سَيْلٌ قدْ طمَا مِنْ سَفسَدِ

إلى قوله:

أَبَنِي مُحَمَّدَ الزَّنيمِ لأنتمُ
شَرُّ الوَرَى مِمَّنْ يَرُوحُ وَيغتدِ
إنْ كانَ جَنونُ مِنْ آلِ محَمدٍ
فأنا كفورٌ بِالنبِيِّ محَمدِ

أما إبراهيم بن محمد الأصيلي متعرضا لفاس قائلا:

دَخلتُ فاساً وَلِي شَوقٌ إلَى فاسِ
وَالجُبْنُ يَأخذُ بِالعَيْنينِ وَالرَّأسِ
فلَسْتُ أدْخلُ فاساً لوْ حيِيتُ وَلوْ
أعطِيتُ فاساً بمَا فِيهَا مِنَ الناسِ

وممــن هجــا فاســا ــ في ذلــك الزمــن أيضــا ــ قــاضي تاهــرت أحمــد بــن فتــح بقولــه:

أسْلُــحْ عَلى كلِّ فاسِيٍّ مَــرَرْتَ بــهِ
فِي العُدْوَتيْــنِ مَعاً لاَ تبقِيــنَ أحَــدَا
قومٌ غــذُّوُا اللــؤْمَ حَتَّى قالَ قائِلِهــمْ
مَنْ لاَ يكونُ لئيمــاً لمْ يَعِــشْ رَغــدَا

ومــن الشعــراء الذيــن عاشــوا في تلــك الفتــرة أيضــا محمــد بــن السمهــري الــذي هجــا القاســم بــن إدريــس بــن إدريــس صاحــب طنجــة بقولــه:

قــُلْ لِلزَّنِيمِ زَنِيمِ طَنجَة عِشْ بهَــا
لاَ يَحْسدَنــكَ فِي بــلاَدِكَ حَاسِــدُ
مَنتــكَ نَفْســُكَ أنْ تَكُونَ خَلِيفــَة
هَيْهــاتَ هَذا مِنْ حَدِيثِــكَ بَــارِدُ
لَمــا رَأَيْتــكَ لِلئــامِ مُصَافِيــاً
أيْقَنــتُ حَقــا أنْ جَــدَّكَ رَاشِــدُ

****

2)ـ دولـــة بـــني حمـــود بقرطبـــة:

تعتبـــر هـــذه الدولـــة بمثابـــة امتـــداد وتواصـــل للدولـــة الإدريسيـــة في بـــلاد المغـــرب. وقيامهـــا في بـــلاد الأندلـــس حـــدث نتيجـــة لتحـــول ساحـــة الصـــراع بيـــن الأدارســـة والأموييـــن إلى أرض الأندلـــس؛ بسبـــب مـــا حصـــل مـــن نقـــل أفـــراد الأســـرة الإدريسيـــة بكاملهـــم إلى تلـــك الديـــار؛ مـــن طـــرف الخليفـــة الأمـــوي المستنصـــر باللـــه؛ خاصـــة في سنـــتي: 365هـــ (975م) و375هـــ(985م). هـــذا وينتـــمي الملـــوك الأول مـــن الأدارســـة ــ في الأندلـــس ــ إلى فـــرع عمـــر بـــن إدريـــس. وقـــد كانـــوا منافسيـــن لبـــني عمومتهـــم: أبنـــاء القاســـم بـــن إدريـــس؛ الذيـــن يعتبـــرون آخـــر مـــن تـــولى ملـــك الأدارســـة في المغـــرب. ويبـــدو أن تلـــك المنافســـة كانـــت سببـــا في تغـــاضي الخليفـــة الأمـــوي المستنصـــر عـــن محاولـــة نفيهـــم ــ هـــم الآخريـــن ــ مـــع الحســـن بـــن قنـــون إلى مصـــر.

هـــذا ولـــم تشـــر جـــل المصـــادر ــ بوضـــوح ــ إلى مكـــان إقامـــة بـــني حمـــود في الأندلـــس؛ حينمـــا بـــدأت الفتنـــة. وقـــد انفـــرد ابـــن الخطيـــب ــ تقريبـــا ــ بالحديـــث عـــن ذلـــك؛ ولكـــن باقتضـــاب شديـــد؛ حيـــث ذكـــر أنهـــم كانـــوا ((**مـــن جملـــة أمـــراء المغاربـــة المترسميـــن في ديـــوان بـــني أميـــة بقرطبـــة**)).[1] دون تحديـــد الفتـــرة الزمنيـــة؛ هـــل تـــم ذلـــك قبـــل نـــفي الحســـن بـــن قنـــون إلى مصـــر، أو بعـــد نفيـــه؟.

---

[1] **أعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص: 128.**

وعليه فالسؤال يبقى قائما حول المكان الدائم الذي كانوا يعيشون فيه؛ بعد نفي الأدارسة إلى الأندلس؛ وإخلاء بلاد المغرب منهم. ومن ثمة؛ بعد نفي ابن قنون وأهله إلى مصر. ومن هنا يمكن التساؤل: هل كانوا مستقرين في بلاد غمارة؛ مختفين عن الأنظار بتلك الديار؟ أم كانوا قاطنين ببلاد الأندلس؛ في الظل؛ وبعيدا عن الأضواء؟ وبهذا يمكن الاعتماد على ما ذكره ابن حزم بإيجاز؛ حين ذكر أن بني حمود كانوا بتازغدرا من عمل غمارة.[1] كما يشير البكري إلى بعض فروعهم الموزعين في بقاع شتى بالمغرب كـ: بلاد أوربة، وفاس، وكتامة، وبلاد بني عسوجة وبلاد زناتة، وبلاد برغواطة، وتازغدرا بغمارة.[2] ومن جهة أخرى يجيب ابن الخطيب بإيجاز أيضا ـ في سياق آخر ـ على ذلك؛ إذ يرى أن علي بن حمود انتهز موجة الاضطرابات؛ التي حدثت بين أبناء البيت المالك من: الأمويين وأنصارهم المشكلين من: الأمازيغ وأهل قرطبة؛ فقطع البحر؛ قاصدا سبتة؛ حيث تغلب عليها.

---

[1] قال ابن حزم: ((وكان بدء أمرهم [أي بني حمود] في شوال سنة **400**؛ إذ ولي القاسم بن حمود سبتة إلى التاريخ المذكور. وكان هذا الفخذ من افخاذهم خاملا؛ وكانوا صاروا بتازغدرة من عمل غمارة)). الجمهرة، ص: **51**.

[2] المغرب، ص ص: **131 ـ 133**.

ولكنه عاد إلى الأندلس عند سماعه باستفحال أمر سليمان بن الحكم؛ مع من كان معه من الأمازيغ؛ وبعد ظهور بوادر تفيد بقرب انتصارهم على أعدائهم.[1] وقد وردت إشارة خاطفة وباهتة في الذخيرة لابن بسام ــ حين ذكر موضوع وصية هشام المؤيد بالعهد من بعده إلى علي بن حمود؛ نكاية في بني عمه من آل الناصر الثائرين عليه ــ قال فيها أن عليا كان يتردد على سبتة؛ بغرض حث طوائف الأمازيغ، وتحريضهم على الجهاد في صف سليمان؛ وضد المهدي وأنصاره من أهل قرطبة.[2]

---

[1] **وفي هذا يقول ابن الخطيب: ((ولما التفت البرابرة بسليمان؛ استيجاشا من العصائب الأندلسية، وتشميرا لمقارعتها؛ وأجفل البرابرة إلى وادي يارو منهزمين؛ لحق [أي علي بن حمود] بالعدوة الغربية؛ وتغلب على سبتة محتالا. ثم عاد إلى الأندلس؛ لما استوسق الأمر لسليمان. واختص من كُوَر إيالته التي اقتسمها البرابر واقتطعوها بسبتة، وأخوه القاسم بالجزيرة)). أعمال الأعلام، ق: 2؛ ص: 128.**

[2] **قال ابن بسام: ((وكان هشام ــ عند ما رآه من اضطراب أمره؛ وتيقنه من انصرام دولته؛ بما مني به قديما وحديثا؛ من تمالؤ بني عمه آل الناصر عليه؛ وقيامهم واحدا بعد واحد في خلعه ــ صيّر إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله بذلك إلى سبتة؛ أيام تردده عليها؛ بمعنى الاستمداد، وجمعه طوائف البرابرة للجهاد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1. ص ص: 37 ــ 38.**

وهنــا يتبــادر إلى الذهــن احتمــال عــودة السبــب في انتقــال عــلي بــن حمــود إلى الأندلــس مــن جديــد ــ بعــد أن تغلــب عــلى سبتــة؛ خــلال موجــة الاضطرابــات ــ إلى الخطــاب الــذي ورد إليــه مــن هشــام المؤيــد؛ كمــا جــاء في الذخيــرة ومصــادر أخــرى. ذلــك الخطــاب الــذي يسنــد فيــه هشــام ولايــة العهــد إليــه. ومــن هنــا يبــدو أنــه لــم يعبــر المضيــق نحــو الأندلــس لمجــرد التضامــن مــع سليمــان بــن الحكــم، أو بدافــع الغيــرة عليــه بحكــم العصبيــة، أو حبــا في الوقــوف معــه ضــد أعدائــه مــن أهــل قرطبــة. بــل حــدث ذلــك بدافــع المصلحــة؛ الــتي أملــت عليــه العمــل بجــد في سبيــل تحقيقهــا.

عــلى كــل حــال؛ فانــزواء بــني حمــود هــذا، واختفائهــم عــن الأضــواء ــ ســواء في بــلاد الأندلــس أو في المغــرب ــ مكنهــم مــن اصطيــاد الفرصــة المواتيــة للانقضــاض عــلى عــرش الخلافــة بالأندلــس. وقــد تحقــق لهــم ذلــك؛ حينمــا ترنحــت دولــة الأموييــن؛ ومالــت نحــو الانهيــار؛ بعــد سقــوط مؤسساتهــا الفاعلــة، وتفكــك قواعدهــا الأساسيــة. وجملــة القــول هي أن جــل المصــادر التاريخيــة بــدأت ــ لأول مــرة ــ تتحــدث عــن عــلي بــن حمــود وأخيــه القاســم في بــلاد الأندلــس؛ اعتبــارا مــن سنــة 403هــ (1012م). حيــن تناقلــت ــ مــا ذكــره ابــن حيــان ــ عنهمــا وعــن الموضــع الــذي عسكــرا فيــه مــع جيشهمــا المشكــل مــن المغاربــة؛ وكــانِ ذلــك بالقــرب مــن الزهــراء وقرطبــة؛ وبالتحديــد في شَقَنــْدة. حيــث كانــا ضمــن جيــش سليمــان بــن

الحكم.[1] والمهم هنا أن علي بن حمود يكون قد ولد في بلاد المغرب؛ حسبما توصل إليه إسماعيل العربي؛ بعد عملية حسابية قصيرة قام بها.[2] ثم نُقِلَ – مع من نقِل من بني عمه الأدارسة – إلى بلاد الأندلس؛ حيث ظل مهمشاً وبعيداً عن الأنظار حتى حانت الفرصة المناسبة؛ حين ظهر الانقسام الأكبر في صفوف بني أمية وأنصارهم؛ فعاد إلى مركز قوته ونفوذه؛ أين جمع شمل عصبيته الأمازيغية؛ بحجة نصرة أحد الفريقين المتخاصمين من بني أمية؛ ولما تمكن واشتد ساعده انقض من هناك على فريسته، وتغلب على أعدائه، حيث تربع على عرش الخلافة في قرطبة باسم العلويين من بني هاشم.

---

[1] إذ قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وانتقل إلى مدينة الزهراء [أي سليمان بن الحكم] بجملة برابره وجيشه؛ فضاقت الزهراء عنهم؛ فنزلوا بما اتصل بها. ونزل ابنا حمود: علي والقاسم قائدا فرقة المغاربة بشَقُنْدة)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 37. نقل هذا النص أيضا – كما هو – ابن عذاري، ج: 3، ص: 113. كما أشار إليه الحميدي في جذوة المقتبس، ص ص: 19 – 20. وعبد الواحد المراكشي في المعجب، ص: 43.

[2] دولة الأدارسة، ص: 226.

ولابد – هنا – من الإشارة؛ إلى أن ابن خلدون كتب فقرة غامضة؛ تبعث على الاعتقاد بأن بني حمود كانوا مقيمين في تازغدرا ببلاد المغرب؛ في حماية قبيلة غمارة الأمازيغية.[1] وربما يكون ابن خلدون قد اقتبس هذا الخبر عن ابن حزم أو البكري؛ إذ قالا القول نفسه؛ كما سبقت الإشارة إليه. ولما اشتدت الأزمة في الأندلس؛ عَبَرَ أمير بني حمود علي بن حمود إلى الضفة الأخرى مع جملة من أنصاره الأمازيغ؛ حيث انضم إلى صفوف سليمان بن الحكم؛ مسايرة منه للحلف الذي عقده – هذا الأخير – مع جل القبائل الأمازيغية هناك؛ خاصة وأن علي بن حمود وأعضاء أسرته كانوا يرون في أنفسهم جزءا لا يتجزأ من المجتمع الأمازيغي. وبالفعل فقد عامله سليمان بن الحكم كما عامل أمراء القبائل الأمازيغية. حيث أقطعه – بعد أن تحقق له النصر – مدينة سبتة؛ كما أقطع أخاه القاسم الجزيرة الخضراء.

---

[1] وفي ذلك يقول: ((وبقي الفخر منهم بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر؛ وصاروا في جملة المستعين؛ مع أمراء العدوة، من البربر. فعقد لهما [أي لعلي والقاسم] المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعلي منهما على طنجة، وللقاسم – وكان الأسن – على الجزيرة الخضراء)). العبر، مج: 4، ص: 330.

ويرى بعضهم أن سليمان ارتكب خطأ كبيرا بتقديم تلك المقاطعتين لعلي وأخيه القاسم.[1] والغريب أن بعض الأمازيغ أنفسهم استنكروا ما قام به سليمان؛ على الرغم من الاندماج الحاصل بين بني حمود والأمازيغ.[2] وربما يكون ما أبداه أمير بني برزال من اعتراض؛ لا يعدو أنه أتى من

---

[1] فهذا ابن بسام يقول: ((ومن الاتفاق الغريب على سليمان أنه لما استوسق له الأمر؛ بعد فراغه من خبر هشام المؤيد؛ أنفذ عزمه ـ من بين قواد جيوشه ـ في اختيار علي بن حمود المذكور؛ فقدمه على مدينة سبتة؛ رأيا ذَهَلَ عنه؛ ونبذها إلى ضد له مكاشح شريك في الدعوى والقرابة. فتلقفها علي تلقف الأكياس المقبلين؛ ودَبَّ لمغبونه سليمان من قِبَلِها الضَّراء دبيب الحَنَق الموتور؛ حتى هجم عليه وسلبه ملكه، وحول دولته، ومزق عِتْرته. وكانت غلطة سليمان التي لم يستقلها هو ولا من بعده؛ وإذا أراد الله شيئا أمضاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 38.

[2] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حمادة: ((وكانوا ستة قبائل. فأعطى صنهاجة إلبيرة؛ فبقيت بيد حبوس وذريته نحو المائة سنة. وأعطى مغراوة الجوف. وأعطى منذر بن يحيى سرقسطة. [لم يكن منذر بن يحيى بربريا؛ بل كان من قبيلة تجيب العربية] وأعطى بني برزال وبني يفرن جيان وذواتها. وأعطى بني دمر وأزداجة شذونة ومورور وغير ذلك من الحصون. وذكِر أنه ولى القاسم بن حمود طنجة وآصيلا، أما علي بن حمود فولاه سبتة كما ذكرناه. [يرى المراكشي وابن الخطيب وابن خلدون أن ما أعطاه سليمان للقاسم هي الجزيرة الخضراء] فلما بلغ عبد الله البرزالي تقديم ابني حمود؛ دخل على سليمان؛ فقال: "يا أمير المؤمنين بلغني أنك وليت بني حمود العلويين على المغرب." قال: "نعم". قال له: "أليس العلويون طالبيين؟" قال: "نعم". قال: "تأتي إلى خشاش؛ تردهم ثعابين؟" قال: "نُفِذ الأمر في ذلك")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 113 ـ 114. أنظر في هذا أيضا المعجب، ص: 43. وأعمال الأعلام لابن الخطيب: ق: 2، ص: 119.

بـــاب الغيـــرة والحســـد لعـــلي بـــن حمـــود وأخيـــه؛ أو ربمـــا يكـــون ذلـــك بتأثيـــر مـــن معتقـــده الخـــارجي.

المهـــم أن ذلـــك حـــدث بموافقـــة سليمـــان وبقـــرار منـــه. ولعلـــه لـــم يكـــن في يـــده القـــدرة عـــلى الـــرفـــض أو المعارضـــة؛ نظـــرا لكـــون عـــلي قـــد سيطـــر بالفعـــل ــ مـــن قبـــل ــ عـــلى سبتـــة؛ كمـــا جـــاء في نـــصي: ابـــن بســـام وابـــن الخطيـــب. خاصـــة وأن ابـــن حـــزم قـــال أن سبتـــة كانـــت ولايـــة القاســـم بـــن حمـــود منـــذ شـــوال سنـــة 400هــ(1009م).[1] وبهـــذا فمـــا صـــدر ــ بعدئـــذ ــ عـــن سليمـــان لـــم يكـــن ســـوى مصادقـــة وموافقـــة عـــلى أمـــر واقـــع بالفعـــل. وهكـــذا فمـــن ذلـــك التاريـــخ بـــرز الـــدور الخطيـــر والفعـــال للأدارســـة في بـــلاد الأندلـــس؛ ممثليـــن بعـــلي بـــن حمـــود بـــن ميمـــون بـــن حمـــود ــ وحمـــود اسمـــه الحقيـــقي أحمـــد ــ بـــن عـــلي بـــن عبيـــد اللـــه بـــن عمـــر بـــن إدريـــس بـــن إدريـــس بـــن عبـــد اللـــه.[2] وكمـــا سبـــق ذكـــره فهـــذا الأميـــر يعتبـــر مـــن بقايـــا الأدارســـة؛ الذيـــن أجبرتهـــم الظـــروف عـــلى العيـــش في ظـــل الدولـــة الأمويـــة؛ بعـــد أن تغلبـــت عـــلى ملكهـــم ببـــلاد المغـــرب.

---

[1] الجمهـــرة، ص: 51.

[2] نفســـه، ص: 50.

وقد برز فيما بعد ببلاد الأندلس والضفة المقابلة في العدوة المغربية ـ من هذه الأسرة؛ إلى جانب علي ابن حمود ـ أخوه القاسم وعدد من ذرية علي بن حمود هذا؛ منهم: يحيى بن علي، وإدريس بن علي، وحسن بن يحيى، وإدريس بن يحيى، ومحمد بن إدريس بن يحيى، ويحيى (حيون) بن إدريس، ومحمد بن إدريس بن علي، وحسن بن إدريس بن علي، وعلي بن إدريس ابن علي. أما ذرية القاسم فمنهم: محمد بن القاسم، وحسن بن القاسم، والقاسم بن محمد بن القاسم. وقد كان بنو إدريس هؤلاء مندمجين ضمن كتلة القبائل الأمازيغية؛ على الرغم من أصولهم الأولى التي تلتحم ببني هاشم. ذلك لأن الأدارسة كلهم قد انصهروا ـ منذ قيام دولتهم الأولى ـ في المجتمع الأمازيغي؛ فأضحوا جزءا لا يتجزأ منهم. ولهذا فالمصادر التاريخية كلها؛ تتكلم عنهم دوما في سياق حديثها عن الأمازيغ؛ كما ينسب كل تصرف يصدر عنهم آليا إلى القبائل الأمازيغية.[1]

---

[1] فابن خلدون يفتتح الكلام عنهم بقوله: ((كانوا في لفيف البرابرة في بلاد غمارة؛ واستجدوا بها رياسة استمرت في بني محمد، وبني عمر من ولد إدريس؛ فكانت للبرابرة إليهم صاغية؛ بسبب ذلك، وخلطة بتازغدرة من غمارة؛ فأجازوا مع البربر، وصاروا في جملة المستعين مع أمراء العدوة من البربر. فعقد لهما المستعين فيمن عقد له من المغاربة. عقد لعليّ منهما على طنجة وعملها، وللقاسم ـ كان الأسنّ ـ على الجزيرة الخضراء.

وتشير بعض المصادر ـ أيضا ـ إلى أن لهجتهم كانت أمازيغية؛ ومع ذلك فهم لا يجهلون العربية بالتمام. وقد أورد ابن الخطيب مثالا على لهجة علي بن حمود؛ تلك اللهجة المتأثرة بالعجمة كما وصفها؛ حين قال: ((**وقبض** [أي علي بن حمود] **على سليمان وأخيه وأبيه الحكم؛ فقتلهم بيده؛ وقال بلسانه الزناتي: " لا يقتل الزلطان إلا الزلطان"**)). ويقصد ابن الخطيب من هذا أن علي ابن حمود لم يقل السلطان بالسين؛ إذ نطق السين زايا.[1] غير أن الذي قاله ابن الخطيب لا يمنع كون علي وأخيه القاسم ومن تبعهما من ذرية ابني حمود كانوا يعرفون العربية ويتذوقون آدابها؛ خاصة وأن مصادر كثيرة أتت بشواهد تفيد بذلك.[2]

****

وكان في نفوس المغاربة والبرابرة تشيع لأولاد إدريس؛ متوارث من دولتهم بالعدوة)). العبر، مج: 4، ص: 330. أما ابن بسام فيستشهد بمقالة ابن قتيبة؛ حين قال: ((ثم رفضتهم آفاقها [يقصد رفضت آفاق بلاد إفريقية بني أبي طالب] إلى طرف بلاد البربر؛ فنكحوا إليهم، وتبربروا معهم)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 96.

[1] أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

[2] فمما قاله المقري ـ على سبيل المثال ـ في علي بن حمود: ((وكان الناصر علي بن حمود ـ على عجمته، وبعده من الفضائل ـ يصغي إلى الأمداح، ويثيب عليها، ويظهر في ذلك آثار النسب العربي والكرم الهاشمي. ومن شعرائه المختصين به ابن الحنّاط القرطبي [وهو محمد بن سليمان ابن الحناط الرعيني القرطبي الأعمى]... وعبادة بن ماء السماء؛ وكان معروفا بالتشيع... ومدحه ابن دراج القسطلي)). نفح الطيب، ج: 1، ص ص: 483 ـ 484.

ـ حكومة الناصر لدين الله علي بن حمود بقرطبة:

وخلاصة القول فقد ظل علي بن حمود يترقب الفرصة المواتية للانقضاض على كرسي الخلافة بقرطبة. إذ كان يتابع ـ من قرب وبعناية ـ كل ما يجري في ديار الأندلس. حيث يراقب الأحداث التي تمت بعد نشوب الاضطرابات ـ في بدايتها ـ داخل البيت الأموي، وبعد زوال حكم العامريين؛ نتيجة للانقسامات التي حدثت بين أنصار الدولة الأموية؛ عندما انحازت كل فئة من المصطنعين، والقبائل إلى أمير من الأمويين. فانضم جمع كبير من الأمازيغ ـ وبنو حمود معهم طبعا ـ إلى سليمان بن الحكم بن سليمان الملقب بالمستعين بالله؛ الذي قام ضد خصمه محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي. وذلك لأن الأمازيغ كرهوا ابن عبد الجبار (المهدي)؛ بسبب ما أعلنه من عداء لهم؛ وما أبداه من تعصب شديد ضدهم ـ في بداية عهده ـ إذ كان يَكِنُّ لهم كراهية ملحوظة؛ الأمر الذي أجج حقدهم عليه، وعلى أتباعه من العامة والدهماء؛ الذين ارتكبوا مجازر رهيبة في حق الأمازيغ بقرطبة. لذا كان رد الفعل عندهم ـ على اختلاف قبائلهم ـ هو العمل باستماتة على نصرة خصمه اللدود ومنافسه العنيد سليمان بن الحكم (المستعين بالله).

وسبب كراهية المهدي للأمازيغ ـ طبعا ـ عائدة إلى ضغوط نفسية؛ تحركها في داخله العصبية الشديدة لأقربائه وأهله من بني أمية؛ أولئك الأقرباء من الأسرة المالكة الذين سلبهم الأمازيغ ـ بدعمهم للمنصور ابن أبي عامر وأبنائه ـ القدرة في مقاومة المغتصبين والمستبدين في بلاط هشام المؤيد.[1] وهذا ما فسره المقري بقوله: ((**وأذل** [أي المنصور بن أبي عامر] **قبائل الأندلس بإجازة البرابر**)).[2] أي بنقلهم من المغرب إلى الأندلس؛ ثم يضيف في موضع آخر: ((**وكانت الأموية تعتد عليهم** [أي على الأمازيغ] **ما كان من مظاهرتهم العامريين؛ وتنسب تغلب المنصور وبنيه على الدولة إليهم؛ فسخطتهم القلوب، وخزرتهم العيون. ولولا مالهم من العصبية لأستأصلهم الناس؛ ولغطت ألسنة الدهماء من أهل المدينة** [أي قرطبة]

---

[1] وفي ذلك يقول ابن الخطيب: ((وأعلن [أي المهدي] ببغض البرابرة وتنقصهم؛ جهلا بمحلهم من البأس والعصبية؛... وتعصبت العامة للمهدي... وانحاز البرابرة والمغاربة من القبائل بجميعهم إلى أرملاط؛ خارج قرطبة؛ عشية يوم الجمعة؛ وبعد محاورة بينهم وبين العامة؛ ثم صرفوا وجوههم إلى الثغر. وراسلهم محمد بن عبد الجبار؛ فلم يلتفتوا إليه)). أعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 112 ــ 113. وثمة شواهد أخرى في المصدر نفسه، ص ص: 66. 70. 87. 102. 106. 112ــ 119. وأنظر في هذا أيضا البيان المغرب، ج: 2، ص ص: 263. 278 ــ 279. 281. 287. 293 ــ 294. ج: 3، ص ص: 30. 51 ــ 91. والعبر، مج: 4، ص ص: 318 ــ 326. ونفح الطيب، ج: 1، ص ص: 397 ــ 398. 405. 417. 427 ــ 430.

[2] نفح الطيب، ج: 1، ص: 405.

بكراهيتهم. وأمر المهدي أن لا يركبوا ولا يتسلحوا؛ وَرُدَّ بعض رؤوسهم في بعض الأيام من باب القصر؛ فانتهبت العامة دورهم؛ وشكا بعضهم إلى المهدي ما أصابهم؛ فاعتذر إليهم، وقتل من اتهم من العامة في أمرهم؛ وهو مع ذلك مظهر لبغضهم؛ مجاهر بسوء الثناء عليهم. وبلغهم أنه يريد الفتك بهم...)).[1]

ويقتضي الحال هنا وقفة قصيرة؛ لمحاولة فهم ما جرى بقرطبة في تلك الأثناء. فمن الواضح أن الوضع تطور خلال درجات ومراحل متتابعة. ففي البدء اقتصر الصراع على أهل البلاط بقرطبة؛ وبالتحديد داخل الأسرة المالكة؛ أو بالأحرى بين العصبية الأموية العربية وبعض الموالي والمصطنعين؛ ممن أراد الخليفة إعدادهم وتجهيزهم ضد من تسول له نفسه ــ من عصبيته ــ أن يخرج عليه، أو يتطلع لمشاركته في مجد الملك والسلطان.[2] وفي المرحلة الموالية بدأ نجم المنصور بن أبي عامر يبرز ويسطع على الأندلس كلها. ولما أراد هذا الوزير الحاجب الحازم ــ الذي كان وصيا على العرش ــ أن يستبد بالأمر؛ لم يكتف

---

[1] نفح الطيب، ج: 1، ص: 427.

[2] وهذا يتوافق مع ما ذكره ابن خلدون ضمن: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 632 ــ 634. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ــ 678.

باصطناع الموالي والمصطنعين ــ كالفتيان العامريين ــ بل مد نظره بعيدا؛ إلى الطرف الآخر من العدوة؛ حيث الأرض التي تفيض بالقبائل، وأبطال الحرب والنزال؛ تلك الأرض المغربية الخصبة بالرجال البواسل، والزاخرة بالقبائل التي لا تحصى؛ تلك القبائل التي ما زالت تعيش في محيط بدوي متقشف؛ محيط بعيد عن ليونة الحضارة وطراوتها، والنائية عن تياراتها المفسدة لشروط الصلابة والبسالة.[1]

وقد يكون من الحوافز التي جعلت المنصور يتحمس إلى جلب فرسان الأمازيغ إلى الأندلس؛ تلك النتائج المشجعة التي انبثقت عنها تجربة سيده المستنصر؛ حين استخدم بني برزال. فاتضح له أنهم كانوا أهلا للمهمة التي أنيطت بهم؛ حيث أضحوا للخليفة الأموي حراسا أوفياء، وللبلاد فرسانا مغاوير. ونتيجة لذلك فقد عمل المنصور على جلب عدد كبير من القبائل الأمازيغية وفرسانهم الأبطال إلى بلاد الأندلس؛ بحجة الجهاد، والدفاع عن أمن الدولة الإسلامية من تحرشات النصارى. فأجزل لهم العطاء، وخصهم بكل غال وثمين من أموال وإقطاع. وبذلك أصبحت في يده

[1] أنظر إلى ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 588 ـــ 589. و((وفصل في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة بالمنعة منهم)). نفسه، ص ص: 589 ـــ 591.

قوة لا تقهر في الأندلس؛ مكنته من الاستبداد والتصرف في شئون الدولة كما يحلو له.[1] ثم أتت الفترة الموالية؛ التي شهدت الصراع الخطير والانقسام المذهل الذي فتت الدولة إلى طوائف وإمارات صغيرة هنا وهناك؛ حيث هيمنت خلالها فئات عديدة ومتفرقة في المجتمع: قبائل عربية، وقبائل أمازيغية، وموالي من أجناس شتى، ومماليك صقالبة وسودان.. ألخ. وضمن هذا البحر المتماوج من العصبيات المختلفة ـ قبلية وفئوية وعرقية ومذهبية ـ كان بعض الفتات المنعزل، والبقايا الضائعة من بني أمية تظهر فوق السطح أحيانا، وتختفي تحت الأمواج أحيانا أخرى. وفي هذه الأثناء ظهرت العصبية الهاشمية؛ ممثلة بالأدارسة من بني أبي طالب. غير أن عصبيتهم الفاعلة والموجودة في الميدان كانت هي العصبية الأمازيغية؛ نظرا لما حصل من اندماج قديم بين الأدارسة والأمازيغ. ومن هنا يتضح التداخل بين العصبيتين؛ كما يتضح سبب الجفاء الذي لاقاه الأدارسة من قبل الأندلسيين؛ ذلك الجفاء العائد ـ في الحقيقة ـ إلى عدم التمييز والفصل بينهم وبين الأمازيغ.

---

[1] أنظر أيضا: ((فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 680 ـ 681. و((فصل في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك)). نفسه، ص ص: 682 ـ 683.

ونظرا لما واجه الأمازيغ من شدة في العداء أبداه سكان المدن؛ وخاصة أهل قرطبة وإشبيلية؛ فما كان منهم سوى الحرص على حماية أنفسهم، والسهر على أمنهم، والذود عن مصالحهم. ومن هنا عملوا على تقديم ولائهم للأمير الذي يفيدهم ويحقق مآربهم. فالتفوا في البداية حول الأمير هشام ابن سليمان بن عبد الرحمن الناصر؛ ولما قتل انضموا إلى ابن أخيه سليمان بن الحكم بن سليمان ابن الحكم بن عبد الرحمن الناصر. ولما تحقق لسليمان المذكور النصر، وتربع على عرش الخلافة بقرطبة؛ لم يجد متسعا من الوقت لكي يؤجل تسديد الدين الذي عليه للأمازيغ ومن ناصره في حرب عدوه. لذا فقد سارع إلى مكافأتهم جميعا؛ حيث أسند إلى بعضهم مناصب سامية في الدولة؛ كما خص أمراءهم بالقيادات والمقاطعات الهامة. فكان حظ بني حمود – كما سبق ذكره – مثل حظ بقية الأمازيغ؛ لصلتهم بهم وانتمائهم إليهم. وهكذا فقد أقطع سبتة لعلي بن حمود، والجزيرة الخضراء لأخيه القاسم.

وبذلك كان هذا الإقطاع بداية الخطوات الممهدة لدروب الملك؛ إذ وصل بنو حمود بذلك إلى المنفذ؛ الذي ساعدهم على التسرب نحو حكم قرطبة نفسها. فبهاتين الولايتين الهامتين الممثلتين في سبتة والجزيرة الخضراء؛ يمكن لهم أن يحشدوا الحشود، ويسهل عليهم الحصول على الأموال

اللازمة والعتاد الضروري للقتال. هذا بالإضافة إلى أنهم أصبحوا يرون في أنفسهم أحق الناس بالملك؛ حيث استمدوا شرعيتهم أولا: من كتاب العهد الذي – كما قيل – خص به الخليفة الشرعي هشام المؤيد الأمير علي بن حمود؛[1] وثانيا: من سلالتهم الإدريسية العلوية القريشية؛ التي تضعهم في مقدمة المؤهلين للخلافة. وثالثا: من قوة العصبية التي تساندهم وتقف خلفهم؛ وهي القبائل الأمازيغية.[2] وهذا هو الذي جعلهم يحسون بإمكان قيام دولتهم بيسر وسهولة؛ خاصة بعد أن ضمن علي بن حمود حقه الشرعي فيها؛ من خلال العهد الذي منحه إياه هشام المؤيد.[3]

---

[1] أنظر ما ذكره ابن خلدون فيما يخص ولاية العهد، ومشروعيتها ضمن: "فصل في ولاية العهد". المقدمة، ج: 2، ص ص: 721 – 734. إذ يلخص القول في: ((اعلم أنا قدمنا الكلام في الإمامة ومشروعيتها لما فيها من المصلحة؛ وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم؛ فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم ذلك في حياته، ويتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته، ويقيم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولاها؛ ويثقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل. وقد عرف ذلك من الشرع بإجماع الأمة على جوازه وانعقاده)). ص : 721.

[2] راجع ما قاله ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)). حيث ذكر أن ((كل أمر تحمل عليه الكافة فلا بد له من العصبية...)). ثم قدم بعض الأمثلة من الأحداث التاريخية. المقدمة، ج: 2، ص: 638.

[3] قال ابن عذاري نقلا عن ابن حيان. ويبدو أن هذا النص هو ذاته الذي ذكره ابن بسام وورد من قبل: ((وكان هشام بن الحكم عندما رآه من اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته؛ صير إلى علي بن حمود ولاية عهده؛ وأوصى إليه بالخلافة من بعده؛ وراسله إلى سبتة بذلك سراً؛ وولاه

وعليه فما أن تحقق لعلي بن حمود أمر تعيينه على سبتة؛ وما أن تمكن من تعزيز قوته فيها ـ بعد استقراره وضبط أموره ـ حتى شرع في خطواته الأولى نحو تحقيق أهدافه.

وبالفعل كان أول ما بادر إليه علي بن حمود سنة 404هـ(1013م) هو إحكام قبضته على سبتة؛ والقضاء على المعارضين. وذلك أنه سارع إلى قتل قاضي البلدة محمد بن عيسى مع الفقيه ابن يربوع. متهما القاضي المذكور بالتجسس عليه، والسعي إلى كشف أعماله وخططه. إذ اتهمه بأنه كاتب سرا سليمان المستعين، وأخطره بالتحضيرات التي قام بها لغزو قرطبة.[1] إلى جانب ذلك أرسل إلى أخيه القاسم؛ الذي كان في تلك الأثناء بقرطبة؛ فطلب منه الالتحاق بولايته في الجزيرة الخضراء.

طلب دمه؛ واستكتمه السر فيه؛ إلى أوانه وبلوغ زمانه)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 114. 120. أما المقري فيقول: ((فلما دخل سليمان مع البربر قرطبة، ومحو كثيرا من محاسنها ومحاسن أهلها؛ كان من أكبر أمرائهم علي بن حمود؛ وبلغ هشاما المؤيد ـ وهو محبوس ـ خبره، واسمه ونسبه؛ فدس إليه أن الدولة صائرة إليك، وقال له: "إن خاطري يحدثني أن هذا الرجل يقتلني" ـ يعني سليمان ـ"فإن فعل فخذ بثأري". وكان هذا الأمر هو الذي قوى نفس ابن حمود على طلب الإمامة؛ وحمله على الأخذ بثأر هشام المؤيد)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 482.

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 115. أنظر أيضا أعمال الأعلام لابن الخطيب، ق: 2، ص: 121.

كمــا بعــث في سنــة 405هــ(1014م) إلى حبــوس أميــر بــني زيــري والفــتى خيــران العامــري يعلمهمــا بخطــاب العهــد الــذي وصلــه مــن هشــام المؤيــد؛ ويطلــب منهمــا مساعدتــه للإطاحــة بسليمــان.[1] ثــم تحــرك نحــو مدينــة مالقــة الــتي استــولى عليهــا، وربمــا قتــل قائدهــا حســب قــول ابــن عــذاري.[2] ومــن ثمــة اجتمــع مــع خيــران في المريــة؛ وانضــم إليــه أيضــا زاوي بــن زيــري وحبــوس بــن ماكســن بــن زيــري في قبيلــة صنهاجــة.[3] فانطلقــوا جميعــا نحــو قرطبــة؛ ضمــن قــوة كبيــرة مــن الأمازيــغ والعامرييــن.

---

[1] قــال ابــن عــذاري نقــلا عــن المظفــري؛ وهــو كتــاب محمــد بــن عبــد اللــه بــن الأفطــس: ((لمــا خــرج علــي عــن طاعــة المستعيــن؛ أخــرج كتابــا نسبــه إلى= =هشــام بــن الحكــم؛ يقــول فيــه:"أنقــذني مــن أســر البرابــر والمستعيــن؛ وأنــت ولي عهــدي". ووجــه بــه إلى حبــوس الصنهــاجي وإلى خيــران العامــري؛ فقــال لــه انهــض إلى مالقــة؛ وبهــا يتــم أمرنــا؛ فأقبــل إليهــا بالقطائــع والعساكــر فقتــل قائدهــا واستــولى عليهــا)). البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 116. وقــد اشــار إلى هــذا أيضــا المراكــشي في المعجــب، ص: 44.

[2] انفــرد ابــن عــذاري بخبــر قتــل والي مالقــة. البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 116. أمــا المراكــشي فقــال أنــه عامــر بــن فتــوح الفائــقي مــولى فائــق مــولى الحكــم المستنصــر؛ وذكــر أنــه أخرجــه مــن مالقــة؛ ولــم يشــر إلى قتلــه. المعجــب: ص: 44. أمــا ابــن الأثيــر فيقــول أنــه اتفــق مــع علــي علــى الثــورة؛ وخــرج مــن مالقــة بإرادتــه وسلمهــا لعلــي بــن حمــود. الكامــل، ج: 7، ص: 284.

[3] البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 120.

ولما وصلت أخبار علي بن حمود وحلفائه إلى سليمان خرج إليهم بجيشه المكون من الأندلسيين، وقلة من الأمازيغ سنة 407هـ(1016م). ولكنه لم يصمد أمامهم، ومني بهزيمة نكراء؛ حيث انكشفت المعركة عن سقوطه – مع أخيه وأبيه – في الأسر. ولما دخل علي بن حمود إلى قصر قرطبة واستولى على عرشها؛ بادر فورا بقتل سليمان وأخيه وأبيه – ذلك الشيخ الذي ناهز عمره 72 سنة – ويقال أنه قتلهم بيده. أخذا بثأر هشام المؤيد كما زعم.[1] هذا هو منطق الملك في أبشع صوره.

وهكذا تم ما أراده الله. ففي لحظات أصبح الحلفاء أعداء؛ يقتل بعضهم بعضا. فما هو السبب؛ وكيف حدث هذا..؟ وما الحافز والمحرك

[1] قال ابن بسام: ((فانهزم سليمان؛ وقبض عليه وعلى أخيه وأبيه؛ وسيقوا أُسَارَى إلى علي بن حمود. ودخل القصر وخيران يطمع أن يجد هشاما المؤيد حيا. فلم يوجد؛ وذكر أنه قتل؛ وعرض عليه قبره. فأمر علي بنبشه. فأخرج الشخص؛ وشهد أنه هشام؛ وسليمان يتبرأ من دمه؛ وما كان في جسده شيء من أثر السلاح؛ فتوهم فيه الخَنْق. وأمر علي بتجهيزه إلى أهله؛ وأنذر طبقات الناس للصلاة عليه؛ فدفن لزيق أبيه الحكم. ثم دعا علي بسليمان وذويه؛ فضرب عنقه بيده؛ وظهر منه جزع شديد عند ملاحظته السيف؛ خارت منه قواه. فجثا على ركبتيه؛ ثم ضربت عنق الشيخ أبيه وعنق عبد الرحمن ابنه. وجعلت الرؤوس الثلاثة في طست؛ وأخرجت من القصر إلى المحلة؛ ينادى عليها: هذا جزاء من قتل هشاما المؤيد)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 41 – 42. ورد هذا الخبر أيضا في البيان المغرب، ج: 3، ص: 117. وفي أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 121.

لما جرى كله..؟ هل هي نشوة الملك..؟ أم هي العداوة المزمنة الكامنة في نفوس أجيال وأجيال من بني أمية وبني أبي طالب..؟ يبدو أن تلك العوامل كلها كانت وراء ما حدث. فالأطماع ـ طبعا ـ لعبت دورا مهما؛ كما أن العصبية الهاشمية كانت محركا فعالا نشطت حماس علي بن حمود. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تجاذبته عصبيتان رئيستان هي: العصبية الهاشمية والعصبية الأمازيغية. وعليه فما يمس الأمازيغ يمسه أيضا في الصميم؛ خاصة وأنه كان دوما محسوبا عليهم؛ ولا يعامله الآخرون إلا كما يعاملون الأمازيغ. ومن هنا اتضح بأن عليّ بن حمود وسليمان بن الحكم كانا يكنان لبعضهما كراهية وحقدا دفينين؛ لم يعلنا عنهما إلا في حالات خاصة. وقد جاء في بعض المصادر لمحات من هذا؛ إذ تقول بعض الروايات أن سليمان كان يكن كراهية لعليّ بن حمود والأمازيغ أيضا ـ مثله في ذلك مثل أعضاء الأسرة الأموية ـ وما الحلف الذي جمعهم سوى فترة زمنية عابرة غير دائمة. إذ كان سليمان في أمس الحاجة إليهم وإلى سيوفهم.

لـــذا فإنـــه كـــان يحـــرص عـــلى مداراتهـــم؛ وتقديمهـــم عـــلى غيرهـــم؛ خوفـــا مـــن بطشهـــم؛ لأنـــه يـــدرك ضعـــف موقفـــه أمامهـــم. ومـــن الشواهـــد الـــتي أوردهـــا بعـــض الكتـــاب والمؤرخيـــن: أنـــه قـــال ــ في أوساطـــه الخاصـــة ــ أبياتـــا شعريـــة مـــن نظمـــه في حـــق الأمازيـــغ ومـــن حالفهـــم:[1]

حَلَفــتُ بِمَنْ صَلَّى وَصَــامَ وَكَبَّــرَا
لأغْمِدَهَــا فِيمَــنْ طَــغَى وَتَجَبَّــرَا

وَأَبْصَرَ دِينَ اللــهِ تحْيَــا رُسُومُــهُ
فبَــدلَ مَا قَــدْ لاَحَ مِنهَــا وَغيَّــرَا

فوَاعَجَبــاً مِــنْ عَبْشَــمِيٍّ مُمَلَّــكٍ
بِرَغــمِ العَــوَالِي وَالمَعَالِي تَبَرْبَــرَا

فلَــوْ أنَّ أمْــرِي بِالخِيَــارِ نَبذتهــمْ
وَحَاكَمْتُهُمْ لِلسَّيْــفِ حُكْماً مُحَــرَّرَا

فَإمَّــا حَيَــاة تسْتَلــذ بِفقدِهِـــمْ
وَإمَّا حِمَــامٌ لاَ نرَى فِيـــهِ مَا زَرَى

---

[1] قــال المقــري في هــذه الأبيــات: ((وكــان مــن أعظــم الأسبــاب في فســاد دولــة المستعيــن؛ أنــه قــال هــذه الأبيــات؛ مستريحــا بهــا إلى خواصــه)). نفــح الطيــب، ج: 1، ص: 429.

فهذه الأبيات تدل ـ بدون شك ـ على ما ينطوي عليه صدر سليمان؛ من كراهية للأمازيغ؛ حيث لم يستطع التخلص من رواسب العصبية الأموية العربية؛ على الرغم من الحلف الذي يربطه بالأمازيغ، وعلى الرغم من استماتتهم في الدفاع عنه، والتضحية بأرواحهم من أجله. وبذلك فقد برهن على أنه لا يختلف كثيرا عن ابن عبد الجبار (المهدي)؛ سوى في التقية التي لجأ إليها. ويبدو أن هذه الأبيات كشفت نواياه الحقيقية؛ مما جعل الأمازيغ يختارون صف علي بن حمود؛ عندما قرر الأخذ بثأر أجداده الأدارسة من أحفاد الناصر لدين الله الأموي؛ الذي سبق له أن أزال الدولة الإدريسية من الوجود. إذ كان هذا هو حافزه الأساسي لإسقاط الدولة الأموية؛ وإرجاع الحق لبني هاشم. هذا وقد مدح شاعر الأندلس وفحلها دون منازع؛ أبو عمر أحمد بن دراج القسطلي علي بن حمود بقصيدة رائعة؛ نذكر مطلعها هنا؛ على أن نسجل أغلبها في الفصل المخصص للحضارة والثقافة. ومطلعها:

لَعَلَّك ياشَمسُ عِندَ الأصيلِ
شَجيتِ لِشَجْوِ الغَريبِ الذَّليلِ
فَكوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيع
وَكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّسولِ

ولما تم لعلي أمر إسقاط دولة سليمان؛ سارع إلى طلب البيعة من أهل الحل والعقد في قرطبة. فبويع بالفعل في سنة 407هـ(1016م) وتسمى بلقب الناصر لدين الله. وكانت بيعة شاملة؛ لم يتخلف عنها أحد كما قال ابن حيان.[1] وأظهر ـ من اليوم الأول لحكمه ـ سلوكا فيه حزم وجد وعدل؛ أثلج قلوب الرعية، وملأ نفوس الناس بالبشر والرضى. إذ شرع في اجتثاث الفساد، وكبح الظالمين، وتسليط سيف العدل على رقاب الناهبين والمتجبرين من بعض أتباعه الأمازيغ.[2]

---

[1] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((بويع علي بن حمود في باب السُدَّة من قصر قرطبة يوم الإثنين لسبع بقين لمحرم سنة سبع وأربعمائة؛ ثاني اليوم الذي أدرك فيه بثأر هشام المؤيد. ولم يتخلف أحد عن بيعته؛ ووصلوا إليه على طبقاتهم؛ فكرم منازلهم، وأجمل خطابهم. وتسمى ليومه من الألقاب السلطانية بالناصر لدين الله. لقب قد سبقه إليه أبو أحمد المتوكل العباسي بالمشرق؛ وتبعه فيه أيضا عبد الرحمن بن محمد بهذا الأفق)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 97.

[2] قال ابن بسام: ((وجلس علي بنفسه لمظالم الناس؛ وهو مفتوح الباب، مرفوع الحجاب؛ للوارد والصادر؛ يقيم الحدود مباشرا بنفسه؛ لا يحاشي أحدا من أكابر قومه. فانتشر أهل قرطبة في الأرض ذات الطول والعرض؛ وسلكت السبل، ورخا السعر، وأرقُّوا الأغذية، وشاموا النساء وطلبوا النسل... واستمر على أهل قرطبة نحوا من ثمانية أشهر في أحسن عشرة. ثم آنس منهم الكراهية لدولته. وبلغه أيضا قيام المرتضى بشرقي الأندلس. فعزم على إبادة أهل قرطبة وإخلائها؛ فلا يعود لأئمتهم المروانيية سلطان آخر

غير أنه شعر ـ بعدئذ ـ من أهل قرطبة ميلا إلى أمير أموي ظهر في شرق الأندلس؛ اسمه عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر؛ وقد تلقب بالمرتضى؛ وذلك في سنة 407هـ(1016م). عندها تحول عن أسلوبه الأول الذي اتبعه في حكم قرطبة.[1] فأطلق أيدي أتباعه الأمازيغ على أهل المدينة ـ كرد فعل منه ضد أولئك السكان؛ الذين قابلوا إحسانه بالإساءة، وجميل فعله معهم بالنكران ـ فانتشر النهب فيهم من جديد؛ وكثر العيث والفساد في البلدة؛ دون أن يجد سكانها حماية أو أذنا صاغية لنجدة أو إغاثة.[2]

الدهر؛ ثم يعود إلى ساحله، ويجمع شمل برابرته؛ فيضرب بهم جميع الأندلس. فانقلب سريعا ظن التجمل الذي كان يظهره لهم، وانصرف إلى حزبه البربري فآثره)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 97 ـ 99.

[1] قال ابن عذاري: ((وانقلب سريعا عن التجمل الذي كان يظهره لأهل قرطبة، وانصرف إلى حزبه البربري فآثره عليهم لما أحس منهم الميل إلى الخليفة المرتضى)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 123.

[2] ذكر ابن بسام أنه: ((وبلغه أيضا قيام المرتضى بشرقي الأندلس؛ فعزم على إبادة أهل قرطبة، وإخلائها؛ فلا يعودون إلى أئمتهم المروانية سلطان إلى آخر الدهر؛ ثم يعود إلى ساحله، ويجمع شمل برابرته؛ فيضرب بهم جميع الأندلس. فانقلب سريعا ظن التجمل الذي كان يظهره لهم، وانصرف إلى حزبه البربري فآثره، وأغضى على سوء ما كانوا عليه من الظلم والحيف؛ فوقع أهل قرطبة في وغيرهم في حالتهم مدة سليمان من استيطالتهم عليهم. وصب على أهل قرطبة ضروبا من التنكيل والمغارم؛ وانتزع السلاح

ولا بد — هنا — أن ننبه إلى تمسك أهل قرطبة وتشبثهم بالأمويين؛ مهما كانت صفاتهم، ومهما تعددت مثالبهم؛ إذ كان سكان هذه المدينة لا يرضون بديلا بهم؛ مهما توافرت في البديل من شروط الصلاح أو العدل، أو الكفاءة. ولعل الجواب عن هذا يكمن فيما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية**".[1] كما أن حياتهم الحضرية ونفوسهم الرقيقة، المرفهة، المتعالية كانت سببا مباشرا في تأففهم وكراهيتهم لمعاشرة الأمازيغ؛ المتميزين بالصفات البدوية في خشونتها وقساوتها. ومن جهة أخرى فإن الأمازيغ بدورهم — بحكم طبعهم البدوي — لا يخفون احتقارهم وسخريتهم من

منهم، وهدم دورهم، وقبض أيدي الحكام عن إنصافهم، وأغرم عامتهم، وتوصل إلى أعيانهم بأقوام من شرارهم؛ ففتحوا له أبوابا من البلايا أهلك بها الأمة؛ وتقربوا إليه بالسعاية)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 99.

[1] ومما جاء في هذا الفصل: ((والسبب في ذلك أن الدول العامة في أولها يصعب على النفوس الأنقيا لها إلا بقوة قوية من الغلب؛ للغرابة وأن الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه. فإذا استقرت الرياسة في أهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة؛ نسيت النفوس شأن الأولية، واستحكمت لأهل ذلك النصاب صبغة الرياسة، ورسخ في العقائد دين الانقياد لهم والتسليم؛ وقاتل الناس معهم على أمرهم قتالهم على العقائد الإيمانية. فلم يحتاجوا حينئذ في أمرهم إلى كبير عصابة)). المقدمة، ج: 2، ص: 632.

نعومة أهل المدن، ورقة عاداتهم، وهشاشة عظامهم، وسوء أخلاقهم.[1]

ومع هذا لم يهنأ علي بن حمود مدة طويلة بخلافة المسلمين في قرطبة؛ إذ تعرض لمؤامرة اغتيال؛ بعد واحد وعشرين شهرا وسبعة أيام[2] من يوم بيعته؛ وبالتحديد في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م). ونسبت المصادر اغتياله إلى بعض صبيانه الصقالبة؛ وتم ذلك داخل حمام قصره.[3]

---

[1] تكلم ابن خلدون في هذا حين قال: ((وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعاكفون على شهواتهم منها؛ قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك. حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم.... وأهل البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها. فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها؛ وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضر أقل بكثير. فهم أقرب إلى الفطرة الأولى، وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد المذمومة قبحها؛ فيسهل علاجهم عن علاج الحضر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 584 ــ 585.

[2] الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 102. وحددها المراكشي بـ((عامين غير شهرين)). المعجب، ص: 50. بينما يقول ابن عذاري أنه حكم سنة وتسعة اشهر وتسعة أيام. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120. أما المقري فذكر أن بعضهم حققوها بإحدى وعشرين شهرا وستتة أيام. نفح الطيب، ج: 1، ص: 483.

[3] راجع ما كتبه ابن خلدون ضمن: ((فصل في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 684 ــ 686.

ولما اكتشفت الجريمة سارع أنصاره ـ من القادة والأعيان الأمازيغ ـ إلى إعلام أخيه القاسم؛ الذي كان واليا على إشبيلية. فخاف أن تكون مكيدة قد أعدت له؛ لذا فقد اكتفى ـ في البداية ـ بإرسال من يستطلع صحة الخبر. ولما تحقق من موت أخيه ذهب إلى قرطبة؛ حيث تولى تجهيز أخيه الذي دفن في سبتة. وبعدها بحثوا عن الجناة؛ فاتضح أنهم من صقالبة القصر؛ فقبضوا على بعضهم؛ حيث قتلوا ثم صلبوا على جسر قرطبة. هذا وترك علي ابن حمود من الأولاد: يحيى الذي ولاه سبتة، وإدريسا الوالي على مالقة.[1]

ـ حكومة المأمون القاسم بن حمود بقرطبة:

عقدت البيعة للقاسم بن حمود؛ في سادس يوم من وفاة أخيه علي بن حمود؛ ولقب في ذلك اليوم بالمأمون؛ وكان أكبر من أخيه سنا بعشر سنين.[2] ويقال أنه تشَيَّعَ سراً ولم يظهر ذلك علنا؛ كما أنه لم يحاول تغيير ما كان عليه الناس في مذهبهم.[3] هذا ولم يهنأ هو الآخر طويلا بمنصبه؛ إذ تميز عهده بالاضطراب والانقطاع. حيث

---

[1] الجمهرة، ص: 51. المغرب، ص: 133. والمعجب، ص: 50. والكامل، ج: 7، ص: 286

[2] يرى ابن عذاري أنه يكبره بأربع سنوات فقط. البيان المغرب، ج: 3، ص: 120.

[3] العجب، ص: 50. الكامل في التاريخ، ص: 286.

حكم قرطبة فترتين؛[1] تخللهما انقطاع لمدة عام ونصف تقريبا؛ تغلب خلالها عليه ابن أخيه يحيى ابن علي بن حمود؛ الذي كان واليا على سبتة.[2] وهكذا تحقق ما لم يكن ينتظره القاسم؛ لأنه — كما يبدو — يكون قد اقتنع — منذ الوهلة الأولى — ورضي بما تحصل عليه من ولاية ممثلة في حكم إشبيلية. ولكن شاءت الأقدار أن يصبح فجأة وبدون تخطيط خليفة للمسلمين. وعليه فقد استهل الفترة الأولى من حكمه — التي بدأت في ذي القعدة من سنة 408هـ(1017م) — بمظهر الحاكم الجاد والحازم والعادل؛ إذ أظهر ميلا إلى إصلاح الحال، ورعاية شئون العباد، وتنمية أسباب المعاش والعمران، وكان يتصف بالرفق، وحسن السياسة للرعية.

غير أنه — مع مرور الأيام — ظهر عليه شيء من الضعف والخذلان؛ أمام قوة العصبية التي اعتمد عليها في بداية أمره؛ وتتمثل تلك العصبية في قبائل الأمازيغ. ويبدو أنه كان أسير فضلهم عليه؛ ولكنه عندما استثقل هيمنتهم، وتضايق من شدة تغلبهم عليه وعلى شئون الدولة — باحتكار المناصب الحساسة فيها لصالحهم — جعله يسعى جاهدا لكي يتخلص — نوعا ما — من ثقل وطأتهم.

---

[1] دامت الفترة الأولى من ذي القعدة سنة 408هـ إلى ربيع الآخر سنة 412هـ. أما الفترة الثانية فبدأت بذي القعدة من سنة 413هـ إلى شعبان من السنة نفسها.

[2] المغرب، ص: 133. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 124 — 125، 130 — 131.

لذا فقد أراد خلق بعض التوازن في القوى؛ حيث شرع في اصطناع جماعات من السودان؛ الذين أسند إليهم بعض المهام الحساسة في الدولة.[1] وهنا تحركت العصبية الأمازيغية التي وجدت أنه من واجبها الدفاع عن مصالحها؛ ومنع تحقيق ما يخطط له القاسم بن حمود. وهنا يتبين بوضوح صدق المقولة التي ذكرها ابن خلدون ضمن: **"فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين"** [2]

---

[1] قال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وزاد كلف القاسم في اتخاذ السودان؛ وقودهم في أعماله؛ إلى أن ضعف أمره، وتسلط البرابرة عليه حتى احتقره. فكاتب منذر بن يحيى ـ في السر ـ يبثه شأنهم، ويستنهضه لتقويمهم؛ فلم يكن فيه فضل لذلك)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: **481**. وورد النص نفسه في البيان المغرب، ج: 3، ص: **130**.

[2] جاء في قول ابن خلدون: ((فإذا جاء الطور الثاني وظهر الاستبداد عنهم، وانفرد بالمجد، ودافعهم عنه بالراح؛ صاروا ـ في حقيقة الأمر ـ من بعض أعدائه؛ واحتاج في مدافعتهم عن الأمر، وصدهم عن المشاركة إلى أولياء آخرين؛ من غير جلدتهم يستظهر بهم عليهم، ويتولاهم دونهم؛ فيكونون أقرب إليه من سائرهم، وأخص به قربا واصطناعا، وأولى إيثارا وجاها؛ لما أنهم يستميتون دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم، والرتبة التي ألفوها في مشاركتهم؛ فيستخلصهم صاحب الدولة حينئذ، ويخصهم بمزيد التكرمة والإيثار؛ ويقسم لهم مثل ما للكثير من قومه، ويقلدهم جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجباية؛ وما يختص به لنفسه؛ وتكون خاصة له دون قومه من ألقاب المملكة؛ لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصحاؤه المخلصون. وذلك حينئذ مؤذن باهتضام الدولة، وعلامة على المرض المزمن فيها؛ لفساد العصبية التي كان بنا الغلب عليها،

وبالفعل فقد جاءت الفرصة المواتية للأمازيغ كي يعطوا للقاسم درسا قاسيا. وبالفعل تم لهم ذلك حينما بدأ يحيى ابن أخيه علي؛ ــ الذي كان واليا على سبتة ــ في المشاغبة، وإظهار شيء من العصيان؛ حيث أخذ يحرض رؤساء القبائل الأمازيغية ضد عمه؛ بهدف ضمان وقوفهم معه في وجه القاسم، ومساعدته في انتزاع ما اغتصب منه بعد موت والده.[1] ولما عرض القاسم أمر ابن أخيه على رؤساء القبائل الأمازيغية؛ تثاقلوا عن نصرته؛ بحجة أنه شأن عائلي بينهما؛ ولا يجوز الدخول بين حسنيين اثنين. وعندما تحرك يحيى نحو قرطبة لم يجد القاسم أمامه سوى الهروب إلى إشبيلية؛ مركز ولايته في السابق. ولم يرافقه إلا خمسة فرسان من خاصته المقربين. وكان ذلك في ربيع الآخر من سنة 412هـ(1021م). وبقي أنصاره السابقون من الأمازيغ والسودان في قرطبة؛ حيث قاموا بضبط البلدة؛ وإعداد القصر لوصول يحيى؛ ولما وصل سلموا له الأمر.[2]

ومرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتهان وعداوة السلطان؛ فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر)). المقدمة، ج: 2، ص: 677.

[1] أنظر نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[2] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 482.

تلــك هي الفتــرة الأولى مــن حكــم القاســم (المأمــون) في قرطبــة؛ أمــا الفتــرة الثانيــة فبــدأت بعــد انقــلاب الأمازيــغ عــلى ابــن أخيــه يحــيى بــن عــلي؛ ممــا أجبــره عــلى الهــروب ـ هــو الآخــر ـ إلى مالقــة تحــت جنــح الليــل.

فمــا كــان مــن القاســم ـ لمــا سمــع بخبــر خــروج يحــيى إلى مالقــة فــارا ـ إلا أنــه تحــرك مــن فــوره والتحــق بقرطبــة مــن جديــد؛ وتــم ذلــك في ذي القعــدة مــن سنــة 413هــ(1022م). ومــع هــذا لــم تــدم الفتــرة الثانيــة مــن حكمــه طويــلا؛ إذ ثــار عليــه أهــل قرطبــة؛ في شعبــان مــن عــام 414هــ(1023م)؛ بدعــوى أنهــم لــم يحتملــوا تسلــط الأمازيــغ في الأســواق.[1] بينمــا يقــول ابــن بســام: ((**فتكنــف سريــره أغمــار النــاس مــن البرابــر؛ وخرجــوا** [أي أهــل قرطبــة] **لقتالهــم سنــة أربــع عشــرة**)).[2] ويتفــق ابــن الخطيــب مــع هــذا الــرأي أيضــا.[3]

---

[1] البيــان المغــرب، ج: 3، ص: 134.

[2] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص: 485.

[3] إذ يقــول: ((وفســد مــا بينــه [أي القاســم] وبيــن أهــل المدينــة؛ بسبــب مــن حفــه مــن البرابــرة)). أعمــال الأعــلام، ق: 2، ص: 133. أمــا ابــن الأثيــر فيــرى أن استيــلاء يحــيى وإدريــس عــلى الجزيــرة الخضــراء وطنجــة؛ شجــع النــاس عــلى العصيــان؛ إذ يقــول: ((فلمــا ملــك ابنــا أخيــه بــلاده طمــع فيــه النــاس؛ وتسلــط البربــر عــلى قرطبــة فأخــذوا أموالهــم؛ فاجتمــع أهلهــا وبــرزوا إلى قتالــه عاشــر جمــادى الأولى سنــة أربــع عشــرة [وأربعمائــة] فاقتتلــوا قتــالا شديــدا؛ ثــم سكنــت الحــرب، وأمــن بعضهــم بعضــا إلى منتصــف جمــادى الآخــرة مــن السنــة؛ والقاســم بالقصــر يظهــر التــودد لأهــل قرطبــة وأنــه معهــم وباطنــه مــع البربــر؛ فلمــا كــان

أما المقري فيتعمق في الشرح بعض الشيء؛ بحيث يفهم من قوله أن الاحتقان بين الطرفين ربما كان بسبب التضييق على أهل قرطبة؛ أثناء البحث عن بعض الأمويين المشتبه في أمرهم؛ بعد أن أشيع أن قائما منهم سوف يظهر.[1]

ولما عاد القاسم إلى إشبيلية مهزوما من قرطبة؛ وجد أبوابها مقفلة في وجهه؛ بتدبير من القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد؛ الذي أوهم سكان المدينة بأن القاسم سيسكن من معه من الأمازيغ في مساكن الإشبيليين. ومن جهة أخرى فقد أغرى ـ صاحب القاسم وثقته ـ محمد بن

يوم الجمعة منتصف جمادى الآخرة صلى الناس الجمعة؛ فلما فرغوا تنادوا السلاح السلاح؛ فاجتمعوا ولبسوا السلاح وحفظوا البلد، ودخلوا قصر الإمارة؛ فخرج عنها القاسم...)). الكامل، ج: 7، ص: **286**. ويتفق ابن خلدون مع الرأي القائل بأن تغلب ابني أخيه على حصونه ومراكزه في طنجة والجزيرة الخضراء قد شجع الناس على التجاسر عليه. العبر، مج: 4، ص: **331**.

[1] وقد وصف المقري ما حدث بقوله: ((ولم تصلح الحال للقاسم منذ وصل إلى الحضرة. ووقع الاختلاف؛ وكان هوى السودان معه، وهوى كثير من البرابر مع يحيى، وهوى أهل قرطبة مع قائم من بني أمية يشيعون ذكره ولا يظهر؛ وكثر الإرجاف بذلك، ووقع الطلب على بني أمية؛ فتفرقوا في البلاد، ودخلوا في أغمار الناس، وأخفوا زيهم. ثم إن الخلاف وقع بين البربر وأهل قرطبة؛ وتكاثر البلديون، وأخرجوا القاسم وبرابرته؛ فضرب خيمة بغربيها، وقاتلهم مدة خمسين يوما قتالا شديدا... وفر السودان مع القاسم إلى إشبيلية، وفر البرابرة إلى يحيى وهو بمالقة؛ وكان فرار القاسم من ظاهر قرطبة يوم الخميس لثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان سنة **414**هـ)). نفح الطيب، ج: **1**، ص: **487**.

زيـري بـن دونـاس اليفـرني، وأطمعـه في إمـارة البلـدة إن هـو ساعدهـم عـلى منـع دخـول القاسـم إلى قرطبـة.[1]

وبهـذا لـم يجـد القاسـم بـدا مـن الخضـوع لإرادتهـم؛ نظـرا لكـون أهـل البلـد حاصـروا ابنـه محمـدا في دار الإمـارة؛ وساومـوه عـلى فـك الحصـار عنـه والسمـاح لـه بالخـروج مـن إشبيليـة؛ مقابـل أن يرفـع هـو بـدوره الحصـار عـن المدينـة ويتخـلى عـن المطالبـة بهـا. فلـم يجـد القاسـم أمامـه اختيـارا آخـر غيـر القبـول بشروطهـم؛ كسبـا للوقـت. وتحـول إلى شريـش؛ حيـث بـقي هنـاك بعـض الوقـت. وفي تلـك المدينـة ازدادت محنتـه؛ حيـن تفـرق مـن حولـه جـل أنصـاره مـن الأمازيـغ، الذيـن التحقـوا بابـن أخيـه المعتـلي يحـيى بـن عـلي بمالقـة؛ وذلـك في سنـة 415هـ(1024م).[2]

---

[1] وفي هـذا يقـول ابـن خلـدون: ((ولحـق المأمـون بإشبيليـة وبهـا ابنـه محمـد، ومحمـد بـن زيـري مـن رجـالات البربـر؛ فأطمعـه القـاضي محمـد بـن إسماعيـل ابـن عبـاد في الملـك؛ وأن يمتنعـوا مـن القاسـم؛ فمنعـوه، وأخرجـوا إليـه ابنـه، وضبطـوا بلدهـم. ثـم اشتـد ابـن عبـاد وأخـرج محمـد بـن زيـري)). العبـر، مج: 4، ص: 232. ويتفـق مـع هـذا الـرأي المقـري فيقـول: ((وأطمـع [أي ابـن عبـاد] بـن زيـري في التملـك؛ فأغلـق الأبـواب في وجـه مصطنعـه وحاربـه؛ فقتـل مـن البربـر والسـودان خلـق كثيـر؛ وابـن عبـاد يضحـك عـلى الجميـع؛ فيئـس القاسـم، وقنـع أن يخرجـوا إليـه ابنـه وأصحابـه ويسيـر عنهـم؛ فأخرجوهـم إليـه؛ فسـار بهـم إلى شريـش)). نفـح الطيـب، ج: 1، ص: 488.

[2] العبـر، مج: 4، ص: 332.

ولما تخلص ابن عباد من الخطر الذي كان يمثله القاسم؛ انقض على محمد بن زيري بن دوناس اليفرني، وطرده من إشبيلية. وهكذا لم تفد ابن دوناس خيانته للقاسم صاحب الفضل عليه. هذا ولم يطل الحال بالقاسم في شريش حتى زحف إليه المعتلي يحيى بن علي فحاصره فيها، وقاتله قتالا شديدا، ثم ضيق عليه حتى استسلم؛ فنقله معه إلى مالقة؛ أين رماه في الأسر حتى مات، أو قتل في السجن سنة 427هـ(1035م) كما قال بعضهم.[1] هذا وخلف القاسم من الأولاد: محمدا الذي تسمى بالخلافة في الجزيرة الخضراء، والحسن الذي تنسك ولبس الصوف، ثم توجه إلى الحج.[2]

وفي عهد القاسم بن حمود قتل عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الملك (المرتضى)؛ الأمير الأموي الثائر بشرق الأندلس.[3] وكان زهير الفتى، وخيران الصقلبي، ومنذر بن يحيى التجيبي ـ في قومه ومعززا بجماعة من فرسان الفرنج ـ وسليمان بن هود ـ مدعوما هو الآخر بفرسان من الفرنج وآخرين ـ قد اتفقوا على تنصيبه

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 485 ـ 486. ويقول المراكشي وابن الأثير أنه قتل في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 ـ 52. والكامل، ج: 7، ص: 287. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 135. والعبر، مج: 4، ص: 332. نفح الطيب، ج: 1، ص: 488.

[2] ويرى ابن حزم أن ابني الحسن هذا هما: هاشم وعقيل. الجمهرة، ص ص: 50.

[3] جعل المراكشي وابن الأثير خبر المرتضى ومقتله في عهد علي بن حمود. المعجب، ص ص: 49 ـ 50. الكامل، ج: 1، ص: 285.

خليفــة؛ ومحاربــة القاســم ومــن معــه مــن الأمازيــغ. ثــم زحفــوا جميعــا معــه ــ في قــوة عظيمــة ــ نحــو قرطبــة؛ ولكنهــم اشتبكــوا في الطريــق ببــني زيــري عنــد حــدود إمــارة غرناطــة؛ فانهــزم جيــش المرتــضى، ونهبــت محلتــه، وتشتــت أنصــاره. ومــن المفارقــات العجيبــة أن الذيــن نصبــوا المرتــضى ونــادوا بــه خليفــة للمسلميــن هــم الذيــن تسببــوا في هزيمتــه؛ بعــد خيانتــه، إذ تركــوه فريســة لعــدوه.[1] بــل هــم الذيــن قتلــوه عندمــا فــر هاربــا.[2]

---

[1] قــال ابــن بســام: ((وأول مــن انهــزم مــن ذلــك العسكــر منــذر بــن يحــيى وخيــران الصقلــبي. وكــان منــذر قــد أوقــع في نفــوس مــدده مــن رجــال الإفرنجــة الذعــر مــن غــدر المــوالي العامرييــن؛ فشغــل بذلــك بالهــم. فلمــا انهــزم لــم يعرفــوا الســر؛ وأجفــل منــذر في أصحابــه الثغرييــن؛ فمــر بسليمــان بــن هــود صاحبــه وهــو مثبــت للإفرنجــة لا يريــم موقفــه. فصــاح بــه: النجــاة يــا بــن الفاعلــة. فلســت أقــف عليــك. فقــال لــه سليمــان: جئــت واللــه بهــا صلعــاء، وفضحــت أهــل الأندلــس؛ ثــم انقلــع وراءه ببقيــة عسكــره؛ وانقلــع أيضــا خيــران برجالــه. وصبــر المــوالي العامرييــن قليــلا حــول صاحبهــم المرتــضى)). الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 454 ــ 455. وممــا نقلــه ابــن بســام أيضــا عــن ابــن حيــان قولــه: ((وذلــك أنــه لمــا انهــزم المرتــضى؛ قــال زاوي لقومــه: "كيــف رأيتــم مــا قــد خلصنــا منــه؟" قالــوا: "عظيمــا". قــال: "فــلا تنســوه وتغالطــوا أنفسكــم بعــده؛ إن انهــزام مــن رأيتموهــم لــم يكــن مــن قــوة منــا. وإنمــا جــره مــع القضــاء غــدر ملوكهــم لسلطانهــم ليهلكــوه كمــا فعلــوا؛ فــإني عرفــت ذلــك مــن يــوم نزولهــم)). نفســه، ص: 458.

[2] أنظــر الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 453 ــ 458. والبيــان المغــرب، ج: 3، ص ص: 125 ــ 130. وأعمــال الأعــلام، ق: 2، ص ص: 130 ــ 131. ونفــح الطيــب، ج: 1، ص ص: 484 ــ 486.

هـذا واسـتـولى بنـو زيـري عـلى مـا في محلـة المرتـضى ـ بعـد هزيمتـه ـ مـن: أنـواع السـلاح وصنـوف الذخائـر وعتـاق الخيـل ومختلـف الأحمـال وأزهى القبـاب. ولـم ينـس زاوي بـن زيـري بـن منـاد أميـر الصنهاجييـن أن يرسـل إلى القاسـم بـن حمـود سهمـه مـن الغنيمـة؛ بصفتـه الخليفـة المعتـرف بـه.[1] وبهـذا أصبحـت الأندلـس كلهـا نهبـا للأقويـاء؛ مـن القبائـل العربيـة، والأمازيغيـة، وبعـض الكتـل والعصابـات مـن المماليـك الصقالبـة، والفتيـان العامرييـن والنصـارى وغيرهـم؛ حـدث ذلـك كنتيجـة لتلـك المعركـة الـتي وقعـت بيـن المرتـضى وبـني زيـري في سنـة 409هـ(1018م). وبالمقابـل تأكـدت نهايـة الحكـم الأمـوي نهائيـا في تلـك الربـوع؛ وذلـك عـلى الرغـم مـن المحـاولات الفاشلـة الساعيـة في قرطبـة لإحيـاء دولتهـم.[2]

[1] قـال ابـن الخطيـب: ((وورد عـلى القاسـم بـن حمـود الخبـر بمقتـل المرتـضى، وهزيمـة الأندلسييـن مـن قبـل زاوي مـع سهمـه مـن الغنيمـة؛ وفي الجملـة سـرادق المرتـضى؛ فسـر بذلـك، وضـرب السـرادق عـلى نهـر قرطبـة؛ وغشيـه النـاس ينظـرون إليـه؛ وقلوبهـم تتقطـع أسىً وحسـرة)). أعمـال الأعـلام، ق: 2، ص: 131.

[2] للتوسـع في دولـة بـني حمـود يستحسـن الرجـوع إلى الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 35 ـ 59. 96 ـ 102. 452 ـ 461. 468 ـ 486. والبيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 115 ـ 144. 216 ـ 220. وأعمـال الأعـلام، ق: 2، ص ص: 128 ـ 143. والعبـر، مج: 4، ص ص: 330 ـ 336. ودولـة الإسـلام في الأندلـس (العصـر الأول ـ القسـم الثـاني)، ص ص: 656 ـ 677.

وفي هذا يقول ابن بسام نقلا عن ابن حيان: **((فحلت بهذه الوقعة على جماعة من الأندلس مصيبة سوداء أنست ما قبلها؛ ولم يجتمع لهم على البربر جمع بعد؛ وأقروا بالإدبار، وباءوا بالصغار. وورد على القاسم كتاب زاوي بشرحها مع نصيبه من الغنيمة؛ وفي جملتها سرادق المرتضى. فضربه القاسم على نهر قرطبة، وغشيه من النظارة جملة من علية الناس؛ وقلوبهم تتقطع حسرة منه. فركدت ريح المروانية من ذلك الوقت)).**[1]

وكان المرتضى عبد الرحمن بن محمد هذا ـ كغيره من أمراء الأسرة الأموية ـ يحقد على الأمازيغ، ويعلن تعصبه ضدهم؛ بسبب نصرتهم السابقة للعامريين. وكان يحملهم مسئولية التفكك والانهيار الذي أصاب الدولة الأموية في أواخر أيامها. ومن منظوماته التي تفيض بالعداء للأمازيغ قوله:

[1] الذخيرة، ق: 1، ص ص: 455 ـ 456. وراجع النص نفسه تقريبا في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 127 ـ 128. وأعمال الأعلام ق: 2، ص: 131. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

قــدْ بَلــغَ البَرْبــرُ فِينـــا بنـــا
مَـــا أفسَدَ الأحْــوَالَ وَالنظمَـــا
كَالسَّهْــمِ لِلطَّائِــرِ لوْلاَ الـــذِي
فِيـــهِ مِنَ الرِّيـــشِ لمَا أصـْـمَى
قومُـــوا بِنا فِي شَأنِهــمْ قوْمَـــة
تزِيـــلُ عَنـــا العَـــارَ وَالرَّغمَـــا
إمَّـــا بِهَا نمْلــكُ، أوْ لاَ نـــرَى
مَا يَرجــعُ الطــرْفُ بهِ أعْــمَى

وقــد أنشــد محمــد بــن سليمــان بــن الحنــاط الكفيــف شاعــر بــني حمــود قصيــدة أمــام القاســم مشيــدا بالانتصـــار عـــلى المرتــضى وأتباعـــه؛ جـــاء في مطلعهـــا:

لكَ الخَيْــرُ خَيْــرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِــهِ
وَأصبْــحَ مُلكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِــهِ

ـ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود:

كان يحيى بن علي بن حمود ـ في عهد والده ـ والياً على سبتة، بينما اختص أخوه إدريس بولاية مالقة. وكانت في نفس يحيى غصة من عمه؛ بسبب اعتقاده أنه اغتصب منه الملك، واستولى على ميراثه الشرعي؛ نظرا لكونه هو ولي عهد أبيه.[1] غير أنه استسلم ـ في البداية ـ لمنطق القوة والغلبة؛ عندما فهم أن معظم القبائل الأمازيغية كانت تتعاطف مع عمه. ومع هذا فقد ظل يرى في نفسه أحق من عمه بالخلافة. ويرى أنه سبقه إلى العرش؛ منتهزا بعده عن عاصمة الدولة آنئذ؛ إذ أن وجوده في سبتة بالعدوة المغربية ساعد عمه القاسم في التربع على العرش بدلا منه. والراجح هنا هو أن السبب يعود أيضا إلى ميل القبائل الأمازيغية في البداية ـ وهم القوة الضاربة في قرطبة ـ إلى تنصيب القاسم. وربما عللوا موقفهم ـ كما جاء في بعض المصادر ـ إلى عدة أسباب؛ منها: أنهم أحسوا بأن القاسم غبن منذ البداية؛ إذ كان أسن من أخيه علي؛ الذي سبقه وتربع على سدة الخلافة في قرطبة.

---

[1] يقول البكري: ((وكان له [أي علي بن حمود] من الولد يحيى وإدريس؛ وولى عهده منهما يحيى؛ وكان صاحب المغرب، وكان إدريس أخوه صاحب مدينة مالقة. فلما قتل علي استدعى البربر القاسم أخاه، وأدخلوه القصر، وبايعه الناس، وخطب له بالخلافة؛ فأنف من ذلك ابن أخيه يحيى؛ لما تقدم من عهد أبيه له)). المغرب، ص: 1333.

ثـم إن الوضـع السيـاسي في تلـك المدينـة آنئـذ ــ أي يـوم قتـل عـلي ــ لـم يكـن يسمـح بالتريـث والانتظـار حـتى يـأتي يحـيى بـن عـلي مـن سبتـة؛ الـتي كانـت أبعـد مـن إشبيليـة.[1] وبحكـم هـذه المسوغـات فقـد وجـد يحـيى نفسـه ــ في البدايـة ــ مضطـرا للخضـوع للأمـر الواقـع عـلى مضـض؛ ولكنـه لـم يستسلـم إليـه بشكـل مطلـق.

وعليـه فقـد شـرع في الإعـداد الهـادئ لاستعـادة مـا سلـب منـه. إذ شـرع في تعزيـز موقفـه عـن طريـق أخيـه إدريـس في مالقـة؛ لـكي يسهـل عليـه التحـرك فيمـا بعـد. وبالفعـل فقـد كـان منطلقـه عنـد زحفـه إلى قرطبـة؛ عبـر تلـك المدينـة الساحليـة. وجـاءت الفرصـة بسرعـة؛ لمـا شعـر ببـوادر الضيـق والخـلاف الـتي أخـذت تـدب بيـن رؤسـاء القبائـل الأمازيغيـة وعمـه؛ جـراء اصطنـاع جماعـة مـن السـودان؛ فسـارع مـن فـوره إلى تأجيـج غيظهـم، وتحذيرهـم مـن خطـط عمـه الـتي يعمـل عـلى تحقيقهـا؛ باستخـدام فـرق مـن السـودان لحمايـة ملكـه؛ وإضعـاف نفـوذ القبائـل الأمازيغيـة.[2]

---

[1] نفـح الطيـب، ج: 1، ص: 484.

[2] يقـول المقـري: ((وكتـب [يحـيى] مـن سبتـة إلى أكابـر البرابـر بقرطبـة: "إن عـمي أخـذ ميـراثي مـن أبي؛ ثـم إنـه قـدم في ولاياتكـم الـتي أخذتموهـا بسيوفكـم العبيـد والسـودان. وأنـا أطلـب ميـراثي، وأوليّـكـم مناصبكـم، وأجعـل العبيـد والسـودان كمـا هـم عنـد النـاس"؛ فأجابـوه إلى ذلـك. فجمـع مـا عنـده مـن المراكـب؛ وأعانـه أخـوه إدريـس صاحـب مالقـة؛ فجـاز البحـر بجمـع وافـر، وحصـل بمالقـة مـع

وبالفعل وجد نداؤه وتحذيره صدى لدى رؤساء الأمازيغ؛ خاصة وأنهم أصبحوا بالفعل متذمرين من سلوك القاسم الرامي إلى إضعاف نفوذهم؛ والانفراد بمجد الملك وحده؛ دون حساب لمقتضى المشاركة التي تجمعهم وإياه فيه؛ بحكم أن ذلك الملك نشأ بفضل سيوفهم وغلبتهم.[1] ولهذا فقد لبوا هذه المرة بسهولة نداء يحيى، وأبدوا تفهمهم واستعدادهم لدعمه وتأييده. فبادر على الفور بالإعداد لغزو قرطبة، والإطاحة بعمه؛ فكان أول عمل قام به بعد أن جهز نفسه عسكريا وماديا؛ هو قطع الدعوة لعمه، ثم انتقل إلى مالقة ومنح لأخيه إدريس ولاية سبتة.

أخيه؛ وكتب له خيران صاحب المرية مذكرا بما أسلفه في إعانة أبيه، وأكد المودة؛ فقال له أخوه إدريس: "إن خيران رجل خداع" فقال يحيى: "ونحن منخدعون فيما لا يضرنا". ثم إن يحيى أقبل إلى قرطبة؛ واثقا بأن البرابر معه؛ ففر القاسم إلى إشبيلية في خمسة فرسان من خواصه ليلة السبت 28 من شهر ربيع الآخر سنة 412هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 486.

[1] راجع الفصول التالية في مقدمة ابن خلدون: ((فصل في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت قد تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 632 ـ 634. و((فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد)). نفسه، ص ص: 649 ـ 650. و((فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصبيته بالموالي والمصطنعين)). نفسه، ص ص: 677 ـ 678.

ولما أحس بضعف عمه القاسم؛ وتأكد من عجزه عن التصدي له؛ بدأ بالزحف إلى قرطبة؛ في قوة كبيرة يؤازره فيها زاوي بن زيري أمير غرناطة. فاستنجد القاسم بأنصاره الأمازيغ؛ فتثاقلوا ولم يلبوا طلبه؛ بحجة أن الخلاف حاصل بين حسنيين؛ وذلك شأن داخلي بينهما.[1] عندها لم يجد القاسم مفرا من الخروج هاربا إلى إشبيلية؛ التي كان واليا عليها في السابق؛ ولم يرافقه إلا خمسة من الفرسان؛ وذلك عام 412هـ(1021م). ولما دخل يحيى بن علي إلى قصر الخلافة في قرطبة؛ عقدت البيعة له؛ حيث بايعته في المدينة جموع الأمازيغ والسودان وأهل البلد؛ وذلك في شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة؛ وفيها لقب بالمعتلي بالله. ثم أسند خطة الكتابة إلى أحمد بن برد، والوزارة إلى محمد بن الفرضي.[2]

---

[1] الذخيرة، ق: 1 مج: 1، ص: 482.

[2] فمما كتبه ابن بسام عن التعيينات التي أقرها المعتلي: ((وأقر يحيى أصحاب الخطط على مراتبهم؛ وحسن رأيه في أحمد بن برد وعول عليه في كتابته؛ واستخلص من الأندلسيين صحبه: جعفر بن محمد بن فتح والفقيه أبا عمر بن موسى بن محمد اليماني الوراق صاحب محمد بن عبد الله النبهاني؛ وولاه خطة الوزارة؛ فكادت الجبال تنهدُّ لهذه العظيمة؛ وجمح مركبها به؛ وأبدع في الكبر والخنزوانة. وقدم أيضا إلى الوزارة محمد بن الفرضي الكاتب؛ فكان أعدى من الجَرَب على دواته؛ وارتقبَ عقلاء الناس ــ عند ذلك ــ حلول المحنة؛ فقديما استعاذوا بالله من وزارة السّفلة. ووصَّل جعفر بن فتح صاحبه الأقدم إبراهيم الإفليلي كبير الأدباء بقرطبة بالخليفة يحيى، ورغبه في الإحسان إليه؛ فذاكره وحدثه ونوه به. وسما ــ في أيامه ــ

ومع هذا فقد عقد يحيى صلحا مع عمه؛ على أن يعترف كل واحد منهما بالآخر؛ فتسمى كلاهما بلقب خليفة.[1] وبذلك أصبح في قرطبة خليفة، وفي إشبيلية خليفة آخر؛ وهذا طبعا يدل على الضعف والهوان الذي أضحى عليه لقب خليفة في الأندلس.

وحتى يحيى بن علي هذا حكم قرطبة ــ مثل عمه ــ في فترتين: بدأت الأولى في جمادى الأولى من سنة 412هـ كما تم ذكره؛ وظل متربعا على سرير الحكم ــ في هذه الفترة ــ ما يناهز السنة وستة أشهر؛ ثم خرج فارا ــ كعمه أيضا ــ إلى مالقة؛ بعد أن ضاق به الحال في تلك المدينة المتقلبة. أما الفترة الثانية فأتت بعد أن عمل القرطبيون على تنصيب بعض الأمويين ــ من جديد في قرطبة ــ كخلفاء؛ وكان آخرهم المستكفي

أبو بكر بن ذكوان، وأبو العباس أحمد بن أبي حاتم أخوه؛ وأنهضهما إلى الوزارة عقب وفاة الشيخ أبي العباس بن ذكوان. وغَرب شأوُ أبي بكر منهم؛ فجاء أحوذيّاً نسيج وحده في فضله وعلمه وعفته)). الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص: 483.

[1] يقول ابن عذاري: ((وكان عمه القاسم بن حمود لما رأى جور البربر، وقلة طاعتهم؛ خرج من قرطبة إلى إشبيلية فارا منهم وخائفا، فاستقر بإشبيلية وهو يدعى له بالخلافة، ويتسمى بأمير المؤمنين؛ فخاطب البربر ــ من قرطبة ــ إلى ابن أخيه هذا يحيى بن علي؛ وأدخلوه قرطبة، وبويع بها ــ كما ذكرنا ــ وتسمى بالخلافة وإمرة المؤمنين، وتلقب بالمستعلي؛ (قال ابن حزم): "خليفتان تصالحا؛ وهو أمر لم يسمع بأذل منه، ولا أدل على إدبار الأمور؛ يحيى بن علي بن حمود بقرطبة، والقاسم بن حمود بإشبيلية")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 132 ــ 133.

محمد بن عبد الرحمن؛ فكان سيئ السيرة، فاسد الخلق، مهملا لشئون الحكم؛ فانفض من حوله أعيان البلدة؛ وخرج بعضهم – وعلى رأسهم الوزير الشاعر أحمد بن شهَيد – إلى مالقة؛ مستنجدين بيحيى بن علي؛ آملين في عودته؛ بعد أن يئسوا من جدوى الاتكال على بني أمية.

عندئذ زحف يحيى – كرة أخرى – نحو قرطبة؛ لاستعادتها وضمها إلى مملكته؛[1] خاصة بعد أن خلا له الجو من منافسة عمه الذي أضحى سجينا عنده في مالقة. ودخل – كما جاء في بعض الأقوال – إلى قرطبة من جديد في شهر رمضان من سنة 416هـ(1025م). ولكنه لم يبق في المدينة أكثر من سنة؛ ثم خرج إلى مالقة – أيضا – وبالتحديد في شهر محرم من سنة 417هـ(1026م).

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 142. أما المراكشي وابن الأثير فيقولان – بصراحة – أنه لم يذهب إلى قرطبة بنفسه؛ وإنما بعث إليها عبد الرحمن ابن عطاف اليفرني واليا عليها من قبله. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. كما يفهم من سياق ما كتبه ابن خلدون – بغموض – أنه اكتفى بإرسال الوالي المذكور. العبر، مج: 4، ص: 332.

وذلك لأنه لم يعد يرغب في اتخاذها عاصمة لدولته؛ بعد أن ضاق بها وبأهلها المشاغبين؛ فترك فيها وزيره وكاتبه أحمد بن موسى[1] مع دوناس بن أبي روح. غير أن أهل قرطبة نقضوا عهدهم، وثاروا عليهما ـ كعادتهم ـ في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وذلك لما سمعوا بزحف مجاهد وخيران العامريين نحو قرطبة؛ من قبل حبوس بن ماكسن بن زيري.[2] ولكن مجاهد وخيران اختلفا؛ فخاف كل واحد من صاحبه؛ الأمر الذي جعل خيران ينسحب من قرطبة، ويعود إلى المرية.

وجملة القول يبدو أنه ـ على الرغم من ترحيب الناس بيحيى (المعتلي) في الفترة الأولى من حكمه لقرطبة ـ فإنهم سرعان ما تحولوا عن تأييده والقبول به. ويبدو أن السبب يعود إلى ما ورد في جل المصادر؛ من أنه من جهة وقع فريسة للعجب والغرور والتكبر؛ وذلك تبعا لما أظهره من كبر وزهو بنفسه، وما لجأ إليه من فرض الحجاب؛ والترفع عن الاستقبال ومباشرة

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 143 ـ 144. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136. وأجمع كل من: عبد الواحد المراكشي وابن الأثير وابن خلدون والمقري على أن الذي ولاه يحيى على قرطبة هو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني. المعجب، ص: 52. والكامل، ج: 7، ص: 288. والعبر، مج: 4، ص: 332. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 288. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 143. وذكر ابن الخطيب معهما اسم زهير؛ مع أنه في الحقيقة كان مساعدا لخيران. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 136.

القضايا بنفسه. ومن جهة أخرى أنه سقط في فخ بعض الوزراء والمستخدمين من السفلة والمنحطين. غير أن ثمة عاملا أخر أغضب بعض الفئات الفاعلة منه. حدث ذلك عندما طالبه رؤساء الأمازيغ بالوفاء بوعده لهم؛ بخصوص عزل السودان من مناصبهم التي حصلوا عليها أيام عمه القاسم؛ فأجابهم في شيء وتهرب من أشياء. عندئذ شرعوا في المشاغبة وإبداء مظاهر العصيان والتمرد. ولما اشتدت ضغوطهم؛ هرب جماعة كبيرة من السودان إلى عمه في إشبيلية؛ وبقي هو منفردا أمام الأمازيغ الساخطين من جهة، والقرطبيين المعارضين من جهة أخرى. وهكذا ساءت الحال بيحيى في قرطبة؛ فاختار بدوره – كعمه – الهروب منها، والالتحاق بمالقة. فما كان من الأمازيغ إلا الإسراع في استدعاء القاسم إلى قرطبة مرة ثانية؛ وذلك في سنة 413هـ(1022م). وكان من قبل متصلا بهم؛ عاملا على التحريض وبث الفتنة؛ مثلما سبق أن عمل يحيى بالضبط.

هــذا ولــم يطــل بقــاء القاســم ــ كمــا سبقــت الإشـــارة إليـــه ــ في قرطبـــة؛ إذ اضطـــر هـــو بـــدوره إلى الخـــروج منهـــا مطـــرودا بضغـــط مـــن سكانهـــا؛ وذلـــك في سنـــة 414هــ(1023م). ويبـــدو أنهـــم ــ كمـــا أشـــار إلى ذلـــك ابـــن الأثيـــر وابـــن خلـــدون ــ قد استضعفـــوه بعـــد أن وصلتهـــم أخبـــار أفـــادت بتغلـــب ابـــن أخيـــه يحـــيى المعتـــلي عـــلى حصونـــه ومراكـــزه في الجزيـــرة الخضـــراء وطنجـــة.[1]

****

ــ دولـــة بـــني حمـــود خـــارج قرطبـــة:

وبخـــروج القاســـم إلى إشبيليـــة ويحـــيى إلى مالقـــة؛ أفـــل شعـــاع قرطبـــة نهائيـــا كحاضـــرة للخلافـــة بالأندلـــس. وأصبحـــت كغيرهـــا مـــن مـــدن تلـــك الديـــار؛ تابعـــة لمراكـــز أخـــرى؛ ســـواء كانـــت مالقـــة أو طليطلـــة أو إشبيليـــة أو غيرهـــا. وأضـــحى. الحديـــث ــ مـــن جهـــة أخـــرى ــ عـــن دولـــة بـــني حمـــود لا يعـــدو أن يكـــون حديثـــا عـــن إمـــارات متفرقـــة للحموديـــين ــ مثلهـــا مثـــل أي إمـــارة مـــن إمـــارات الطوائـــف ــ في: مالقـــة أو في الجزيـــرة أو في سبتـــة؛ ثـــم انحـــدر بهـــا الحـــال شيئـــا فشيئـــا أخيـــرا إلى مجـــرد إمـــارة صغيـــرة في مدينـــة مليلـــة. ومـــع هـــذا فقـــد أصـــر أصحـــاب تلـــك الإمـــارات

---

[1] الكامـــل، ج: 7، ص: 286. والعبـــر، مج: 4، ص: 331.

على إضفاء صفة الخلافة على ملكهم الهزيل.[1] وهذا ما جعل أبو محمد علي بن حزم يصرخ مستنكرا لما آلت إليه الأوضاع السياسية في الأندلس: ((**فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا ملها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام؛ كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين؛ ويُخطب لهم بها في زمن واحد. وهم: خَلَفٌ الحُصُريٌّ بإشبيلية؛ على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحيى بن علي بن حمود ببُبَشْتر**)).[2] وبالطبع فالذي يتحمل تبعات جل تلك الأوضاع الشاذة، والاضطرابات المدمرة ــ التي نسفت الدولة الأموية، ومن بعدها الدولة الحمودية؛ وبالتالي مزقت بلاد الأندلس إلى دويلات وكيانات هزيلة؛ لا تقوى على الدفاع عن أمنها وأمن رعاياها ــ هي ظاهرة العصبية القبلية؛ تلك الظاهرة المرضية التي سادت بلاد الأندلس آنئذ.

---

[1] أعلن يحيى وأبناؤه أنفسهم خلفاء في مالقة؛ حيث تلقبوا بالألقاب الخلافية. وبالمقابل أعلن أبناء القاسم أنفسهم خلفاء في الجزيرة الخضراء؛ وتلقبوا ــ بدورهم ــ بالألقاب الخلافية. أنظر: الكامل في التاريخ، ج: 7، ص ص: 286 ــ 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 144. 191 ــ 192. 216 ــ 219. والعبر، مج: 4، ص ص: 331 ــ 335. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص ص: 140 ــ 143.

[2] رسالة نقط العروس في تواريخ الخلفاء (ضمن كتاب رسائل ابن حزم الأندلسي)، ج: 2، ص ص: 97 ــ 98.

ــ حكومة المعتلي يحيى بن علي بن حمود في مالقة:

فمنذ البداية كان يحيى يميل إلى الاستقرار في مدينة مالقة أكثر من ميله إلى قرطبة؛ تلك المدينة التي لا تستقر على حال. وذلك لأن مالقة تحتل موقعا قريبا من أنصاره وعصبيته في الضفة المغربية. لذا فعند خروجه في المرة الثانية من قرطبة في سنة 417هـ(1026م)؛ قرر أن يجردها من صفتها السابقة كعاصمة للخلافة؛ ووضعها في مصاف المدن الثانوية التابعة لمركز الخلافة في مالقة. لهذا فقد أسند شئونها إلى بعض معاونيه؛ كـ: أبي جعفر أحمد بن موسى، ودوناس بن أبي روح في قول، أو عبد الرحمن بن عطاف اليفرني في قول آخر.

وكان قد عمل ــ قبل هذا التاريخ، وبالتحديد في سنة 413هـ(1022م) لما خرج في المرة الأولى من قرطبة ــ على تنظيم شئونه في مالقة؛ حيث تمسك بإعلان نفسه خليفة إلى جانب عمه خليفة إشبيلية. وبقي يترقب ما يجري في قرطبة وإشبيلية؛ حتى وصلته أخبار هروب عمه القاسم من قرطبة للمرة الثانية، وامتناع إشبيلية عن استقباله؛ الأمر الذي اضطره إلى اللجوء إلى شريش. عندها لم يترك يحيى هذه الفرصة تفوته؛ لذا فقد زحف فورا إلى شريش؛ بنية القتال ضد عمه؛ إذ حدثت بينهما معارك شديدة؛ ضيق خلالها يحيى الحصار على عمه حتى استسلم له في الأخير؛ فقام بأسره؛ ثم نقله معه إلى مالقة عاصمة ملكه. أين كان

مصيره القتل في السجن سنة 427هـ(1035م).[1] في قول، أو في 431هـ(1039م) في قول آخر.

وكان يحيى بن علي يسعى جاهدا – منذ ترك قرطبة في المرة الأولى – إلى تمهيد دولته وتقويتها انطلاقا من مالقة؛ لذا فإنه لم يتراخ لحظة واحدة عن محاولة ضم مقاطعات جديدة لمملكته؛ من ذلك أنه تغلب على الجزيرة الخضراء؛ التي كانت إحدى مراكز عمه الخلفية؛ وفي الوقت نفسه تمكن أخوه إدريس – الوالي على سبتة – من التغلب على طنجة؛ التي كانت – أيضا – حصنا ومستودعا لذخائر عمه. ويعتبر خروج هاتين المقاطعتين الهامتين من يد القاسم؛ بمثابة الضربة القاصمة لسلطانه.

---

[1] شرح المقري سبب قتله بقوله: ((وأجلت الحرب عن قهر يحيى لعمه، وإسلام أهل شَريشَ له، وفر سودانه؛ وحصل القاسم وابنه في يد يحيى؛ وكان قد أقسم أنه إن حصل في يده ليقتله، ولا يتركه حتى يلي الإمامة في قرطبة مرة ثانية؛ فرأى التربص في قتله = =حتى يرى رأيه فيه. فحدث عنه بعض أصحابه أنه حمله بقيد إلى مالقة، وحبسه عنده؛ وكان كلما سكر وأراد قتله رغبه ندماؤه في الإبقاء عليه؛ لأنه لا قدرة له في الخلاص... وامتدت الحال على ذلك إلى أن قتله خنقا بعد ثلاث عشرة سنة من حين القبض عليه؛ لأنه كان قد حبسه في حصن من حصون مالقة؛ فنمي إليه أنه قد تحدث مع أهل الحصن في القيام والعصيان؛ فقال أوَبقي في رأسه حديث بعد هذا العمر؟ فقتله سنة 427هـ)). نفح الطيب، ج: 1، ص: 488. وذكر عبد الواحد المراكشي أنه بقي في السجن في زمن كل من: يحيى وإدريس؛ ولم يقتل خنقا إلا بعد موت إدريس في سنة 431هـ. المعجب، ص ص: 51 – 52. أما ابن الأثير فيرى أن الذي قتل القاسم هو إدريس بن علي وليس يحيى. الكامل، ج: 7، ص: 287.

وتلا ذلك ـ بالفعل ـ اضطراب حاله في قرطبة، إذ أعلن سكانها عليه العصيان.[1] ولم يكتف يحيى بهذا فحسب؛ بل تحرك أيضا لقتال عمه في شريش كما سبق ذكره. حيث قبض عليه مع ولديه: محمد والحسن؛ حيث سجنهم بمالقة؛ وربما يكون ـ كما جاء في بعض الروايات ـ قد حبس ابني عمه في الجزيرة الخضراء.[2]

ولم يكتف المعتلي يحيى بن علي بما افتكه من عمه؛ بل أكره عددا من أمراء الأمازيغ؛ كي يتخلوا له عن بعض مدنهم وحصونهم؛ التي تغلبوا عليها من قبل. وقد اتخذ من تلك الحصون منطلقا لحصار إشبيلية والتضييق عليها؛ كي يجبر ابن عباد على التسليم له والإذعان للطاعة.[3] ويبدو أن بعض القبائل الأمازيغية لم تكن مخلصة الإخلاص كله للمعتلي؛ وما خضوعها وإعلان

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 331.

[2] العبر، مج: 4، ص: 332.

[3] يقول في هذا ابن الأثير: ((واتفق البربر على طاعته، وسلموا إليه ما بأيديهم من الحصون والمدن؛ فقوي وعظم شأنه، وبقي كذلك مدة ثم سار إلى قرمونة؛ فأقام بها محاصرا لإشبيلية طامعا في أخذها)). الكامل، ج: 7، ص: 288. ويتفق معه ابن خلدون فيقول: ((وأقام يحيى المعتلي يخيفهم ويردد العساكر لحصارهم [يقصد هنا ملوك الطوائف] إلى أن اتفقت الكافة على إسلام المدائن والحصون له؛ فعلا سلطانه واشتد أمره؛ وظاهره محمد بن عبد الله البرزالي على أمره؛ فنزل عنده بقرمونة يحاصر فيها ابن عباد بإشبيلية؛ إلى أن هلك سنة ست وعشرين بمداخلة ابن عباد للبرزالي في اغتياله)). العبر، مج: 4، ص ص: 332 ـــ 333.

طاعتها إلا سياسة مهادنة؛ الهدف منها كسب الوقت. وهذا ما يتضح من الاتفاق الذي عقد بين أمير بني برزال وابن عباد ضد يحيى بن علي. إذ تجلى ذلك في مساعدة البرزالي لابن عباد في قتل يحيى؛ بل يقال أن أمير البرزاليين محمد ابن عبد الله هو الذي قتل يحيى بيده سنة 426هـ(1034م) أو 427هـ في قول آخر.[1] وذكر في هذا ابن خلدون: ((**فركب المعتلي لخيل أغارت على معسكره بقرمونة من جند ابن عباد؛ وقد كمنوا له؛ فكبا به فرسه وقتل. وتولى قتله محمد بن عبد الله البرزالي؛ وانقطعت دولة بني حمود من قرطبة**)).[2] ولما قتل المعتلي وضع ابن عباد السيف في أنصاره؛ وكانوا في معظمهم من الأمازيغ؛ فتحركت النعرة والعصبية في صدر البرزالي؛ بسبب ما لحق ببني جلدته؛ فطلب من ابن عباد أن يرفع السيف عنهم. وفي هذا يقول ابن عذاري: ((**واستمرت** [أي عمليات القتل] **على أصحاب يحيى؛ حتى ساء ذلك ابن عبد الله البرزالي، وبدت عصبيته لقومه؛ وكلم ابن عباد في**

---

[1] أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 188. والعبر، مج: 4، ص: 333. بينما قال عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أنه قتل في المحرم من سنة 427هـ. المعجب، ص: 61. والكامل، ج: 7، ص: 288.

[2] العبر، مج: 4، ص: 333. وتوسعت المصادر الأخرى في شرح الكيفية التي قتل بها يحيى بن علي. منها الذخيرة، ج: 1، ق: 1، ص ص: 316 ـ 318. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 188 ـ 189. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 137.

رفـــع السيـــف عنهـــم؛ فأطاعـــه في ذلـــك، وتـــم لأبـــن عبـــد اللـــه مـــا أراد مـــن حقـــن الدمـــاء؛ إذ لـــم يـــأت الـــذي أتـــاه إلا عـــن ضـــرورة)).[1] وتلـــك الضـــرورة لـــم تكـــن في الحقيقـــة ســـوى الرغبـــة في استعـــادة حصـــن قرمونـــة؛ الـــذي افتكـــه يحـــيى مـــن سيـــد بـــني بـــرزال؛ واتخـــذه منطلقـــا لحصـــار إشبيليـــة. هـــذا وقـــد تـــرك يحـــيى ولديـــن صغيريـــن همـــا: الحســـن وإدريـــس.[2]

****

---

[1] **البيـــان المغـــرب، ج: 3، ص: 189.**

[2] **الجمهـــرة، ص: 51. المعجـــب، ص: 54. والكامـــل، ج: 7، ص: 288.**

ـ الانقسام الثاني في أسرة بني حمود:

حدث الانقسام الأول ـ كما سبق شرحه ـ في سنة 412هـ(1021م)؛ عندما خرج يحيى بن علي ابن حمود عن طاعة عمه القاسم؛ حيث أعلن نفسه خليفة بقرطبة؛ في الوقت الذي احتفظ عمه القاسم بلقبه الخلافي في إشبيلية؛ حاضرة ملكه الجديدة. ولما استحوذ يحيى على ملك الحموديين بالأندلس، وانفرد بالحكم ـ بعد تغلبه على مراكز عمه الخلفية في الجزيرة وطنجة ـ زج بعمه في سجن مالقة؛ ثم حبس ولديه: محمدا والحسن بالجزيرة؛[1] حيث أوكل بهما رجلا من المغاربة يعرف بأبي الحجاج. ولما قتل المعتلي يحيى ابن علي) بن حمود سنة 427هـ (1035م) سارع أبو الحجاج هذا إلى الإفراج عنهما.[2]

---

[1] فحين يرى عبد الواحد المراكشي وابن الأثير أن يحيى قد سجنهما في الجزيرة الخضراء؛ يقول ابن خلدون والمقري أن محمدا كان مسجونا بمالقة؛ ثم فر من سجنه في سنة 414هـ إلى الجزيرة. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] وحتى هذا الخبر فيه خلاف؛ إذ يرى عبد الواحد المراكشي أن الموكل بهما أخرجهما إثر مقتل يحيى بن علي؛ بينما يقول ابن الأثير أنهما أخرجا من المعتقل بعد موت إدريس بن علي؛ بينما يجعل ابن خلدون تاريخ هروب محمد بن القاسم ـ من معتقله بمالقة إلى الجزيرة ـ في عام 414هـ. أنظر: المعجب، ص: 62. والكامل، ج: 7، ص: 289. والعبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

ثـم طلـب مـن أصحـاب الحـل في الجزيـرة ــ مـن السـودان والأمازيـغ ــ البيعـة لمحمـد بـن القاسـم؛ الـذي اكتـفى ــ في البدايـة ــ بالإمـارة عـلى الجزيـرة؛ وتغـاضى عـن الادعـاء بالخلافـة. ولكنـه ــ فيمـا بعـد ــ أعلـن نفسـه خليفـة سنـة 439هـ(1047م) وتسـمى بالمهـدي.[1] ولمـا تـوفي ولي بعـده في مرتبـة الخلافـة ــ كمـا يزعـم بعضهـم ــ ابنـه القاسـم بـن محمـد؛[2] الـذي قيـل أنـه تسـمى بالواثـق.[3] وكـان هـذا الأميـر هـو آخـر مـن تـولى مـن بـني القاسـم في الأندلـس. ويعـود السبـب في انتقـال الخلافـة مـن بـني عـلي بـن حمـود إلى بـني أخيـه القاسـم؛ إلى مـا أصـاب دولـة الأدارسـة في مالقـة مـن تفكـك ووهـن؛ لـذا فقـد قـرر أمـراء الأمازيـغ ــ في تلـك الديـار ــ أن ينقلـوا الخلافـة مـن أسـرة عـلي بـن حمـود في مالقـة؛ إلى أسـرة أخيـه القاسـم بالجزيـرة.

---

[1] هكـذا في جـل المصـادر؛ بينمـا قـال ابـن خلـدون أنـه تسـمى بالمعتصـم. العبـر، مج: 4، ص: 335.

[2] قـال ابـن حـزم أن محمـد بـن القاسـم خلـف مـن الأولاد: ((يحـيى الأصـم؛ أكبرهـم، ثـم القاسـم؛ الـوالي بعـد أبيـه؛ وكـان حصـورا؛ لا يقـرب النسـاء، وإبراهيـم، وأحمـد، وجعفـر، والحسيـن)). الجمهـرة، ص: 51.

[3] هكـذا قـال ابـن خلـدون، العبـر، مج: 4، ص: 335. أمـا ابـن حـزم والمـراكـشي فيقولان أنـه لـم يتسـم بالخلافـة. الجمهـرة، ص: 50. والمعجـب، ص: 68.

وأولئك الأمراء هم: باديس بن حبوس الصنهاجي أمير بني زيري في غرناطة، وإسحاق ابن محمد بن عبد الله البرزاليِ الزناتي أمير قرمونة، ومحمد بن نوح بن أبي تَزيري الدمري الزناتي أمير مورور، وعبدون بن خزرون الرنداجي الزناتي أمير بني خزرون في أركش.[1] هذا وقد بقي أبناء القاسم في إمارتهم بالجزيرة حتى سنة 446هـ(1054م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها عليهم جيش المعتضد بن عباد؛ حيث أجلاهم قائد ذلك الجيش عن الجزيرة؛ فانطلقوا إلى المرية في حماية المعتصم بن صمادح.

[1] والكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والبيان المغرب، ج: 3، ص: 218. 229 ـ 230.

ـ **حكومة المهدي محمد بن القاسم بن حمود:**

نشأت هذه الإمارة ـ كما سبق قوله ـ في الجزيرة الخضراء أيام القاسم بن حمود؛ بتكليف من الخليفة الأموي المستعين بالله سليمان بن الحكم.[1] ثم تغلب عليها المعتلي يحيى بن علي، وقبض على ولدي القاسم: محمدا وحسن. ولكنهما استطاعا الإفلات بعد موت يحيى بن علي سنة 427هـ(1035م)؛[2] والعودة إلى امتلاك الجزيرة من جديد؛ بمساعدة المكلف بحراستهما؛ وهو من المغاربة، ويدعى أبا الحجاج. ومنذئذ اعتلى محمد ابن القاسم على عرش الجزيرة الخضراء؛ دون أن يتسمى ـ في البداية ـ بالألقاب الخلافية. أما أخوه حسن فقد تنسك، ولبس الصوف؛ ثم توجه إلى الحج مع أخته فاطمة؛ زوجة المعتلي يحيى بن علي.

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 284. والمعجب: ص: 43. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 128.

[2] الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص ص: 62 ـ 63. أما ابن خلدون والمقري فيريان أنهما تمكنا من الفرار من محبسهما بمالقة في سنة 414هـ. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

وبقي محمد بن القاسم على ذلك الحال حتى زحف إليه نجا الصقلبي؛ بغرض امتلاك الجزيرة؛ وذلك في سنة 434هـ(1042م)؛ فخرجت إليه أم محمد والقاسم ــ واسمها سبيعة ــ فاحتجت عليه قائلة: ((**يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن**)).[1] فاستحى من قولها وتخلى عن غرضه.[2] وظل محمد في إمارته تاركا مرتبة الخلافة لبني عمه؛ أبناء علي بن حمود؛ دون السعي لمزاحمتهم في الألقاب الخلافية؛ حتى قرر أمراء الأمازيغ ــ سنة 439هـ(1047م) ــ تحويل دعوتهم بالخلافة من بني علي بن حمود إلي بني القاسم؛[3] عندئذ تلقب محمد بالمهدي[1] ونسب إلى نفسه خلافة المسلمين.

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص: 216.

[2] يقول عبد الواحد المراكشي أنه أحس بفتور من أصحابه؛ لذا تراجع: ((ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما؛ ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم، واستصلح سائرهم؛ واستدعى الصقالبة من حيث أمكنه ليقوى بهم على غيرهم)). المعجب، ص: 64.

[3] قال ابن عذاري: ((وفي سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ـــ قال ابن حيان ـــ "فيها تجمع رؤساء القبائل من البربر وأمراؤها على البيعة لمحمد بن القاسم بن حمود الحسني؛ وقدموه للخلافة بالجزيرة الخضراء؛ وهم أربعة أمراء: إسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، ومحمد بن نوح الدميري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، وكبيرهم باديس بن حبوس صاحب غرناطة وأعمالة وأستجة وغيرها. فبايع جميعهم له بالخلافة؛ وتسمى من الألقاب الخلافية بالمهدي، وخطب له جميع هؤلاء الأمراء في بلادهم على المنابر؛ ثم نهضوا مع إمامهم وساروا إلى المعتضد

ويبدو أن الأمازيغ عادوا فتخلوا عنه، وتركوه وحيدا؛ إذ يقال أنه مات غما سنة 440هـ(1048م). ويقول عبد الواحد المراكشي أنه أنجب زهاء ثمانية أولاد ذكورا.

ـ حكومة القاسم بن محمد بن القاسم بن حمود:

تولي القاسم بن محمد الحكم في الجزيرة الخضراء إثر وفاة والده سنة 440هـ(1048م). وقد اختلفت آراء المؤرخين في المرتبة الملكية التي احتلها القاسم هذا؛ إذ يقول ابن خلدون والمقري ـ على سبيل المثال ـ أنه تسمى بلقب الواثق؛ بينما يرى ابن حزم أنه لم يتسم بالخلافة؛ ويتفق مع ابن حزم كل من: ابن الأثير وعبد الواحد المراكشي.[2]

عباد بن محمد صاحب إشبيلية؛ ونزلوا عليها؛ ودخل معهم ابن الأفطس صاحب بطليوس. وكانت عدة هؤلاء الرؤساء مع إمامهم محمد بن القاسم على عباد بن محمد سبعة ملوك؛ ثم انصرفوا مع خليفتهم؛ ولم يقض الله لهم أربا. فلم يكن لهم بعد ذلك اجتماع، ولا اتفاق")). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 219 ـ 220.

[1] يعتقد ابن خلدون والمقري: أنه تلقب بالمعتصم. العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة خمسين [وأربعمائة]]). العبر، مج: 4، ص: 335. أنظر أيضا: نفح الطيب، ج: 1، ص: 435. أما ابن حزم فيقول: ((وولي الجزيرة بعد محمد بن القاسم المذكور ابنه القاسم بن محمد؛ ولم يتسم بالخلافة؛ إلى أن خرج عنها سنة 446هـ)). الجمهرة، ص: 50. ويؤيد ابن الأثير هذا الأمر بقوله: ((فولي الجزيرة ابنه القاسم؛ ولم يتسم بالخلافة)). الكامل ج: 7، ص : 289. ويقول

هـذا ولـم يقـم القاسـم بـن محمـد بمـا يستحـق الذكـر والتنويـه في بـلاد الأندلـس؛ طـوال المـدة الـتي حكـم فيهـا الجزيـرة الخضـراء. وكـل مـا ذكـره عنـه المؤرخـون هـو تعـرض بـلاده لغـزو جيـش المعتضـد ابـن عبـاد؛ بقيـادة عبـد اللـه بـن سـلام في سنـة 446هـ(1054م). فتمكـن مـن التغلـب عـلى الجزيـرة الخضـراء؛ وأخـرج القاسـم منهـا؛ حيـث أعـد لـه مركبـا لينقلـه حيـث يشـاء؛ فاختـار المريـة؛ في حمايـة المعتصـم بـن صمـادح؛ بعـد أن يئـس مـن قبولـه في سبتـة؛ حيـث يقيـم سقـوط البرغـواطي.[1]

المراكـشي أيضـا: ((فتـولى أمـر الجزيـرة بعـده ابنـه القاسـم بـن محمـد ابـن القاسـم؛ إلا أنـه لـم يتسـم بالخلافـة)). والمعجـب، ص: 68.

[1] قـال ابـن عـذاري: ((وفي سنـة سـت وأربعيـن وأربعمائـة نظـر المعتضـد عبـاد في حسـن الجزيـرة الخضـراء وأميرهـا القاسـم بـن محمـد العلـوي؛ فضيـق عليـه إلى أن نـزل عـن بلـده بأمـان عـلى نفسـه وخـرج؛ فكـان الـذي حصرهـا لـه قائـده عبـد اللـه بـن سـلام؛ فأعـد عبـد اللـه للقاسـم مركبـا يسيـر فيـه حيـث شـاء. وكـان أميـر سبتـة يومئـذ سواجـات [سقـوط] البرغـواطي؛ وكـان القاسـم هـذا استنصـره فلـم ينصـره؛ فنكـب عـن سبتـة إلى المريـة؛ وبـقي بهـا إلى أن تـوفي. واحتـوى قائـد بـن عبـاد عـلى الخضـراء؛ ثـم خـرج منهـا بالعسكـر؛ تهفـو بهـم ريـح النصـر؛ وقـد قـدروا ألا غالـب لهـم؛ فلقـوا جماعـة مـن بـني يرنيـان؛ فوقعـت بينهـم حـرب انهـزم لهـا خيـل ابـن عبـاد؛ وقتـل قائدهـم عبد اللـه ابـن سـلام؛ وانصـرف الجيـش لابـن عبـاد مهزومـا)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص ص: 242 ــ 243.

وتقول بعض الروايات أن القاسم بن محمد توفي بالمرية سنة 450هـ(1058م).[1] ويقول ابن حزم أنه كان حصورا لا يقرب النساء؛ وعليه فلم يخلف أولادا.[2]

****

ـ حكومة المتأيد بالله إدريس بن علي بن حمود:

ولما قتل المعتلي يحيى بن علي بن حمود؛ عاد كبير دولته أبو جعفر أحمد بن موسى المعروف بابن بقنة[3] رفقة أبي الفوز نجا الخادم ـ ذلك الفتى الصقلبي[4] المقرب من المعتلي يحيى بن علي ـ إلى مالقة؛ أين استدعيا بسرعة إدريس بن علي أخا يحيى من سبتة؛ حيث عقدا له البيعة؛ بشرط أن يسند ولاية سبتة وطنجة للحسن بن يحيى بن علي؛ فقبل إدريس بذلك؛ وانتقل الحسن ابن يحيى ـ رفقة الفتى الصقلبي نجا ـ إلى ولاية سبتة. وفي البيعة تلقب إدريس بن علي بالمتأيد بالله واعتلى سدة الخلافة؛ مثلما كان عليه أخيه

---

[1] البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 242 ـ 243. الأعلام للزركلي، ج: 6، ص: 16. أما ابن بسام فلم يذكر المرية؛ ولكنه قال أنه لجأ إلى قرطبة؛ حيث مات بها في التاريخ نفسه. الذخيرة، ق: 2، مج: 1، ص ص: 36 ـ 37.

[2] الجمهرة، ص: 51.

[3] ورد في بعض المصادر ابن بقية والصحيح هو ابن بقنة.

[4] في العبر؛ الصقلي؛ مج: 4، ص: 333.

يحيى بن علي؛ فاعترف بخلافته جمع كبير من الأمازيغ، وبعض الفتيان العامريين ؛ مثل: حبوس ابن ماكسن بن زيري، ومحمد بن عبد الله البرزالي، والفتى الصقلبي العامري زهير المتغلب على المرية، وغيرهم. وفي الخامس من ذي القعدة سنة 427هـ(1035م) اتفقوا ـ جميعا ـ على محاصرة إشبيلية؛ أين استولوا على بعض الحصون والقلاع المحيطة بها.[1]

هذا وقد واجه إدريس المتأيد مقاومة شديدة من طرف ابن عباد؛ الذي عمل جاهدا على استقطاب الناس نحو إشبيلية، والاعتراف بها عاصمة للخلافة؛ إذ أظهر بها رجلا زعم أنه هشام المؤيد؛ فنادى به خليفة للمؤمنين؛ بغرض قطع الطريق في وجه بني حمود؛ الذين يستأثرون بالخلافة. وكان القاضي أبو القاسم بن عباد يعتمد كل الاعتماد في تحقيق مشاريعه على ابنه

---

[1] قال ابن عذاري: ((وفيها [أي سنة 427هـ] اجتمع زهير وحبوس مع محمد ابن عبد الله زعيم زناتة بجهة أستجة في يوم الأربعاء لخمس خلون من ذي القعدة من السنة، واحتلوا يوم السبت بعده بقرمونة، ونهضوا إلى جهة إشبيلية؛ واحتلوا قرية طشتانة، وقاتلوا حصن زعبوقة يوم الأحد واحتلوا بالقلعة يوم الإثنين، وقربوا من إشبيلية يوم الثلاثاء، وأحرقوا طرياتة يوم الأربعاء بعده، ثم احتلوا بحصن القصر؛ وفيه انعقدت البيعة بينهم لإدريس ابن علي بن حمود؛ وانصرفوا إلى قرمونة؛ وقد تحالفوا وتعاقدوا على القيام بدعوته، وانصرف زهير إلى المرية، وأخطب لإدريس فيها في منتصف شهر ذي الحجة من السنة)). البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 190 ـ 191.

إسماعيل؛ الذي نجح في قتل يحيى المعتلي ـ كما سبق ذكره ـ أمام قرمونة.

ولما تولى إدريس بن علي الخلافة واصل التحرش ببني عباد؛ مثلما كان الحال أيام أخيه يحيى. ووقف أمراء الأمازيغ وبعض الفتيان الصقالبة إلى جانب إدريس؛ نظرا لما عانوه من أطماع ابن عباد. لذا فقد اشتد الصراع بينهم وبين بني عباد، وامتد نطاقه حتى شمل جل المراكز والحصون الأمازيغية في الأندلس. ولم يستثن ابن عباد في ذلك حتى حصون حليفه السابق محمد بن عبد الله البرزالي؛ إذ انتزع منه أشونة وأستجة، وبعدهما عمل على حصار قرمونة. وهنا التأم شمل الأمازيغ ـ في بداية الأمر ـ من جديد؛ بدعم من الفتى العامري زهير. فتمكنوا بفضل حلفهم ـ بعد فترة ـ من تكبيد بني عباد خسائر فادحة؛ حيث قتل إسماعيل بن أبي القاسم، بعد أن انكسر جيشه على مشارف قرمونة؛ فحزوا رأسه وأرسلوه إلى المتأيد بالله إدريس بن علي الذي كان آنئذ مريضا في حصن بُبَشتر.

ولم يعش إدريس ـ بعد هذه الموقعة ـ سوى يومين؛ إذ مات في المحرم من سنة 431هـ (1039م).[1] وخلف ثلاثة أولاد هم: يحيى ومحمد والحسن؛ وكان له ابن أكبر مات في حياته من قبل؛ اسمه علي؛ ترك من الأولاد ـ هو الآخر ـ ابنا اسمه عبد الله بن علي بن إدريس[2].

ـ حكومة المستنصر الحسن بن يحيى بن علي:

أراد ابن بقنة ـ بعد موت المتأيد بالله إدريس ابن علي ـ تنصيب ولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون؛ الذي تلقب بالقاسم بالله؛ ولكن الفتى نجا الصقلبي لم يترك له الفرصة لتمهيد حكمه؛ إذ عاجله بالقدوم من سبتة ومعه الحسن ابن يحيى بن علي؛ فهرب ابن بقنة مع يحيى ابن إدريس إلى حصن كمارش [قمارش] القريب من مالقة.

---

[1] قال ابن خلدون في هذا بإيجاز: ((وكان أبوه [أي إسماعيل] أبو القاسم بن عباد قد استفحل ملكه لذلك العهد، ومد يده لانتزاع البلاد من أيدي الثوار؛ وملك أشونة وأستجة من يد محمد بن عبد الله البرزالي؛ وبعث العساكر مع ابنه إسماعيل لحصار قرمونة؛ فاستصرخ محمد بن عبد الله بالمتأيد هذا وبزاوي (؟)؛ فجاء زاوي بنفسه، [مات في سنة 428هـ؛ وعليه يكون من شاركهم هو ابنه باديس] وبعث المتأيد هذا عساكره مع ابن بقية [الصحيح هو ابن بقنة]؛ فكانت بينهم وبين ابن عباد حروب شديدة؛ هزم فيها ابن عباد، وقتل، وحمل رأسه إلى إدريس المتأيد؛ وهلك [أي المتأيد] ليومين بعدها؛ سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة)). العبر، مج: 4، ص: 333.

[2] المعجب، ص: 62.

ولما دخل نجا الخادم إلى مالقة رفع مولاه الحسن بن يحيى إلى[1] سدة الخلافة بمالقة؛[2] فبايعه الناس وتسمى بالمستنصر[3] سنة 431هـ (1039م). وبعدها عمل الحسن على استدراج ابن بقنة وتطمينه بوعد أمان؛ فعاد رفقة يحيى بن إدريس (حيون) إلى مالقة؛ أين قبض عليهما المستنصر وأمر بقتلهما.[4]وكان الحسن بن يحيى متزوجا بابنة

---

[1] يبدو أن في الأمر خلط والتباس؛ إذ يعتقد: ابن عذاري وابن الخطيب أن الحسن هذا هو ابن علي بن حمود. وقد تبنى هذا الرأي أيضا إسماعيل العربي. وهذا طبعا لا يستقيم مع ما ثبت من أن علي لم يخلف سوى ولدين اثنين هما: يحيى وإدريس. وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى ـ وهي كثيرة ـ انطلاقا من جمهرة ابن حزم، ص: 51. إلى المغرب للبكري، 133. إلى العبر لابن خلدون، مج: 4، ص ص: 331. 334. إلى نفح الطيب للمقري، ج: 1، ص: 432. أنظر نقيض ذلك في: البيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. أعمال الأعلام، ق: 3، ص: 140. دولة الأدارسة، ص: 267. هذا ويفهم من أقوال ابن عذاري وابن الخطيب أن هناك شخصين يسميان بحسن: الأول بن علي، والثاني ابن يحيى. المهم أن هذه الفترة من حكم الأدارسة يكتنفها غموض كثيف.

[2] ذكر البكري أن إدريس بن علي عين الحسن بن يحيى وليا لعهده. أنظر المغرب، ص: 133.

[3] هذا هو اللقب الذي ذكره: ابن الأثير وابن عذاري وابن خلدون والمقري؛ أما عبد الواحد المراكشي فقال أنه لقب بالمستعلي؛ والظاهر أنه وقع في التباس. أنظر: المعجب، ص: 63. والكامل، ج: 7، ص: 289. والبيان المغرب، ج: 3، ص ص: 192. 216. والعبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432.

[4] ثمة رأي آخر مفاده أن حيون لم يعد إلى مالقة؛ بل بقي في حصن إيرش؛ حيث مات به سنة 434هـ. وثمة رأي آخر ذكره ابن خلدون مفاده أن الخادم نجا قتله مع ابن للحسن بن يحيى صغير كان لديه. أنظر: العبر، مج: 4، ص: 334. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 432. هذا فيما يخص حيون؛ أما

عمه إدريس، وأخت يحيى بن إدريس (حيون) المقتول؛ فعملت جهدها للانتقام منه، والثأر لأخيها؛ وعليه يقال أنها اغتالته بسم دسته له. وذلك في جمادى الأولى من سنة 434هـ(1042م).[1] ويقال أن الحسن بن يحيى خلف ولدا وتركه في كفالة نجا الخادم بسبتة؛ فقتله طمعا في اغتصاب الملك.

بخصوص أبي جعفر بن موسى (ابن بقنة) فابن عذاري يرى بأن بقنة قتل بمالقة؛ بعد مقتل الفتى نجا فقول: ((ثم نهض قوم منهم [أي من الثوار الذين قتلوا نجا] إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر بن موسى فقتلوه، وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه؛ وبايعوه؛ وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر، وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: **217**. إذن يفهم من هذا النص أن ابن بقنة هو الذي كان مع الحسن بن يحيى؛ وليس السطيفي كما ذكر المراكشي، أو الشطيفي كما سماه ابن الأثير. والغريب أن ابن عذاري يخلط في الأمر في موضع آخر؛ حين ذكر أن أبا جعفر بن موسى هذا استوزره الحسن بن يحيى، ثم قتله سنة 433هـ بعد أن امتحنه واستصفى أمواله. أنظر البيان المغرب، ج: ص: **290**. كما أنه؛ في الوقت الذي أغفل ذكر السطيفي من قبل؛ ذكره في موضع آخر على انه قتل في اليوم الذي بويع فيه العالي إدريس ابن يحيى؛ وذلك في خبر يتوافق مع ما ذكره عبد الواحد المراكشي؛ ويتعارض مع ما سبق أن قاله ابن عذاري نفسه. لذا يتدعم الرأي القائل بأن هذا النص أو (القطعة) ليس من سياق كتاب ابن عذاري؛ ولم يكن أصلا منه. أنظر البيان المغرب، ج: 3، المقدمة، ثم: ص: **291**.

[1] الكامل، ج: 7، ص: **289**. والمعجب، ص ص: **63 ـ 64**.

ـ حكومة العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود:

كان نجا الصقلبي قد ترك في مالقة ـ عندما رجع إلى مقر ولايته بسبتة ـ رجلا من التجار يثق فيه اشتهر باسم محمد السطيفي؛ وأوصاه بالسهر على سير الإمارة، وعلى سلامة سيده الحسن بن يحيى. ولما قتل الحسن مسموما بيد زوجته؛ سارع السطيفي إلى اعتقال أخيه إدريس بن يحيى؛ خوفا من خروج الأمر من يده ويد نجا الصقلبي الوصي على العرش؛ ثم بعث بالخبر إلى ذلك الفتى الصقلبي نجا؛ فسارع من فوره إلى التوجه في قوة إلى مالقة؛ ولما دخلها زاد في التضييق على إدريس بن يحيى، إذ قام هو الآخر بالتحفظ عليه؛ وأبقاه في سجنه أيضا؛ خوفا من تطلعه للخلافة؛ لأنه ـ كما قيل ـ كان يرغب في القضاء على ملك بني حمود نهائيا.

ويبدو – كما تقول المصادر – أن هذا الفتى الصقلبي كان ينوي – في هذه المرة – الاستبداد بالدولة، ويسعى لامتلاكها والاستحواذ بها لنفسه[1]؛ بعد أن يجلب مجموعات من الصقالبة؛ ليضمن ولاءهم. غير أن خطته فشلت؛ وذلك بعد أن صرح برغبته تلك للذين كانوا معه من الأمازيغ. وكان جيشه مكونا منهم؛ وبالتحديد من برغواطة؛ وهم أخوال الحسن بن يحيى.[2]

---

[1] ذكر عبد الواحد المراكشي أنه كان للحسن بن يحيى المقتول ابن؛ في رعاية الفتى نجا بسبتة؛ وقيل أنه اغتاله؛ حتى يخلو له الجو على ما يبدو. لذا فإنه استخلف في سبتة عند ذهابه إلى مالقة رجلا من الصقالبة كان يثق فيه. المعجب، ص: 64. أما ابن عذاري فقال بوجود ولد للحسن صغير السن بسبتة في رعاية نجا؛ ولكنه لم يشر إلى احتمال قتله. البيان المغرب، ج: 1، ص: 216.

[2] جاء في رواية ابن عذاري: ((فأتى [نجا] الجزيرة الخضراء؛ وفيها ابنا القاسم بن حمود؛ فأراد إخراجهما منها؛ فخرجت إليه سبيعة أمهما وقالت له: "يا أبا الفوز أتقطع مواليك، وتكشفهم عن البلاد؛ ما هذا بحسن"؛ فاستحيا منها وانصرف إلى مالقة؛ فلما كان ببعض الطريق اجتمعت برغواطة؛ الذين كانوا معه على قتله؛ وكانوا أخوال حسن بن يحيى ومواليه؛ فقالوا: "أنترك موالينا ونتبع عبدا مملوكا خصيا"؛ فتعرض إليه أحدهم... فطعنه بين كتفيه طعنة خرجت من صدره؛ فهلك أبو الفوز نجاء، وقطعوا رأسه وعلقوه من شجرة؛ ثم نهض قوم منهم إلى مالقة؛ ونهضوا إلى الوزير أبي جعفر ابن موسى فقتلوه [يختلف هنا ابن عذاري مع الذين يقولون أن ذلك الوزير هو السطيفي؛ أما ابن موسى (ابن بقنة) فقتله نجا من قبل] وأخرجوا إدريس بن يحيى من سجنه وبايعوه وتسمى بالعالي؛ وبايعه أمراء البربر وخطبوا باسمه؛ وذلك سنة أربع وثلاثين وأربعمائة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217.

فاستاء الأمازيغ من فكرته؛ ولكنهم تظاهروا بأنهم يؤيدونه؛ بينما كانوا يتصيدون الفرصة المواتية للانقضاض عليه. وبالفعل تمكنوا من القضاء عليه؛ أثناء عودته من الجزيرة الخضراء إلى مالقة. ثم قضوا على صنيعته السطيفي بعده.[1] وتم ذلك كله سنة 434هـ(1042م). وبعد ذلك أخرجوا إدريس بن يحيى من محبسه، ونصبوه على سدة الخلافة، ولقبوه بالعالي؛ في السنة نفسها أي 434هـ(1042م).

---

[1] الكامل، ج: 7، ص: 289. أما المراكشي فقال في خبر شرح فيه مقتل الخادم الصقلبي نجا: ((وعزم [أي نجا] على محو أمر الحسنيين جملة؛ وأن يضبط تلك البلاد لنفسه؛ فدعا البربر الذين كانوا جند البلد؛ وكشف الأمر إليهم علانية، ووعدهم بالإحسان؛ فلم يجدوا لمساعدته بدا؛ فوافقوه في الظاهر؛ وعظم ذلك في أنفسهم باطنا. ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم؛ فحاربه أياما، ثم أحس بفتور نيات الذين معه؛ فرأى أن يرجع إلى مالقة؛ فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم، واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم؛ وأحس البربر بهذا منه؛ فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة؛ فقتل وهو على دابته في مضيق صار فيه؛ وقد تقدمه إليه الذي أراد الفتك به؛ وفر من كان معه من الصقالبة بأنفسهم؛ ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة؛ فدخلا وهما يقولان: "البشرى البشرى!" فلما وصلا إلى السطيفي؛ وضعا سيفهما عليه فقتلاه)). المعجب، ص ص: 64 ـ 65.

ولما تولى إدريس بن يحيى الحكم في مالقة بادر فورا إلى اعتقال: محمد وحسن: ابني إدريس ابن علي؛ ووضع عليهما حراسة. ولكن أخذت ـ بعد فترة ـ تظهر على إدريس بن يحيى بعض التناقضات، والتصرفات الغريبة في تسيير شئون الدولة؛ لذا بدأت ثقة معاونيه تتضعضع فيه؛ وفتر حماسهم نحوه، وصار ولاؤهم يتآكل شيئا فشيئا؛ ويميل إلى الضعف والتلاشي. وعليه فقد أطلق الحراس المكلفين بابني عمه سراحهما؛ ونادوا بخلافة كبيرهما محمد بن إدريس بن علي؛ بدلا من إدريس. وعندما سمع الخبر السودان القائمين بأمن قصبة مالقة؛ سارعوا للاستجابة والدعاء لمحمد؛ ثم أستقدموه إلى حاضرة الملك. ولما انتصب محمد على عرش الخلافة ـ بدخوله إلى مالقة ـ تسمى بالمهدي؛ وولى أخاه حسنا ولاية عهده، ولقبه بالسامي؛ وذلك في سنة 438هـ(1046م).

وبعد أن تمكن الخليفة الجديد من الوضع أمر بالقبض على إدريس (العالي)، ثم حبسه في المكان نفسه؛ الذي كان هو أخوه مسجونان فيه؛ أي في حصن قمارش كما قال بعضهم. وبذلك استبدل الخصمان الأماكن والمواقع.[1]

---

[1] أورد هذا الخبر ابن الأثير، وعبد الواحد المراكشي، الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب: ص: 66. أما ابن عذاري فلم يذكر حصن إيرش تماما؛ وإنما قال نقلا عن ابن القطان: ((فخرج إدريس بن يحيى من مالقة إلى حصن ببشتر مع عبيده ومن تبعه من الجند؛ فغزا مالقة مع باديس بن حبوس؛ فلم

ومع ذلك تمكن العالي — بعد فترة — من الخلاص من محبسه؛ بمعونة بني زيري، وبعض أمراء الأمازيغ؛ الذين لم ترضهم سياسة محمد المهدى؛ المتصف بالتشدد والحزم. وقد تم ذلك عندما استمالوا المكلفين بحراسة العالي في قمارش؛ حيث أقنعوهم بالدعاء للعالي، وإعادته لمنصبه الخلافي؛ انطلاقا من ذلك الحصن؛ وبالفعل قام حراس العالي برفعه إلى سدة الخلافة في تلك الجهات.[1] ولم يكفهم إطلاق سراح إدريس بل عملوا كل جهدهم كي يتغلبوا على مالقة ويعيدوه إلى منصبه فيها. ولكن محاولاتهم باءت بالفشل الذريع.[2]

يقدر على شيء؛ فرجع إلى حصن ببشتر، وأخرج عياله وجاز إلى سبتة)). ثم أضاف رواية نقلا عن ابن حيان فقال: ((وفي شعبان من سنة ثمان وثلاثين [وأربعمائة] خرج إدريس بن يحيى بن علي بن حمود من مالقة؛ متنزها للصيد فغلق الباب في وجهه أهل البلد؛ ووجهوا إلى ابن عمه محمد ابن إدريس، وبايعوه بالخلافة، وتلقب بالمهدي، وتوطد أمره بمالقة مدة حياته؛ وانصرف إدريس بن [يحيى] بن علي العالي إلى العدوة، ثم رجع بعد ذلك إلى الأندلس، واستقر عند أبي نور بن أبي قرة اليفرني، صاحب رندة شهورا ودعا له بالخلافة)). البيان المغرب، ج: 3، ص: 217. أما ابن الخطيب فيقول أن محمد بن إدريس انتهز فرصة خروج العالي إدريس بن يحيى إلى حصن ببشتر؛ فأقفل في وجهه أبواب مالقة. أعمال الأعلام، ق: 2، ص: 141. المهم أن الآراء حول دولة الأدارسة في مالقة متضاربة وتختلف من مصدر إلى آخر.

[1] الكامل، ج: 7، ص، 289. والمعجب، ص: 67.

[2] قال المراكشي: ((وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامة وجرأة شديدة؛ هابه بها جميع البربر، وأشفقوا منه؛ وراسلوا المرتب في الحصن الذي فيه

ولما يئس بنو زيري وأمراء الأمازيغ من إمكان التغلب على مالقة؛ تخلوا عن المطالبة بها، وتركوا العالي وحيدا؛ واتجه أمراء الأمازيغ — بعدئذ — صوب هدف آخر في الجزيرة الخضراء؛ حيث يقيم محمد بن القاسم بن حمود؛ فالتفوا حوله، ونادوا به خليفة للمسلمين؛ ولكنهم تخلوا عنه — هو الآخر بعد فترة — وتفرقوا عنه؛ عندما لم يجدوا فيه فائدة تنتظر.

إدريس بن يحيى هذا؛ واستمالوه؛ فأجابهم، وقام بدعوة إدريس... ولم يظهر محمد مبالاة بذلك؛ بل ثبت ثباتا شديدا؛ وكانت والدته تشجعه، وتقوي متنه، وتشرف على الحرب بنفسها فتحسن إلى من أبلى؛ فلما رأى البربر شدة عزمه، وثبابته؛ فَتَّ ذلك في أعضادهم؛ وتخلوا عن إدريس بن يحيى؛ ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة؛ إلى البرغواطيين اللذين ذكرنا)). المعجب، ص ص: 66 — 67.

ولما ترك أمراء الأمازيغ إدريس بن يحيى وحيدا؛ نظرا لفشل مخططهم في احتلال مالقة؛ وتبعا لما كان بيديه من مواقف سلبية ومتناقضة؛ لم يجد أمامه ـ بعد أن تفرق الأنصار من حوله ـ سوى اللجوء إلى سبتة؛ تلك المقاطعة المغربية التي سبق له أن وضعها في يد عبد من عبيد أبيه؛ يسمى سقوط أو (سكوت) البرغواطي؛ في الوقت الذي أسند فيه ـ أيضا ـ مدينة طنجة لعبد برغواطي آخر من عبيد أبيه؛ اسمه رزق الله البرغواطي. وهكذا لم يجد ملجأ مناسبا سواهما يهرب إليه؛ عندما سدت في وجهه السبل؛ وعليه فقد قصدهما؛ قاطعا بحر العدوة؛ فاستقبلاه بالتبجيل والإجلال؛ واعترفا بخلافته؛ وناديا بها؛ ولكنهما ـ بالمقابل ـ ضربا عليه حجابا شديدا؛ منع أعيان القوم من الاتصال به. وبعد مدة سئم البرغواطيان منه؛ فنفياه للأندلس مرة أخرى؛ دون أن يتخليا عن الاعتراف به خليفة للمسلمين؛ كما أبقيا لديهما ولده الصغير رهينة للمستقبل.

وفي الأندلس اختار إدريس الإقامة في تاكرنة عند بني يفرن ــ دون أن يتنازل عن لقب الخلافة ــ وبقي يرقب الحال إلى أن توفي خصمه محمد المهدي؛ عندها طلب عامة الناس في مالقة عودته إليها؛ فدخل من جديد إلى حاضرة ملكه السابق؛ سنة 445هـ(1053م). وبقي في مالقة إلى أن توفاه الله[1] سنة 446هـ(1054م) أو 447هـ(1055م).

وبذلك يكون العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود قد حكم خلال فترتين متقطعتين: الفترة الأولى بين عامي: 434هـ(1042م) و438هـ(1046م)؛ أما الفترة الثانية فبين عامي: 445هـ(1053م) و446 أو 447هـ(1055م). وذلك شأنه شأن أبيه يحيى، وعم أبيه القاسم بن حمود من قبل.

وكان العالي إدريس بن يحيى هذا حسن الثقافة، أديبا وشاعرا؛ كريم الخصال، مهذب الطباع، لطيف المعشر، حسن المجلس، عطوفا، شفوقا، حليما؛ ولكنه ــ مع ذلك ــ كان غريب الأطوار، متناقض المواقف والأفعال. فمما شاع عنه أنه يكثر من أعمال الخير والإحسان؛ حتى قيل أنه واظب على التصدق في كل يوم جمعة بحصة

---

[1] **الكامل، ج: 7، ص: 289. والمعجب، ص: 68. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما ابن عذاري فيخالف هذا الرأي؛ إذ يرى أن إدريس مات بعد خلعه بفترة قصيرة. أنظر البيان المغرب، ج: 3، ص: 291.**

من المال تقدر بخمسمائة دينار.[1] كما يقال أنه رد للذين كانوا مغضوبا عليهم اعتبارهم وحقوقهم، وأرجع – أيضا – المطرودين إلى أوطانهم، وأعاد لهم ما أخذ منهم من أملاك وضياع.

وبالمقابل كان يظهر في صورة أخرى مناقضة للصورة الأولى؛ وذلك أنه كان ينادم ويصاحب الأرذال من العباد؛ ويقال أنه لم يكن يحجب حرمه عنهم.[2] ومن غرائب ما عرف عنه أنه لم يكن يبخل حتى بحصونه ورموز دولته؛ إذا ما سأله جيرانه الأقوياء التكرم عليهم بها.[3] وقيل أنه لما انقلب عليه ابن عمه محمد بن إدريس؛ عرض عليه مؤيدوه وأنصاره – من العامة – أن يسمح لهم بالمقاومة والدفاع عنه؛ فرفض؛ وطلب منهم أن يتركوه وشأنه.[4] فلم يجدوا بدا من تركه لقمة في

---

[1] الكامل: ج: 7، ص: 289.

[2] الكامل، 7، ص: 289. والمعجب، ص: 66.

[3] قال المراكشي: ((وكل من طلب منه حصنا من حصون بلاده؛ ممن يجاوره من صنهاجة، أو بني يفرن أعطاه إياه. وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبر أمره وصاحب أبيه وجده: موسى بن عفان السبتي؛ فلما أخبره بأن الصنهاجي كتب إليه يطلبه منه؛ وأنه لابد من تسليمه إليه؛ قال له موسى بن عفان: "افعل ما تؤمر؛ وستجدني إن شاء الله من الصابرين!" فبعث به إلى الصنهاجي فقتله)). المعجب، ص: 66.

[4] يقول المراكشي: ((واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى، واستأذنوه في حرب القصبة، والدفاع عنه؛ ولو أذن لهم ما ثبت السودان فوارق ناقة [وهذه العبارة تأتي كناية عن السرعة والحسم]؛ فأبى؛ فقال لهم: "ألزموا منازلكم ودعوني؛ فتفرقوا عنه)). المعجب، ص: 66.

يد ابن عمه؛ الذي سجنه كما تمت الإشارة إليه. وحتى عندما انتقل إلى سبتة، وقام عبداه: سقوط أو (سكات)، ورزق الله البرغواطيان بالحجر عليه، وحجبه عن رؤساء وأعيان البلدة؛ وقف موقفا غريبا؛ وذلك حينما تمكن بعضهم من الاتصال به؛ فطلبوا منه أن يأذن لهم بفك الحصار عنه؛ فأبى ثم أعلم العبديين بما قالوه له؛ مما أدى بالعبديين إلى نفي أولئك الأعيان من سبتة؛ بل نفياه هو بدوره إلى الأندلس؛ بعد أن احتفظا بولده رهينة لديهما. فاستقر به الحال في تاكرنة عند بني يفرن؛ إلى أن وصله نبأ وفاة خصمه محمد بن إدريس (المهدي)؛ وطلب أهل مالقة منه العودة إلى مركز ملكه؛ فعاد؛ وبقي بها حتى وفاته.

ويعتبر العالي إدريس بن يحيى أبرز بني حمود ذكرا وشهرة عند أدباء وعلماء الأندلس؛ إذ لازم بلاطه عدد كبير منهم؛ كما زاره عدد آخر من الشعراء والعلماء؛ فكان يكرمهم ويجالسهم ويحاورهم ويشاركهم في قرض الشعر ونقده. ومن أولئك الأدباء والعلماء الأديب الشاعر الفقيه أبو محمد غانم بن الوليد المخزومي المالقي؛ وهو الذي قال في العالي:

رِيــحُ الصَّبَــا بَلِــغِي أنْفَــاسَ ذِي ظَمَــإٍ
وَبَرِّدِيهَــا بِمَا يَقضِيــهِ مَجْــــرَاكِ
أوْ يَمِّمِي حَضْــرَةَ العَــالِي بِمَا احْتَمَلَــتْ
مِنِّي الضُّلُــوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّــاكِي

****

ـ الانقســام الثالــث في أســرة بــني حمــود:

كــان الانقســام الأول ــ كمــا ذكرنــاه ــ في عهــد القاســم ابــن حمــود سنــة 412هــ (1021م). أمــا الانقســام الثــاني فحــدث بعــد وفــاة إدريــس بــن يحــيى بــن حمــود سنــة 431هــ (1039م). ثــم جــاء الانقســام الثالــث في عهــد العــالي إدريــس بــن يحــيى بــن عــلي سنــة 438هــ (1046م)؛ وذلــك بعدمــا خــرج عليــه ابــن عمــه محمــد بــن إدريــس بــن عــلي؛ حيــن تغلــب عــلى مالقــة وحبــس العــالي في حصــن قمــارش ــ كمــا سبــق ذكــره ــ ثــم تســمى بالخلافــة، وتلقــب بالمهــدي. وبعــد ذلــك انحــاز حــراس إدريــس إليــه، وأعــادوا إليــه الاعتبــار، ونــادوا بــه خليفــة؛ حيــث استقــر لبعــض الوقــت في حصــن قمــارش أو ببشتــر؛ وتمســك بالدعــاء لــه أمــراء الأمــازيــغ ــ أيضــا ــ وزحفــوا نحــو مالقــة؛ بغــرض التغلــب عليهــا وإعــادة العــالي إلى منصبــه؛

ولكنهم فشلوا في مساعيهم كلها؛ نظرا لحسن صمود محمد المهدي ومن معه.

ولما يئس أمراء الأمازيغ من عودة إدريس انفضوا عنه؛ وتحولوا صوب محمد بن القاسم بن حمود أمير الجزيرة؛ فالتفوا حوله ونادوا به ـ هو الآخر ـ خليفة للمسلمين. وبهذه الخطوة أصبح في الأندلس أربع خلفاء؛[1] الخليفة الأول إدريس بن يحيى بحصن بُبَشْتر الملقب بالعالي، والثاني خليفة إشبيلية خلف الحصري المنتحل لاسم هشام المؤيد، والثالث محمد بن إدريس بمالقة الملقب بالمهدي، والرابع محمد بن القاسم بالجزيرة الخضراء الملقب ـ أيضا ـ بالمهدي. ويبدو أن هذا هو الذي استفز أبا محمد علي بن حزم؛ وحفزه لقول مقولته السابقة الذكر؛ مستنكرا ومنددا بما حصل. وطبعا لا يمكن أن يحدث كل ذلك لولا نزوات القبلية؛ ذات المصالح الضيقة، وأنانية العصبية المدمرة.

ـ حكومة المهدي محمد بن إدريس بن علي بن حمود:

وحينما توفي المتأيد إدريس بن علي سنة 431هـ(1039م)؛ خلف ثلاثة أولاد ذكورا هم: يحيى ومحمد وحسن. فأما يحيى ـ وهو الملقب بحيون ـ فقتله ابن عمه المستنصر حسن بن يحيى (المعتلي)؛ عندما قدم مع الخادم نجا من سبتة ـ

---

[1] الكامل في التاريخ، ج: 7، ص: 286. والمعجب، ص: 68.

كما سبقت الإشارة إليه – وبقي أخواه الصغيران: محمد وحسن: ابني إدريس بن علي. ولما تولى العالي إدريس بن يحيى الحكم بادر – فورا – إلى حبسهما. ولكنهما تمكنا من الإفلات، والقيام بعصيان ضد إدريس؛ متصيدين – كما قيل في بعض المصادر – لحظة خروجه من مالقة للقنص؛ فأغلقا – مع أنصارهما – أبواب المدينة؛ ومنعاه من العودة إلى ملكه. وقد سهل عليهما الأمر ما كان يشوب أجواء البلاط؛ من استياء ونفور؛ لما كان يبديه العالي من سلوك غير مقبول لدى معاونيه.

وبالطبع فقد استثمرا تلك الفرصة التي أضحى فيها أعيان الدولة غاضبين من التصرفات الشاذة للخليفة إدريس بن يحيى؛ نظرا لما كان يظهره من تناقض وتقلب في الأحوال. وبذلك وجد الأخوان منفذا هاما؛ للاستيلاء على الحكم. وبالفعل تمكنا من ذلك؛ بمساعدة بعض الحراس، وبمساندة الحامية السودانية بقصبة مالقة. وتم تغلبهما على سدة الخلافة سنة 438هـ (1046م)؛ حيث تربع على عرش مالقة محمد بن إدريس؛ الذي تلقب بالمهدي؛ ورفع الدعاء له بالخلافة. وبادر محمد المهدي بإسناد ولاية العهد لأخيه حسن؛ الذي تسمى بالسامي. غير أنه غضب عليه فيما بعد، فنفاه إلى جبال غمارة بالعدوة المغربية؛ فبايعه من كان هناك من قبائل غمارة؛ أين يتواجد أنصار الأدارسة التقليديين.

أمـــا محمـــد المهـــدي فبـــقي صامـــدا في مالقـــة؛ ضـــد خصومـــه مـــن أمـــراء الأمازيـــغ إلى يـــوم وفاتـــه مسمومـــا ـ كمـــا قيـــل ـ في سنـــة 444هـ (1052م) أو 445هـ (1053م).[1] فســـارع ـ عندئـــذ ـ العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى إلى العـــودة إلى مالقـــة؛ والتربـــع مـــن جديـــد عـــلى عـــرش الخلافـــة بهـــا؛[2] وذلـــك لأنـــه كـــان يتربـــص الفرصـــة المواتيـــة؛ مـــن تاكرنـــة حيـــث كـــان مستقـــرا. وهكـــذا عـــاد العـــرش لإدريـــس مـــن جديـــد؛ حيـــث بـــقي إلى يـــوم وفاتـــه سنـــة 446هـ(1054م) أو 447هـ(1055م)؛ كمـــا سبـــق ذكـــره.

---

[1] اتفـق ابـن عـذاري وابـن الخطيـب عـلى قصـة زعمـا أنهـا قصـة مـوت محمـد المهـدي؛ وجـاء فيهـا: ((وكـان محمـد بـن إدريـس هـذا سفاكـا للدمـاء؛ فامتـدت يـده إلى قتـل البرابـر؛ ولمـا رأى الحجـاب ذلـك؛ وهـم أمـراء القبائـل؛ عملـوا الحيلـة في قتلـه؛ فوجـه لـه باديـس بـن حبـوس بكـأس عـراقي مسمـوم؛ مـع رجـل مـن الكتاميين. فلمـا وصـل إليـه قـال لـه: "هـذه كـأس جلبـت للحاجـب المظفـر باديـس؛ فلـم يرهـا تصلـح إلا للخلافـة؛ فاختصـك بهـا". فأعجـب بهـا محمـد ابـن إدريـس، وملأهـا خمـرا، وضمهـا إلى فمـه؛ فأحـس في نفسـه ريبـة منهـا؛ فأمـر الكتـامي فشربهـا؛ فتهـرأ جلـده عـن لحمـه مـن حينـه. وبـقي هـو ثلاثـة أيـام، ومـات مـن رائحتهـا في أواخـر سنـة 444هـ)). البيـان المغـرب، ج: 3، ص: 218. وأعمـال الأعـلام، ق: 2، ص ص: 141 ـ 142.

[2] قـال البكـري وابـن الخطيـب: أن الـذي تـولى الحكـم ـ مباشـرة ـ بعـد مـوت محمـد المهـدي ابـن أخيـه إدريـس بـن يحـيى بـن إدريـس بـن عـلي؛ حيـث تسـمى بالموفـق؛ ولـم ينسـب إلى نفسـه رتبـة الخلافـة؛ ولكنـه لـم يبـق في الملـك أكثـر مـن أشهـر يسيـرة؛ إذ زحـف إليـه العـالي إدريس بـن يحـيى. أنظـر المغـرب، ص: 134.

ـ حكومة المستعلي محمد بن إدريس المتأيد:[1]

تولى الحكم بمالقة في السنة التي توفي فيها العالي إدريس بن يحيى. وتسمى ـ في أوثق الأقوال ـ بالمستعلي. هذا ولم تهتم المصادر التاريخية كثيرا بالمستعلي هذا؛ خاصة وأن حكمه لم يتجاوز السنتين. أي من سنة 446 أو 447هـ (1055م) إلى سنة 449هـ(1057م)؛ وهي السنة التي تغلب فيها باديس بن حبوس بن زيري على مالقة؛ معلنا بذلك ختام الدولة الإدريسية في الأندلس نهائيا.[2]

وكان أمراء الأمازيغ بتلك الديار قد حولوا دعوتهم ـ في البداية ـ إلى محمد بن القاسم سنة 439هـ(1047م)، ولما مات سنة 440هـ(1048م) نقلوها لابنه القاسم لفترة قصيرة؛ ولكنهم تخلوا ـ بعد ذلك ـ عن تلك الفكرة؛ ورأوا وجوب الاستقلال بأنفسهم؛ دون حاجة إلى سند شرعي في الحكم. خاصة بعد سقوط دولة بني القاسم بالجزيرة الخضراء في يد المعتضد بن عباد سنة 449هـ(1057م).[3]

---

[1] هذا رأي ابن عذاري وابن خلدون. البيان المغرب، ج: 3، ص:218. والعبر، مج: 4، ص: 335. أما رأي البكري وابن الخطيب فيختلف؛ إذ يرون أنه ابن العالي إدريس بن يحيى؛ وليس ابن إدريس المتأيد. أنظر: المغرب، ص: 134. وأعمال الأعلام، ق: 2، ص: 142. كما انهم اختلفوا أيضا في اللقب فمنهم من يعتقد أن لقبه هو المستعلي؛ ومنهم من يرى أن لقبه هو السامي.

[2] يرى البكري أن باديس دخل مالقة، وأسقط دولة المستعلي في سنة 447هـ. المغرب، ص: 134.

[3] البيان المغرب، ج: 3، ص: 242.

وهذا ما جعل باديس بن حبوس يزحف إلى مالقة؛ بغرض امتلاكها. ولما أسقط أمير بني زيري باديس بن حبوس دولة بني حمود؛ لم يجد المستعلي مفرا من اللجوء – في البداية – إلى المرية. ومن هناك وصلته دعوة من أهل مليلة؛ فأجاز إليهم قاطعا البحر؛ نحو العدوة المغربية. وفي تلك المدينة الوفية لبني إدريس وجد الملجأ الآمن؛ حيث بايعته قبائل تلك النواحي سنة 456هـ(1063م)؛[1] وظل هناك حتى وفاته في أواخر سنة 460هـ(1067م).[2] ويعتبر المستعلي محمد بن إدريس هذا هو آخر ملوك بني حمود الأدارسة في الأندلس. وذلك بعد أن تمت تصفية ملك بني عمهم؛ أبناء القاسم بن حمود ملوك الجزيرة الخضراء؛ من قبل المعتضد بن عباد سنة 449هـ(1057م).

****

[1] يقول البكري الذي كان معاصرا لتلك الفترة أن المستعلي ذهب إلى مليلة في سنة 459هـ؛ فمما قال:((وتسمى بالمستعلي، ولم يخطب له بالخلافة؛ فأقام بمالقة إلى أن تغلب عليها باديس بن حبوس بن ماكسن في صدر سنة سبع وأربعين وأربعمائة؛ فانقطعت دولة بني علي بن حمود من يومئذ؛ ثم استدعي محمد بن إدريس هذا من مدينة مليلة؛ وهو مستقر بالمرية؛ لا يعرف مكانه؛ لخمول ذكره؛ فعبر إليها؛ وذلك في شهر شوال سنة تسع وخمسين وأربعمائة؛ فقام به جماعة بني ورتدي بميلة وبقلوع جارة ونواحيها. وهو هنالك باق إلى وقتنا هذا؛ وهو آخر سنة ستين وأربعمائة)). المغرب، ص: 134.

[2] العبر، مج: 4، ص: 335. ونفح الطيب، ج: 1، ص: 435.

ـ الحضارة والحركة الثقافية:

يبدو أن الإنجازات الحضارية والثقافية لدولة بني حمود لم تصل إلى المستوى المطلوب؛ بالنسبة لدولة تواجدت في ربوع الأندلس؛ إذ كان رصيد هذه الدولة الحضاري ـ بفرعيها ـ متواضعا؛ إذا ما قيست بالدولة الأموية، أو بدولة بني عباد بإشبيلية. فدولة بني حمود ـ سواء بقرطبة أو بمالقة أو بالجزيرة الخضراء ـ كان يهيمن عليها الطابع القبلي؛ ذي التوجه العسكري. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن عمرها كان قصيرا ـ بعض الشيء ـ بالمقارنة مع دولة بني أمية؛ الأمر الذي لم يساعد على ظهور المبتكرات الحضارية والثقافية بالقدر الكافي. كما أن حياتها كانت مليئة بالفتن والحروب والمؤامرات؛ وهذا ـ بالطبع ـ لا يساعد على بروز عبقريات في الميادين العلمية والفكرية. ويعتبر ذلك من بين الموانع المؤثرة في سبيل إنجاز أي مشروع حضاري. هذا وكان ـ طبعا ـ للعامل الاقتصادي أثره في انكماش الإنجازات الحضارية والثقافية بهذه الدولة الضعيفة؛ التي لم تكن مواردها الاقتصادية كافية لتحقيق ما حققته الدولة الأموية.

ومـــع ذلـــك فقـــد ورثـــت دولـــة بـــني حمـــود شيئـــا مـــن التـــراث الـــذي خلفتـــه الدولـــة الأمويـــة؛ ممثـــلا ببعـــض المنشـــآت العمرانيـــة، والمبتكـــرات العلميـــة، ومـــا تعـــودت عليـــه الرعيـــة مـــن تـــذوق للإبداعـــات الفنيـــة والأدبيـــة. هـــذا وقـــد ورث بـــلاط الحموديـيـــن أيضـــا ــ بشقيـــه ــ بعـــض المؤسســـات الثقافيـــة كمـــا ضـــم إليـــه بعـــض الأدبـــاء والكتـــاب الفطاحـــل، والشعـــراء الفحـــول؛ كمـــا استقبـــل أدبـــاء وشعـــراء وفـــدوا إليـــه مـــن جهـــات أخـــرى؛ دون نيـــة في الإقامـــة. وقـــد ازدانـــت هـــذه الدولـــة وحظيـــت أيضـــا بوجـــود بعـــض العلمـــاء والفقهـــاء في ربوعهـــا؛ حيـــث اختصـــوا بشئـــون الكتابـــة والقضـــاء والفتيـــا والتدريـــس. ولمزيـــد مـــن الفائـــدة والتوضيـــح نشيـــر إلى أولئـــك العلمـــاء والأدبـــاء والكتـــاب والشعـــراء؛ وهـــم:

ـ أبو عمر أحمد بن درّاج القسطلي:[1] وينتسب إلى أسرة بني درّاج الصنهاجيين. وكان القسطلي ـ أيام المنصور بن أبي عامر ـ كاتبا للإنشاء مع ابن الجزيري.[2] ويبدو أن أنه مرّ مرور الكرام ببلاط

---

[1] قال فيه ابن بسام: ((حل اسمه من الأماني محل الأنس، وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس؛ وأحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدْره؛ وكان الشام والعراق أدنى خطى ذكره. وقد أجرى الثعالبي طرفا من أمره بـ(اليتيمة): "بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام؛ وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك. وكان يجيد ما ينظم")). نفسه، ص: 60.

[2] ذكره الحميدي فقال: ((كان كاتبا من كتاب الإنشاء في أيام المنصور أبي عامر؛ وهو معدود في جملة العلماء والمقدَّمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء؛ وشعره كثير مجموعٌ؛ يدل على علمه؛ وله طريقة في البلاغة والرسائل؛ تدل على اتساعه وقوته؛ وأول من مدح من الملوك المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر مدبر دولة هشام المؤيد... فعن أبي محمد علي ابن أحمد بن سعيد الفقيه؛ وأخبرني أن المنصور أبا عامر لما فتح شنب ياقب أو غيرها من القلاع الحصينة التي يقال إن أحدا لم يصل إليها قبله؛ استُدْعِيَ أبو عمر أحمد بن محمد بن درّاج، وأبو مروان عبد الملك بن إدريس المعروف بابن الجزيري؛ وأمرا بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة، وإلى سائر الأعمال. فأما ابن الجزيري: "سمعا وطاعة". وأما ابن درّاج فقال: "لا يتم لي ذلك في أقل من يومين أو ثلاثة". وكان معروفا بالتنقيح والتجويد والتؤدة. فخرج الأمر إلى ابن الجزيري بالشروع في ذلك؛ فجلس في ظل السرادق ولم يبرح حتى أكمل الكتب في ذلك. وقيل لابن درّاج افعل ذلك على اختيارك؛ فقد فسح لك فيه. ثم جاء بعد ذلك بنسخة الفتح؛ وقد وصف الغزاة من أولها إلى آخرها، ومشاهد القتال، وكيفية الحال؛ بأحسن وصف، وأبدع وصف؛ فاستحسنت ووقع الإعجاب بها؛ ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن. وما بقي من نسخ ابن الجزيري ـ في ذلك الفتح على كثرتها ـ عين ولا أثر... وسمعت أبا محمد علي بن أحمد [بن سعيد

بني حمود؛ إذ لم تطل إقامته فيه كثيرا. ومع هذا فقد منح ملوك هذه الدولة أروع ما خطته أقلام الكتاب من نثر، وأجمل ما قيل فيهم من قصائد شعرية. ومن قوله المنثور هذه القطعة التي خص بها الخليفة علي بن حمود؛ جاء فيها:

((حسْبُك اللهُ يا ابنَ رسول الله، وعلى هُدًى من الله، فيما خَفقتْ إليه راياتك، وصَدَقتْ به آياتُك، جديرٌ أن يُعِزَّ بطاعته نَصْرَك، كما شرحَ بتوفيقه صَدْرَك، ويُتَمِّم بتأييدِه أمرَك، بما أوْلَيتَ أولياءَه المؤمنين، وأبْلَيْتَ في عبادِه الصالحين، المصابينَ في الأموال والأهلين، أيَّامَ تزاحَمَتْ إليهم أسبابُ القضاء بالبَأساءِ والضَّرَّاء، وأبْرَقَتْ عليهم آفاقُ السماء بسيوف الأعداء، تَسِحُّ بوابل الدِّماء وتموجُ بأسراب السّباء، فَسُرْعانَ ما هاموا فلا وَزَر، وربعوا فلا مُسْتَقرّ، ونادوا ولاتَ حين مَنَاص ولا فوْت، إلاَّ مَنْ أعْفَاهُ الموت؛ فأصبحوا أنْقَاضَ الجَلاء، وأغراضَ الفناء، قد جَهِدُوا بالبلاء، وعَيُوا بالدَّاء العَيَاء، فلئنْ زُلْزِلَتْ بهم الأرض، لقد سكنَ بهم عِزُّ سلطانِك، ولئنْ تَهافتَ بهم الذعْر، لقد

الفقيه]؛ وكان عالما بنقد الشعر يقول: "لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن درّاج لم أبعد". وقال مرة أخرى: "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن درّاج؛ لما تأخر عن شأو (حبيب) و(المتنبي)". مات أبو عمر أحمد بن درّاج قريبا من من العشرين وأربعمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: **110 ـ 114**.

اطمأنوا في مِهَادِ أمانك)).[1] وقد مدح هذا الشاعر الذائع الصيت؛ الخليفة علي بن حمود بقصيدة شهيرة؛ نوه فيها بانتسابه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشاد ببني هاشم، ومجد نسبهم القديم؛ وجاء فيها:[2]

لَعَلَّكِ ياشَمْسُ عِنْدَ الأصيلِ
شَجِيتِ لِشَجْوِ الغَرِيبِ الذَّلِيلِ
فَكُوني شَفيعي إلى ابنِ الشَّفِيع
وَكُوني رَسُولي إلى ابنِ الرَّسُولِ
فَإمَّا شَهِدْتِ فَأَزْكَى شَهِيدٍ
وإمَّا دَلَلْتِ فَأَهْدَى دَلِيلِ

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 64.

[2] قال فيها ابن بسام: ((وهذه القصيدة له طويلة؛ وهي من الهاشِمِياتِ الغُرّ؛ بناها من المِسْك والدُّرّ؛ لا من الجصّ والآجُر؛ لا بل خَلَّدها حديثاً على الدَّهر، وسَرَّ بها مَطالعَ النُّجومِ الزُّهْر؛ لو قَرَعَتْ سَمْعَ دِعْبِلِ بنِ عليّ الخزاعيّ، والكُمَيْتِ بن زَيْدٍ الأسديّ، لأمْسَكا عن القول، وبرئا إليه في القُوَّةِ والحَوْل؛ بل لَوْ رآها السيد الحميريّ، وكُثَيِّرٌ الخُزاعيّ، لأقاماها بَيِّنَة على الدَّعْوَى، ولتلقياها بِشارَة على زَعْمِهِما بخُروج الخيلِ من رَضْوَى؛ وقد أثبتُّ أكثرها إعلاناً بجلالة قدرِها، واستحساناً لعَجُزِها وصدْرِها)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 87 ـ 88.

عَلى سَابــقٍ في قيُــودِ الخُطــُوبِ
وَنَجْمِ سَنَـــاً فِـــي غُثـــاءِ السُّيُـــولِ

يُنـــادِي الثــرَى لِسَقـــامِ الضَّيَـــاعِ
وَيَشْكــو إلَى المُلـــْكِ دَاءَ الخُمُــولِ

وَعَــزَّ عَلى العِلمِ مَثــوَاهُ أرْضـــاً
عَلى حُكمِ دَهْــرٍ ظلــومٍ جَهُــولِ

وَيَعْجَــبُ كَيــفَ دَنَــا مِنْ عَــلِيٍّ
ولَــمْ تَنفَصِــمْ حَلَقــات الكُبــولِ

وَكيْـــفَ تنسَّـــمَ آلَ النــبيِّ
وَأبْطـــأ عَنَــهُ شِفــاءُ العَلِيـــلِ

وَأطــوَادُ عِزِّهِــــمُ مَاثِــــلاَتٌ
لـــهُ وَهْوَ يَرنـــو بِطــَرفٍ كَليــلِ

وَأبْحُرُهــمْ زَاخِـــرَاتٌ إليْــــهِ
وَيَرشُــفُ فِي الثمَــدِ المُستَحِيــلِ

تَجَــزَّأ مِــنْ جَنــتَيْ مَـــأرَبٍ
بِخَمــطٍ وَأثــلٍ وَسِــدْرٍ قَلِيــلِ

ثــم يضيــف قائــلا:

شَرِيــدُ السُّيُوفِ وَفــلُّ الحُتــوفِ
يَكِيــدُ بأفــلاَذِ قلــبٍ مَهُـــولِ
فأذهَــلَ مُرْضِعَــةً عَــنْ رَضِيــعٍ
وَأنــسَى الحَمَائــمَ ذِكــرَ الهَدِيــلِ
فَمَا تَهْتــدِي العَيْــنُ فِيهَا سَبِيــلاً
سِــوَى سُبُــلِ العَبَرَاتِ الهُمُــولِ
وَلاَ يَعْــرِفُ المَوْتُ فِيهَا طَرِيقــاً
إلى النَّفــسِ إلاَّ بِعَضْــبٍ صَقِيــلِ
رَكِبْــتُ لَهَــا مَحْمَــلاً للنجَــاةِ
وَصَيَّــرْتُ قَصْــدَكَ فِيهِ عَدِيــلِي
فــرُدَّتْ عَــلى عَقِبَيْهَــا المَنــونُ
بــوَاقٍ مُجيــرٍ وَرَأيٍ أصِيــلِ
وَقَــد سُمْتهَــا بِنَفِيــسِ التــلاَدِ
عَلى أنفــسٍ ضَائِعَــاتِ الذُّحُــولِ
نُفُوسُ حَنَتْ قــوْسَ عَطْفِي عَلَيْهَــا
فكــنَّ سِهَــامَ قِــسِيِّ الخمُـــولِ

إلى أن يقــول:

إلَـــى الـهَاشِــمِيِّ إلـَــى الطالِــبيِّ
إلَى الفَاطِمِيِّ العَطُــوفِ الوَصُــولِ

فَسُـــمِّيَ جَــدُّكَ عَمْــرو الكِــرَامِ
بهَشْــمِ الثرِيــدِ زَمَـــانَ المُحُــولِ

وَضَيَّــفَ حَتَّى وُحُــوشَ الفــلاَةِ
وَأهْــدَى القِرَى لِهِضَابِ الوُعُــولِ

وَإنَّ أبَـــا طالِـــــبٍ لِلضُيُـــــوفِ
لأطلـــبُ مِـــنْ ضَيفِــهِ لِلنـــزُولِ

يَــرُوحُ عَلَيْهِــم بغــرِّ الجِفـــــانِ
وَيَغــدُو لَهُمْ بِالغَرِيــضِ النشِيــلِ

فَأنْتــمْ هُــدَاةُ حَيَــاةٍ وَمَـــــوْتٍ
وَأنتــمْ أئمــةُ فِعْـــــلٍ وَقِيـــــلِ

وَسَـــادَاتُ مَنْ حَلَّ جَنـــاتِ عَــدْنٍ
جَمِيــعِ شَبَابهــــمُ وَالكهُـــــولِ

وَأنتــمْ خَلاَئــفُ دُنيَـــا وَدِيـــــنٍ
بِحُكْــمِ الكِتـــابِ وَحُكْــمِ العُقُــولِ

ووَالِدُكـــــمْ خَاتِـــــمُ الأنبيَـــــاءِ
لَكــمْ مِنـــهُ مَجْــدُ حَــفِيٍّ كَفِيــلِ

تلـــذُّ بحَمْلكـــمُ عَاتقـــاهُ
عَلَى حَمْلِـــهِ كـلَّ عِـبْءٍ ثقِيــلِ
ورَحْـبٌ عَلَى ضَمِّكــمْ صَـدْرُهُ
إذَا ضَــاقَ صَدْرُ أبٍ عَنْ سَلِيــلِ
وَيَطرُقُــهُ الــوَحْيُ وَهْنــاً وَأنتــُمْ
ضَجيعَــاهُ بَيــنَ يَـدَيْ جِبْرَئِيــلِ
وَزَوَّدَكــمْ كــلَّ هَــدْيٍ زكِــيٍّ
وَأوْدَعَكــمْ كــلَّ رَأْيٍ أصِيـــلِ

وممـــا قالـــه ابـــن درّاج في وصـــف المقاتليـــن:
وَقَــدْ لَمَعَتْ حَوْلَيكَ مِنْهــمْ أسِنــة
تُخَيــلُ أنَّ الحَزْنَ وَالسَّهْلَ نيــرَانُ
أسُــودُ هَيَــاجٍ مَا تــزَالُ ترَاهُــمُ
تطِيــرُ بِهمْ نَحْوَ الكَرِيهَةِ عِقْبَــانُ
وَأقمَــارُ حَرْبٍ طالِعَــاتٌ كأنمَــا
عَمَائِمُهُمْ فِي مَوقِفِ الرَّوْعِ تِيجَــانُ
وَكــلُّ زَنَــاتِيٌّ كــأنَّ حُسَامَــهُ
وَهَامَــة مَنْ لاقــاهُ نارٌ وَقرْبَــانُ

وَأبْيَــضَ صِنِهَــاجٍ كــأنَّ سِنانَـــهُ

شِهَابٌ إذا أهْوَى لِقرْنٍ وَشَيْطَـانُ

وقــال أيضـا في وصــف لحظــة وداع لأسرتــه:

ولَما تدَانــتْ لِلــوَدَاعِ وَقَــدْ هَفَـا

بِصَبْــرِيَ مِنهَــا أنــة وَزَفِيــرُ

تُناشِدُنِي عَهْـدَ المَــوَدَّةِ وَالهَــوَى

وَفِي المَهْدِ مَبْغُــومُ النداءِ صَغِيــرُ

عَــيِيٌّ بِمَرْجُوعِ الخِطابِ ولَفْظِــهِ

بِمَوقِــعِ أهْــوَاءِ النفــوسِ خَبيــرُ

تَبَــوَأ مَمْنوعَ القلــوبِ وَمُهِــدَتْ

لــهُ أذْرُعٌ مَحْفوفــة وَنحُــــورُ

فَكــلٌّ مُفَــدَّاةِ الترَائِــبِ مُرْضِــعٌ

وَكــلٌّ مُحَيَّــاةِ المَحَاسِــنِ ظِيــرُ

عَصَيْتُ شَفِيعَ النَّفْسِ فِيهِ وَقَــادَنِي

رَوَاحٌ بِتــدْآبِ السُّــرَى وَبُكــورُ

وَطَارَ جَنَاحُ البَيْنِ بِي وَهَفَتْ بِهَــا

جَوَانِحُ مِنْ ذُعْــرِ الفــرَاقِ تَطِيــرُ

لئِـــنْ ودَّعَتْ مِنِّي غَيـــوراً فإنـــنِي
عَلى عَزْمَتِي مِنْ شَجْوِهَـــا لغَيُـــورُ
ولَـــوْ شَهِدَتنِي وَالهَوَاجرُ تَلتـــظِي
عَلَيَّ ورَقـــرَاقُ السَّـــرَابِ يمُـــورُ
أسَلـــطُ حَـــرَّ الهَاجرَاتِ إذا سَطـــا
عَلى حُرِّ وَجْهي وَالأصِيلُ هَجيـــرُ
وَأسْتَنشِقُ النَّكبَـــاءَ وَهْيَ بَـــوَارِحٌ
وَأسْتَوْطِئُ الرَّمْضَـــاءَ وَهْيَ تفـــورُ
ولِلمَوْتِ فِي عَيْـــنِ الجَبَانِ تَلـــوُّنٌ
ولِلذُّعْرِ فِي سَمْعِ الجَرِيءِ صَفِيـــرُ

وقـــال في وصـــف هـــول البحـــر:

إلَيكَ شَحَنـــا الفلـــكَ تَهـــوِي كأنهَـــا
وَقَدْ ذَعرَتْ عَنْ مَغْربِ الشّمْسِ غِرْبَانُ
عَلَى لُجَـــجٍ خضْرٍ إذا هَبـــتْ الصَّبَـــا
تـــرَامَى بنـــا فِيهـــا ثبيـــرُ وَثَهـــلاَنُ
مَوَاثِـــلٌ ترْعَى فِي ذرَاهـــا مَوَاثِـــلاً
كمَا عُبـــدَتْ فِي الجَاهِلِيَّـــةِ أوْثـــانُ

فِي طَيِّ أسْمَـــالِ الغرِيـــبِ غرَائِـــبٌ
سَكنَّ شِغافَ القلـــبِ شيِـــبٌ وَوِلـــدَانُ
يُرَدِّدْنَ فِي الأحْشَـــاءِ حَـــرَّ مَصَائِـــبٍ
تزِيـــدُ ظلاَمـــاً ليلهَـــا وَهْيَ نِيـــرَانُ
إذَا غِيـــضَ مَاءُ البَحْرِ مِنهَا مَدَدْنـــهُ
بدَمـــعِ عيُـــونٍ تمْترِيهـــنَّ أشْجَـــانُ
وَإنْ سَكنـــتْ عَنا الرِّيَاحُ جَـــرَى بنـــا
زَفِيـــرٌ إلَى ذِكـــرِ الأحِبَّـــةِ حَنـــانُ
يَقلـــنَ وَمَوْجُ البَحْرِ وَالهَـــمُّ وَالـــدُّجَى
تَمـــوجُ بنـــا فِيهَـــا عُيُـــونٌ وَآذَانُ
ألاَ هَـــلْ إلَى الدُّنيَا مَعَـــادٌ وَهلْ لنـــا
سِوَى البَحْرِ قَبْرٌ أوْ سِوَى المَاءِ أكفانُ
وَهَبْنـــا رَأيْنا مَعْلَـــمَ الأرْضِ هَل لنـــا
منَ الأرْضِ مَأوًى أوْ مِنَ الأنسِ عِرفانُ

ـ ثم أبو حفص أحمد بن برد الأكبر:[1]

فأما الكاتب أبو حفص بن أحمد بن برد الأكبر؛ فهو من أهل قرطبة؛ ولم تذكر المصادر أصوله الأولى التي ينحدر نسبه منها. أما ابن بسام فقال إن بني برد ينتمون إلى بني شُهَيد بالولاء. وقد كان ابن برد هذا ـ من قبل ـ كاتبا في البلاط الأموي؛ وأيام بني عامر بالتحديد؛ ثم كتب في آخر أيامه للخليفة علي بن حمود ثم ولده يحيى. وهو جد أبي حفص أحمد بن برد الأصغر؛ صاحب رسالة السيف والقلم. وهذه قطعة من خطاب كتبه ابن برد الأكبر عن علي بن حمود لمنذر بن يحيى التجيبي صاحب سرقسطة: **((وما أنكَرنا شيئاً مما ذهبتَ إليه من التَّأنِّي والتثبت، ولا اعتقدنا إلاَّ رَأيَك في نَظَرَ الاجتماع، وتَرَقّب الالتئامِ؛ لتَرتفِعَ الشُبْهةُ ويَنْجَلِيَ الشَّكُّ؛ وإن كان مَذهَبُنَا فيَ هذه الأمَّةِ مشهوراً، واحتسابُنَا الأجْرَ في صلاحِها معروفاً، وقيامُنا لنصرها وسخاؤنا بأنفُسِنا وأموالنا لاستنقاذها؛ لا نَنْوي إلاَّ وجْهَه تعالى. وإلاَّ فقد عَلِمَ مَنْ عَرَفنا، وأيْقَنَ من أنْصَفَنا؛ أننا كنا في عَيْشٍ هَنِيٍّ، ولَبَبٍ رَخِيٍّ، وعملٍ واسع، ومال**

---

[1] قال ابن بسام: ((وقلد أبو حفص هذا ديوان الإنشاء بعد ابن الجزيري؛ ثم كتب عن سليمان المستعين وغيره من أمراء الفتنة؛ فأسمع الصم بيانا، واستنزل العصم إبداعا وإحسانا؛ وقد أخرجت من رسائله؛ ما يعرب عن فضائله، ويوضح مشهور دلائله؛ وكانت وفاته بسرقسطة سنة ثماني عشرة وأربعمائة؛ وقد نيف على الثمانين)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص: 103.

وافــر، وجنــدٍ مُطيــع، وحصــنٍ منيــع؛ وفي دونِ ذلــك مــا أقنَــعَ مــن عــرفَ الدنيــا بحقيقَتهــا، وأجْــزَأ مــن أنْزلَهــا مَنْزلتهــا؛ ومــا كــفَى مــن لا يعــدِلُ بالسَّلامــةِ ولا يَبيــعُ بالغَبْــن، ولا يركــبُ الأهــوال، ولا يقتحِــمُ المهالــك، مغــرِّراً بدمــه، مُخاطِــراً بنفسِــه، لحُطــامٍ تافِــهٍ، وظــلٍ زائــلٍ، ومتــاعٍ قليــلٍ؛ وإنــا لنرجــو منــه تعــالى أنــه لــم يُيَسِّــرْ مــا يَسَّــرَ مــن آمالنــا إلا عنــد اطّلاعِــه عــلى نيَّتِــنا فيهــا؛ فنحــن بعَيْــنِ اللــه، ونواصينــا بيــدِه، والمُلــكُ والأمْــرُ لــه)).[1]

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 117 ــ 118.

ومــن شعــر أبي حفــص بــن بــرد الأكبــر هــذه الأبيــات الــتي خاطــب بهــا أبــا العــلاء صاعــد بــن الحســن اللغــوي:

أبَــا العَــلاءِ استَمعْ تَعْريضَ ذِي مِقــة
أهْدَى لــكَ الوُدَّ مَحْضاً غَيْــرَ مَقْطــُوبِ

نــاءٍ بِغرْبتِــهِ والفَهــمُ نِسبَتــهُ
وكــمْ دَنِــيٍّ قــصِيٍّ فِي المَناسِيــبِ

وَصَــارَ فِــي غُرْبــةِ الآدَابِ مُغْترِبــاً
أمَا كــفَى الدَّهْــرُ عَــضٌّ دُونَ تغْرِيــبِ

أوْلاكَ مَحْمَــدَةً مِــنْ بَعْــدِ تَجْرِبَــةٍ
لا يَصْلُــحُ الحَمْــدُ إلا بَعْــدَ تَجْرِيــبِ

أنــتَ الــذِي لمْ يُعَاشِــرْ مِثلــهُ رَجُــلاً
فِي العِلْــمِ وَالظَّــرفِ والآدابِ والطيــبِ

تَحْصِيــلُ فَضْلِــكَ للحُسَّــادِ مَعْجَــزَةٍ
وكُنْــهُ عِلمــكَ شَيْءٌ غَيْــرُ مَحْسُــوبِ

أمَّــا اللُّغــاتُ فلاَ يَعْقــوبُ يَبْلــغُ مَــا
وَعِيــتَ مِنهَــا وَلاَ أشْيَــاخُ يَعْقــوبِ

إلى أن يقــول:

ـ ثـم أبـو عامـر أحمـد بن عبـد الملـك بن شهيـد:[1]

وينتسـب هـذا الأديـب الفـذ والشاعـر العمـلاق إلى قبيلـة

حَيَّـا تَحِيَّـةَ ذِي أُنـسٍ بنا وَجِـلاً
قِناعَ وَجْهٍ طَوِيلِ الصَّوْنِ مَحْجُـوبِ
فَقلتُ: أهْلاً ورَحْبـاً، مَنْ هَدَاك لنـا
لَيـلاً؟ فـرَدَّ بتأهِيـلٍ وتَرْحِيـبِ
قالَ: مَاذا ترَى؟ قلتُ: الغَزَالـةُ فِي
ثوْبِ احْمِرَارٍ مِنَ الظلمَاءِ غِرْبِيـبِ
وَقالَ: اتئدْ! قُلتُ: قَدْ أبْصَرْتها قِبَـلاً
فَقالَ: حِلاً، فَقلتُ: الحِـلُّ مَطْلُـوبِي
قالَ: تَحَـرَّ فلاَ تشطَطْ بنَـا سَرَفـاً
فَقلْتُ: لَيْسَ سِوَى التَّقْصِيرِ مَرْغُوبِي
ثمَّ اعْلَـمِي أنني فِي حُبِّكـمْ دَنِـفٌ
قَالَتْ: عَلِمْتُ فَلاَ تَخْضَعْ لِمَحْبُـوبِ
قُلْتُ: الوِصَالُ، فَقَالَتْ: مَهْ بَلَى وَعَسَى
وَفِي عَسَى فرْجَةٌ ترْجَى لِمَكـرُوبِ
ثمَّتَ ولتْ فَأبْقتْ فِي الحَشَا ضَرَمـاً
يَذكـو بِدَمْعٍ عَلَى الخَدَّينِ مَسْكُـوبِ
فَالآنَ فَازْجُرْ أوِ اسْجَعْ إنْ هَمَمْتَ بِهِ
كَسَجْعِ شِـقٍّ أوِ الأفعَى أوِ الذِّيـبِ
هَـذِي عِبَارَتِهَـا فالأمْـرُ مُشْتَـرَكٌ
تلـقَى أفانِينـهُ طـراً بِتَهْذِيـبِ

[1] قـال ابـن بسـام نقـلا عـن ابـن حيـان: ((كـان أبـو عامـر يبلـغ المعـنى ولا يطيـل سَفَـرَ الكـلام؛ وإذا تأملتـه ولسَنَـه، وكيـف يَجُـرُّ في البلاغـة رسنـه؛ قلـت عبـد الحميـد في أوانـه، والجاحـظ في زمانـه. والعجـب منـه أنـه كـان يدعـو قريحتـه إلى مـا شـاء مـن نثـره ونظمـه في بديهتـه ورويِّتِـه؛ فيقـود الكـلام كمـا يريـد مـن غيـر اقتنـاء للكتـب، ولا اعتنـاء بالطلـب، ولا رسـوخ في الأدب؛ فإنـه لـم يوجـد لـه رحمـه اللـه ـ فيمـا بلغـني ـ بعـد موتـه؛ كتـاب يستعيـن بـه علـى

أشجع الغطفانية العربية. هذا ويعتبر النقاد القدماء أحمد بن شهَيْد في صف أهم الأدباء الأفذاذ الذين أنجبتهم بلاد الأندلس في وقته؛ إذ كان يتميز بسهولة عجيبة في التعبير؛ سواء كان ذلك شعرا أم نثرا. فهو بذلك شاعر وناثر في الوقت ذاته.[1] ومن أشهر أعماله الأدبية رسالة "التوابع والزوابع"؛ التي حلق بخياله فيها؛ حيث تخيل أنه قام برحلة إلى أرض الجن؛ بمساعدة جني من قبيلة أشجع الجن. التي تتطابق مع قبيلته أشجع ذات الأصول الأنسية. وأشار في تلك الرحلة إلى ما شاهده، وتكلم عن الذين لقيهم من الجن؛ أتباع الشعراء الفحول وشياطينهم؛ حيث وتحاور معهم وقرأ عليهم شعره

صناعته، ويشحذ من طبعه إلا ما لا قدْر له؛ فزاد ذلك من عجائبه، وإعجاز بدائعه)). نفسه، ص: 192.

[1] قال الحميدي في ترجمة ابن شهيد: ((من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة، وله حظ من ذلك يسبق فيه، ولم ير لنفسه في البلاغة أحدا يجاريه؛ وله كتاب "حانوت عطار" في نحو من ذلك، وسائر رسائله وكتبه نافعة الجد، كثيرة الهزل؛ وشعره كثير مشهور؛ وقد ذكره أبو محمد علي بن أحمد [بن حزم] مفتخرا به؛ فقال: "ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد؛ وله من التصرف وجوه البلاغة وشعبها مقدار ينطق فيه بلسان مُركَّب من لساني: عمرو [بن بحر الجاحظ] وسهل [بن هارون]... قال لنا أبو محمد علي بن احمد [بن حزم] توفي أبو عامر ابن شهيد ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى، سنة ست وعشرين أربعمائة بقرطبة؛ ودفن يوم السبت ثاني يوم وفته في مقبرة أم سلمة؛ وصلى عليه جهور بن محمد بن جهور أبو الحزم. وكان حين وفاته حامل لواء الشعر والبلاغة؛ لم يخلف لنفسه نظير في هذين الهلمين جملة؛ ومولده سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة)). جذوة المقتبس، ص ص: 133 ـ 136.

فأجـــازوه. وهـــذه الرسالـــة ــ كمـــا هـــو ظاهـــر ــ سبـــق بهـــا غيـــره مـــن المبدعيـــن العـــرب وغيـــر العـــرب؛ إذ كتبهـــا قبـــل أن يكتـــب: أبـــو العـــلاء المعـــري العـــربي رسالـــة الغفـــران، وقبـــل أن يكتـــب آليـــاري دانـــتي الإيطـــالي قصتـــه الكوميديـــا الإلهيـــة، أو جـــون ميلتـــون الأنجليـــزي الفردوس المفقـــود.

هـــذا وقـــد عـــاش أبـــو عامـــر أحمـــد بـــن شهيـــد في أدق فتـــرة عرفتهـــا بـــلاد الأندلـــس؛ كمـــا أنـــه انغمـــس في الصراعـــات الـــتي دارت ــ آنئـــذ ــ بيـــن الطوائـــف المختلفـــة ــ أيـــام الفتنـــة الكبـــرى الـــتي اجتاحـــت تلـــك الديـــار ــ وقضـــت عـــلى مؤسســـات الخلافـــة الأمويـــة نهائيـــا. وقـــد كـــان في عـــداد الأدبـــاء الذيـــن عايشـــوا الفتـــرة الزمنيـــة الـــتي أظلـــت الدولـــة الحموديـــة ســـواء كـــان ذلـــك في قرطبـــة؛ أو في مالقـــة؛ تلـــك المدينـــة الـــتي هاجـــر إليهـــا ابـــن شهيـــد مـــع بعـــض أعيـــان قرطبـــة ــ لبعـــض الوقـــت ــ بعـــد أن ازداد الوضـــع تعفنـــا في قرطبـــة؛ بسبـــب مـــا أبـــداه بقايـــا الخلفـــاء الأمويـــون مـــن سلـــوك ســـيئ. وعليـــه فقـــد ذهـــب أولئـــك الأعيـــان ــ وفيهـــم ابـــن شهيـــد ــ إلى مالقـــة مستنجديـــن بيحـــيى بـــن حمـــود؛ طالبيـــن منـــه العـــودة إلى قرطبـــة.[1]

---

[1] لكامـــل في التاريـــخ، ج: 7، ص ص: 287 ـــ 288. وأعمـــال الأعـــلام، ق: 2، ص ص: 134 ــ 136. ودولـــة الإســـلام في الأندلـــس، ق: 2، ص ص: 666 ــ 667.

ويبدو أنه لم يتول مهام وزارية في بلاط بني حمود؛ وإن كان من الذين يترددون عليه. ولم يكن ابن شهيد – حسبما تشير إليه بعض النصوص – من المقربين المحبوبين إلى حاشية الخلفاء من بني حمود؛ بل يبدو أنه تعرض – أحياناً – إلى بعض المضايقات من تلك الحاشية[1].

---

[1] وقد نقل المقري عن صاحب المطمح نصا يشير إلى ذلك الجفاء والإقصاء جاء فيه: ((ودبَّت إلى أبي عامر ابن شهَيد أيَّام العلويين عقَارب؛ برئت بها منه أباعد وأقارب؛ واجهه بها صَرْفُ قطوب؛ وانبرت إليه منها خطوب؛ نبَا لها جَنْبه عن المضجع، وبقي بها ليالي يأرق ولا يهجع؛ إلى أن أعلقت في الاعتقال آماله، وعقلته في عقال أذهب ماله؛ فأقام مرتهناً، ولقي وَهَناً؛ وقال:

قرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوَانِ مَجيدُ
يَجُودُ وَيَشْكو حُزنَهُ فيُجيدُ
نعَى صَبْرَهُ عِندَ الإمَامِ فَيا لَهُ
عَدُوٌّ لأبناءِ الكِرَامِ حَسُودُ
وَمَا ضَرَّهُ إلاَّ مِزَاحٌ وَرِقَة
ثنته سَفِيهَ الذِّكرِ وَهوَ رَشِيدُ
جَنَى مَا جَنَى فِي قُبةِ المُلكِ غَيرُهُ
وَطُوِّقَ مِنهُ بِالعَظِيمَةِ جيدُ
وَمَا فِيَّ إلاَّ الشِّعر أثبَتهُ الهَوَى
فَسَارَ بِهِ فِي العَالَمِينَ فرِيدُ
أفُوهُ بمَا لمْ آته مُتعَرِّضاً
لِحُسْنِ المَعَانِي تَارَةً فأزِيدُ
فإنْ طَالَ ذِكرِي بِالمُجُونِ فإنهَا
عَظائمُ لمْ يَصْبرْ لهُنَّ جَلِيدُ
وَهَلْ كنتُ فِي العُشَّاق أوَّلَ عَاقِلٍ
هَوَتْ بِحجَاهُ أعْيُنٌ وَخُدُودُ

فِـراقٌ وَشَجْـوٌ وَاشْتِيَـاقٌ وَذِلَـةٌ
وَجَبَّـارُ حُفَّـاظٍ عَلَـيَّ عَتِيـدُ
فَمَـنْ يُبْلِـغُ الفِتيَـانَ أنِّـيَ بَعْدَهُـمْ
مُقِيـمٌ بـدَارِ الظَّالِمِيـنَ وَحِيـدُ
مُقِيـمٌ بـدَارٍ سَاكِنوهَـا مِـنَ الأذَى
قِيَـامٌ عَلَـى جَمْـرِ الحِمَـامِ قعـودُ
وَيسْمَـعُ لِلْجَنَـانِ فِي جَنَباتِهَـا
بَسِيـطٌ كترْجيـعِ الصَّـدَى وَنَشِيـدُ
وَلسْـتُ بِـذِي قَيْـدٍ يَـرِنُّ، وَإنمَـا
عَلَى اللحْـظِ مِنْ سُخطِ الإمَـامِ قيُـودُ
وَقلـتُ لِصَـدَّاحِ الحمَـامِ وَقـدْ بَـكَى
عَلَى القصْـرِ إلفـاً وَالدُّمـوعُ تَجُـودُ
ألاَ أيُّهَـا البَـاكِي عَلَـى مَـنْ تُحِبـهُ
كِلاَنَـا مُعَـنًّى بِالخَـلاَءِ فَرِيـدُ
وَهَلْ أنـتَ دَانٍ مِنْ مُحِـبٍّ نـأى بِـهِ
عَـنِ الإلْـفِ سُلطَـانٌ عَلَيـهِ شَدِيـدُ
فَصَفقَ مِنْ رِيـشِ الجَنَاحَيـنِ وَاقِعـاً
عَلَى القـرْبِ حَـتَّى مَا عَلَيـهِ مَزِيـدُ
وَمَـا زَالَ يُبْكِينِـي وَأبْكِيـهِ جَاهِـداً
وَلِلشَّـوقِ مِنْ دُونِ الضُّلُـوعِ وَقُـودُ
إلى أنْ بَكَى الجُدْرَانُ مِنْ طُولِ شَجْوِنَـا
وَأجْهَـشَ بَـابٌ جَانِبَـاهُ حَدِيـدُ
أطَاعـتْ أمِيـرَ المُؤمِنِيـنَ كتائـبٌ
تصَـرَّفُ فِي الأمْـوَالِ كيْـفَ ترِيـدُ
فلِلشَّمْـسِ عَنهـا بِالنَّهـارِ تأخـرٌ
وَلِلبَـدْرِ شِحْنـاً بِالظـلاَمِ صُـدُود
ألاَ إنهَـا الأيـامُ تلعَـبُ بِالفـتَى
نُحـوسٌ تهَـادَى تـارَةَ وَسُعُـودُ

مع ذلك فقد اختار اللجوء إلى مالقة، وفضل رعاية يحيى بن علي بن حمود؛ عندما ضاق به الحال في قرطبة؛ بسبب ما وصل إليه الوضع في تلك المدينة من فساد وتعفن بعد خروج بني حمود منها. لذا فقد قال هذه القصيدة لما أزمع الخروج إلى مالقة:

أرَى أعيُنـاً ترنـو إلَيَّ كأنمَـا
تسَـاوِرُ مِنهـا جَانـبَيَّ أرَاقـمُ
أدُورُ فـلاَ أعتْـامُ غيْرَ مُحَـارِبٍ
وَأسْعَى فلاَ ألقَى امرُءاً لِي مُسَالـمُ
ويَجْلبُ لِي فَهمِي ضُرُوباً مِنَ الأذَى
وأشْقَى امرُئٍ فِي قَرْيَةِ الجَهْلِ عَالمُ
وَأوْجَعُ مَظلومٍ لِقلبٍ وَذِي حِجىً
فـتىً عَـرَبِيٌّ تزْدَرِيـهِ أعَاجـمُ

وَمَا كنتُ ذا أيدٍ فَأذعن ذا قوًى
مِنَ الدَّهرِ مُبدٍ صَرْفَهُ وَمُعِيدُ
وَرَاضَتْ صِعابِي سَطوَةٌ علوِيةٌ
لهَا بَارِقٌ نحْوَ النّدَى وَرُعودُ
تقولُ التِي مِنْ بَيْتِهَا كفَّ مَركبِي
أقرْبكَ دَانٍ أمْ مَدَاكَ بَعِيدُ
فقلتُ لَهَا أمْري إلى مَنْ سَمَتْ بهِ
إلَى المَجدِ آباءٌ لهُ وَجُدُودُ

غَنَيْتمُ علَى مَا تزْعُمُونَ عَنِ الورَى
لقدْ سَفِهَـــتْ تِلكَ الحُلــومُ الزَّوَاعِـــمُ
وَهَلْ يُقْدِمُ البَازِي عَلى الطَّيْر فِي الضُّحَى
إذا زَالَ عَنْ رِيشِ الجَناحِ القــوَادِمُ
سَـــلاَمٌ عَليكـــمْ لاَ تَحِيَّـــةَ شَاكِـــرٍ
ولَكِنْ شَـــجىً تنْسَـــدُّ مِنهُ الحَلاَقـــمُ
وَمَا قرِعَتْ سِـــنِّي عَليْكـــمْ ندَامَـــةً
وَأوشكْ غـــداً أنْ يَقرَعَ السِّن نـــادِمُ
علَيكمْ بـــدَارِي فاهْدِمُوهَـــا دَعَائِمـــا
ففِي الأرْضِ بَنـــاءُونَ لِي ودَعَائـــمُ
لئِنْ اخْرَجَتنِي عَنكم شَـــرَّ عُصْبـــةٍ
ففِي الأرْضِ إخْـــوَانٌ عَلَيَّ أكـــارِمُ
وَإنْ هَضَمَتْ حَـــقِّي أمَيَّـــةُ عِندَهَـــا
فَهَاتـــا عَلى ظَهرِ المَحَبـــةِ هَاشِـــمُ
وَلاَ غـــرْوَ مِنْ تِلكَ القلاَنسِ جَالِيـــا
إذا عَرَفتْ حَـــقِّي هُنـــاكَ العَمَائـــمُ

وقـــال في وصـــف نحلـــة:

وَطائِــرَةٍ تهــوِي كـــأنَّ جَناحَهَـــا
ضَمِيــرٌ خَــفِيٌّ لاَ يُحَـــدِّدُهُ وَهـــمُ

مُلاَزِمَـــةٍ لِلـــرَّوْضِ حَتَّى كأنهَـــا
لَهَا كلُّ مَا تفترُّ عَنهُ الرُّبَى طَعْـــمُ

تَمُجُّ بِفيهَا الشَّهْدَ صِرفاً وَيَخْتَـــفِي
لِمُشْتَـــارِهِ مَا بَيْنَ أحْشَائِهَـــا سَهـــمُ

مُنافِــرَةٍ لِلإنِـــسِ تأنَـــسُ بِالفَـــلاَ
مُفرِّقةٍ لِلشَّهْدِ، مِنْ بَعْضِهَـــا السُّـــمُّ

فإدناؤُها رُشْـــدٌ وَهَتـــكُ حِجَابهَـــا
إذا احتَجَبَتْ فِي غَيْرِ أيامِهَا ظلـــمُ

وقـــال في وصـــف برغـــوث:

وَمُنفــرٍ للنـــــوْمِ مَسْكنـــــهُ إذَا
نـــامَ المُمَلَـــكُ بَيْنَ أثنـــاءِ الثيَـــابْ

يَسْرِي إلَى الأجْسَامِ يَهْتِـــكُ عَـــدْوُهُ
عَنْ كلِّ جِسْمٍ صِيغَ بِالنُّعْمَى حِجَابْ

وَيَعُـــضُّ أرْدَافَ الحِسَـــانِ وَمَالـــهُ
كفٌّ وَلَكِنْ فوهُ مِنْ أعْدَى الحِـــرَابْ

مُتَحَكَــمٌ فِي كـلِّ جِسْــمٍ ناعِــمٍ
مُتدلِــلٌ مَا بَيْــنَ ألْحَــاظِ الكِعَــابْ

فــإذَا هَمَمْــتَ بزَجْــرِهِ ولَّى وَلاَ
يُثنِيــهِ عَمَّــا قــدْ تَعَــوَّدَهُ طِــلاَبْ

وتَرَى مَوَاضِعَ عَضِّــهِ مَخضُوبَــةً
بدَمِ القلُــوبِ وَمَا تَعاوَرَهُ خِضَــابْ

قــرْمٌ مِنَ الليْــلِ البَهيــمِ مُكــوَّرٌ
يَمْــشِي البَــرَازَ وَمَا توَارِيهِ ثِيَــابْ

عَظمَــتْ رَزِيَّتـــهُ ولَكِــنْ قــدْرُهُ
أخزَى وَأهوَن مِنْ ذبَابٍ فِي تــرَابْ

ومــن روائــع مــا كتبــه نثــرا في وصــف برغــوث قولــه: ((**أســودُ زنــجيٌّ، وأهــليٌّ وحــشيٌّ، ليــس بــوانٍ ولا زُمَّيْــل، كأنــه جــزء لا يتجــزأ مــن لَيــل، وشُونيزَةٍ،**[1] **وَثَبَتُهَــا غريــزة، أو نقطــة مــداد، أو سويــداء قلــب فــؤاد، شربــه عــبٌّ، ومَشْيــهُ وَثــبٌ، يَكمُــنُ نهــاره، ويَسْــري ليلــه، يــدرك بطعــن مؤلــم، ويستحــلُّ دم كــل مسلــم، مســاور للأســاوِرَة، يجــرُّ ذيلــه عــلى الجبابــرة يتكفــرِ بأرفــع الثيــاب، ويَهْتِــكُ سِتــرَ كــل حجــاب، ولا يَحْفِــلُ ببــوَّاب، يــرد مناهــل العيــش العَذبَــة، ويصــل إلى**

[1] **الشُّونيــزَة هي الحبــة الســوداء، وتسميهــا العامــة في الجزائــر سَيْنُوجَــة.**

الأحراج الرطبة، لا يُمْنَعُ منه أمير، ولا يَنفعُ فيه غيْرَةُ غَيور، شَرُّهُ مبثوث، وعهده منكوث، وهكذا كل بُرْغوث)).[1]

ويبدو أنه كان يخوض صراعا ساخنا ضد مجموعة من أدباء وعلماء قرطبة؛ إذ كانت بينهم منافسة شديدة؛ تجلت في بعض المناقضات والمعارضات التي كانوا يشنونها ضد بعضهم بعضا. ولم ينج من هذا الصراع حتى من ولي منهم مناصب عليا في الدولة[2].

---

[1] المغرب في حلى المغرب، ج: 1، ص: 83.

[2] وهذا خبر نقل عن ابن شهيد يتعرض للأديب الكاتب ابن عباس الذي كان يتولى وزارة الفتى زُهير الصقلبي؛ جاء فيه: ((لما قدم زهير الصقلبي إلى حضرة قرطبة من المرية وجّه وزيره أبو جعفر بن عباس إلى لُمَّة من أصحابنا منهم: ابن بُرْد وأبو بكر المرواني وابن الحناط والطبني؛ فحضروا إليه؛ فسألهم عني وقال: "وجِّهُوا إليه"؛ فوافاني رسوله مع دابة بسَرْج مُحَلَّى ثقيل؛ فسرت إليه، ودخلت المجلس وأبو جعفر غائب؛ تحفز المجلس لدخولي، وقاموا جميعا لي؛ حتى طلع أبو جعفر علينا ساحباً ذيلاً لم أرَ أحداً سَحبَه قبله، وهو يترنم؛ فسلمت عليه سلامٍ من يعرف قدر الرجال، فرد رداً لطيفا؛ فعلمت أن في أنفه نُعرة لا تخرج إلاّ بسعط الكلام، ولا ترام إلا بمستحصد النظام؛ ورأيت أصحابي يُصيخون إلى ترنمه. فقال لي ابن الحناط؛ وكان كثير الإنحاء عليّ، جالبا في المحافل ما يسوء إلَيَّ: "إن الوزير حضره قسيم، وهو يسألنا إجازته"؛ فعلمت أنِّي المراد؛ فاستنشدته، فأنشد:

مَرَضُ الجُفونِ وَلثْغة فِي المَنطِق

فقلت لمن حضر: لا تجهدوا أنفسكم؛ فما المراد غيري؛ ثم أخذت الدواة فكتبت:

سَبَبانِ جرَّا عِشْقَ مَنْ لمْ يَعْشق
مَنْ لِي بألثغَ لاَ يَزَالُ حَدِيثُهُ
يذكِي عَلَى الأحْشَاءِ جَمرَةَ مُحرق
ينبِي فَينبو فِي الكلاَمِ لِسَانُهُ
فكأنهُ مِنْ خمرِ عَينيهِ سُقِي

وكتب ابن شهيد إلى الكاتب الأديب أبي بكر محمد بن قاسم المعروف باشكمياط أو (أشكنهاط) رسالة قال فيها منتقدا إياه: ((**ما أغيرَكَ أبا بكر، على نظم ونثر؛ لو إليكَ كانَ العلم، أو بكفك كانَ الفهم؛ لم تترك لأرض أعلاماً، ولا لغيرك إنعاماً؛ أحَشا عند رِعدتك؟!**[1] **عرضت عليك الدُّرَّ منظوماً؛ فقلت: نعم ما صنعت لو اخترعت؛ وما أحس ما أطلعت لو ابتدعت. معرّضا بالتقَصُّص،**[2] **ومشيراً إلى التلصُّص؛ هيهات ! لا يزيد الحزّ من الغرَب** [الذهب والفضة]، **ولا يضيءُ السليط في القصب** [أي أنابيب

لاَ ينعِشُ الألفاظَ مِنْ عَثَرَاتِها

وَلوانَّها كتِبتْ لهُ فِي مهرَق

ثم قمت عنهم؛ فلم ألبث أن وَرَدُوا علَيَّ، وأخبروني أن أبا جعفر لم يرضَ بما جئت به من البديهة، وسألوني أن أحمل مَكاويَ الهجاء على حتاره [أي تحريفه]؛ فقلت:

أبو جَعفرٍ كاتِبٌ مُحسِنٌ

مَلِيحُ سنا الخطِّ حلوُ الخطابة

تملأ شحماً ولَحماً وَما

يليقُ تملُؤُهُ بِالكِتابة

لهُ عرَقٌ ليسَ ماءَ الحياءِ

وَلكِنهُ رَشحُ ماءِ الجنابة

جرَى المَاءُ فِي سُفلِهِ جرْيَ لينٍ

فأحدَثَ فِي العلوِ مِنهُ صَلاَبة)).

نفح الطيب، ج: 3، ص ص: 610 -611.

[1] أي هل يصح الحش (ترييش السهم استعدادا للرمي) مع رعدة تنتاب الرامي.

[2] أي الولوع في تتبع معاني الآخرين.

مـــن الجوهـــر][1] **لأقطعـــنَّ حبالـــك هاجـــراً، ولأتركـــن ليلـــك ساهـــراً)).**[2]

ومـــن النصـــوص الـــتي يعـــارض فيهـــا ابـــن شهيـــد بعـــض الكتـــاب المحافظيـــن، المتشبثيـــن بالأساليـــب القديمـــة للبيـــان قولـــه: **((وإصابـــةُ البيـــان لا يقـــومُ بهـــا حفـــظُ كثيـــر مـــن الغريـــب، واستيفـــاءُ مسائـــلِ النحـــو؛ وإنمـــا يقـــوم بهـــا الطبـــع مـــع وَزْنِـــه مـــن هذيـــن: النحـــو والغريـــب. ومقـــدارُ طبـــعِ الإنســـان إنمـــا يكـــونُ عـــلى مقـــدار تركيـــب نفســـه مـــعِ جسمـــه؛ فمـــن كانـــت نفســـه في أصـــلِ تركيبـــه مستوليـــةً عـــلى جسمـــه؛ كـــان مطبوعـــاً روحانيـــاً؛ يـــطلـــع صُـــورَ الكـــلام والمعـــاني في أجمـــلِ هيئاتهـــا، وأروَقِ لبساتهـــا؛ ومـــن كـــان جسمـــه مستوليـــاً عـــلى نفســـه ــ مـــن أصـــل تركيبـــه ــ والغالـــبَ عـــلى حسّـــه؛ كـــان مـــا يطلـــعُ مـــن تلـــك الصـــور ناقصـــاً عـــن الدَّرجـــة الأولى في الكمـــال والتمـــام، وحُسْـــنِ الرَّونـــق والنظـــام. فمـــن كانـــت نفسُـــه المستوليـــة عـــلى جسمـــه فقـــد تـــأتي منـــه في حســـن النظـــام صُـــورَرٌ رائقـــة مـــن الكـــلام؛ تمـــلأ القلـــوب، وتشعـــف النفـــوس. فـــإذ فتشـــت لحسنهـــا أصـــلا لـــم تجـــده، ولجمـــال تركيبهـــا أســـا لم تعرفـــه؛ وهـــذا هـــو الغريـــب؛ أن يتركـــب الحســـن مـــن غيـــر حســـن؛ كقـــول امـــرئ القيـــس:**

---

[1] أي أن الذهـــب والفضـــة لا يصلحـــان للسهـــام؛ ولـــن يزيـــد الحـــز مـــن قيمتهمـــا لـــكي يصيـــرا سهامـــا؛ كمـــا لا يـــضيء السليـــط في قناديـــل مـــن أنابيـــب الجوهـــر؛ بينمـــا يـــضيء في قناديـــل بسيطـــة.

[2] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 230 ـــ 231.

تنوَّرتُهَـــا مِنْ أذرُعَــاتٍ وَأهــلـهَـــا
بيَثْــربَ أدنَى دَارِهَـــا نظــرٌ عــَالِي

فـــإن هـــذه الديباجـــة إذا تطلبـــت لهـــا أصـــلاً مـــن غريـــب معـــنىً لـــم تجـــده. وكقـــول أبي نـــواس:

طرَحتــمْ مِـــنَ الترْحَـــالِ ذِكــراً، فَغَمنـــا،
فَلوْ قدْ شَخَصْتمْ صَبَّحَ المَوْتُ بَعْضَنَـــا

ثـــم قولـــه:

سَأشْكو إلى الفَضْلِ بْنِ يَحْـيَى بْنِ خَالِـدٍ
هَـــوَاكِ، لَعلَّ الفضْــلَ يَجْمَــعُ بَيننـــا

فهـــذا مـــن الكـــلام الغـــثِّ، واللفـــظِ الـــرَّثِّ؛ الـــذي لـــو رامـــه حِمـــار الكُســـاح لأدركـــه؛ ولكـــن لـــه مـــن التعلـــق بالنفـــسِ، والاستيـــلاء عـــلى القلـــب مـــا تـــرى)).[1]

ولمزيـــد مـــن الفائـــدة نثبـــت هنـــا هـــذه المقاطـــع مـــن رسائـــل أدبيـــة، نقديـــة رائعـــة كتبهـــا ابـــن شهيـــد؛ جـــاء فيهـــا: ((وكمـــا أن لكـــل مَقـــامٍ مَقـــالاً؛ فكذلـــك لكـــل عصـــر بيـــان، ولكـــلِّ دَهـــرٍ كـــلام، ولكـــلّ طائفـــةٍ مـــن الأمـــم المتعاقبـــة نـــوعٌ مـــن الخطابـــة، وضـــربٌ مـــن البلاغـــة؛ لا يوافقُهـــا غيـــرُه ولا تَهـــشُّ لســـواه. وكمـــا أن للدنيـــا دولاً؛ فكذلـــك للكـــلام نقـــلٌ وتَغَايـــرٌ في العـــادة. ألا تـــرى أنَّ

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 231 ــ 232.

الزَّمان لما دار كيف أحال بعضَ الرَّسمِ الأولِ في هذا الفنِّ إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان؟ فالصنعة معهم أفسَحُ باعاً، وأشدُّ ذراعاً، وأنورُ شُعاعاً؛ لرُجْحان تلك العقول، واتساع تلك القرائح في العلوم. ثم دار الزمانُ دَوَرَاناً؛ فكانت إحالةٌ أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس ومحمد بن الزَّيَّات وابني وهبٍ ونظرائهم؛ فرقت الطِّباعُ، وخف ثقلُ النفوس. ثم دار الزمانُ فاعترى أهله بالطائف صلَفٌ، وبرِقةِ الكلامِ كلفٌ؛ فكانت إحالة أخرى إلى طريقة البديع وشمس المعالي وأصحابهما. وكذلك الشعراءُ انتقلوا عن العادة في الصنعةِ بانتقال الزمانِ؛ وطلبَ كلٌّ ذي عصرٍ ما يجوز فيه، وتهشٌ له قلوبُ أهلهِ؛ فكان من صريعِ الغواني وبَشارٍ وأبي نواسٍ وأصحابهم في البديع ما كان؛ من استعمال أفانينهِ والزيادة في تفريع فنونهِ.

ثـم جـاء أبـو تمـامٍ فأسـرف في التجنيـس، وخـرج عـن العـادة؛ وطـابَ ذلـك منـه، وامتثلـه النـاس؛ فكـل شِعـرٍ لا يكـونُ اليـوم تجنيسـاً أو مـا يُشبهـه تَمُجـه الآذانُ؛ والتوسُّـطُ في الأمـرِ أعـدلُ؛ لأنـه لَبـسَ ديباجـة المُحدثيـن عـلى لأمـةِ العـرب؛ فتركَـبَ لـه مـن الحُسْـنِ بينهمـا مـا تَركـب)).[1]

((وأهـل صناعـة الكـلام مُتباينـون في المنزلـة، متفاضِلـون في شَـرَفِ المرتَبـة، عـلى مقـدارِ إحسانهـم وتصرُّفِهـم. فمنهـم الـذي ينظـم الأوصـاف، ويختـرعُ المعـاني، ويحـرز جيـد اللفـظِ؛ إلاَّ أنـه يَصْعُـبُ عليـه الكـلام، ويكـدُّ قريحتـه التأليـف؛ حـتى إنـه رُبَّمَـا قَصَّـر في الوصـف، وأسـاءَ الوضـع. فهـذا في الأبيـاتِ القليلـة نافـر، وفي القريبـةِ المأخـذِ سائـر، وفي طريقـة الجمهـور الأعظـم ذاهـب؛ حـتى إذا ازدحمـت عليـه، وانحشَـدَتْ إليـه، وطالبتـه ببهـاءِ البهجـة، وشـرف المنزلـة، وقـف وأنفـلّ، وتـلاشى واضمحـل. ومنهـم الكـارعُ في بحـر الغـزارة، القـارحُ بشُعـاعِ البراعـة؛ الـذي يَمُـرُّ مَـرَّ السَّيـلِ في اندفاعـه، والشؤبُـوبِ في انصبابـه؛ لا يشكـو الفشَـلَ، ولا يَكِـلُّ عـلى طـولِ العمـل؛ إذا ازدحَمَـتْ في الكـلامِ عليـه المطالـب، وعَلِقـتْ بحـواشي فكـره المـآرب، وحُشـرت عليـه الصعائـب والغرائـب؛ استقـلَّ بهـا كاهلـه، واضطلـع بثقلهـا غاربـهُ، وأعارَهـا مـن نظـرِه لَمْحـة، ومـن فِكْـره

[1] الذخيـرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 237 ــ 238.

قدْحَـــة، ثـــم رمى بهـــا عـــن جانبيـــه؛ قـــد رَوِيَـــتْ بمائهـــا، ولبســـت شُعـــاع بهائهـــا؛ وبـــقي كاللقـــوَةِ في المَرْقـــب؛ ســـامٍ نظـــرُه، قـــد ضـــمَّ جناحَيْـــه، ووقـــفَ عـــلى مخلبـــه، لا تتـــاحُ لـــه جارحـــة إلا اقتصَّهـــا، ولا تنَازلـــه طائـــرة إلاَّ اختَطفهـــا؛ جُرْأتـــه كشَفرتـــه، وبديهتـــه كفكرتـــه؛ فذلـــك الألســـن يـــومَ حـــربِ الكـــلام، لا تُخـــطْئُ ضربتـــُه، ولا تُصـــابُ غرَّتـــُه. ومنهـــم مـــن يتجـــافَى الكـــلام، ويـــرغ عـــن المقـــال؛ فـــإذا مُـــني بـــه، أخـــذ بأطـــرافِ المحاســـنِ، وشـــارَك في أنحـــاءٍ مـــن الصنعـــة؛ وجُـــلّ مـــا عنـــده تلفيـــقٌ وحيلـــة؛ وبذلـــك يُصاحِـــبُ الأيـــَّام، ويُجـــاري أبنـــاء الزَّمـــان؛ مـــا كـــان لـــه عقـــل يغـــطي عـــلى نقصانِـــه، سياســـةً يَسُـــوسُ بهـــا فُحـــولَ زمانِـــه. ومـــن خـــرج عـــن هـــذه الطبقـــات الثـــلاث لـــم يستحـــق اســـم البيـــان، ولا يدخـــلُ في أهـــلِ صناعـــة الكـــلام)).[1]

((وقـــومٌ مِـــن المعلميـــن بقُرْطُبتِنـــَا ممـــن أتى عـــلى أجـــزاءٍ مـــن النحـــو، وحفِـــظَ كلمـــاتٍ مـــن اللغـــة، يحنـــونَ عـــلى أكبـــادٍ غليظـــة؛ وقلـــوبٍ كقلـــوبِ البُعـــران؛ ويَرجعـــونَ إلى فِطـــنٍ حَمِئـــةٍ، وأذهـــانٍ صَدِئـــةٍ؛ لا مَنفـــذَ لهـــا في شُعـــاعِ الرِّقـــةِ، ولا مَـــدَبَّ لهـــا في أنـــوارِ البيـــان. سَقَطـــَتْ إليهـــم كتـــبٌ في البديـــعِ والنقـــدِ فَهِمُـــوا منهـــا مـــا يفهمـــه القـــرد اليمـــاني مـــن الرَّقـــص عـــلى الإيقـــاع، والزَّمْـــر عـــلى الألحـــان؛ فهـــم يُصرِّفـــون غَرَائبَهـــا فيمـــا يَجـــري عندهـــم تصريـــفَ مـــن لـــم يـــرْزَقْ آلـــة الفهـــم،

---

[1] الذخيـــرة، ق: 1، مج: 1، ، ص ص: 238 ــ 239.

ومن لم تكن له آلة الصناعة، مما هي مَخْصوصَة بها، لا تقومُ تلك الصناعة إلا بتلك الآلة؛ فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضربِ العود والطنبور؛ لتوتدِ رُسغه، واستدارة حافره؛ ولا له بنانٌ يَجسُّ به علَى دَسْتبان... فهذه حالُ العصابةِ من المعلِّمين: يدركون بالطبيعةِ، ويقصرون بالآلةِ. وتقصيرهُم بالآلة هو من طريق العِلل الدَّاخِلةِ من فساد الآلةِ القابلةِ للروحانية، والخادمةِ لآلاتِ الفهم، الباعثة لرقيق الدَّم في الشّرْيانات إلى القَلب؛ وزيادةِ غِلظِ أعصابِ الدّماغِ ونقصانِها عن المقدار الطبيعي. يُعِينُ على ذلك بالحَدْسِ وطريق الفِراسة فسادُ الآلةِ الظاهرةِ؛ كفرطحةِ الرأس وتسفيطه، ونتوءِ القَمَحْدُوَةِ، والتِواءِ الشَّدْقِ، وخزَرِ العين، وغِلظِ الأنفِ، وانزواءِ الأرنبة...

وليس العجبُ في هذه العصابةِ إلا من أبي القاسم[1] فإنَّه زاد عليهم في الصناعة، وبَزَّهم بِوُفورِ

---

[1] وهو أبو القاسم إبراهيم بن محمد بن زكريا الزهري المعروف بابن الإفليلي؛ قال فيه الحميدي: ((وكان متصدراً في علم الأدب يُقرأ عليه، ويختلف فيه إليه؛ وكان مع علمه بالنحو واللغة يتكلم في معاني الشعر وأقسام البلاغة والنقد لهما؛ وله كتاب شرح فيه معاني شعر المتنبي)). جذوة المقتبس، ص: 151. وقال ابن بسام نقلا عن ابن حيان: ((وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفليلي... قد بذ أهل زمانه بقرطبة؛ في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة؛ في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية، والمشاركة في بعض معانيها. وكان غيورا على ما يَحْمِل من ذلك الفن، كثير الحسد فيه، راكبا رأسه في الخطأ البين إذا تقلده أو نشب فيه، يجادل عليه، ولا يصرفه صارف عنه، وعدم علم العروض ومعرفته مع احتياجه إليه، وإكمال صناعته به، فلم يكن له شروع فيه. وكان لحق الفتنة البربرية بقرطبة؛ ومضى الناس من حائن وظاعن؛ فازدلف إلى الأمراء المتداولين بقرطبة من آل حمود ومن تلاهم إلى أن نال الجاه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 281 ـ 282. أما صاحب المغرب فقد أضاف: ((استكتبه المستكفي فبَرُدَ، ووقع كلامه خاليا من البلاغة؛ لأنه كان على طريقة المعلمين؛ فزُهِدَ فيه؛ وما بلغني أنه ألف شيئاً إلا كتابه في شعر المتنبي؛ ولحقته تهمة في دينه أيام هشام؛ فسجن في المطبق. وابن شهيد كثير الوقوع فيه والتندير به... قال الحجاري: "كان بارد النظم والنثر، لم ينـدر له من شعره إلا قوله:

صَحِبْتُ القَطِيعَ وَنَادَمْتُه ... وَأَصْبَحْتُ فِي شُرْبِهِ ذا انْقِطَاعْ
وَأَبْصَرْتُ أُنْسِي بِهِ وَحْدَهُ ... كَأُنْسِ الرَّضِيعِ بِثَدْيِ الرّضَاعْ"

قال: "وهو القائل في يحيى بن حمود:

أَنْتَ خَيْرَ النَّاسِ كُلِّهِمُ ... يَابْنَ مَنْ مَا مِثْلُهُ بَشَرُ
فَإذا مَا لُحْتَ بَيْنَهُمُ ... قِيلَ هَذا البَدْوُ وَالحَضَرُ"

قال: "وأنشدتهما لأحد الأدباء، فقال لي ـ عندما سمع عجز الأول ورأى ترادف الميمات ـ : هذه عُقَد ذنب العقرب؛ فلما سمع الثاني قال: سبحان من

البِضاعــةِ. دخــلَ الشعــراء فَأخــذَ لباقَتَهــم، وصـــار في جملـــة الكتـــاب فاستعـــار صلفهـــم ورشاقتهـــم، وباشـــرَ أهـــلَ الحســـاب فاستفـــاد طريقـــة البراهيـــن، وناظـــر أهـــلَ الجَـــدَلِ فتعلـــم القوانيـــن، وعَـــرَفَ عناصـــرَ الكـــلامِ؛ فكـــل علـــم يَزْعَمُـــه قبـــض يـــده، وكـــل جـــدٍّ وهَـــزلٍ فإليـــه منســـوبٌ، وعنـــهُ مأخـــوذ؛ وهـــو مـــع مـــا اجتمَـــع لـــه مـــن ذلـــك كُلـــهِ، وحـــبي بـــه، أشدهـــم صَبابَـــة [ضنانـــة] بـــألاَّ يكـــونَ بالأندلـــس مُحْسِـــنٌ ســـواه، ولا مجيـــدٌ حاشـــاه. وكـــانِ الـــرَّأيُ عِنـــدِي لـــه أن يَسْكـــنَ أرْضَ جليقيـــة أو قُطـــراً بعـــد عـــن الإســـلام؛ حـــتى لا يسمـــعَ فيـــه لخطيـــب ذِكـــراً، ولا يُحِـــسَّ لشاعـــرِ ركـــزاً؛ فيكـــونِ هنـــاك فـــرْداً. ومـــنَ العَجـــب أيضـــاً في أمـــرهِ أنَّ كـــلَّ كاتـــب كتـــبَ للسلاطيـــن عندنَـــا، وكـــلَّ شاعـــرٍ مدحهـــم، رُوِيَـــتْ أَشعـــارُه ورسائلـــه غيـــر أبي القاســـمِ وحـــدَه. عـــلى أنـــه إنمـــا جلـــسِ للتعليـــمِ عـــلى هـــذا المعـــنى. وربمـــا عـــرَّضَ بـــأن يُؤخـــذُ منـــه شيءٌ مـــن أشعـــارهِ ورسائلـــه ولا يجيبـــه تلميـــذ؛ والمحـــرومُ محـــرومٌ...

أخـلى خاطـر هـذا الرجـل مـن التوفيـق، وجعلـه يخـرى عـلى فمـه")). المغـرب في حـلى المغـرب، ج: 1، ص: 73.

وهو مع هذا يسمينا الهمج الهامج، ويسمي البديعَ والصَّابئَ وشمسَ المعالي العَضَاريط. وهو أبخلُ أهلِ الأرض لا محالة. ولم يُقَصِّرْ بنا عنده إلا توقيرُنا لثغَامَته [أي بياض رأسه].

وفي ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة أصيب ابن شهيد بداء الفالج؛ فشل حركته، وألزمه الفراش إلى أن مات. وقد أثر عليه ذلك المرض كثيرا؛ إذ طال ثقله عليه؛ وضيق عليك أنفاسه، فكره الحياة على تلك الحال المؤلمة؛ حتى راودته نفسه بالانتحار؛ ولكنه صبر على حكم الله؛ إلى أن وافته المنية سنة ست وعشرين وأربعمائة.

ـ ثم أبو عبد الله محمد بن سليمان الرُّعيني المعروف بابن الحناط الكفيف: سمي بابن الحناط لأن أباه كان يبيع الحِنْطة بقرطبة. وينتسب هذا الأديب إلى قبيلة ذي رُعَيْن الحميرية العربية. هذا وقد ولد ضعيف البصر أعشى؛ وعلى الرغم من علته تلك؛ فقد تمكن من تعلم القراءة، والتفوق في تحصيل علوم شتى. ولم يفتّ في عضده انطفاء بصره بالكامل بعد فترة من الزمن؛ إذ واصل الجدّ والاجتهاد في استيعاب العلوم بمختلف فنونها. ويعتبر ابن الحناط من شعراء وأدباء الأندلس الفحول في زمنه.

وقد كانت له صولات وجولات في مواجهة ابن شهيد؛ ويبدو أنه تفوق عليه في بعض المرات.[1] ويقول صاحب المسهب أن بني ذكوان هم الذين أعانوه في حياته؛ إذ كفوه مئونة الدهر؛ وضمنوا له فرصة التفرغ للعلم. وتقول بعض المصادر أنه كان يغلب عليه الاشتغال بعلم

---

[1] قال ابن بسام: ((وأبو عبد الله بن الحناط هذا زعيم من زعماء العصر ــ كان ــ ورئيس من رؤساء النظم والنثر في ذلك الأوان، وجمرة فهم لفحت وجوه الأيام، وغمرة علم سالت بأعلام الأنام؛ فكم له من وقذة [أي ضربة] لا يبرأ أميمها [أي جرحها]، ونكزة لا يسلم سليمها. وكانت بينه وبين أبي عامر بن شهيد بعد تمسكه بأسبابه، وانحياشه ــ كان ــ إلى جانبه؛ مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر بالماء، وأخذت عليه بفروج الهواء... وقد ذكره ابن حيان في فصل من كتابه فقال: "وفي سنة سبع وثلاثين وأربعمائة نعي إلينا أبو عبد الله محمد بن سليمان بن الحناط الشاعر الضرير القرطبي؛ بقية الأدباء النحارير في الشعر؛ هلك بالجزيرة الخضراء في كنف الأمير محمد بن القاسم. وهلك إثره ابنه الذي لم يكن له سواه بمالقة؛ فاجتثَّ أصله. وكان من أوسع الناس علما بعلوم الجاهلية والإسلام، بصيرا بالآثار العلوية، عالما بالأفلاك والهيئة، حاذقا بالطب والفلسفة، ماهرا في العربية والآداب الإسلامية، وسائر التعاليم الأوائلية؛ من رجل موهَّنٍ في دينه، مضطرب في تدبيره، سيئ الظن بمعارفه، شديد الحذر على نفسه، فاسد التوهم في ذاته، عجيب الشأن في تفاوت أحواله، ولد أعشى الحملاقة، ضعيف البصر، متوقد الخاطر، فقرأ كثيرا في حال عشاه، ثم طفئَ نور عينيه بالكلية، فازداد براعة، ونظر في الطب بعد ذلك، فأنجح علاجا. وكان ابنه يصف له مياه الناس المستفتين عنده، فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي له البصير، ولا يخطئ الصواب في فتواه ببراعة الإستنباط؛ وتطبب عنده الأعيان والملوك والخاصة، فاعترف له بمنافع جسيمة، وله مع ذلك أخبار كثيرة مأثورة")). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 437 ــ 438.

المنطق؛ الأمر الذي وضعه ــ آنئذ ــ موضع اتهام في دينه.[1]

وهذه بعض العينات من قصائد ابن الحناط بالإضافة إلى نصوص من نثره؛ حفظتها كتب التراث الأندلسي. بدءا بمقطع من رسالة بعث بها إلى الوزير أبي العباس ابن ذكوان قال فيها: **((الإسهاب كلفة، والإيجازُ حكمة، وخواطر الألباب سهام؛ يصابُ بها أغراضُ الكلام؛ وأخونا أبو عامر** [ابن شهيد] **يسهبُ نثراً، ويطوّل نظماً؛ شامخاً بأنفه، ثانياً من عطفه، متخيلاً أنه قد أحرز السباق في الأدب، وأوتي فصل الخطاب. فهو يستقصرُ أساتيذَ الأدباء، ويستجهلُ شيوخ العلماء... في ليلةٍ بتها، والكفُّ الخضيبُ سوارُها البدر، والشعرى العبورُ وشاحها النسر،؛ وكأنما سماؤها روضة تفتحتِ النجوم وسطها زَهراً، وتفَجَّرَتِ المجرَّة خلالها نهراً؛ وادٍ يسيل بعسجد على رضراضِ زبرجد. فلما أصبت الغِرَّة، وأقصدت الثغرة؛ تقلبت عراراً، وتناومت غراراً؛ حتى أنبهني الفجر ببرده، وسَرْبَلني الصباح ببُرْده، وهببت من النومة، وصحوت من النشْوةِ، فزففتها إليك بنتَ ليلتها عذراء، وجلوتها عليك كريمة فكرتها حسناء، تتلفع بحبرةِ حبر، وتتبختر في شعار شعر، مؤتلفٌ بين رَقِها ومدادها، ومجتمع في بياضها وسوادها...**

---

[1] المغرب، ج: 1، ص: 121.

وتخال القلمَ رقَّ لما به فبكى؛ فأنشدْها أخاكَ الشهيدي [أي ابن شهيد]، **وكلفه على العروض والقافية مُعارضَتَها، وحمّله على اللينِ والشدة مُقارضتها، فستوقد بقلبه قبَساً، وتَضْرِبَ في أذنِهِ جَرَساً؛ فيَتَبيَّن به حَظَّه، ويعرف لغيره فضلَه))**.[1]

ويبدو أنه كان بين ابن الحناط وابن شُهيد منافسة حثيثة وبريئة؛ لم تمنعهما من إظهار التقدير والاحترام لبعضهما بعضا؛ ويتجلى ذلك من خلال تصرفاتها الواضحة، ومن خلال ما ينظمانه من مقاطع شعرية يتبادلان فيها المديح[2].

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 439 ــ 440.

[2] وقد نقل الحميد بعض الأبيات التي تؤيد هذا؛ مثل: ((فأخبرني الرئيس أبو الحسن عبد الرحمن بن راشد الراشدي قال: "لما نعيت أبا عامر بن شُهيد إلى أبي عبد الله بن الحناط ـ وقد عرفت ما كان بينهما من المنافسة ـ بكى، وأنشدني لنفسه بديهة:

لَمَّا نَعَى النَاعِي أبا عَامِرٍ
أيقنتُ أنِّي لستُ بِالصَّابِرِ
أوْدَى فتَى الظرفِ وتَبُ النَدَى
وَسَيِّدُ الأوَّلِ وَالآخِرِ"

ولابن الحناط من كلمة طويلة في مدح أبي عامر بن شهيد أولها:

أمَّا الفرَاقُ فلِي فِي يَوْمِهِ فرَقُ
وَقدْ أرِقتُ لهُ لوْ يَنفعُ الأرَقُ
أظْعَانُهمْ سَابَقتْ عَيْنِي التِي انِهَمَلتْ
أمِ الدُّمُوعُ مَعَ الأظعَانِ تستبقُ
عاقَ العَقِيقُ عَنِ السُّلوَانِ وَاتضَحَتْ
فِي توضحٍ لِي مِنْ نَهْجِ الهَوَى طرُقُ

ومما قاله ابن الحناط في قصيدة رفعها إلى الخليفة على بن حمود:

رَاحَتْ تذكرُ بِالنسيمِ الرَّاحَا
وَطفاءُ تكسِرُ لِلجنوحِ جَناحَا
أخفَى مَسَالِكهَا الظلاَمُ فأوقدَتْ
مِنْ بَرقِها كَيْ تَهتدِي مِصْبَاحَا
وَكأنَّ صَوْتَ الرّعدِ خلفَ سَحَابها
حَادٍ إذا وَنتِ السَّحَائِبُ صَاحَا
جَادَتْ عَلَى التلعَاتِ فاكتَسَتِ الرُّبَى
حُللاً أقامَ لَهَا الرَّبيعُ وِشاحَا

لَوْلاَ النسيمُ الذِي تأتِي الرِّياحُ بهِ
إذَا تضَوَّعَ مِنْ عَرفِ الحِمَى الأفقُ
لمْ أدْرِ أنَّ بُيُوتَ الحَيِّ نازلةٌ
نَجْداً وَلاَ اعْتَادَنِي نَحْوَ الْحِمَى القلقُ
مَا فِي الهَوَادِجِ إلاَّ الشمْسُ طالِعَة
وَمَا بقلبِي إلاَّ الشوقُ وَالأرَقُ

ومن أخرى:

مِنْ كلِّ بَيْضَاءَ مِثلِ البَدْرِ مُطلِعاً
هَيفاءَ مثل قضِيبِ البَانِ مُنعَطِفا
إلفٌ ألفتُ الضّنَا مِنْ بَعْدِ فرقتهِ
حَتَّى غدَا بَدَنِي مِنْ دِقةٍ ألفا)).

جذوة المقتبس، ص: 58.

فانظُرْ إلَى الرَّوْضِ الأرِيضِ وَقَدْ غدَا
يَبكِي الغــوَادِي ضَاحِكــاً مُرتاحــا
وَالنــوْرُ يَبسُــطُ نحوَ دِيمتِهــا يــداً
أهــدَى لها سَــاقِي النــدَى أقدَاحَــا
وتَخالــهُ حَــيّى الحَيا مِــنْ عَرفِــهِ
بذكِيِّــــهِ فــــإذَا سَقــــاهُ فاحــــا
رَوْضٌ يُحَــاكِي الفاطِــمِيِّ شمَائــلاً
طِيبــاً، وَمزْنٌ قــدْ حَكــاهُ سَمَاحَــا
أعَــلِيُّ إنْ تعــلُ المُلــوكَ فإنهــمْ
بهــمٌ جُعلــتَ أغرَّهــا الوَضَّاحَــا
لمــا طلعــتَ لَهــا بِكــلِّ ثنِيــةٍ
أنسَيْتَهــا المَنصُــورَ وَالسَّفاحَــــا

وفي قصيــدة أخــرى يقــول في عــلي بــن حمــود أيضــا:

شــقِيَ بَعْدَنا بالبُعدِ مِنْ نِعمَ نُعمَــانُ
وَأُوحِشَ مِنْ لبْنَى عَلى البُعدِ لُبنــانُ
سَقَى القَطرُ مَا بَيْنَ العَقِيق وَضَارِجٍ
مَعــارِفَ فِيهَــا لِلأحبــةِ عِرْفــانُ

وَحَيا الحيَــا عَهداً عَهدناهُ باللـــوَى
لـــوَى دَيننا فِيـــهِ صُدُودٌ وَهِجــرَانُ

إلى قولـــه:

وَلاَ مِثلَ هَذَا العَــدْلِ كيــفَ أعَــادَهُ
عَلِيٌّ وَقَدْ مَــرَّتْ مِنَ الظلمِ أزْمـــانُ

ويقــول فيـــه أيضـــا في قصيــدة أخــرى:

بَكيـــتُ لَهَا شجْــواً وَهنَّ الحمائِــمُ
ينحـــنَ بلاَ دَمـــعٍ وَدَمعـــكَ سَاجِــمُ
وَلَما عَلونا الحزْنَ وَاعْتَسَفَـــتْ بنــا
رُسُومَ الدِّيارِ اليَعْمَــلاَتُ الرَّوَاســمُ

ثــم يقــول:

سَقَى مَنبتَ اللذَّاتِ مِنهَا ابْنُ هَاشِــمٍ
إذَا انهمَلَـــتْ مِن رَاحَتيـــهِ الغمَائِـــمُ
إمَـــامٌ أقَـــامَ الدِّيـــنَ حَـــدُّ حُسَامِـــهِ
طَرِيـــراً وَمِنـــهُ فِي يَـــدِ الله قائِـــمُ

وَيُزْهِرُ فِي يُمناهُ نــورٌ مِنَ الظبَــا

لـــهُ مِنْ رُؤُوسِ الدَّارِعِيــنَ كمَائِــمُ

سُيُــوفٌ إذَا اعْتلتْ جهَاتُ ثغورِهَــا

فمِنهُــنَّ فِي أعْناقِهـــنَّ تمَائِـــمُ

بِكلِّ خمِيــسٍ طبَّــقَ الجَــوَّ نقعَــهُ

وَضَيــقَ مَسْــرَاهُ الجيَادُ الصَّــلاَدِمِ

كــأنَّ مُثــارَ النقــعِ إثمِــدُ عَيْنِــهِ

وَأشفــارَ جَفنيْــهِ الشِّفارُ الصَّــوَارِمُ

تعُــدُّ علَيْهِ الطيْرُ وَالوَحْــشُ قوتهَــا

إذَا سَــارَ وَالتفــتْ علَيْــهِ القشَاعِــمُ

ويقــول أيضــا في غيرهــا:

رِقتُ وَقدْ غــنَّى الحَمَامُ الهَوَاتــفُ

بمنعَرَجِ الأجْزَاعِ وَالليْــلُ عاكــفُ

أعدْنَ لِيَ الشوقَ القدِيمَ وَطــافَ بِي

علَى النأْيِ مِنْ ذِكرَى المَلِيحَةِ طَائِفُ

ويضيــف:

سَقَى عَرَصَـــاتِ الـــدَّارِ كلٌّ مُلِثــةٍ
مِنَ المُزْنِ تزْجيهَا البُرُوقُ الخَوَاطِفُ

كأنَّ نثِيــرَ القطـــرِ مِنهَـــا جوَاهِـــرٌ
تفرِّقهَـــا للرِّيـــحِ أيـــدٍ عَوَاصِـــفُ

كأنَّ ابْتِسَـــامَ البَـــرقِ فِيهَا إذَا بَـــدَتْ
سُيـــوفُ عَـــلِيٍّ بِالدِّمـــاءِ رَوَاعـــفُ

ولـــه قصيـــدة في القاســـم بـــن حمـــود يشيـــر فيهـــا إلى مقتـــل المرتـــضى الأمـــوي؛ بعـــد أن خانـــه حليفـــه خيـــران الصقلـــبي؛ فاستهلهـــا قائـــلا:

لكَ الخَيْـــرُ خَيْرَانٌ مَضَى لِسَبِيلِـــهِ[1]
وَأصبْـــحَ مُلكُ اللهِ فِي ابْنِ رَسُولِـــهِ

إلى أن يقـــول:

وَفُرِّقَ جَمْعُ الكُفْرِ وَاجْتَمَعَ الـــوَرَى
عَلَى ابْنِ حَبِيـــبِ اللهِ بَعْـــدَ خَلِيلِـــهِ

---

[1] في هـــذا البيـــت إشـــارة إلى قصيـــدة أحمـــد بـــن دراج القسطـــلي؛ كـــان قـــد مـــدح فيهـــا خيـــران بقولـــه في المطلـــع:

لـــك الخيـــر قـــد أوفى بعهـــدك خيـــران   وبشـــراك قـــد وافـــاك عـــز وسلطـــان

وَقَـــامَ لِـــوَاءُ النَّصْرِ فَـــوقَ مُمَنَّـــعٍ
مِنَ العِـــزِّ جِبْرِيـــلٌ إِمَـــامُ رَعِيلِـــهِ
وَأَشْرَقَـــتِ الدُّنيَـــا بِنُـــورِ خَلِيفَـــةٍ
بِـــهِ لاَحَ بَـــدْرُ الحَـــقِّ بَعْدَ أفولِـــهِ
مِـــنَ الهَاشِمِيِّيـــنَ الذِيـــنَ بِمَجْدِهِـــمْ
تَعَـــوَّدَ شَخْـــصُ المَجْدِ جَرَّ ذُيُولِـــهِ
فَلاَ تَسَـــلِ الأَيَّـــامَ عَمَّا أَتَـــتْ بِـــهِ
فَمَا زَالَـــتِ الأَيـــامُ تَـــأتِي بِسُولِـــهِ
وَلَمَّا دَعَا الشَيْطَانُ فِي الخَيْلِ حِزْبَـــهُ
وَأَقبلَ حِـــزْبُ اللَّـــهِ فَـــوْقَ خُيُولِـــهِ
كَتَائِـــبُ مِـــنْ صَنْهَاجَـــةٍ وَزَنَاتَـــةٍ
تَضَايَقُ فِي عَرْضِ الفَضَاءِ وَطُولِـــهِ
تَقَـــدَّمَ خَيْـــرَانٌ إِلَيْهَـــا بِزَعْمِـــهِ
لِيُـــدْرِكَ مَا قَـــدْ فَاتَـــهُ مِنْ ذُحُولِـــهِ
فَلَمَّا التَـــقَى الجَمْعَـــانِ عَـــاوَدَ رَأْيَهُ
فَخَلَّى لِبَعْضِ الهَوْلِ جُـــلَّ فُضُولِـــهِ
وَوَلَّى وَأَبْـــقَى مُنْـــذِراً مِنْ وَرَائِـــهِ
يُقِيـــمُ لأَهْلِ الغَـــدْرِ عُـــذْرَ نُكولِـــهِ

ومما قاله في المعتلي يحيى بن حمود:

لمْ يَخلُ مِنْ نوَبِ الزَّمَانِ أديبُ
كلاَّ فشَأنُ النائبَاتِ يَنوبُ
أمْسَى قَرَاراً لِلخطوبِ وَأغتدِي
غرَضاً تفوَّقُ نَحْوَهُ فتصيبُ
وَإذَا انتهَيْتَ إلَى العُلومِ وَجَدتهَا
شَيْئاً يُعَدُّ بهِ عَليْكَ ذُنوبُ
وَغضَارَةُ الأيامِ تأبَى أنْ يُرَى
فِيهَا لأبْناءِ الذَّكاءِ نصِيبُ
وَلذَاكَ مَنْ صَحِبَ الليَالِي طالباً
جَدَّا وَفهْماً فاتهُ المطلوبُ

إلى قوله:

أمتْ أميرَ المُؤْمِنينَ مَوَاحِلاً
فسَقى صدَاهَا غيْثهُ الشؤْبوبُ
المُعْتلِي بِاللهِ وَالمَلِكُ الذِي
تاجُ الفخارِ برَأسِهِ مَعْصُوبُ
إنْ كانَ عَدُّوا حُبَّ آلِ مُحَمدٍ
ذَنباً فإنِّي لسْتُ مِنهُ أتوبُ

وممـــا قالـــه في محمـــد بـــن القاســـم بـــن حمـــود حينمـــا اختـــار الإقامـــة عنـــده في الجزيـــرة الخضـــراء:

تفرَّغتُ فِي شُغْلِ العَدَاوَةِ وَالظَّعــنِ
وَصِيــرْتُ إلَى دَارِ الإقامَةِ وَالأمْــنِ
أمَقتولةَ الأجْفانِ مِنْ دَمْــعِ حُزنهـــا
أفِيــقِي فإنِّي قدْ أفقــتُ مِنَ الحُــزْنِ
فلِلّــهِ سَيْرِي يَوْمَ وَدَّعتُ صُحْبَــتِي
زَمَاعــاً وَلَمْ أقرَعْ عَلَى ندَمٍ سِــنِّي
رَحَلتُ فكمْ مِنْ جُــؤْذَرٍ وَغضَنفــرٍ
يُرَوِّي الثرَى مِنْ فَضْلِ أدْمُعِهِ الهَتِنِ
وَمَا عَنْ قِلى فارَقتُ ترْبةَ أرْضِكــمْ
وَلَكِنني أشفقتُ فِيهَــا مِــنَ الدَّفــنِ
مَرَرْتُ بشــوسٍ وَالنُّجُــومُ كأنهَـــا
توَقدُ مِنْ فِكرِي وَتسْرَجُ مِنْ ذِهــنِي
وَأسْرَيــتُ مِنْ بَــدْرِ الظلاَمِ بِألبَــةٍ
بِصُحْبَةِ مُطفِي الجَمْرِ أوْ مُكفِئِ الظَّعْنِ
لبسْنا بِهَا ليْــلاً مِــنَ الثلــجِ أبْيضاً
كسَتهُ يَــدُ الصِّنبْرِ ثوْباً مِنَ القطــنِ

وَرُحْنا عَــلَى ألبيــرَةٍ فاستقــلَّ بِي
جَناحُ عُقابٍ لاَ يَــرُوحُ إلَى وَكــنِ
ولَمــا تنكبْنــا المُنكــبَ لــمْ نَجــدْ
لَنا مَرْكباً أهدَى سَبيــلاً مِنَ السُّفــنِ
ترَامَتْ بنا الأهْوَالُ فِي كــلِّ لُجَّــةٍ
تخيلهَــا جَــوًّا تَجَلــلَ بِالدَّجْــنِ
ترَى السُّفنَ فوقَ المَوْجِ فِيهَا كأنَّهَــا
تَحَدَّرُ مِنْ رَعْنٍ وَتوفِي عَلَى رَعــنِ
فبوَّأتُ رَحْــلِي ظِــلَّ أرْوَعَ مَاجــدٍ
يَقولُ بلاَ خلفٍ وَيُعــطِي بلاَ مَــنِّ
إمَام وَصِيُّ المُصْطفَى وَابــنِ عَمــهِ
أبُوهُ، فتــمَّ الفخــرُ بَيْنَ أبٍ وَابــنِ

ـ ثــم أبــو بكــر عُبــادة بــن عبــد اللــه بــن محمــد الأنصــاري الخــزرجي المعــروف بابــن مــاء السمــاء:[1]

يضعــه كثيــر مــن النقــاد والأدبــاء الأندلسييــن في صــف فحــول الشعــراء بتلــك الديــار. وهــو مــن أهــل قرطبــة؛

---

[1] وصــف الحميــدي ابــن مــاء السمــاء بقولــه: ((مــن فحــول شعــراء الأندلــس، متقــدم فيهــم مــع علمــه؛ ولــه كتــاب "أخبــار شعــراء الأندلــس". ذكــره أبــو محمــد عــلي بــن أحمــد [بــن حــزم]؛ وأنــه كــان حيــا في صفــر سنــة إحــدى وعشريــن وأربعمائــة)). جــذوة المقتبــس، ص: 293.

وينتسب في أصوله الأولى إلى الأنصار؛ وبالتحديد إلى قبيلة الخزرج. ويعتبر ابن ماء السماء من المبدعين المجددين في صناعة الشعر. هذا وقد نسبوا إليه بعض المبتكرات في نظم التواشيح.[1] ويقول ابن بسام أنه كان يظهر التشيع في شعره. وهذه بعض العينات من شعره بدءا بهذا المقطع قاله في علي بن حمود:

[1] قال ابن بسام: ((وقيل له ابن ماء السماء لجدهم الأول. ولحق بقرطبة الدولة العامرية والحمودية؛ ومدح رجالها. وكان أبو بكر في ذلك العصر شيخ الصناعة، وإمام الجماعة؛ سلك إلى الشعر مسلكا سهلا؛ فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا. وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقها، ووضعوا حقيقتها، غير مرقومة البُرود، ولا منظومة العقود؛ فأقام عُبادة هذا منآدَها، وقوم ميْلَها وسنادَها؛ فكأنها لم تُسْمَعْ بالأندلس إلا منه، ولا أخذتْ إلا عنه؛ واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثيرٍ من حسناته. وهي أوزان كَثُرَ استعمال أهل الأندلس لها في الغزل والنسيب؛ تُشَقُّ على سماعها مصوناتُ الجيوب بل القلوب. وأول من صنع أوزانَ هذه المُوَشَّحات بأفقنا واخترع طريقتها ــ فيما بلغني ــ محمد بن محمود القَبْري الضرير. وكان يصنعها على أشطار الأشعار؛ غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة؛ يأخذ اللفظَ العاميّ والعجميّ ويسمّيه المَرْكَزَ، ويضعُ عليه الموَشَّحة دون تَضمينٍ فيها ولا أغصان. وقيل إن ابن عبد ربّه صاحب كتاب "العقد الفريد" أول من سبق إلى هذا النوع من الموشّحات عندنا. ثم نشأ يوسف بن هارون الرَّمادي؛ فكان أول من أكثر فيها التضمين في المراكيز؛ يضمّنُ كلّ موقفٍ يقف عليه في المراكز خاصّة. فاستمر على ذلك شعراءُ عصرِنا؛ كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن. ثم نشأ عُبادة هذا؛ فأحدَث التضفير؛ وذلك أنه اعتمد مواضعَ الوقف في المركز)). الذخيرة، ق: 1، مج: 1، ص ص: 468 ــ 469.

أطَاعَتــكَ القلــوبُ وَلاَ عَــصِيٌّ

وَحِــزْبُ اللـــهِ حِزْبــكَ يَــا عَــلِيٌّ

فكــلٌّ مَـــنِ ادَّعَى مَعَــكَ المَعَــالِي

كَـــذُوبٌ مِثــلَ مَا كَــذبَ الــدَّعِيُّ

أبَى لَــكَ أنْ تُهَاضَ عــلاَكَ عَهْــدٌ

هِشَـــامِيٌّ وَجَــــدٌّ هاشَـــمِيٌّ

وَمَــا سُمِيــتَ بِاسْــمِ أبيــكَ إلاَّ

لِيَحْيَـــا بِالسَّــمِيِّ لَــهُ السَّــمِيُّ

فَــإِنْ قَــالَ الفَخــورُ أبِي فَــــلاَنٌ

فَحَسْبُــكَ أنْ تقـــولَ أبِي النَــبِيُّ

ويقــول أيضــا في قصيــدة أخــرى:

أبَسْــلٌ عَليكَ المَاءُ حَــتَّى يشُوبَــهُ

دَمٌ وَالكرَى حَتَّى تقضَّ المَضَاجِــعُ

أجَــمَّ جيَــاداً أدمَنَ الغــزْوُ نهْكهَــا

فَمِنهَــا حَسِيــرٌ فِي الجهَادِ وَظالــعُ

وَأغمِــدْ سيُوفاً تشتكِيــكَ جُفونُهــا

كَمَا تشْتــكِي نُجْلَ العُيُون البَرَاقِــعُ

وَسَكِّنْ عَجَاجَ الرَّكــضِ شَيْئاً فقلَّمَـــا

يُرَى الجَوُّ مِمَّا هُجْتَــهُ وَهوَ ناصِـــعُ

وَآنِـــسْ قُصُوراً طَالَ إيحَاشهَا بـــهِ

فقدْ أشفقتْ مِمَّا صَنَعْــتَ المَصَانِـــعُ

وَهَلْ ضَــرَّكَ البَاغِي بسَهْمِ مكِيـــدَةٍ

وَأنتَ بَـــوَاقِي عِصْمَـــة اللـــهِ دَارِعُ؟

وَأيُّ يَـــدٍ تنـــوِي قِرَاعــكَ بَعْدَمـــا

رَأيْنـــا يَـــدَ الجَبـــارِ عَنـــكَ تقـــارِعُ؟

وقـــال راثيـــا علـــي بـــن حمـــود، ومهنئـــا لأخيـــه القاســـم بتـــوليـــه العـــرش:

صَــلى عَلَى المَــلِكِ الشَّهيدِ مَلِيكــهُ

وَسَقـــاهُ فِي ظِـــلِّ الجنانِ الكوثـــرُ

مَـــولًى دَهَتـــهُ عَبيـــدُهُ، وَغضَنفـــرٌ

تركَتهُ أيْـــدِي العُفـــرِ وَهوَ مُعَفـــرُ

كانـــتْ تهَيَّبُـــهُ الأسُـــودُ فغالـــــهُ

فِي قصْـــرِهِ مُسْتضْعَـــفٌ مُسْتَحْقـــرُ

لمْ يُثـــنِ عِـــزُّ المُلكِ عَنـــهُ مَنونـــهُ

فَسَمَـــتْ لهُ مِنْ حَيْثُ لمْ يَكُ يَحْـــذَرُ

ختلتـــــهُ سِـــــراً وَالقبَائـــــلُ دُرَّعٌ
تَحْمِيـــهِ لكِـــنَّ المَنايـــا جُسَّـــــرُ
ولَـــوْ أنهَا رَامَتـــهُ جَهْراَ لاَنثنـــتْ
وَالبيـــضُ تقـــرَعُ وَالقنـــا يَتكســـرُ

ثـــم يكمـــل:
مَـــا غـــابَ بـــدْرُ التـــمَّ إلاَّ رَيْثمَـــا
جَـــلَّى الدُّجَى عنا الصَّبَاحُ الأزْهــرُ
إنْ يَهْـــوِ مِنْ أفـــقِ الخِلاَفـــةِ نيـــرٌ
يَهْـــدِي السَّبيـــلَ فقـــدْ تـــلاَهُ نيِّـــرُ
بِالقاسِـــمِ المَأمُونُ أفـــرَخَ روْعنـــا
فالقسْـــمُ وَافٍ وَالنصيـــبُ مُوَفـــرُ

ومـــن شعـــره في القاســـم بـــن حمـــود:
مَا ضَيعَ اللـــهُ مُلكاً أنـــتَ رَاعِيـــهِ
وَلاَ أبَـــاحَ ذِمَـــاراً أنـــتَ حَامِيـــهِ
لِلـــهِ درُّكَ مِـــنْ مَـــولًى عَوَارِفـــهُ
لمْ تبـــقِ فِي الأرْضِ إلاَّ مَنْ يُوَاليهِ

تَهْدِيهِ وَالناسُ قَدْ ضَلوا كَوَاكِبَ مِـــنْ

آرَائِـــهِ فِي سَمَـــاءٍ مِـــنْ مَعَاليـــهِ

مُكفـــلاً برِضَـــاهُ هِمــــــة أنفـــــاً

تَرْمِي إلى الغَرَضِ الأَقْصَى فتُصمِيهِ

كَانـــتْ خِلاَفتُنـــا فِي الغرْبِ مَظلَمَة

كـــأنَّ أيَامَنـــــا فِيهَـــا ليَاليـــــهِ

سِيَاسَةٌ أبْـــرَأتْ بِالرِّفـــقِ فِي مَهَـــلٍ

دَاءَ الخِـــلاَفِ وَقـــدْ أعيـــا مُدَاوِيهِ

وَحِكمَةٌ خَضَعَتْ هَـــامُ المُـــلوكِ لهَا

عِـــزًّا فلاَ حُـــرَّ مَوْجُـــودٌ بوَادِيـــهِ

مُؤَيـــدٌ جَـــاءَتِ الدُّنيَـــا إلَى يَـــدِهِ

عَفـــواً ولَبَّتـــهُ مِنْ قـــرْبٍ أمَانِيـــهِ

جَلـــتْ أيادِيـــهِ حَـــتَّى إنَّ أنفُسَنـــا

وَمَـــا مَلكنـــاهُ جُـــزْءٌ مِـــنْ أيَادِيـــهِ

ويقــول مادحـــا يحــيى بـــن عــلي بـــن حمـــود:

فهَـــا أنــــذَا يَا ابْـــنَ النبـــوَّةِ نافـــثٌ
مِنَ القوْلِ أرْياً غَيْرَ مَا يَنفثُ الصِّـــلُّ

وَعِندِي صَرِيحٌ فِي وَلاَئِـــكَ مُعـــرِقٌ
تشيعـــهُ مَحْـــضٌ وَبيْعَتـــهُ بتـــلُ

ووَالَى أبِي قَيـــسٌ أباكَ عَلَى العُـــلاَ
فَخيَّـــمَ فِي قلبِ ابنِ هِنـــدٍ لهُ غِـــلُّ

ومـــن شعـــره أيضـــا:

لاَ تشْكُـــــوَنَّ إذَا عَثَـــــرْ
تَ إلَى صَدِيقِكَ سُـــوءَ حَالِـــكْ

فيُرِيـــكَ ألوَانـــــاً مِـــنَ الـــْـ
إذْلاَلِ لـــمْ تَخطُـــــرْ ببَالِـــــكْ

إيــــــاكَ أنْ تــــــدْرِي يَميـــــ
ـــنـــكَ مَا يَـــدُورُ عَلَى شِمَالِـــكْ

وَاصبْـــرْ عَلَى نـــوَبِ الزَّمَـــا
نِ وَإنْ رَمَتْ بِـــكَ فِي المَهَالِـــكْ

وَإلَى الـــذِي أغْـــــنَى وَأقْـــــ
ـــنَى اضْرَعْ وَسَلْهُ صَلاَحَ حَالِكْ

وهــذا موشــح لـــه يقــول فيـــه:

مَنْ وَلِــي ♦ فِي أمَّـــةٍ أمْـراً ولَـمْ يَعْـدِلِ ♦ يُعْـزَلِ ♦ إلاَّ لِحَاظُ الرَّشَـإ الأكْحَـلِ

جُـرْتَ فِي حُـكـمَـكَ فِي قـتــلِيَ يَـا مُـسْـرِفُ

فـَانـْصِفِ فـوَاجِـبٌ أنْ يُنـصَـفَ الـمُـنـصِفُ

وَارْأفِ فــإنَّ هـــذَا الـشـــوقَ لاَ يَـــرْأفُ

علِّـــلِ ♦ قـلَبي بِذَاكَ البَارِدِ السَّلْـسَلِ ♦ يَنْجَلِي ♦ ما بفـؤادي مِنْ جَوَى مُشْعَـلِ

إنـــمـــا تـبْــرُزُ كَـيْ تـوقِـدَ نَـارَ الفِـتـــنْ

صَـنـمَـــاً مُـصـوَّراً فِــي كـلِّ شـيْءٍ حَسَـــنْ

إنْ رَمَـى لـَمْ يُخـطِ مِـنْ دُونِ القلُـوبِ الجـنَـنْ

كَيفَ لِي ♦ تَخَلُّـصٌ مِنْ سَهْمِـكَ المُرْسَـلِ ♦ فَصِـلِ ♦ وَاستبْقني حَيـاً وَلاَ تقتـلِ

يَا سَـنـا الـشَّـمْـسِ وَيَـا أبْـهَى مِـنَ الكوكـــبِ

يَا مُـنـَى النـفـــسِ وَيـا سُـؤلِي وَيَـا مَـطْـلـبِـي

هَـا أنـا حـــلَّ بـأعـــدَائـــكِ مَـا حـلَّ بــي

عـــذِّلِــي ♦ مِنْ ألـَمِ الهجْرَانِ فِي مَعزَلِ ♦ وَالخَلِي فِي الحُبِّ لاَ يَسْـألُ عَمَـنْ بلي

أنــتَ قـَدْ صَيــرتَ بالحُـسْـنِ مِـنَ الرُّشــدِ غَـيّ

لـَمْ أجِـدْ فِـي طـــرُقِـي حُـبـكِ ذنبـاً عَـلـَيّ

فـَاتـئـدْ وَإنْ تـشـأ قـتـلِـيَ شَـيْـئـاً فـشَـيّ

أجـــمِـلِ ♦ وَوَالــنِي مِنْكَ يَدَا المُفـْضِـلِ ♦ فَهْيَ لِي ♦ مِنْ حَسَنَاتِ الزَّمَنِ المُقبـلِ

مَااغتـذَى طــرفِـيَ إلاَّ بـسَـنـا نــاظـرَيـــكْ

وَكَــذَا فِي الـحُـبِّ مَا بي لَيْـسَ يَخْـفى عَـلَـيْـكْ
وَلِــذَا أَنْـشِـدُ وَالـقَـلـبُ رَهـيـنٌ لَـدَيـكْ
يَـا عَـلي ♦ سَلطْتَ جَفنيْكَ عَلى مَقتَـلِي ♦ فابقِ لِي قلبي وَجُدْ بالفَضْـلِ يَـا مَوْئِـلِي

ــ ثـم أبـو جعفـر أحمـد بـن أيـوب اللمـائي:[1] يعتبـر أبـو جعفـر اللمـائي مـن الأدبـاء والشعـراء الفحـول ببـلاد الأندلـس. وينتسـب هـذا الكاتـب إلى قبيلـة لمايـة الأمازيغيـة؛ وقـد ولـي ــ في بـلاط عـلي بـن حمـود ــ خطـة الكتابـة. ويبـدو أنـه كـان يعـاني ــ في آخـر أيامـه ــ مـن مـرض ضيـق النفـس أو داء النسمـة كمـا يسـمى آنئـذ؛ وقـد تـوفي في مالقـة بعـد شـدة وعـذاب[2].

---

[1] قـال ابـن بسـام: ((وكـان أبـو جعفـر هـذا ــ وقتـه ــ أحـد أئمـة الكتـاب، وشهـب الآداب؛ مـن سُخِّـرت لـه فنـون البيـان، تسخيـر الجـن لسليمـان؛ وتصـرف في محاسـن الكـلام، تصـرف الريـاح بالغمـام؛ طلـع مـن ثنايـاه، واقتعـد مطايـاه؛ ولـه إنشـاءات سَرِيَّـة في الدولـة الحموديـة؛ إذ كـان علـم أدبائهـا، والمُضطلـع بأعبائهـا)). الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] وقـد أورد ابـن بسـام قصيـدة لأبي عامـر ابـن شهيـد قالهـا ــ وهـو عـلى فـراش مرضـه المزمـن ــ عندمـا نـعي إليـه أحمـد بـن أيـوب اللمـائي جـاء فيهـا:

أمِـنْ جَنابِهِـمُ النفـحُ الجَـنوبيُّ
أسْرَى فَصَاكَ بهِ فِي الغوْرِ غـاريُّ؟
أهـدَى إلَيَّ ظلاَمـاً رَدْعَ نافِجَـةٍ
أدْمـاءَ شـقَّ بهَا الدَّأمَـاءَ هِنـدِيُّ
وَالليْـلُ قدْ قـامَ فِي أثـوَابِ نادِبـةٍ
كأنّـهُ فـوقَ ظهْـرِ الأرْضِ نـوبِيُّ
والنجْـمُ تَحْسَبُـهُ قـدَّامَ تابعِـهِ
حَمَامَـةٌ رَامَهَـا فِي الجَـوِّ بَـازِيُّ

وعلى الرغم من شهرته وطول باعه في ميدان الكتابة نثرا وشعرا؛ فإن ما وصل إلينا من أعماله زهيد جداً؛ بسبب الضياع؛ وقد تنبه إلى هذا الأمر ابن بسام حيث قال: ((**إلا أنّي لم**

وَجَـدْوَلُ الأفقِ يَجْرِي فِي مُنافسِـهِ
مَاءٌ سَـقَى زَهْرَةَ الخضْرَاءِ فِـضِيُّ
فقلتُ وَالسُّقمُ مَنشُورٌ عَلَى جَسَـدِي
يَحدُو الرَّدَى وَرِدَاءُ العَيْشِ مَطـويُّ:
أُهدَى اللمَـائيُّ مِنْ أزْهـارِ فِكرَتـه
نشْـراً فقالَ الدُّجَى: مَـرَّ اللمَـائيُّ
فقِيـلَ مَـاتَ فقالَ الليْـلُ قـارَبَ ذَا
فانهَـلَّ مِـنْ مُقلتِي نـوْءُ سِمَـاكِيُّ
وَبِـتُّ فـرْداً أناجِي مُقلـتِي شغفـاً
كأننِـي فِي نقـوبِ الـدَّارِ جِـنِّيُّ
لاَ عِشتُ إنْ مُتَّ لي يَا وَاحدِي أبَـداً
وَمَوتنـا وَاحِـدٌ لاَ شـكَّ مَـرئِيُّ
إنَّ الكريـمَ إذَا مَـا مَـاتَ صَاحِبُـهُ
أوْدَى بهِ الوَجْـدُ وَالثكلُ الطبيـعِيُّ
إنْ مُتُّ قبْلـكَ لاَ تعْجَـبْ فذُو أمَـلٍ
قـدْ حَـمَّ مِنْ دُونِهِ يَوْماً حَمَـامِيُّ
أوْ مُـتَّ قبْلِي فمَا مَنعَاكَ لي عَجَـبٌ
إنَّ الكريـمَ إلَى الأصْحَـابِ مَنـعِيُّ
زَادَ البَـلاَءُ عَلَى نفسِي فأعْدَمَهَـا
صَبْرِي فصَبْرِي عَليْكَ اليَوْمَ وَحْشِيُّ
حَـتَّى أهُـمَّ بقتـلِي كـلَّ دَاجِيَـةٍ
يَا قـوْمِ هَلْ رَامَ هَذَا قبْـلُ إنـسِيُّ؟
إنِّي إلَى اللـهِ مِنْ عُقبَى بُلِيتُ بهَـا
جَـرَى بهَـا الحُكمُ وَالأمْرُ الإلـهِيُّ

أجد عند تحريري هذه النُّسخة من كلامه إلاَّ بعض فصول له من منثور؛ وهي ثِمَادٌ من بُحُور؛ وقد أخرجت من براعته ما يشهد له بالفضل في صناعته، والتقدم على أكثر جماعته)).[1] وأهم أعماله التي وردت في المصادر القليلة هذه القطعة النثرية التي بعث بها إلى وزير زهير أبي جعفر أحمد بن عباس جاء فيها: ((**غُصنُ ذِكراك عندي ناضر، وروضُ شُكرك لديّ عاطر، وريحُ إخلاصي لك صَباً، وزمنٍ آمالي فيك صِباً، فأنا شاربٌ ماءَ إخائك، متفيءٌ ظِلال وفائك، جانٍ منك ثمر فَرْع طاب أكله، وأجناني البرَّ قديماً أصله، وسقاني إكراماً برقه، وروَّاني إفضالاً وَدْقه، وأنت الطَّالعُ في فجاجه، السَّالكُ لمنهاجه: سهمٌ في كنانة الفضل صائب، وكوكب في سماء المجد ثاقب، إن أتبعَتَ الأعداءَ نورَهُ أحرق، وإن رميتهم به أصابَ الحَدَقَ؛ وعلى الحقيقة فلساني يَقْصُرُ عن جميل أسِرِّه، ووصفِ وُدٍّ أضْمِرُه)).**[2] أما شعره فمنه قوله:

قدْ قلتُ إذْ سَارَ السَّفِينُ بهِ
وَالبَيْنُ يَنهَبُ مُهْجَتِي نهْبَا
لوْ أنَّ لِي مُلكاً أصولُ بهِ
لأخذْتُ كلَّ سَفينةٍ غصْبَا

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 617.

[2] نفسه، ص: 618.

وقـــال في أخـــرى أيضـــا:

غـــنَّى ولَلإيقـــاعَ فـــو   قَ بَيانِ مَنطِقِـــهِ بَيـــانُ
وَكأنمـــا يـــدُهُ فـــمٌ   وَقضيبهُ فِيهَـــا لِســـانُ

زاره بعـــض أصحابـــه وهـــو طريـــح الفـــراش بفعـــل المـــرض الـــذي أودى بحياتـــه؛ فحـــاول بعضهـــم الترويـــح عليـــه بغـــرض التخفيـــف عنـــه؛ فقـــال لهـــم شعـــرا:

رَوَّحـــنِي عَائِـــدِي فقلـــتُ لـــهُ
مَـــهْ، لاَ تـــزِدْنِي عَلَى الذِي أجِـــدُ
أمَـــا تـــرَى النـــارَ وَهْيَ خامـــدَةٌ
عنـــدَ هبـــوبِ الرِّيـــاحِ تتقِـــــدُ؟

وقـــال يشتـــكي مـــن علتـــه بعـــد أن يئـــس مـــن الشفـــاء:

عظمَ البَـــلاَءُ فلاَ طَبيبٌ يرتـــجَى
مِنـــه الشفـــاءُ وَلاَ دَوَاءٌ ينجـــعُ
لـــمْ يَبـــقَ شَيْءٌ لمْ أعَالِجهَـــا بـــهِ
طَمَعَ الحَيَـــاةِ، وَأينَ مَنْ لاَ يَطمَـــعِ؟

"وَإذَا المَنِيـــة أنشبـــتْ أظفارَهـــا
ألفيْـــتَ كـــلَّ تمِيمَـــةٍ لاَ تنفـــعُ"[1]

ولـــه هـــذه القطعـــة كذلـــك:

يا كبـــدِي بِالبَيْـــنِ مَـــنْ أكلمَـــكْ
وَيا دُمـــوعَ العَيْـــنِ مَنْ أسْجَمـــكْ؟
وَيا فـــؤَادِي كمْ تقـــاسِي الهَـــوَى
مُكتتمـــاً عـــنِّيَ، مَـــا أكتمَـــكْ!
علمْتـــكَ الكتـــمَ أمَـــا تسْتـــحِي
وَيْحـــكَ أنْ تَكتـــمَ مَـــنْ علمَـــكْ؟
كنـــتُ أدَاوِيـــكَ فـــلاَ ذَنـــبَ لِي
لـــوْ أنـــنِي أعلـــمُ مَـــنْ أسقمَـــكْ

ولـــه هـــذه قطعـــة الـــتي يكـــون قـــد مـــدح فيهـــا عـــلي بـــن حمـــود:

طلَعـــتْ طوَالعُ لِلرَّبيـــعِ فأطلعَـــتْ
فِي الرَّوْضِ وَرداً قبْلَ حينِ أوَانـــهِ
حيـــا أمِيـــرَ المُؤْمِنيـــنَ مُبشـــراً
وَمُؤَمـــلاً لِلنيـــلِ مِـــنْ إحسانـــهِ

[1] استشهـد هنـا ببيـت أبي ذؤيـب الهـذلي.

ضَنَــتْ سَحَائبــهُ عَليــهِ بمَائهَــا

فأتــاهُ يسْتسْقِيــهِ مَــاءَ بنانـــــهِ

دَامــتْ لنــا أيامــهُ موْصُولــــة

بِالعــزِّ وَالتمْكِيــنِ فِي سُلطانـــــهِ

ثــم هــذه القصيــدة الــتي يشكــو فيهــا نوائــب الدهــر:

أمسَى سَقامِي زَاجــرِي وَمُؤَنــبِي

وَغـــدَا مَشِيبِي وَاعِظِي وَمُــؤَدِّبِي

أوْهتْ خطوبُ الدَّهرِ مِنِّي عَاتِــقِي

ثقلاً، وَزَعــزَعَ منكِبــاهُ منكِــبِي

وَهمَــتْ سَحائبــهُ عَلَيَّ فغــادَرَتْ

أرْضِي قرَارَةَ كلِّ خطبٍ مُعجــبِ

فأظلُّ أبصِــرُ فيهِ مَا لمْ أحْتســبْ

جــوراً وَأقــرَأ فيـــهِ مَا لمْ أكتــبِ

ســنٌ حدِيثٌ تحتَ جــدٍّ شــارِفٍ

وَســوادُ رَأسٍ فــوْقَ قلبٍ أشيــبِ

أغــدُو عَلَى بَكــرٍ لصرفِ بَناتــهِ

وَأرُوحُ مبتنِيــاً بأخــرَى ثيِّـــــبِ

أفتــضُّ مِنهَا كــلَّ يــوْمٍ عــذْرَةَ
لاَ تشتـــهَى وَأزَفُّ مَا لمْ أخطــبِ
يَا سَيـــدِي وَأخِي الوفِيَّ وَمَا أخِي
منهُ إلَى قلـــبِ الإخـــاءِ بأقــرَبِ
وَإذَا غدَا العِلــمُ المُشـــرِّفُ أهلـــهُ
نسَبـــاً يُؤلفنـــا فنحـــنُ بنـــو أبِ
هـــلاَّ اهتدَيتَ إلَى خِطابِ مـــرزَّإٍ
مَا بينَ أضْلاَعِ الخطـــوبِ مُغيـــبُ
لمْ يبـــقِ مِنهُ الدَّهـــرُ غيْرَ مَدَامِـــعٍ
سُفـــحٍ وَقلـــبٍ بِالسقـــامِ مُعَـــذَّبِ
أخفتـــنِيَ الأيـــامُ فِي لهَوَاتهَـــــا
وَسَجَننِي فِيهَا فَكيـــفَ شَعَـــرْتَ بِي؟
وَكتبْتَ عَنْ وُدٍّ وَقَـــدْ كتبَ الإخـــا
بَينَ النفـــوسِ صَحَائِفاً لـــمْ تكتـــبِ
بـــأرَقَّ مِنْ دَمعِ المُشـــوقِ فـــؤَادُهُ
وَأرَقَّ مِنْ ريـــقِ الحَبيبِ وَأعـــذَبِ
فظلَلـــتُ مِنهُ فِي غديـــرِ بَلاَغـــةٍ
عـــذْبٍ وَمُلتفِّ الحَدَائـــقِ مُعْشـــبِ

كرُمــــتْ مَغارِسهُ فأوْرَقَ فرْعَــهُ
عِلمـــاً وَأثمَــرَ بِالكَــلاَمِ الطيــبِ
صُبُـــحٌ تـــدَرَّعَ مِنْ سَوَادِ مِــدَادِهِ
لَيــلاً كفِعْــلِ الزَّائــرِ المُترَقــبِ
خفِيَـــتْ مَعَانِيــهِ عَــلَى أوْهامِنـــا
فَالفكـــرُ بَيْـــنَ مُصـــدّقٍ وَمُكـــذِّبِ
طلعـــتْ كوَاكِبــهُ ولَمَّـــا تطلِـــعْ
وَغرَبَـــنَ فِيـــهِ لنـــا لمَّـــا تغـــرُبِ
أنَا مُذْنـــبٌ لاَ شكَّ إذْ لمْ أسْتطِـــعْ
رَدَّ الجَـــوَابِ وَأنتَ غيرُ المُذْنـــبِ
حَمَلتـــهُ مِنْ طيبِ الإخـــاءِ مَحَبـــة
فيكـــمْ وَإخـــلاَصٌ لكـــمْ فتطيَّـــبِ
وبَعَثْـــتُ مَاءَ الوَردِ فيـــهِ سَائِغـــاً
عَذْبـــاً لذَائقـــهِ زلالاً   فاشـــرَبِ
أذْكَى مِنَ المِسْكِ الفتيـــق نسيمُـــهُ
أرَجـــاً وَأصْفَى مِنْ لُعابِ الجنـــدُبِ

ـ ثم أبو بكر عبد الله بن حجاج الغافقي الإشبيلي: وهو ـ كما يستوحى من اسمه ـ من أهل إشبيلية. هذا وينتسب ابن حجاج إلى قبيلة غافق القحطانية العربية. قال عنه صاحب المغرب **((ذكر الحجاري: "أنه شاعر بعيد الصوت، معدود في شعراء المعتضد؛ وكان قد هجر وطنه، وانتبذ إلى صاحب الجزيرة الخضراء محمد بن القاسم بن حمود... فقال له وزيره: أسأل ابن الخليفة: هل أنت من بني حجاج أصحاب السيرة بإشبيلية؟ فقال: لو كنت منهم طلبت السيف؛ ولم أطلب بالشعر؛ فقال ابن حمود: لا فُضَّ فوك! يا شَدَّ ما امْتَعضَ لأعْيانِ بلده)).**[1] ويكون ابن حجاج هذا قد توفي بعد سنة 430هـ؛ لأنه تقابل في هذه السنة مع الحميدي؛ الذي قال إنه سمع منه أشعارا كثيرة؛ عندما التقى به في السنة المذكورة.[2] ومن شعره هذه الأبيات التي ذكرها الحميدي:

لَما كتمْتُ الحُبَّ لاَ عَنْ قِلًى
وَلَمْ أجِدْ إلاَّ البُكا وَالعَوِيلْ
نادَيتُ وَالقلبُ بهِ مُغْرَمٌ
يا حَسْبِيَ اللّه وَنِعمَ الوَكِيلْ

---

[1] المغرب، ج: 1، ص ص: 265 ـ 266.

[2] جذوة المقتبس، ص: 261.

وأورد لــه الحجــاري هــذه الأبيــات:

ألاَ أيها الــوَادِي الذِي رَفَّ ظِلــهُ
وَفاحَــتْ خزَاماهُ وَغــرَّدَ طائِــرُهْ
أتذْكــرُ أيامِي بدَوْحِــكَ وَالحِــمَى
يبارِكنــا مِنــهُ بِجزْعِــك زَائــرهْ
وَقدْ رَقَّ نَسْــجُ العَتبِ بينِي وَبَيْنــهُ
وَمَا زَاد مِنا الحبُّ عفتْ سَرَائِــرُهْ

أمــا المقــري فقــد أورد لــه عــدة مقطوعــات؛ منهــا هــذا المقطــع مــن قصيــدة مــدح بهــا محمــد بــن القاســم ابــن حمــود:

يقولونَ إنَّ السِّحْرَ فِي أرْضِ بابــلٍ
وَمَا السحْرُ إلاَّ مَا أرَتــكَ مَحَاجــرُهْ
وَمَا الغُصْنُ إلاَّ مَا انثنَى تَحْتَ برْدِهِ
وَمَا الدِّعصُ إلاَّ مَا طوتَــهُ مَــآزِرُهْ
وَمَا الــدُّرُّ إلاَّ ثغــرُهُ وَكلاَمــــهُ
وَمَا الليْــلُ إلاَّ صَدْغــهُ وَغدَائــرُهْ

وأرد لــه أيضــا المقــري مقاطــع صغيــرة مــن الشعــر الــذي قالــه عندمــا كــان في إشبيليــة. لا داعي لإثباتهــا في هــذا المجــال.

ـ ثم أبو محمد غانم بن وليد المخزومي المالقي:[1]

وينتسب هذا الأديب العالم إلى بني مخزوم من قريش؛ وهو من أهل مالقة وعلمائها النابهين. قال فيه الحميدي: ((**فقيهٌ، مدرسٌ، وأستاذ في الآداب وفنونها، مجوِّد؛ مع فضل وحسن طريقة**)).[2] ووردت له بعض المقطع الشعرية في الذخيرة، وبعض المواضع المتفرقة من نفح الطيب، وفي جذوة المقتبس، والصلة. ولغانم بن وليد رسائل نثرية عديدة أوردها ابن بسام؛ منها على سبيل المثال هذه المقطوعة النثرية التي صاغها لما تولى إدريس العالي الخلافة. وفي النص إشارة إلى الأحداث التي تكون قد وقعت في مالقة؛ حين حاول الفتى الصقلبي نجا بمساعدة السطيفي اغتصاب الحكم. قال غانم: ((**ولم يترُك المتطول علينا عزَّ وجههُ بالهدى أمة محمَّدٍ عليه السلامُ سدى؛ بل نظمَ شملها بإمامٍ عادلٍ تجتمعُ إليه، وتعوِّلُ عليه، تتوارثهُ كابراً عن كابرٍ، وتتلقاهُ غابراً عن غابرٍ؛ إلى أن أذِنَ اللهُ للأكمام الهاشميّ، والملك الفاطميّ، والفرع العلويّ، إدريس العالي بالله بن يحيى المعتلي بالله بن علي الناصر**

---

[1] قال فيه ابن بسام: ((قد بذ ـ وقته ـ أهل ذلك الإقليم، في أنواع التعاليم؛ فَرْدَ عصره ونسيج وحده في تناهي جده؛ متفننا جرى في ميدان السَّبْق، وفقيها قرطس أغراض الحق؛ وكان في هذا الباب الذي ولجنا فيه من أهل الرَّوية والبديه)). الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 853 ـ 854.

[2] جذوة المقتبس، ص: 325.

لدين الله بن حمود بن أبي العيش بن عبيد الله ابن عمر بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فقام العالي بالله بخلافة المغربيين، واضطلع بملك العدوتين؛ ولما آن أوانُ إمامته، حانَ من عدوّه حينُ قيامته. وكان مقتلُ العبد الغادر ــ وكافرُ النعْمَة كالكافر ــ في جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين، وفي عشرين ليلةٍ خلتْ من كانون. فانجلتْ سمومُ الشتاء بانجلائه، وانقضت أيام الشؤمِ بانقضائه، وكان عقبَ الشهر في استقبال شهر رجَبَ الشهر الأصمّ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّ العربَ أسقطتْ فيه قعْقعَة السِّلاح؛ وكأنَّ المثلَ إنما جرى في مضمار، على مفرق الليل والنهار، وأرى الناسَ مخايلَ السعدِ والإيناس، وهو قولهم: عِشْ رجباً ترَ عجباً؛ وكأن هذا العجبُ آخِرَ يومٍ من الليالي، وقامَتْ فيه دولةُ هذا الملكِ العاليَ، والشمسُ تأخذُ من قعرِ الفلكِ في الصعود، وتؤذنُ بجري الماء في العود؛ وتترقّى بالعلم في دَرَجِ السعود:

وَاسْتَقْبَلَ المُلكَ إِمَامُ الهُدَى

فِي أرْبَعٍ بَعْدَ ثلاَثِينَا

خِلاَفَةُ العَالِي سَمَتْ نَحْوَهُ

وَهوَ ابْنُ خَمْسٍ بَعْدَ عِشْرِينَا

إنِّي لأرْجُــو يَا إمَــامَ الهــدَى

أنْ تمْلــكَ المُلـــكَ ثمَانِينَـــــا

لاَ رَحِـــمَ اللـــهُ امْرُءاً لَمْ يَقــلْ

عِنــدَ دُعَــائِي لــكَ آمِينَـــــا

فسفــرت الدنيــا قناعهــا فتيــة، وبلغــت النفــوسُ بخلافتــه الأمنيــة، وانثالــتْ عليــه بيعــاتُ الأمصــار، وأمــتْ حضرتــه الرُّســلُ مــن جميــع الأقطــار، وبــدأ بالفضــل، وصــدع بالعــدل؛ فأحيــا مآثــرَ آبائــهِ الطاهريــن)).[1]

وفي رسالــة لــه بعــث بهــا إلى أبي الحســن الحصــريّ قــال: **((مــا أفصــحَ لسانــك، وأفســحَ ميدانــك، وأوضــحَ بيانــك، وأرجــحَ ميزانــك، وأنــورَ صباحــك، وأزهــرَ مصباحــك؛ أيهــا السابــق المتمهــل، في ميــدان النّبــل، والسَّامِــقُ المتطــوِّلُ بفضائــلِ الذّكــاء والفضــل؛ أرحتــني مــن غــلِّ الهــمِّ، فأزهدتــني أريحيّــة، وأزَحتــني عــن ظــلّ الغــمِّ، فلاحــتْ لي شمــسُ الأمنيــة، بمــا أطلعتــه علــيّ، فنفذتــه مكارمُــك إليّ. فقلــت: أعَصْــرُ الشّبــابِ رَجَــع، أم كوكــبُ السَّعــدِ طَلَــعَ، أم بأرقُ الإقبــال لمــع؟ كَــلاًّ واللــه؛ إنهــا لمكرُمَــةٌ فهريــة، أهدتهــا نفــسٌ سنيــة، وهمَّــة عليَّــة. إن قلــتُ الوشيُ الصنعــانيّ فقــد نقصتهــا، أو الدّيبــاجُ الخســروانيّ فقــد بخستُهــا. بــلى**

---

[1] الذخيــرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 861 ـ 862.

والله، أرتني زهرَ الرَّبيع في غيرِ أوانه، وحُسنَ الصَّنيع على عَدَمه في أهلِ زمانه؛ لمحتُ منه عِقد اللآل، يبقى على أخرى الليال؛ فأنت واحدُ البلاغة الذي لا يجارَى، وفارسُ الفصاحة الذي لا يُبارَى؛ وقد اعتقدتُ ما به أشرت، وإياه اعتمدت، لو لاح لي في أفقِ النقلةِ صباح، أو استقلّ بي في طرُق الرّحلة جناح.

وكم حاولتُ مسالمة النوائب بانقباضي، ومداراة الدُّنيا بتركي لأغراضِها وإعراضي؛ فإذا الانقباضُ قد حصَّلني في جملةِ القَبض، والتركُ للأغراض قد جعلني للنوَب كالغرض؛ ولا سلاحَ إلاَّ الدُّعاء إلى الله تعالى في الصَّلاح، ولا جناح إلاَّ التمني لمن يقولُ ما عليك جُناح؛ فسبحان من قدرَ أن أكونَ لناب النوَب حرباً، وتكونَ عليّ أيامُ الزمان إلباً، أصلى بنار المصائب السُّود؛ كأني ممَّا أنا باكٍ منه محسود. أستغفرُ الله! فقد حمي صدري حتى غلى مِرْجَله، وضاق مجالُ فكري حتى اتَّسعَ في الشكوى مقولَه. ولو أني سلمتُ لمواقع الأقدار، وعلمتُ أنه ليس على القدَر اختيار، ورضيتُ بما يأتي به الليلُ والنهار، وتَيَقنتُ أنَّ خُلقَ الزمانِ عداوة الأحرار؛ لأرحتُ قلباً يتقلبُ في جمرِ الأسى، وأذكرتُ لبًّا قد نسي الاقتداء بالأسى)).[1]

---

[1] الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 856 ـ 857.

ومــن المقطوعــات الشعريــة لغانــم بــن وليــد؛ هــذه الأبيــات الــتي قالهــا لمــا دخــل عــلى مجلــس باديــس ابــن حبــوس؛ فوســع لــه كي يجلــس عــلى رغــم الضيــق فقــال:

صَيــرْ فــؤَادَكَ لِلمَحْبُوبِ مَنزِلــة
سـمُّ الخِيــاطِ مَجَــالٌ لِلحَبِيبَيْــنِ
وَلاَ تسَامِــحْ بَغِيضاً فِي مُعَاشَــرَةٍ
فقلمَــا تسِــعُ الدنيَــا بَغِيضَيْــنِ

ولــه أيضــا:

الصَّبَــرُ أوْلَى بِوقــار الفــتَى
مِنْ قلــقٍ يَهْتِــكُ سِترَ الوَقــارْ
مَنْ لــزِمَ الصَّبْــرَ عَلَى حَالــهِ
كــانَ عَــلَى أيامِــهِ بِالخيــارْ

وممــا قالــه في العــالي باللــه إدريــس بــن يحــيى ابــن حمــود:

لَوْلاَ التَّحَــرُّجُ لمْ يُحْجَبْ مُحَيَّــاكِ
حُيِّيــتِ عَنــا وَحُيِّينــا بِمَحْيَــاكِ
هَذا اللثــامُ غَمَــامٌ مَا يُبِينُ هُــدًى
حُــطِّي اللثــامَ فَليسَ البَــدْرُ إلاَّكِ

لمَّا هَدَيْـــتِ إلَى نَعْمَـــانَ سَافِــرَةً
كانتْ هدَايَتُنَـــا مِنْ بَعْضِ نُعْمَـــاكِ

ثم يضيف:

أوْ يَمِّمِي حَضْرَةَ العَالِي بِمَا احْتَمَلَتْ
مِنِّي الضُّلوعُ فَثَــمَّ البُرْءُ لِلشَّـــاكِي

ويقـــول في قصيـــدة أخـــرى:

يَا غَرِيبـــاً بِحُسْنِـــهِ قِصَّتِي فِيكَ أغْـــرَبُ
أنْتَ فِي طَيِّ نَاظِرِي وَالمُنَى مِنْكَ تُحْجَبُ
لاَ تَلُـــمْ فِي مِـــدَادِهِ بدَمِ القلـــبِ يُكتَـــبُ
إنَّ إدْرِيـــسَ مَاجِـــدٌ لِلعُلاَ فِيـــهِ مَذهَـــبُ
جَـــدُّهُ خَاتَمُ الهُـــدَى وَعَـــلِيٌّ لَـــــهُ أبُ
فَهْـــوَ لِلْمَجْدِ مَطْلَـــعٌ وَهْوَ لِلْمَجْدِ مغـــرِبُ

ويقـــول دولـــة إدريـــس العـــالي:

ضَحِـــكَ الزَّمَانُ إلَيْكَ بَعْدَ عُبُـــوس
وَنَـــفَى دُجَى الإيحَـــاشِ بِالتأنِيـــسِ

فَأدِرْ نُجُومَ الرَّاحِ فِي فَلَـكِ المُـنَى
وَتَطُوفُ نَحْوَكَ مِنْ أكـفِّ شُمُـوسِ
فِي رَوضَةٍ تُحْيِي النُّفُـوسَ كَأَنَّمَـا
بَاتـتْ تَنَفَـسُ عَنْ عُـلاَ إدْرِيـسِ
مَلِـكٌ أقَـامَ اللـهُ دَوْلَـةَ مُلْكِـهِ
فَكَبَـا مِنَ الأعْـدَاءِ كـلُّ رَئِيـسِ
مِنْ دَوْحَةِ الـوَحْيِ الـتِّي بِسُمُوِّهَـا
دَرَسَـتْ مَعَانِي الكفـرِ أيَّ دُرُوسِ

وقـال في رثـاء أخويـه:
يـا دَمْـعُ لاَ تخـذُلْ وكنْ مُسْعِـداً
لاَ تَخـشَ مِنْ صَبْرِيَ أنْ يَمْنَعَـكْ
أخٌ غرِيـقٌ وأخٌ فِي الثـرَى
وَترتـجِي السَّلـوةَ مَـا أطمَعَـكْ!
إنَّ جُمـودَ العَيـنِ خـوْفَ العِـدَا
وَرِقبَـة الحُسَّـادِ لـنْ يَنفعَـكْ
يـا عُمَـراً أعْمَـرْتَ قلـبِي أسىً
وَدَّعَ صَبْـرِي مِثلمَـا وَدَّعَـكْ

رُزِئــتُ فِي الدُّنيَـا يَدَيْ نصْــرتِي
يَـا دَهـرُ تبـاً لــكَ مَـا أفجعــكْ

وقـال واصفـا وادي مالقـة في موضـع يسـمى ربـوة العقـاب:

ضحِـك الزّمَانُ بِحسنِـهِ وَبهَائـهِ
كَالصَّبِّ يَضْحَكُ بَعْدَ طولِ بُكائِـهِ
وَكـأنَّ إقبَـالَ الرَّبيـعِ بوَصلِـهِ
وَصلُ الحَبيبِ أتـاكَ بَعْدَ جَفائِـهِ
وَكأنمَـا وَادِي العُقَـابِ عَشيـة
مُستمْطِـرٌ دَمْعِي بِجريْـةِ مَائـهِ
وَكأنَّ رَشحَ الطلِّ فِي رَوْضِ الربَى
رَشحُ الخدُودِ بَـدَا بنـارِ حيائـهِ

وكـان يُحْـيي جلسـات الأنـس والطـرب في قصـر الملـك العـالي إدريـس بـن يحـيى مطـرب اسمـه المهـدوي؛ فطلـب يومـا مـن غانـم تذييـل بيـت مـن الشعـر كـان يحفظـه؛ حـتى يتسـنى لـه الغنـاء بـه؛ مـع التذييـل. والبيـت الـذي يحفظـه المهـدوي هـو:

يَا نائِبَ الوَجهِ عَنْ شمْسِ الضحَى غَسَقاً
وَالبــدْرُ لـوْ كلفــوهُ ذَاكَ لــمْ ينــبِ

فأكمــل غانــم بــن وليــد بديهــة:

فِي غــرَّةِ الملكِ العَــالِي وَمَنظــرِهِ
بــدْرٌ يُعطــلُ نورَ السبعةِ الشهـــبِ
نــرَى محيــاهُ فِي ليــلٍ فيخبرُنــا
عنِ الحَقِيقــةِ أنَّ الشمــسَ لمْ تغــبِ

وحــدث أيضــا في بعــض جلســات الأنــس والسمــر والغنــاء؛ الــتي كــان يحييهــا المغــني محمــد بــن الحمــاميّ أن طلــب الملــك إدريــس مــن غانــم تذييــل بيــت ابــن المعتــز:

هــلْ يُزِيــلُ البَيْــنَ مُحْتــالُ
أنْ غــدَتْ لِلبَيْــنِ أجْمَـــالُ

فأكمــل غانــم قائــلا:

إنمــا العَــالي إمَــامُ هـــدًى
حلِيَــتْ فِي عَصْــرِهِ الحَـــالُ
مَلِـــكٌ إقبَـــالُ دَوْلتـــهِ
لِـــذَوِي الأفهَــامِ إقبَـــالُ

قــلْ لِمَتنْ أبــدَتْ مَطَالبـــــهُ

رَاحَتَــاهُ الجـــــاهُ وَالمَـــــالُ[1]

ـ وأبــو عبــد اللـــه محمــد بـــن الســرّاج المالــقي:
لــم يتــم التعــرف عــلى أصــل نسبــه الأول؛ إذ أحجمــت المصــادر المتوفــرة عــن الإشــارة إلى ذلــك؛ ولــم تذكــر ســوى أنــه مــن أهــل مالقــة[2]. أمــا ابــن بســام فقــد نقــل مقطوعــات عديــدة مــن شعــره؛ ولكنــه لــم يشــر إلى ترجمــة حياتــه؛ وكــل مــا قــال فيــه: ((**محســنٌ في**

[1] وممــا حكــاه غانــم عــن مجالــس السمــر الــتي تقــام بقصــر الملــك إدريــس قولــه: ((وحضــرتُ مجلســهُ أيضــاً فتغــنَّى الحمــاميُّ بشعــرٍ محــدثٍ أولــه:

إذَا بَلغتِــني يَــا نــا ... قــتي المَسْــمِيَّ إدْريســا

فكــأنَّ العــالي باللــهِ استحســنَ الحُـلــةَ ولــم يــرضَ قولــه "المســمــيّ"؛ وإنمــا هــو المســمِّي أو المُـســمَّـى مــن سمّــيت أو أسميــت؛ ولا يُــقــالُ مــن التسمية سمــوتُ ولا سميــت؛ ولــو قــال "المُســمَى بإدريســا" لصــحَّ الــوزنُ والكــلام؛ فأطــرَقَ قليــلاً ــ أيــده اللــه ــ ثــم قــال: للمُــغــنــي: "أعِــدِ الصــوتَ؛ قــل:

إذَا ضَاقــتْ بكَ الدُنيَــا ... فَعَــرِّجْ نحــوَ إدْريسَــا
إذَا لاَقيتـــهُ تلـــقَى ... رَئيســـاً ليْسَ مَرْءوسَــا
وَمَــنْ عَزَمَاتــهُ تنــفِي ... عــنِ الأوْطــانِ إبْليســا
إمَــامٌ ماجــدٌ ملـــكٌ ... يزيــلُ الغــمَّ وَالبُؤسَــا")).

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص: 864.

[2] قالــه عنــه الحميــدي مثــلا: ((محمــد بــن الســرّاج المالــقي: منســوب إلى مالقــة؛ بلــد مــن بــلاد الأندلــس؛ عــلى ساحــل المَجَــاز الــذي يقــال لــه الزُّقــاق؛ لــم يقــع لي اســم أبيــه؛ شاعــر أديــب مشهــور؛ رأيــت لــه أشعــارا في ذي الوزارتيــن أبي جعفــر أحمــدِ بــن بقنــة وزيــر دولــة العلوييِّــن مــن بــني حمــود؛ وذكــره أبــو عامــر بــن شُهَيْــد مفضِّــلا لــه؛ وأنشــد ممــا استحســن مــن شعــره:

وكَــمْ عَنَّ يَوْم النحْــرِ مِنْ نَحْــرِ شَــادِنٍ

لِعيــني بِأطــوَاق الجمــالِ مُطــوَّق)).

جذوة المقتبس، ص: 61.

أهـل عصـره مَعـدود، وشاعِـرُ بـني حَمُّـود؛ ولـه فيهـم غيـرُ مـا قصيـد، ومقطوعـاتٌ في النَّسيـب؛ وجدتهـا بخـطّ الأديـب أبي عـليّ الحسـن بـن الغليـظ مـن أفـق مالقـة أيضـا؛ صاحبـه الكثيـر الاتصـالِ بـه والمُنادمـةِ لــه)).[1] وكمـا هـو واضـح؛ فشعـر ابـن السـراج هـذا تغـب عليـه نزعـة الوصـف، وحـب الطبيعـة، والغـرق في المجـون. وهـذه بعـض المقاطـع المختـارة مـن الذخيـرة والمغـرب ونفـح الطيـب. فممـا قالـه عنـد سماعـه لهـزار؛ وهـو ذلـك الطائـر المسمى في بـلاد المغـرب والأندلـس بـأمِّ الحَسَـن[2]:

وَمسْمِعَـةٍ تغنينـا ارتجـالاَ
وَتصْحبنـا بنغمتهَـا دَلاَلاَ

وَبينَ أكفنـا خمـرٌ وَمـاءٌ
إذَا ما سالَ خِلتَ الدُّرَّ سَـالاَ

فإنْ شاءَتْ سقيناهـا مدَامـاً
وإنْ شـاءَتْ سقيناهـا زُلاَلاَ

وَلَوْ سُقيتْ دَمِي وَدَمِي حَرَامٌ
لَكـانَ لِحسـنِ منطِقِهَا حَلاَلاَ

---

[1] الذخيـرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 870 ـ 871.

[2] ثمـة قـول يـرى أن أم الحسـن هي الشحـرور والعندليـب والبلبـل.

ويقــول أيضـــا:

وَمُسمِعَةٍ غنتْ فهَاجــتْ لنا هــوًى
جنينا به مِنها ثمَـــارَ المنَى جنيـــا
دَعوْتُ لَهَا سُقيَا، فمَا استكمَلَ الرِّضَا
دُعائِي لها حَتى سَقاها الحَيا سَقيَـــا
وكَأسٍ علَى طِيبِ استمَاعِي لِصَوتِها
شرَبتُ، ودَمعُ المُزْنْ يُسعدُنِي جرْيا

ثــم يقــول:

كفَي حزناً أنِّي أرَى الحسنَ ممكِنـــاً
ولَستُ أرَى لِي فيهِ أمْراً وَلاَ نهيـــا
ولَوْ تعـــدِلُ الأيـــامُ فِي بذلِ خطـــةٍ
لَمَا كنتُ فِي السُّفلَى وَغَيْرِيَ فِي العُليا

ومِمـــا قالــــه في ديـــك صـــدح مـــع السحـــر:

رَعَى اللهُ ذَا صَوْتٍ أنسْنا بصَوتـــهِ
وَقد بانَ فِي وَجهِ الظلاَم شحـــوبُ
دَعـــا مِنْ بعِيـــدٍ صَباحاً فأجابـــهُ
يُخبرُنـــا أنَّ الصبـــاحَ قــــرِيبُ

عَلَيَّ لــهُ ــ لوْ كنتُ أملكُ أمــرَهُ
حياةٌ عَلَى طِيبِ الزَّمـــانِ تطِيــبُ

ولـــه كذلــك:

رَعَى اللـــهُ فِتيَانـــاً أنسْتُ بقرْبهـــمْ
عَلَى جَــدْوَلٍ لِلمـــاءِ فِيـــهِ خرِيــرُ
أقمنا بهَا يَوْمينِ فِي خفضِ عِيشـــةٍ
وَلاَ عيـــشَ إلاَّ قهــوَةٌ وَغدِيــــرُ
تـــدُورُ القــوَافِي بَيننـــا نستحِثهـــا
وكـــأسُ الحميا بِالســـرُورِ تـــدُورُ
وَفِي الشجرَاتِ الخضرِ مِنهُ رَقِيقــةٌ
لنغمتِهَـــا بَيْـــنَ الضُّلُــوعِ هدِيــرُ
إذَا مَا تغنـــتْ فوقنـــا قلـــتُ قيْنـــة
تلاَهـــا بصَـــوْتٍ مُثلثـــانِ وَزِيــرُ
سَبَتنِي بِصَوْتٍ لوْ يُبـــاعُ اشترَيتـــهُ
بمَا مَـــرَّ مِنْ عمـــرِي وَذَاكَ يسيــرُ

ــ ثــم أبــو عــلي الحســن بــن الغليــظ المالــقي:
كـــان ملازمـــا لزميلـــه الشاعـــر ابـــن الســـراج المالـــقي؛ فهمـــا وجهيـــن لعملـــة واحـــدة كمـــا يقـــال. والمصـــادر

التي تكلمت عن ابن السراج تحدثت – في سياق واحد – عن ابن الغليظ؛ لأنه كان هو المورد الأساسي الذي استقت منه تلك المصادر الأدبية أخبار زميله ابن السرج. وكان هذان الشاعران في خدمة ملوك بني حمود. ويتميز شعرهما بالتوجه نحو وصف الطبيعة، والمجون. هذا وقد جاءت أشعار ابن الغليظ متداخلة مع أشعار ابن السراج؛ إذ كانت عبارة عن مطارحات شعرية إخوانية بينهما؛ حيث كان ابن الغليظ – في أغلب الأحيان – يستفز صديقه ابن السراج بشطر أو بيت أو بعض أبيات؛ فينساق هذا الأخير مع تيار الإغراء؛ فيأتي ببقية الفكرة متقيدا بالبحر والقافية والروي نفسه. وكعينة من شعر ابن الغليظ؛ هذه الأبيات التي بعث بها إلى ابن السراج مغريا إياه كي يلتحق به؛ حيث أعد مجلس شراب وأنس:

يا خليلاً صَفَا وَكَدَّرَ يَوْمِي

هل إِلَى الطيبِ فِي غدٍ مِنْ سبيلِ؟

لوْ تراني أسارِقُ اللحظَ خِلي

وَأسقِّي مِنْ رِيقهِ المعسولِ

لتمَنيــتَ أنْ تــرَى "حسُــنَ الــورَدِ" [1] تغنيــكَ بِالغنــاءِ النبيــــلِ
يا خلِيــلاً مِثالــهُ نصْــبَ عيــنِي
لــوْ خلونــا إذَنْ شفيــتُ غليــلِي

وقــال واصفــا جلســة مــن جلساتهمــا في الطبيعــة الخلابــة؛ محــاولا بذلــك تحريــك صديقــه ابــن ســراج، واستفــزازه لــكي يصــف ذلــك الموضــع الجميــل:

شرِبنــا علَى مــاءٍ كــأنَّ خرِيــرَهُ
خريــرُ دُموعِي عِند رُؤْيةِ أزْهــرِ[2]
حلفــتُ بعينيهَا لقــدْ سَفكــتْ دَمِي
بأطــرَافِ فتــانٍ وَألحــاظِ جــؤذرِ

ثــم أعــاد إنشــاد صــدر البيــت الأول؛ بغــرض تحريــك صديقــه ابــن الســراج:

شرِبنــا عَــلَى مــاءٍ كــأنَّ خرِيــرَهُ

---

[1] حُــسُــن الــورَد: جاريــة يحبهــا ابــن الســراج.
[2] أزْهــَـرُ جاريــة لبعــض أصدقائهمــا كــان يهواهــا ابــن الســراج.

فقــال عــلى الفــور:

بكـــاءُ محــبٍّ بانَ عنـــه حبيـــبُ

فمنْ كانَ مشغوفـــاً كئيبـــاً بإلفـــهِ

فـــإنِّي مشغـــوفٌ بـــهِ وكَئيـــبُ

ومــن المقاطــع الشعريــة الــتي نسبهــا ابــن بســام إلى ابــن الغليــظ؛ بغــرض استفــزاز ابــن الســراج:

بـــدَا الوَرْدُ فِي أغصانهِ متعرِّضـــاً

يذَكــرُنِي مَن اسمهُ حســنُ الــورْدِ

يذَكــرُ أيامــاً نعمنــا بطِيبهـــا

ورَشف رُضابٍ طَعمهُ حَسنُ الوَرْدِ

فدَعنِي ولاَ تلــحَ عَلَى الحبِّ أهلَــهُ

فَلوْ كُنت تدْرِي لَمْ تلمْنِي علَى وَجدِي

فقــال:

ولَما تبــدَّى الوَرْدُ فــوقَ غصُونـــهِ

وَذَكرنِي بِالــوَرْدِ فِي صَفحةِ الخــدِّ

ذَكــرْت به منْ خـــدُّهُ لِيَ رَوْضـــة

تهيمُ بها مَن حسنِها رَوْضةُ الــوَرْدِ

فقلتُ لِمنْ عهدِي لـــهُ مِثـــلُ عهـــدِهِ
سَقاكَ الحَيا مِنْ صَاحِبٍ حافِظِ العهدِ
وَقلتُ اسْقِنِي كأساً عَلَى طِيبِ ذِكرِها
فـــإنِّيَ مَشغوفٌ بِها بينِكـــمْ وَحـــدِي

وكتـــب إلى ابـــن الســـراج معتـــذرا عـــن تخلفـــه عـــن موعـــد تواعـــدا عليـــه:

يـــا صَدِيقـــاً وِدَادُهُ مَا يرِيـــمُ
وَخليـــلاً إخـــاؤُهُ لِي يـــــدُومُ
جَاءَنِي رَاغِباً لأحضُرَ عُرْســـاً
مَنْ لـــهُ عِندَنـــا ذِمـــامٌ قدِيـــمُ
وَهوَ غُسٌ لاَ تأتِهِ خاوِيَ البطـْـ
ــنِ فإنَّ الغـــدَاءَ فِيـــهِ نسِيـــمُ

وكتـــب إلى ابـــن الســـراج ــ أيضـــا ــ بعـــد عودتـــه مـــن سفـــر متعـــب؛ رافـــق فيـــه أناســـا لـــم يرتـــح لرفقتهـــم:

يا مَنْ أقلبُ طـــرفِي فِي مَحاسِنِـــهِ
فـــلاَ أرَى مِثلهُ فِي النـــاسِ إنسَانـــا

لَوْ كُنتَ تَعلــمُ مَا لاَقَيتُ بَعْــدَكَ ما
شَرِبتَ كَأساً وَلاَ استَحْسَنتَ رَيحَانـــا

فأجابـــه بقولـــه:

يا مَـــنْ إذَا سقتنِي الــرَّاحَ رَاحتـــهُ
أهــدَتْ إلَيَّ بِها رُوحــاً وَريحانـــا
مَنْ لَمْ يَكنْ فِي صَبَاحِ السَّبتِ يَأخُذها
فَلَيسَ عِندِي بِحُكمِ الظرْفِ إنْسَانـــا
فَكنْ عَلَى حُسْنِ هَذَا اليوْمِ مُصْطَبِحاً
مُؤَخــراً حسنــاً فِيــهِ وَحسانـــــا
وَفِي البَسَاتِينِ إنْ ضَاقَ المَحَــلُّ بنـــا
مَندُوحَة لاَ عَدمْنـــا الدَّهــرَ بُسْتَانـــا

ـ ثــم أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا القِبذَاقِي الأشبــوني:[1] لــم يكــن ابــن مقانـــا مــن المقيميــن في مالقـــة؛ ولكنـــه زار بــلاط الخليفـــة العـــالي إدريـــس بـــن يحـــيى؛ خـــلال تجوالـــه في بـــلاد الأندلـــس؛ أيـــن مدحـــه كمـــا مـــدح بعـــض الأمـــراء في تلـــك الربـــوع. هـــذا وقـــد كتـــب الحميـــدي اسمـــه هكـــذا: **((عبـــد الرحمـــن بـــن مقنـــاة**

[1] قـــال فيـــه ابـــن بســـام: ((مـــن شعـــراء غربنـــا المشاهيـــر؛ ولـــه شعـــر يُغْـــرِبُ عـــن أدب غزيـــر؛ تصـــرف فيـــه تصـــرف المطبوعيـــن المجيديـــن؛ في عنفـــوان شبابـــه وابتـــداء حالـــه، ثـــم تراجـــع طبعـــه عنـــد اكتهالـــه)). الذخيـــرة، ق: 2، مج: 2، ص: 786.

البطليوسي؛ أبو زيد)).[1] وقال إنه شاعر مشهور؛ ثم أورد له هذا القطعة الشعرية:

وَرَوْضٍ مِنْ رِيَاضِ الحُزْنِ ناءٍ
كأنَّ ملاَءَهُ وَشْيٌ مُعضدْ
خرَقنا دُونهُ أحشاءَ خرْقٍ
كأنَّ سرَاتهُ جيشٌ مُزَرَّدْ
وَقدْ نشرَ الصَّباحُ رِدَاءَ نورٍ
عَلَى دُرَرٍ مِنَ الزَّهرِ المُنضدْ
كأنَّ الطلَّ مُنتشِراً عَليهِ
برَادَة فِضةٍ فِي الجوِّ تبرَدْ
كأنَّ غدِيرَهُ مرْآة قينٍ
جلاَها الصَّقلُ أوْ صَرْحٌ مُمَرّدْ
إذَا طربتْ عَليهِ الطيرُ غنتْ
لإسْحاقِ وَزِرْيابٍ وَمَعبدْ

---

[1] جذوة المقتبس، ص: 279.

أما ابن بسام فقد نقل عن الوزير الفقيه محمد بن إبراهيم الفهري قوله: ((**كان أبو زيد ابن مقانا قد انصرف شيخا إلى وطنه عندنا؛ بعد أن جال أقطار الأندلس على رؤساء الجزيرة؛ قال: فمررت به يوما بقريته التي تدعى بالقِبذَاق من ساحل شِنترة؛ وبيده مزبرة** [أداة لقطع الأشجار]؛ **فلما رأيته ملت إليه ومال إلي، وأخذ بيدي، وجلسنا ننظر في حراثٍ يحرثُ بين يديه**)).[1] ويبدو أن ابن مقانا كان لا يسمع جيدا؛ إذ وصف نفسه بالصمم في هذا البيت:

سمِعتُ الكنكَ يَصْرُخُ فِي الرَّبيعِ

علَى مَا بِي مِنَ الصَّمَمِ الطبيعِي

ومن أشهر قصائده هذه القصيدة التي حظيت بانتشار واسع في المغرب والأندلس؛ وهي التي قال فيها ابن بسام: ((**وله القصيدة المشهورة في ابن حمود؛ يتداول القوّالون أكثر أبياتها؛ لعذوبة ألفاظها، وسلامتها**)).[2] ومما حكاه المقري بخصوص هذه القصيدة قوله: ((**وقد كان بنو حمود من ولد إدريس العَلوي؛ الذين توثبوا على الخلافة في أثناء الدولة المروانية بالأندلس يتعاظمون، ويأخذون أنفسهم بما يأخذها خلفاء بني العباس؛ وكانوا إذا**

---

[1] **الذخيرة، ق: 2، مج: 2، ص: 787.**

[2] **نفسه، مج: 2، ص: 791.**

حضرهم منشد لمدح أو من يحتاج إلى كلام بين أيديهم؛ يتكلم من وراء حجاب؛ والحاجب واقف عند الستر يجاوب بما يقول له الخليفة؛ ولما حضر ابن مقانا الأشبونيّ أمام حاجب إدريس بن يحيى الحمودي؛ الذي خطب له بالخلافة في مالقة، وأنشده قصيدته النونية... وبلغ فيها إلى قوله: (أنظرونا نقتبس...)؛ رفع الخليفة الستر بنفسه، وقال: "انظر كيف شئت"؛ وانبسطَ مع الشاعر، وأحسن إليه)).[1] ومطلع هذه القصيدة التي مدح بها ابن مقانا إدريس العالي هكذا:

أَلبَرقٍ لائحٍ مِنْ أندَرِينْ
ذرَفتْ عَيْناكَ بِالمَاءِ المَعِينْ
لعِبَتْ أسْيَافهُ عَارِيَة
كَمَخارِيقَ بِأيدِي اللاَّعِبِينْ
وَلِصَوْتِ الرَّعْدِ زَجْرٌ وَحَنِينْ
وَلَقلبِي زَفرَاتٌ وَأنِينْ
وَأنَاجِي فِي الدُّجَى عَاذِلتِي
وَيْكِ لاَ أسْمَعُ قولَ العَاذِلِينْ
عَيَّرَتنِي بِسَقامٍ وَضَنًى
إنَّ هَذيْنِ لزَيْنُ العَاشِقِينْ

---

[1] نفح الطيب، ج: 1، ص: 214.

إلى أن يقــول:

وَكــأنَّ الطــلَّ مِسْــكٌ فِي الثــرَى

وَكــأنَّ النــورَ دُرٌّ فِي الغصُــونْ

وَالنــدَى يَقطــرُ مِــنْ نرْجَسِــهِ

كدُمُـــوعٍ أسْبَلتهُـــنَّ الجُفـــونْ

وَالثرَيــا قــدْ عَلــتْ فِي أفقِهَــا

كقضِيــبٍ زَاهِــرٍ مِــنْ يَاسَمِيــنْ

وَانْبــَرَى جُنــْحُ الدُّجَى عَن أفقــهِ

كَغــرَابٍ طــَارَ عَنْ بَيضٍ كنَيــنْ

وَكــأنَّ الشَّمْــسَ لمــا أشرَقــتْ

فَانثنــَتْ عَنْهَــا عُيــونُ النَّاظِريــنْ

وَجْــهُ إدْرِيسَ بْنِ يَحْيَى بْنِ عَــلِي

بْــنِ حَمُّــودٍ أمِيــرِ المُؤمِنِيــنْ

خــطَّ بِالمِسْــكِ عَــلَى أبوَابــهِ

ادْخلوهَـــا بِسَـــلاَمٍ آمِنِيـــنْ

وَيَنـــادِي الجــوْدُ فِي آفاقـــهِ

يَمِّمُــوا قَصْــرَ أمِيــرِ المُسْلِمِيــنْ

مَلِــــكٌ ذُو هَيبـــةٍ لكِنـــهُ
خاشـــعٌ لِلـــهِ رَبِّ العالمِيــــنْ
وَإذَا مَـــا رُفِعـــتْ رَاياتــــهُ
خفقــتْ بَيــنَ جَنــَاحَيْ جَبْرَئِيــنْ
وَإذَا أشكــلَ خطــبٌ مُعضِــــلٌ
صَـدَعَ الشــكَّ بمِصْبَــاحِ اليَقِيــنْ
وَإذَا رَاهـــنَ فِي السبـــقِ أتَى
وَبيمْنـــاهُ لِـــوَاءُ السابقِيـــنْ
يَا بــنِي أحْمَــدَ يَا خيــرَ الــوَرَى
لأبيكــمْ كــانَ رَفــدُ المُسْلِــمِيــنْ
نــزَلَ الــــوَحْيُ عليــهِ فاحْتــبَى
فِي الــدُّجَى فَوقَهُمُ الرُّوحُ الأمِيــنْ
خلِقــوا مِــنْ مَــاءَ عَــدلٍ وَتــقى
وَجَمِيعُ النــاسِ مِنْ مَــاءٍ وَطِيــنْ
انظُرُونـــا نقتبـــسْ مِــنْ نُورِكــُم
إنــهُ مِــنْ نــورِ رَبِّ العَالمِيــنْ

ولمـــا خـــرج مـــن بلنسيـــة قاصـــدا طرطوشـــة؛ لزيـــارة صاحبهـــا الفـــتى العامـــري المدعـــو مقاتـــلا؛ منـــع مـــن الجـــواز إليهـــا؛ فكتـــب إلى مقاتـــل هـــذه الأبيـــات:

إنْ كانَ وَادِيــكَ نِيــلاً لاَ يُجازُ بــهِ

فمَالنا قــدْ حُرِمْنــا النيْــلَ وَالنيــلاَ

إنْ كانَ ذَنبِي خــرُجِي مِنْ بَلنسِيَــةٍ

فمَــا كفــرْتُ وَلاَ بَدَّلــتُ تبدِيــلاَ

"هِيَ المَقادِيــرُ تَجْرِي فِي أعِنتِهَــا"

لِيقــضِيَ اللـــهُ أمراً كانَ مَفعــولاَ

ولـــه أيضـــا في مجاهـــد العامـــري:

ولَمـــا سَقتنـــا مِـــنِ ابرِيقِهَـــا

لثمْنـــــا يَدَيهَــــا وَخلخالهَـــــا

وَبتنـــا وَباتـــتْ عَـلَى سَاقِهَـــا

تصَفــقُ لِلشــرْبِ جرْيالَهَـــا

كأنَّ نجُــومَ الــدُّجَى رَوْضَـــة

تَجُــرُّ بهَـــا السُّحْــبُ أذْيالهَـــا

كـــأنَّ الثرَيــــا بهـــا رَايـــــة

يقــودُ المُوَفــــقُ أبطالهـــــا

ـ ثــم أبو عمرو بن هاشم وزير العالي إدريس بن يحــيى:

لــم تتكلــم جـل المصــادر عــن هــذا الوزيــر الشاعــر؛ ومــا عرفنــاه عنــه أتى في المغــرب؛ حيــث

قال عنه صاحبه: ((من المسهب: **كان له خلال توجب له الوزارة. أخبرت انه كان يوما في بيت وزارته؛ فدخل عليه غلام جميل بقل عذاره؛ فقال:**

أتَانِي وَقدْ خطَّ العِذَارُ بخـدِّهِ
كمَا خطَّ مِنْ جمْرٍ عَلَى مُهْرَقٍ سَطرًا
فقلتُ لـهُ: لـمْ يَقتنِـعْ بِحَيَائِـه
مُحياكَ حَتَّى زَادَ مِنْ شعرٍ سِتـرًا)).[1]

ـ ثم أبو علي الحسن بن حسون:[2]

هكذا ورد اسمه في بعض المصادر. وثمة غموض كبير يكتنف هذا الفقيه القاضي؛ حيث يوجد ـ كما يتبادر إلى الذهن ـ اثنان ـ أو أكثر ـ وليا قضاء مالقة في فترة زمنية واحدة؛ أو متقاربة على الأقل؛ ولا يعرف إن كانا ـ في حقيقتهما ـ شخصا واحدا أم شخصين؛ إذ تسمي المصادر ذلك القاضي أحيانا باسم الحسن وأحيانا أخرى باسم الحسين أو باسم محمد بن الحسن؛ كما يكنيه بعضهم بأبي

---

[1] المغرب، ج: 1، ص: 425.

[2] قال فيه ابن سعيد: ((من المسهب: "عين مالقة. ورب حلِّها وعَقْدها، وعلم بُرْدِها وواسطة عِقْدِها، وكان من أئمة العلماء، ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي)). نفسه، ص: 430.

علي وبعضهم الآخر بأبي عبد الله.[1] أضف إلى ذلك أن ابن بشكوال سمى أيضا قاضيا ـ ولي قضاء مالقة في زمن بني حمود؛ وبالتحديد في زمن إدريس بن يحيى ـ باسم أبي علي حسين بن عيسى بن حسين الكلبي المعروف بحسون؛ ونسبه إلى بلدة جراوة بالمغرب. وقال أنه توفي سنة 453هـ(1061م).[2]

أما صاحب المغرب فقد تكلم عن المدعو أبا علي الحسن بن حسون بإيجاز شديد؛ وقال فيه: **((عَيْن مالقة، وربُّ حَلِّهَا وعقدها، وعلم بُردها وواسطة عقدها؛ وكان من أئمة العلماء؛ ولي قضاء مالقة في مدة العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي... وقاسى شدة من اختلاف الخلفاء على**

---

[1] تعرض ابن بسام خلال حديثه عن الفقيه الشاعر غانم بن وليد؛ (المتوفى سنة 470هـ) حين أورد قصيدته التي رثى فيها القاضي ابن حسون؛ فقال: ((وله [أي لغانم] من قصيدة يرثي الفقيه القاضي أبا عليّ بن حسون)). الذخيرة ق: 1، مج: 2، ص: 866. علما بأن صاحب القصيدة سماه فيها بالحسين؛ بقوله: ((ولّى حُسَيْنٌ والمحامد بعده)). أنظر أيضا المغرب، ج: 1، ص: 430. ونفح الطيب، ج: 3، ص: 390. وتاريخ قضاة الأندلس، ص ص: 90 ـ 94.

[2] جاء تحت رقم 327 ((حُسَيْن بن عيسى بن حسين الكلبي: قاضي مالقة؛ يُكْنَى: أبا علي، ويعرف بحسون... وكان فقيه مالقة وكبيرها، أصله من جراوة (قلت: جراوة التي أصله منها هي بين تلمسان، وعقبه بها مشهور. اخبرني بذلك أهل ذلك الموضع)؛ وتوفي صدر سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. قال الشعبي: وكان فقيها في المسائل حافظا لها، عالما بأصولها ونظرائها، ما رأيت مثله في علمه بها)). الصلة، ج: 1، ص: 142.

بلـــده)).[1] كمـــا أورد لـــه قطعـــة شعريـــة صغيـــرة نسبهـــا إليـــه؛ وهي:

خلعـــتُ عِذَارِي فِي هوَاها وَعِندَما
تبَدَتْ نجومُ الشيبِ فِي غَسقِ الشعْرِ
وَثَنَيتُ عَنانِي وَارتَجَعتُ إِلَى النهَى
وَعاوَدَنِي حِلمِي وَرَاجَعنِي صَبَـــرِي
وَأَصْبَحْتُ لاَ أَبغِي سِوَى العِلمِ خُطة
ففِيهِ الذِي أَرْجوهُ فِي مَوقفِ الحَشْـــرِ
وَلَوْلاَهُ مَا أَصبَحتُ أقضِي عَلَى الألَى
صَحِبْتهمْ فِي عُنفـــوَانٍ مِـــنَ العُمرِ

وفي المقابـــل ذكـــر المقـــري مـــا دار بيـــن المدعـــو ابـــن حَـــسّـــون وإدريـــس بـــن يحـــيى؛ فقـــال: ((**وحـــكي أن العـــالي إدريـــس الحمـــودي لمـــا عـــاد إلى ملكـــه بمالقـــة؛ وبَّـــخ قاضيهـــا الفقيـــه أبـــا عـــلي بـــن حَسُّـــون؛ وقـــال لـــه: "كيـــف بايعـــت عـــدوي مـــن بعـــدي وصحبتـــه؟". فقـــال: "وكيـــف تركـــت أنـــت ملكـــك لعـــدوك؟". فقـــال: "ضـــرورة القـــدرة حملتـــني عـــلى ذلـــك". فقـــال: "وأنـــا أيضـــا حصلـــت في يـــد مَـــنْ لا يسعـــني إلا طاعتـــه"**)).[2]

---

[1] المغـــرب، ج: 1، ص ص: 430 ـــ 431.

[2] نفـــح الطيـــب، ج: 3، ص: 390.

ثم أورد المقري لهذا القاضي أبياتا من الشعر نسبها ليه:

رُفِعتُ مِنْ دَهرِي إِلَى جَائِرٍ
وَيبتغِي العَدلَ بأحْكَامِي

أَضْحتْ به أمْلاَكهُ مِثلَ أشْـ
ـكَالِ خيالٍ طوْعَ أيامِ

هذَا وَلما أبرَمَ ذَا ناقِضٌ
كأنهمْ فِي حُكمِ أحلاَمِ

غير أن صاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس المدعو أبا الحسن علي بن عبد الله الجذامي المالقي النباهِيّ. يذكر رواية يمكن أن تفك الإشكال بعض الشيء.[1] وذلك أنه تكلم عن قاضٍ ولي قضاء مالقة في الفترة الزمنية التي حددت للقاضي المدعو ابن حسون؛ غير أن الاسم الذي ذكره صاحب كتاب تاريخ قضاة الأندلس يختلف عما ذكر سابقا. فالاسم هنا هو: محمد بن الحَسَن الجُذاميّ النُّباهيّ. وقال أنه ولي ـ لأول مرة ـ القضاء في عهد يحيى بن علي بن حمود؛ حيث أجبره على تلك المهمة؛ وذلك أنه خيره بين القبول بخطة القضاء أو السيف؛ فقبل بها بشروط.

---

[1] أنظر كتاب تاريخ قضاة الأندلس المسمى بـ: كتاب المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا. ص ص: 90 ـ 94.

لما توفي يحيى في قرمونة؛ عرفت مالقة اضطرابات وفوضى؛ جراء قدوم الفتى الصقلبي **نجا** إليها؛ وتكليف وزيره **محمد السطيفي** بتسيير البلد؛ فاستعفى القاضي محمد بن الحسن الجذامي النُّباهيّ. وبعد ثورة الجند والرعية على **نجا والسطيفي** وقتلهما؛ انتصب إدريس بن يحيى على عرش مالقة؛ فعين في خطة القضاء القاضي محمد ابن الحسن بكتاب تولية نشره صاحب الكتاب وهو: ((**هذا كتابٌ أمر به، وأنفذَه، وأمضاه من عَهده، وأحكمَه الإمامُ أميرُ المسلمين، عبدُ الله العالي بالله، الظافرُ بحول الله، إدريس بن المُعتلي بالله ــ أعلى اللهُ أثره وأعزَّ نصره ــ للوزير القاضي أبي عبد الله محمد بن الحسن ــ وفقه الله ــ قلده به القضاءَ بين المسلمين بمدينة مالقة ــ حرسها الله ــ وأعمالها**)). ثم يضيف مؤلف كتاب: ((**وهو كتاب** [يقصد كتاب التولية] **كبيرٌ في رَقٍ، وتأريخه في إحدى عشرة ليلة من ربيع الأول سنة 445**هـ[1053م]؛ **وعليه توقيعُ العالي بخطّ يده، نصه: "يُنفذُ هذا ويُعمَل عليه، واللهُ الموفق، وهو المستعان"**))[1].

---

[1] تاريخ قضاة الأندلس، ص: **91.**

ومما يبعث على الاعتقاد في احتمال كون هذا الشخص هو نفسه الذي ورد ذكره من طرف كل من: ابن بسام، وابن سعيد، والمقري؛ ما جاء ذكره في كتاب قضاة الأندلس (المسمى بكتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)؛ حول رواية مقتل القاضي النباهي؛ إذ جاء أنه كان رفقة بعض الفقهاء ومنهم الأديب غانم؛ الذي تمكن من النجاة مع الآخرين. ويبدو أن قصيدة غانم في رثاء القاضي الذي سماه ابن بسام بابن حسون تتفق مع هذا السياق؛ علما بأن صاحب القصيدة يكنيه فيها بأبي علي ويسميه بالحسين[1].

---

[1] وجاء فيها:

((المَوْتُ أعرَبَ فِي أصحِ مَسَاق — أنَّ المنِيةَ شمرَتْ عَنْ ساق
المَوْتُ يُخبرُ عَنْ مرَارَةِ كأسِهِ — وَالكأسُ ملأى لمْ يدِرْها ساق
هلاَّ توَاصَينا بصورَةِ حالِنا — وَالنفسُ ترقَى فِي لهًى وَترَاق
يَا آمِلَ الدُّنيا لبَاقِي عمرِهِ — أقصِرْ فما أملٌ عليها باق
حسناءُ زيٍ بِالنهَى ممهورَةَ — فإذَا تعرَّتْ مُتعتْ بطلاَق
مَعْشوقةَ الحركاتِ إلاَّ أنها — أفعَى تدُبُّ لأعشق العشاق
كمْ أوْدَتِ الدُّنيا بِغضٍّ شبيبةٍ — كالغصْنِ ماسَ بناضرِ الأوْرَاق
وَموَقرٍ لبسَ المَشِيبَ جلاَلةً — بَحر لباغِي العِلمِ عَذبِ مَذَاق
طرَقتهُ أحداثُ المَنونِ فأطرَقتْ — مِنهُ الفضَائلُ أيمَا إطرَاق
لوْ كانَ يُبقِي المَوْت حَبراً عَالِماً — لوَقى الحِمامَ أبا علِيّ وَاق
وَلى حسينٌ وَالمحامدُ بعدَهُ — كيلاَ تقاسِي جاحمَ الأشوَاق
أسَفِي لرَيةَ كنتَ عقدَ جمَالِها — فابتزَّ ذَاكَ العِقد دُونَ وِفاق
تزدَانُ مِنكَ بِحسنِ مَا قدْ طوّقت — زَينَ الحمامِ الوُرق بِالأطوَاق

هذا ما سمح به المجال فيما يخص ذكر الأدباء والعلماء الذين أظلتهم الدولة الحمودية؛ على أنه من الضروري الإشارة إلى أن عهد العالي إدريس بن يحيى كان أكثر ثراء وازدهارا من غيره من العهود التي حكم فيها ملوك آخرون من بني حمود. وذلك لأن الفترة التي حكم خلالها العالي تميزت ـ على الرغم من قصرها وانقطاعها ـ بالحركة الأدبية والثقافية النشيطة؛ إذ كان بلاط تلك الدولة عبارة عن منتدى أدبي؛ سمح لكثير من الأدباء والشعراء بعرض إبداعهم ونشره وإذاعته. وكانوا يجدون كل تشجيع وتكريم من قبل أمير الدولة العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود.

عِلمٌ أعِينَ بفضلِ حِلمٍ رَاجحٍ   أخذَ الأمانَ لهُ مِنَ الأخلاَق
وَصبَاحَة وَسَمَاحَة قسمتْ لهُ   رِزقاً تبارَك قاسمُ الأرْزَاق
وَمِنَ الغَرِيبِ غرُوبُ شَمسٍ فِي الثرَى   وَضياؤُها باق عَلى الآفاق
أبقيتَ فِي الدُّنيا مآثرَ ثرَّةً   تبلَى حُلى الأيامِ وَهْيَ بوَاق
قدْ كانَ مَجلِسُكَ المُارَكُ مَوْسماً   فأقامَ أوْحشَ مِنْ غدَاةِ فرَاق
غيبتَ عنهُ مَغِيبَ بَدْرٍ كاملٍ   وَالليلُ أدْهمُ ضارِبٌ بروَاق
وَمِنَ العَجَائِبِ وَالكسوفُ مرتبٌ   قمرٌ توَارَى فِي زَمانِ محاق
مَنْ ذَا أعزِّي فِيكَ مِنْ هذَا الوَرَى   لمْ يلقنِي إلاَّ بِحزنكَ لاَق
وَالناسُ مَحزُونونَ فيكَ كأنما   كانَ اتفاقهمْ عَلى إصفاق

الذخيرة، ق: 1، مج: 2، ص ص: 866 -868.

وهكذا ظلت الحال بين مد وجزر؛ حتى انتهى أمر الحموديين نهائيا في مالقة سنة 449هـ(1057م). وذلك بعد أن استولى باديس بن حبوس أمير غرناطة عليها؛ حيث ضمها إلى مملكته. ثم تلا ذلك خروج آخر أمراء الدولة الحمودية محمد بن إدريس (المستعلي) منها؛ قاطعا البحر إلى مليلة؛ أين بقي بها أميرا عليها حتى حلول تاريخ وفاته سنة 456هـ(1063م).

****

3)ـ دولــة بني سليمــان:

صاحــب هــذه الإمــارة هــو سليمــان بــن عبــد اللــه الكامــل ابــن الحســن المثــنى ابــن الحســن السبــط ابــن عــلي بــن أبي طالــب.[1] وعليــه فهــو أخــو إدريــس الأكبــر. هــذا وقــد تمكــن سليمــان مــن إنشــاء هــذه الدولــة في تلمســان ــ الــتي اعتبــرت قاعــدة للمغــرب الأوســط؛ وحاضــرة لهــذه الدولــة العلويــة ــ بفضــل عــون ومساعــدة بعــض القبائــل الزناتيــة المهيمنــة عــلى تلــك الربــوع. وتــم ذلــك عندمــا لجــأ إليهــا مؤســس الإمــارة **(سليمــان بــن عبــد اللــه)**؛ فــاراً مــن العباسييــن بالمشــرق.

---

[1] تضاربــت الأقــوال حــول الشخــص الــذي يمكــن أن تنســب إليــه إمــارة تلمســان؛ فــإن كــان معظــم المؤرخيــن والجغرافييــن يقولــون بأنــه سليمــان بــن عبــد اللــه؛ فــإن آخــرون يقولــون إنــه سليمــان بــن عبــد اللــه المنحــدر عــن الحسيــن بــن عــلي بــن أبي طالــب . مــن ذلــك مــا يقولــه الطبــري عــن سليمــان بــن عبــد اللــه؛ أنــه قتــل في وقعــة فــخ يــوم الترويــة في ســنة 169هــ. وفي المقابــل يــرى آخــرون أن الــذي تــولى إمــارة تلمســان هــو شخــص يــدعى محمــد؛ ولكنــه مــن أبنــاء الحسيــن وليــس مــن أبنــاء الحســن كمــا يتسلســل نســب بــني إدريــس بــن عبــد اللــه. ويقــول أيضــا آخــرون أنــه محمــد بــن سليمــان مــن ولــد الحســن بــن عــلي؛ وليــس سليمــان مــن قــدم إلى تلمســان. ويعتبــر البكــري أحــد القائليــن بهــذا القــول؛ الــذي يقــول عــن تلمســان: ((وهي دار مملكــة زناتــة، وموسطــة قبائــل البربــر، ومقصــد لتجــار الآفــاق؛ ونزلهــا محمــد بــن سليمــان بــن عبــد اللــه بــن حســن بــن عــلي بــن أبي طالــب)). أنظــر المغــرب، ص: 77. وللمزيــد مــن التوضيــح أنظــر كــل هــذه الخلافــات في كتــاب دولــة الأدارســة؛ لإسماعيــل العــربي، ص ص: 137 ــ 146. غيــر أن ابــن حــزم ــ وهــو مــن المحققيــن المدققيــن الثقــاة ــ يــرى أن الــذي أقــام الدولــة بتلمســان هــو سليمــان بــن عبــد اللــه بــن الحســن بــن الحســن بــن عــلي ابــن أبي طالــب. أنظــر جمهــرة أنســاب العــرب، ص: 48.

إذ تـم ذلـك عقـب مقتـل أخيـه إدريـس الأول؛[1] حيـث جـاء ــ هـو الآخـر ــ إلى هـذه الديـار بحثـا عـن الحمايـة والسلطـان. ولمـا وصـل إلى مشـارف إفريقيـة؛ عـرج جنوبـا؛ اتقـاء وخوفـا مـن عيـون أتبـاع العباسيـن وولاتهـم في القيـروان.

وتبعـا لذلـك فقـد وجـد في أراضي الرستمييـن أمنـا وسلامـا؛ لا يمكـن توفرهمـا في شمـال البـلاد. وكـل مـا يمكـن قولـه في هـذا المجـال؛ هـو أن سليمـان بـن عبـد اللـه بعـد أن التحـق ببـلاد المغـرب؛ عقـب مـوت أخيـه إدريـس؛ كانـت محطتـه الأولى منطقـة تيهـرت؛ حيـث حـاول فيهـا كسـب تأييـد القبائـل المتواجـدة بالمغـرب الأوسـط؛ طمعـا في مناصرتهـم، ودعمهـم؛ غيـر أنهـم كذبـوه في بدايـة الأمـر، ولـم يصدقـوا خبـر انتسابـه لعـلي كـرم اللـه وجهـه. ولمـا لاحظـوا مـا يجـري مـن عمليـات مكثفـة للبحـث عنـه؛ مـن طـرف والي القيـروان؛ تيقنـت ــ عندئـذ ــ قبائـل المغـرب الأوسـط مـن صدقـه، وصحـة نسبـه الهاشـمي.

---

[1] يقـول ابـن خلـدون: ((وأمـا سليمـان أخـو إدريـس الأكبـر؛ فإنـه فـر إلى المغـرب أيـام العباسييـن؛ فلحـق بجهـات تاهـرت بعـد مهلـك أخيـه إدريـس؛ وطلـب الأمـر هنـاك)). العبـر، مج: 4، ص: 34.

فتحقق له – حينها – شرط أصحاب النصاب الملكي؛[1] واجتمعت حوله قبائل زناتة؛ التي كانت آنذاك في صراع مع أمراء الدولة الرستمية؛ بدءاً بفتنة ابن فندين اليفرني الزناتي، وما تبعه من وقائع دارت بين الدولة الرستمية وشريحة عريضة من قبيلة زناتة؛ ممن كانوا متمذهبين بالواصلية. وعليه فقد اختارت شريحة عريضة من القبائل الزناتية مبايعة سليمان ابن عبد الله، وإعلان الطاعة له. وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**وطلب الأمر هناك** [أي سليمان]؛ **فاستنكره البرابر؛ وطلبه ولاة الأغالبة؛ فكان في طلبهم تصحيح نسبه. ولحق بتلمسان فملكها، وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك**)).[2] وبذلك تمكن سليمان من إقامة ملكا – وإن كان محدود السيادة – بواسطة قبيلة زناتة في تلمسان. ويمكن تحديد امتداد نفوذ هذه الدولة بما كان يعرف في ذلك العهد بالمغرب الأوسط.[3]

---

[1] أنظر في هذا مقدمة ابن خلدون، ((فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)). ج: 2، ص ص: 635 – 636.

[2] العبر، مج: 4، ص، 34.

[3] وقد ذكر عبد الرحمن الجيلالي بعض العلامات لحدود إمارة بني سليمان إذ قال: ((وإذا نظرنا إلى حدود الجزائر الإدريسية وجدناها لا تتعدى – من جهة الشمال الشرقي – مدينة وهران ونهر الشلف، ومن جهة الجنوب سهول غريس بناحية معسكر إلى جبال مديونة قبلي فاس؛ ولك أن تقول أنها تمتد – على الساحل – من الريف غربا إلى أرض الحضنة من عمالة قسنطينة

ويبدو أن إمارة بني سليمان هذه كانت عبارة عن ولاية كبرى تابعة للمملكة الإدريسية؛ ولكنها تتميز باستقلال داخلي؛ مكن أمراءها من التصرف بحرية مطلقة. ومع هذا فقد كانت الدولة الإدريسية هي التي تتحمل أعباء الدفاع عن هذه الإمارة؛ وهذا هو ما حدث بالفعل؛ حين أقام إدريس الثاني في جوار ابن عمه محمد بن سليمان بتلمسان، والمغرب الأوسط عموما؛ طيلة ثلاث سنين؛ بغرض تمهيد تلك الإمارة، وتأمين السلامة لحدودها؛ وتأديب بعض القبائل الصفرية المتمردة؛ من قبيلة نفزة وغيرها؛ وذلك في سنة 199هـ.[1]

شرقا، ثم تعود بناحية تنس غربا وجنوب شلف إلى مليانة وتنتهي بمتيجة)). تاريخ الجزائر العام، ج:، 1، ص: 183.

[1] وقد أورد هذا الخبر ابن أبي زرع إذ قال: ((ورجع [إدريس] إلى مدينة فاس؛ فأقام بها إلى شهر محرم من سنة تسع وتسعين [ومائة] ؛ فخرج منها برسم غزو قبائل نفزة؛ فسار حتى غلب عليهم، ودخل مدينة تلمسان؛ فنظر في أحوالها، وصلح أسوارها، وجامعها، وصنع فيها منبرا؛ قال أبو مروان عبد الملك الوراق: "دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة فرأيت في رأس منبرها لوحا من بقية منبر قديم قد سمر عليه هنالك؛ مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن حسن بن الحسين [الصحيح هو الحسن السبط] بن علي رضي الله عنهم في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة". فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين، ثم رجع إلى مدينة فاس الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 27.

وكان إدريس الثاني ـ قبل ذلك ـ قد أقام فترة من الزمن في تلمسان؛ عقد خلالها اتفاقية بينه وبين الأغالبة؛ رسمت بموجبها الحدود الفاصلة بين دولته ودولتهم. وقد اتفقوا على جعل شلف حداً فاصلا بينهما. وكما هو واضح؛ فقد اتخذ إدريس الثاني إمارة بني سليمان بمثابة الحاجز الواقي لدولته بفاس؛ في وجه أطماع بني الأغلب بالقيروان من جهة، ودريئة تمنع امتداد النفوذ الإباضي، والصفري من جهة أخرى. كل هذا ولم تذكر مصادر الدولة الإدريسية شيئا عن بني سليمان في تلمسان خلال تلك الفترة؛ بل ركزت حديثها على أعمال إدريس الثاني ونشاطه في تلك الربوع.

وربما يعود السبب في عزوف المؤرخين عن الإسهاب والتدقيق في الحديث عن إمارة بني سليمان راجع إلى اعتقادهم بأنها لا تعدو أن تكون سوى ولاية تابعة للدولة الإدريسية بفاس. لذا فقد اقتصروا على الأحداث التي صنعها السلاطين الأدارسة لا غير؛ خاصة عندما يعلم القارئ بأن المؤرخين ـ آنئذ ـ كانوا لا يهتمون كثيرا بغير محيط السلطان وحاضرته.

ومـــع هـــذا فلا بـــد مـــن الاعتـــراف بأن هـــذا القـــول لا يخـــرج عـــن كونـــه قـــولا افتراضيـــا لا غيـــر؛ وذلـــك بسبـــب اضطـــراب السنـــد التـــاريخي إن وجـــد.. لأن الأحـــداث التاريخيـــة لدولـــة سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه يكتنفهـــا غمـــوض كثيـــف؛ بسبـــب قلـــة المصـــادر الـــتي يمكـــن أن تتكلـــم عنهـــا بتوســـع واستفاضـــة. وكـــل مـــا توفـــر لدينـــا حـــتى الآن؛ لا يتجـــاوز بعـــض المصـــادر الحاملـــة لمعلومـــات هزيلـــة؛ تشيـــر إلى أمـــراء هـــذه الدولـــة، والمـــدن الـــتي يحكمونهـــا؛ بـــدون تفاصيـــل تذكـــر، ومـــن دون ذكـــر تواريـــخ يمكـــن الاعتمـــاد عليهـــا؛ في تحديـــد الفتـــرات الزمنيـــة الـــتي حكـــم خلالهـــا أمـــراء هـــذه الدولـــة.

هـــذا وتجمـــع المصـــادر المتوفـــرة عـــلى أن الـــذي خلـــف سليمـــان؛ عـــلى عـــرش تلمســـان بعـــد وفاتـــه هـــو ولـــده محمـــد. كمـــا تقـــول المصـــادر أن محمـــدا هـــذا هـــو الـــذي استـــدعى ابـــن عمـــه إدريـــس الثـــاني إلى تلمســـان؛ كي يساعـــده عـــلى إخضـــاع الأطـــراف الشرقيـــة مـــن مملكتـــه، وتأديـــب الثائريـــن مـــن القبائـــل الصفريـــة؛ وبالفعـــل لـــبى محمـــد بـــن إدريـــس طلـــب ابـــن عمـــه محمـــد بـــن سليمـــان وقـــدم إليـــه، كمـــا سبقـــت الإشـــارة إليـــه؛ حيـــث ظـــل في تلـــك الربـــوع حـــتى استتـــب الأمـــر لبـــني سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه.

وحسب رواية ابن خلدون والتنسي؛ قد يكون محمد بن سليمان قام بتوزيع عمالات الدولة، ومقاطعاتها على أبنائه. فخص أحمد ابنه بولاية العهد، ونصب ابنه عيسى على عمالة أرشقول، وولده الحسن بمقاطعة في جهات تيهرت، وولده إبراهيم بتنس، وولده إدريس في جراوة؛ وهكذا.[1]

ويبدو أن أحفاد سليمان بن عبد الله قد انتشروا في ربوع المغرب الأوسط كله؛ بدءا بحدود بجاية شرقا، وحتى مدينة نمالتة **(مغنية**

---

[1] فمما قاله ابن خلدون مثلا: ((وورث [أي سليمان] ملكه ابنه محمد بن سليمان؛ على سننه؛ ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط، واقتسموا ممالكه ونواحيه؛ فكانت تلمسان من بعده لابنه محمد بن أحمد بن القاسم ابن محمد بن أحمد [بن محمد بن سليمان]؛ وأظنّ هذا القاسم هو الذي يدّعي بنو عبد الواد نسبه؛ فإن هذا أشبه من القاسم بن إدريس بمثل هذه الدعوى. وكانت أرشكول [أرشقول] لعيسى بن محمد بن سليمان؛ وكان منقطعا إلى الشيعة. وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى؛ وكنيته أبو العيش؛ ولم تزل إمارتها في ولده؛ ووليها بعده ابنه إبراهيم بن عيسى. وكان إدريس بن إبراهيم صاحب أرشكول منقطعا إلى عبد الرحمن الناصر، وأخوه يحيى كذلك... وكانت تنس لإبراهيم بن محمد ابن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده، ثم لابنه يحيى بن محمد، ثم ابنه علي بن يحيى... وكان من ولد إبراهيم هذا أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد بن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط. وكان من بني محمد بن سليمان هؤلاء وَبَطْوُش بن حناتِش بن الحسن بن محمد بن سليمان. قال ابن حزم: وهم بالمغرب كثير جدا)). العبر، مج: 4، ص ص: 34 ــ 36.

حاليـــا) غربـــا.[1] وكانـــوا بمثابـــة أمـــراء عـــلى مـــدن منعزلـــة؛ تقـــف كحصـــون في وجـــه منافسيهـــم: مـــن بـــني الأغلـــب والرستميين. كمـــا عرفـــت هـــذه الديـــار أيضـــا هجـــرات أخـــرى لأحفـــاد عـــلي بـــن أبي طالـــب؛ وهـــو مـــا تؤكـــده الآثـــار الباقيـــة بعدهـــم؛ ممثلـــة في أسمـــاء الأماكـــن، والمـــدن الجزائريـــة؛ الـــتي تنســـب إليهـــم. كســـوق حمـــزة **(البويـــرة حاليـــا)**، نسبـــة إلى أميـــر هـــاز حمـــزة بـــن الحســـن بـــن سليمـــان بـــن سليمـــان وفيـــه يقـــول ابـــن حـــزم: ((**ملـــك هـــاز مـــن أرض المغـــرب،** [موقعهـــا بالقـــرب مـــن عيـــن بوسيـــف الحاليـــة] **وملـــك قطيعـــا مـــن صنهاجـــة؛ وإليـــه ينســـب ســـوق حمـــزة، وولـــده بهـــا كثيـــر؛ وكذلـــك أيضـــا ولـــد اخوتـــه في تلـــك الجهـــة**)).[2] وحسبمـــا يبـــدو فقـــد يكـــون السهـــل المعـــروف الآن بسهـــل بـــني سليمـــان منسوبـــا إلى سليمـــان بـــن عبـــد اللـــه أيضـــا. ثـــم ســـوق إبراهيـــم؛ المنســـوب كذلـــك إلى إبراهيـــم بـــن محمـــد بـــن سليمـــان؛ كمـــا أن مدينـــة بوفريـــك الحاليـــة؛ منسوبـــة إلى أبـــي فريـــك الكبيـــر **[كتـــب في بعـــض المراجـــع خطـــأ ــ الكافـــر]**؛ وهـــو مـــن نســـل جعفـــر بـــن الحســـن **(عـــم إدريـــس الأول)**؛ لأن منطقـــة متيجـــة ــ بقاعدتهـــا قزرونـــة ــ كانـــت خاضعـــة لأبنـــاء جعفـــر بـــن الحســـن بـــن الحســـن بـــن عـــلي كـــرم اللـــه وجهـــه.

---

[1] **لمزيـــد مـــن التدقيـــق أنظـــر إلى مـــا كتبـــه مـــوسى لقبـــال عـــن بـــني سليمـــان في ديـــار الجزائـــر؛ في كتابـــه دور كتامـــة. ص ص: 209 ـــ 213.**

[2] **جمهـــرة أنســـاب العـــرب، ص: 55.**

وإذا ما تتبع القارئ المصادر التاريخية؛ سيجد أن جل بلاد المغرب أضحت ملجأ مفضلا لأبناء علي بن أبي طالب؛ حيث وجدوا في تلك الديار الأمن والتقدير والاحترام؛ تلك الأشياء التي فقدوه في جهات كثيرة من المعمورة.[1]

هذا وقد تم إسقاط دولة بني سليمان؛ بقواعدها كافة؛ بفعل ضربات جيوش الدولة الفاطمية؛ المنافسة لهم في النسب الهاشمي؛ تلك الدولة القوية المشكلة من قبائل: كتامة ومكناسة وصنهاجة. ونتيجة لذلك التهديد والتضييق؛ انكشف الجناح الشرقي لدولة الأدارسة؛ فأضحت ـ بدورها ـ عرضة لهجمات الفاطميين الشيعة من بني عبيد الله الفاطمي؛ الذين امتدت أيديهم إليها كذلك؛ فكانت نهايتها الحتمية هي الأخرى؛ بعد مدة من الزمن.

هذا ما توفر من معلومات حول دولة بني سليمان المغمورة في زوايا التاريخ المظلم تقريبا؛ كما أن موضوع الحضارة والنشاط الثقافي فيها يكاد الحديث عنه يدخل في عداد المستحيلات؛ وذلك بسبب غياب الشواهد اللازمة، وانعدام المعالم

---

[1] أنظر: العبر، ج: 4، ص ص: 34 ــ 36. وتاريخ الجزائر في القديم والحديث، ص ص: 474 ــ 484. وتاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص ص: 182 ــ 190. ودور كتامة، ص ص: 209 ــ 215. ودولة الأدارسة، ص ص: 137 ــ 146. 293 ــ 294.

الضرورية لتكوين الصورة مقبولة حول هذا الموضوع. وعليه فقد تعذر الكشف عما يمكن أن يكون قد أنجز في ظل تلك الدولة من منشآت وأعمال حضارية وثقافية؛ لأن المصادر التاريخية ــ كما سبق ذكره ــ لم تقدم شيئا يذكر عنها في هذه المجالات، أو في غيرها من المجالات التاريخية الأخرى. ومع هذا يبدو أن لهذه الإمارة بعض الصلات الثقافية مع محيطها؛ شرقا وغربا. وحتى إن فقدت الشواهد على ذلك فليس معنى ذلك انعدام الحركة الثقافية بالتمام في إمارة بني سليمان. وخير دليل على ذلك تلك القصيدة التي قالها الشاعر الفحل بكر بن حماد في الحسن بن أبي العيش عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان؛ وهي التي بقي منها مقطع صغير جاء فيه:

سَائِلْ زُواغة عن طعان سُيوفه
وَرماحه في العَارِضِ المُتهَلِلِ

وديار نفزة كيفَ دَاسَ حَريمَها
والخيلُ تمْرغ في الوشيج الذبَّل

وغشَّى مَغيلة بالسيوف مُذِلة
وسقىَ جَراوة من نقِيعِ الحَنظلِ)).

على أنه يستحسن التنبيه إلى دور البيئة القبلية المنغلقة التي كانت تحيط بهذه الدولة؛ الأمر الذي أبقاها محاطة بالغموض؛ الذي كان له تأثير حتى عندما اقتصر الأمر على مجرد السرد التاريخي للمظهر السياسي الخاص بها.

****

4)ـ الدولـــة الفاطميــــــة:[1]

ينتســب حكــام هــذه الدولــة إلى فاطمــة بنــت محمــد صــلى اللــه عليــة وسلــم، وإلى جدهــم عــلي بــن أبي طالــب رضي اللــه عنــه. ويســمى مؤسسهــا وأول ملوكهــا ـ حسبمــا ورد في كتــاب أخبــار ملــوك بــني عبيــد وسيرتهــم ـ هــو: عبيــد اللــه بــن أحمــد بــن الحسيــن ابــن محمــد بــن إسماعيــل بــن جعفــر بــن محمــد بــن عــلي بــن الحسيــن بــن عــلي كــرم اللــه وجهــه.[2]

---

[1] ينحصــر البحــث هنــا في حــدود الدولــة الفاطميــة القائمــة ببــلاد المغــرب؛ وينتــهي الاهتمــام بهــا بــدءا بانتقــال الخليفــة المعــز إلى القاهــرة.

[2] تضاربــت الآقــوال حــول نســب مؤســس الدولــة الفاطميــة؛ ولــم تتفــق المصــادر عــلى سلسلــة واحــدة لآبائــه؛ وممــا يقولــه ابــن الأثيــر في هــذا البــاب: ((أول مــن ولي منهــم أبــو محمــد عبيــد اللــه؛ فقيــل: هــو محمــد بــن عبــد اللــه بــن ميمــون ابــن محمــد بــن إسماعيــل بــن جعفــر بــن محمــد بــن عــلي بــن الحسيــن بــن عــلي بــن أبي طالــب رضي اللــه عنهــم؛ ومــن ينســب هــذا النســب يجعلــه: عبــد اللــه بــن ميمــون القــداح الــذي ينسـب إليــه القداحيــة. وقيــل: هــو عبيــد اللــه بــن أحمــد بــن إسماعيــل الثــاني [ابــن] محمــد بــن إسماعيــل بــن جعفــر بــن محمــد ابــن عــلي بــن الحسيــن بــن عــلي أبــن أبي طالــب رضي اللــه عنهــم. وقــد اختلــف العلمــاء في صحــة نسبــه؛ فقــال ـ هــو وأصحابــه القائلــون بإمامتــه إن نسبــه صحيــح عــلى مــا ذكرنــاه، ولــم يرتابــوا فيــه. وذهــب كثيــر مــن العلوييــن العالميــن بالأنســاب إلى موافقتهــم أيضــا؛ ويشهــد بصحــة هــذا القــول مــا قالــه الشريــف الــرضيّ:

مَا مُقَامِي عَلَى الهَــوَانِ وَعِــنْدِي ... مِقْــولٌ صــَارِمٌ وَانْــفٌ حــَمِيٌّ
أَلبــَسُ الذلَّ فِي بــلاَدِ الأعــادِي ... وَبِمِصْــرَ الخَلِيفَــةَ العَلـــَوِيُّ
مَــنْ أبــُوهُ أبِي، وَمَــوْلاَهُ مَوْلاَ ... يَ إذَا ضَامنِي البَعِيدُ القـــَصِيُّ
لَــفَّ عِــرْقِي بِعِرْقِــهِ سَيِّدَا النــّا ... سِ جَمِيعــاً: مُحَمَــدٌ وَعَــلِيُّ
إنَّ ذُلِّــي بِذَلِــكَ الــْحَيِّ عِـــزٌّ ... وَأُوَامِي بِذَلِــكَ الرَّبـــْعِ رِيُّ

هذا وقد اختلفت المصادر التاريخية في سرد تسلسل آباء هذه الأسرة الحاكمة للدولة الفاطميين؛ وحتى نسبهم الهاشمي تضاربت الآراء حوله؛ فثمة من أنكره، وثمة من صدقه. ويبدو أنهم تعرضوا لهجمة إشاعات، وحملة تشويه؛ نظمها ضدهم أنصار الدولة العباسية المنافسة لهم؛[1] وقد رأينا أنهم استعملوا الأسلوب نفسه مع إدريس الثاني؛ حيث حاولوا نشر الشكوك حول انتسابه لأبيه إدريس الأول؛ إذ كلفوا من يطعن في نسبه.

ولكن بعض المحققين – من أهل العلم والمؤرخين المدققين – يميلون إلى تصديق نسبهم الهاشمي.[2]

وإنما لم يودعها ديوانه خوفا)). الكامل في التاريخ، ج: 6، ص : 124 – 125.

[1] لمن يريد أن يستزيد بخصوص محاولة التشهير بالفاطميين – من طرف العباسيين – وما نسب إليهم من تزوير وانتحال للنسب النبوي الشريف؛ عليه أن يراجع ما كتبه ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 124 – 126. وما كتبه المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ص ص: 25 – 40.

[2] ومن بينهم ابن خلدون الذي يقول: ((ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم؛ وبالمحضر الذي ثبت ببغداد – أيام القادر – بالطعن في نسبهم، وشهد فيه أعلام الأئمة – وقد مر ذكرهم – فإن كتاب المعتضد إلى ابن الأغلب بالقيروان، وابن مدرار بسجلماسة؛ يغريهم بالقبض عليه؛ لما سار إلى المغرب شاهد بصحة نسبهم. وشعر الشريف الرضي مسجل بذلك. والذين شهدوا في المحضر؛ فشهادتهم على السماع؛ وهي ما علمت. وقد كان نسبهم ببغداد منكرا عند أعدائهم شيعة بني العباس منذ مائة سنة؛ فتلون الناس بمذهب أهل الدولة؛ وجاءت شهادة عليه؛ مع أنها شهادة على النفي. مع أن طبيعة الوجود في الانقياد إليهم؛ وظهور كلمتهم حتى في

مـــن ذلـــك مـــا قالـــه ابـــن الأثيـــر: ((**فـــفي امتنـــاع** [الشريـــف الـــرضيّ] **مـــن الاعتـــذار، ومـــن أن يكتـــب طعنـــا في نسبهـــم مـــع الخـــوف؛ دليـــل قـــوي عـــلى صحـــة نسبهـــم؛ وسألـــت أنـــا جماعـــة مـــن أعيـــان العلوييـــن في نسبـــه** [أي نســـب عبيـــد اللـــه مؤســـس الدولـــة الفاطميـــة] **فلـــم يرتابـــوا في صحتـــه... وزعـــم القائلـــون بصحـــة نسبـــه؛ أن العلمـــاء ممـــن كتـــب في المحضـــر** [الـــذي طلـــب منهـــم التوقيـــع عليـــه الخليفـــة العبـــاسي القـــادر باللـــه] **إنمـــا كتبـــوا خوفـــا وتقيـــة، ومـــن لا علـــم عنـــده بالأنســـاب فـــلا احتجـــاج بقولـــه**)).[1]

ومـمـــا لا شـــك فيـــه؛ أن نجـــاح الأدارســـة في بـــلاد المغـــرب جعـــل بقيـــة العلوييـــن بالمشـــرق يحســـون بعطـــف سكـــان تلـــك الديـــار تجـــاه قضيتهـــم، وميلهـــم إليهـــم؛ بحكـــم النســـب الـــذي يربطهـــم مـــع نـــبي المسلميـــن عليـــه الصـــلاة والســـلام. ومـــن هـــذا المنطلـــق أرســـل ســـادس الأئمـــة العلوييـــن؛ جعفـــر الصـــادق بـــن محمـــد الباقـــر داعيتيـــن إلى المغـــرب همـــا: عبـــد اللـــه بـــن عـــلي بـــن أحمـــد المعـــروف باســـم الحلـــواني، وأبـــو سفيـــان الحســـن ابـــن القاســـم. نـــزل الأول في أرض كتامـــة، والثـــاني في مرمجنـــة بالقـــرب مـــن الحـــدود التونسيـــة الجزائريـــة الحديثـــة.

مكـــة والمدينـــة أدل شـــيء عـــلى صحـــة نسبهـــم. وأمـــا مـــن نسبهـــم في اليهوديـــة والنصرانيـــة ليعمـــون القـــدح وغيـــره فكفـــاه ذلـــك إثمـــا وسفسفـــة.)). العبـــر، مج: 4، ص: 64.

[1] الكامـــل في التاريـــخ، ج: 6، ص: 125.

وكان لهما الفضل الأول في التعريف بالقضية العلوية، ونشر الفكر الشيعي بين سكان المغرب الأوسط وإفريقية؛ حيث تمكنا من تحقيق طلب الإمام جعفر بتمهيد المناخ وحرث الأرض؛ انتظارا لمن سيقوم بالحصاد.[1] وما قدوم أبي عبد الله الشيعي – فيما بعد – إلا من باب استكمال العمل الذي بدأه هذان الداعيتان. ومع هذا فلا بد من الاعتراف بجهود أبي عبد الله الحسين بن أحمد ابن محمد المعروف بالشيعي وبالمحتسب وبالمعلم؛ فهو المؤسس الحقيقي للدولة الفاطمية.[2] حيث لم يكتف – كغيره – بالدعوة الكلامية؛ بل قام بدور القائد العسكري المحنك؛ الذي ألحق بالأغالبة الهزيمة تلو الأخرى؛ حتى تغلب على حاضرة ملكهم القيروان. كما استطاع إخضاع بقية الممالك بالمغرب الأوسط؛ كمملكة بني رستم بتيهرت، ومملكة بني مدرار بسجلماسة. ودام به الوقت في ذلك العمل الكبير بدءا من عام وصوله إلى ديار كتامة سنة 280هـ(893م)، وحتى بيعة عبيد الله المهدي؛ أول أئمة الدولة سنة 297هـ(909م).

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 54 – 58. والكامل، ج: 6، ص: 126. واتعاظ الحنفا، ص ص: 53 – 54. ودور كتامة، ص ص: 216 – 238.

[2] أنظر الأعمال التي قام بها هذا الداعية الفذ في كتاب رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 71 – 236. وكتاب الكامل في التاريخ، ج: 6، ص ص: 127 – 133. والعبر، مج: 4، ص ص: 65 – 76. ودور كتامة، ص ص: 231 – 329.

ولم يحقق أبو عبد الله الشيعي تلك النجاحات بسهولة ويسر؛ إذ كان عليه – في بداية الأمر – توحيد كلمة عشائر كتامة؛ ثم الانتقال بعدئذ إلى خارج القبيلة؛ كي يستطيع ضرب الأعداء بقبيلة موحدة وقوية. وعليه فقد استغرق وقتا طويلا في تحقيق وحدة قبيلة كتامة. وبهذا يكون قد اتبع الأسلوب الذي شرحه ابن خلدون ضمن "**فصل في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك**".[1] حيث تعمل عشيرة معينة على إخضاع بقية عشائر القبيلة وإلزامها بالطاعة والانقياد لقيادة واحدة؛ وذلك بالعمل على مزج العصبيتين الصغرى والكبرى ضمن عصبية واحدة قوية؛ كل هذا يتم بغرض الانتقال إلى مرحلة أخرى؛ تقوم فيها

---

[1] جاء فيها: ((ثم إن القبيل الواحد – وإن كانت فيه بيوتات متفرقة، وعصبيات متعددة – فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها؛ تغلبها، وتستتبعها؛ وتلتحم جميع العصبيات فيها؛ وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى؛ وإلا وقع الافتراق؛ المفضي إلى الاختلاف والتنازع: "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ" [من الآية 251 من سورة البقرة]. ثم إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها. فإن كافأتها، أو مانعتها؛ كانوا أقتالا، وأنظارا؛ ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها؛ شأن القبائل والأمم المفترقة في العالم. وإن غلبتها واستتبعتها؛ التحمت بها أيضا؛ وزادتها قوة في التغلب إلى قوتها؛ وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغلبة الأولى وأبعد. وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة. فإن أدركت الدولة في هرمها؛ ولم يكن لها ممانع من أولياء الدولة؛ أهل العصبيات؛ استولت عليها، وانتزعت الأمر من يدها، وصار الملك أجمع لها)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 609 – 610.

العصبية الموحدة بالتغلب على غيرها من العصبيات الغريبة وإخضاعها؛ في سبيل تحقيق الملك القاهر. وهذا هو الذي حدث بين عشائر كتامة؛ حيث قضى أبو عبد الله الشيعي وأنصاره وقتا طويلا في تمهيد سلطانه، وتوحيد العصبيات والعشائر الكتامية المتفرقة؛ ضمن عصبية واحدة متينة وقوية.

ويبدو أن بوادر الوحدة أخذت تتحقق في أواخر سنة 298 هـ(910م)؛ حيث تمكن الداعية الشيعي أبو عبد الله من إخضاع العشائر الكتامية بكاملها؛ خاصة التي كانت بعيدة شيئا ما عن أطراف المدن.[1] هذا بخصوص العشائر الكتامية؛ أما القبائل

---

[1] وفي هذا يقول القاضي النعمان: ((واستولت أمور أبي عبد الله على عامة بلد كتامة؛ وظهرت دعاته في كل ناحية منها، وغلب أمره عليها، واستحكم فيها؛ ولم يبق فيها إلا من يدخل دعوته: إما راغبا، وإما راهبا، أو مخذولا؛ قد أنكرها بقلبه، وغلبت عليه شقوته؛ فأصر على إنكارها؛ فتمسك بما هو عليه؛ غير مدافع لأمر، ولا متوثب على أحد من أهله؛ بل قد صار كل من هذه حاله تحت أحكام الدين، وأيدي المؤمنين؛ يجري حكمهم عليهم، وينفذ أمرهم فيهم، ويحيط سلطانهم من ورائهم؛ بعد أن كانت لأبي عبد الله الشيعي في قبائل كتامة وقائع كثيرة يطول ذكرها؛ أقام ـ بعد انهزام الجميع عنه ـ نحو سنتين يوقعها بهم، وينقص أطرافهم، ويقتلهم، ويغنم أموالهم؛ حتى أجابوه، وسلموا لأمره؛ طائعين، ومكرهين، وراغبين، وخائفين. ولم يبق غير المدائن، ومن فيها من أمرائها، ومن انضم إليهم، وصار عندهم؛ من غلبت عليه الشقوة، وسبق في علم الله حلول البلاء به من رؤساء القبائل، ووجوه العشائر؛ ممن أنف عن الدخول في الدعوة، والوقوع تحت من كان يرى أنه واقع تحت أمره من العشيرة، ومن خامره الخوف من مقدمات سوء فعله، وزين له الشيطان التمادي على

الأخـــرى؛ فيظهـــر أن عشائـــر عجيســـة وزواوة تكـــون قـــد التحقـــت بالـــدعـــوة خـــلال عـــام 288هـ(900م).[1] أمـــا قـــبـــيـــلـــة تـــلـــكـــاتـــة الصنهاجيـــة ــ ذات القـــوة والنفـــوذ ــ فقـــد بقيـــت عـــلى الحيـــاد طيلـــة الفتـــرة الـــتي ناضـــل فيهـــا أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي؛ في سبيـــل إقامـــة الدولـــة الفاطميـــة؛ كمـــا أن المصـــادر لـــم تذكـــر أي محاولـــة منـــه للتعـــرض لتلـــك الـــقـــبـــيـــلـــة الـــواسعـــة الانتشـــار. والـــذي بـــادر ــ حسبمـــا يبـــدو ــ إلى عقـــد صـــلات مـــع تلكاتـــة الصنهاجيـــة هـــو عبيـــد اللـــه المهـــدي نفســـه؛ وذلـــك لمـــا استتـــب الأمـــر في القيـــروان لعبيـــد لـــه، وظهـــرت أمامـــه الأخطـــار المحدقـــة بدولتـــه؛ تلـــك الأخطـــار الـــتي بـــدأت بوادرهـــا تبـــرز مـــن خـــلال تحركـــات القبائـــل الزناتيـــة؛ نتيجـــة لتحريـــض الأمويـــين بالأندلـــس؛ لـــذا فقـــد ســـعى ــ بكـــل جهـــده ــ لـــكي يكســـب ود خصـــوم الزناتيـــن التقليديـــن؛ وهـــم بالطبـــع الصنهاجيـــن.

غيـــه وجهلـــه؛ وطوائـــف مـــن القبائـــل ممـــن قـــارب المدايـــن، وعاشـــر أهلهـــا، واستمالهـــم أمراؤهـــا؛ يدارونهـــم، ويكاتبونهـــم، ويتسللـــون إليهـــم في الســـر؛ وهـــم عـــلى ظاهـــر الطاعـــة، والوقـــوع تحـــت الدعـــوة في الجهـــر؛ تركـــوا عـــلى حالهـــم مستوريـــن؛ كمـــا تـــرك رســـول اللـــه صـــلى اللـــه عليـــه وعـــلى آلـــه مـــن كـــان بالمدينـــة وحولهـــا مـــن المنافقيـــن)). رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 121 ــ 122.

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 119 والعبـــر، مج: 4، ص: 69.

هذا وقد تضاعفت الحاجة إلى عونهم بعد استفحال أمر أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني؛ الذي كان على رأس القبائل الزناتية الثائرة على الدولة. ومن جهة أخرى فقد وجد المهدي نفسه في حاجة ماسة إلى التحالف مع عصبية أخرى ذات قوة تعادل قوة العصبية الكتامية؛ بغرض تحقيق شرط التوازن. وعليه فقد أخذ يفكر في هذا الأمر بعد أن بدأت فئات من قبيلة كتامة تلجأ إلى حركات فيها مشاغبة، وتمرد في بعض الأحيان. وهكذا شرع عبيد الله في إغراء قبيلة تلكاتة، والعمل على كسب ولائها. وبالفعل وجدت مساعيه أذنا صاغية لدى الصنهاجيين؛ نظرا لأنهم يميلون إلى أبناء علي بن أبي طالب من جهة؛ ونظرا ـ أيضا ـ لحاجتهم الماسة إلى حليف قوي يساعدهم على كبح جماح خصومهم الزناتيين من جهة أخرى. وهكذا توافقت مصالح الطرفين؛ فالتحمت قواهما، وتناسقت جهودهما في مواجهة العدو المشترك.[1]

---

[1] ويشير إلى هذا ابن خلدون بقوله: ((ولما استوسق الملك للشيعة بإفريقية تحيز إليهم [أي زيري بن مناد] للولاية التي لعلي رضي الله عنه فيهم. وكان من أعظم أوليائهم؛ واستطال بهم على عدوه من مغراوة؛ فكانوا ظهرا له عليهم. وانحرفت لذلك مغراوة وسائر زناتة عن الشيعة سائر أيامهم؛ وتحيزوا إلى المروانيين ملوك العدوة بالأندلس؛ فأقاموا دعوتهم بالمغرب الأوسط والأقصى ـ كما نذكره إن شاء الله تعالى ـ ولما كانت فتنة أبي يزيد؛ والتاث أمر العبيديين بالقيروان والمهدية؛ كان لزيري بن

وبالإضافة إلى القبائل المذكورة؛ لابد من الإشارة إلى أنه سبق لأبي عبد الله الشيعي ــ داعية الفاطميين ــ أن أخضع بعض الفئات من قبيلة مكناسة لما تغلب على سجلماسة سنة 296هـ(908م). أضف إلى ذلك أنه بدأ اتصاله بالقبائل الزناتية في سنة 296هـ(908م) أيضا؛ وذلك عندما شرع في زحفه نحو سجلماسة؛ لتخليص عبيد الله المهدي من الأسر. ففي تلك الأثناء وفد عليه أمير زناتة ــ محمد بن خزر ــ عند وصوله إلى طبنة؛ طالبا الأمان لقبيلته، ومقدما العهد بالمسالمة، وعدم التعرض لعمال وعساكر الشيعي.[1]

وكان أمر أبي عبد الله الشيعي قد استفحل، واشتدت سطوته بعد أن احتل القيروان، وأسقط دولة الأغالبة؛ بفضل ما وجهه من ضربات صوب تلك الدولة الهرمة؛ إذ طاولها بالحرب، واستنزف بقية قواها؛ فانهارت تحت أقدام القبائل الكتامية؛ التي كانت تمثل القوة الضاربة بالنسبة للشيعة.

مناد منافرة إلى الخوارج؛ أصحاب أبي يزيد وأعقابهم؛ وتسريب الحشود إلى مناصرة العبيديين بالقيروان؛ كما ستراه العبر، مج: 6، ص : 313.

[1] وكان قد سقط ــ من قبل ــ رسل أبي عبد الله الشيعي في كمين نصبه جماعة من زناتة فقتلوهم؛ بينما كانوا طريقهم إلى سجلماسة؛ محملين ببعض المال إلى عبيد الله المهدي. أنظر رسالة افتتاح الدعوة، ص: 197 ــ 198.

وهنا يتحقق ما قرره ابن خلدون أيضا ضمن "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة**".[1] وذلك أن القبيلة المتمردة والطامعة في الاستيلاء على الملك، الساعية نحو تحقيقه بالقوة والغلبة؛ تعمل على إسقاط الدولة القائمة بواسطة حرب الاستنزاف؛ أو بتعبير ابن خلدون بواسطة المطاولة لا بالمناجزة.

ومن يتابع الأحداث السياسية والعسكرية منذ وصول الداعية أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد المغرب سنة 288هـ(900م)؛ وحتى انتصاب عبيد الله المهدي على عرش القيروان سنة 297هـ(909م)؛ سيجد ــ حتما ــ أن الأعباء العظمى في مسيرة قيام الدولة الفاطمية تمت ــ بالدرجة الأولى ــ بفضل سواعد الكتاميين. وعليه فلا بد من التنويه بفضل هذه القبيلة الأمازيغية في تشييد صرح الدولة الفاطمية، وفي تمهيد سلطانها ببلاد المغرب، بالإضافة إلى الفتوحات العظيمة التي أنجزتها في بلاد المشرق. فهذه القبيلة وضعت أبناءها، وأموالها في خدمة الدعوة الفاطمية؛ نتيجة لما تزودت به عصبيتها من شحنات ذات طاقة معنوية هائلة؛ استمدت من تعاليم المذهب الشيعي؛ ذي السمات الدينية والسياسية.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.

وهنا تصدق – أيضا – نظرية ابن خلدون؛ التي شرحها ضمن: "**فصل في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين؛ إما من نبوة، أو دعوة حق**" و"**فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم**".[1] فالدعوة الدينية هنا عززتها عصبية فياضة وقوية؛ مشخصة في قبيلة كتامة؛ التي تبنت المذهب الشيعي، وتحملت أعباء قيام الدولة الفاطمية بالمغرب الإسلامي.

ومفاد ذلك كله أنه إذا تحققت نشأة هذه الدولة على أسس مذهبية، ودعوة دينية؛ قد تفوز بنفوذ واسع، وسلطان عريض، وملك عظيم؛ ولكن بشرط أن توجد عصبية قوية تقف وراء تنفيذ العمل العسكري والسياسي. وهكذا توافرت شروط نجاح الدولة الفاطمية بالمغرب. وعليه نرى أنه – إلى جانب الدعوة الدينية – انتصبت عصبية كتامة؛ بصفتها الكفيلة بتنفيذ تلك المهمة في الميدان؛ ومن هنا تكون هذه القبيلة هي الوصية الفعلية على قيام وسلامة الدولة الفاطميين الفتية. لم لا..؟ أليس عبيد الله المهدي من أهل النصاب الملكي؟ لذا فهو جدير بالمساندة، والدعم؛ كما يمكنه – في هذه الحال – الاستغناء عن عصبيته الخاصة؛ لأنه سيجد عصبية أخرى مستعدة للانقياد إليه.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 636، 638 – 642.

وهذا هو الذي قصده ابن خلدون؛ ضمن: "**فصل في أنه يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة؛ تستغني عن العصبية**".[1]

والدولة الفاطمية ــ مثلها مثل الدولة الإدريسية ــ جاءت نشأتها نتيجة لما وصلت إليه عصبية بني هاشم؛ من ضعف وانقسام. فبعد استفحال أمر بني العباس، وسعيهم لتصفية أبناء علي بن أبي طالب؛ التجأ هؤلاء إلى أقاصي البلاد وأطرافها؛ مستترين ــ خوفا وتقية ــ من أذى أبناء عمومتهم؛ بني العباس. فوجدوا في تلك المناطق النائية الأمن والأنصار معا. وقد عالج ابن خلدون هذه الظاهرة ضمن فصلين في مقدمته: "**فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين**" و"**فصل في كيفية طروق الخلل للدولة**".[2] وكما سبقت الإشارة إليه؛ فقد تم التوسع في شرح رأي ابن خلدون في هذا الموضوع ضمن دراسة مستقلة وضعتها تحت عنوان "العصبية القبلية ظاهرة اجتماعية وتاريخية" حيث تبرز نظرية ابن خلدون هذه؛ الكيفية التي تسقط بها الدول؛ عندما يتسرب إليها الفساد. وكيف تبدأ الدولة بالتفكك؛ حينما يتنكر حاكمها لأهل عصبيته؛ فيسعى لإذلالهم، وتقليم أظافرهم.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 635 ــ 636.

[2] نفسه، ص ص: 859 ــ 862، 863 ــ 867.

إذ يستشهد هذا العلامة بما حدث لعصبية بني عبد مناف؛ وهي عصبية مركبة؛ يجتمع فيها بنو هاشم وبنو أمية. حيث انقسمت هذه العصبية المركبة، الجامعة؛ بين بني هاشم وبني أمية. ثم انقسمت عصبية بني هاشم بدورها إلى بني العباس وبني أبي طالب.

وهكذا تتضح سلامة استقراء ابن خلدون. فكما نشأت الدولة الإدريسية من جراء الاضطهاد والقمع؛ المسلطين على أبناء علي بن أبي طالب. فقد نشأت الدولة الفاطمية بدورها عقب قمع وتشريد بني أبي طالب أيضا؛ إذ لجأ أعضاء هذه الأسرة إلى التقية والتستر؛ إلى جانب سعيهم الحثيث في نشر دعوتهم بأطراف البلاد النائية؛ بواسطة دعاة أكفاء. وتبعا لذلك؛ قدم إلى بلاد المغرب أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم؛ ذلك الداعية الداعية الشيعي الفذ. جاء إلى بلاد المغرب بغرض نشر الدعوة الفاطمية الشيعية في تلك الديار؛ فانطلق بالعمل من وسط قبيلة كتامة؛ التي انقادت إليه؛ بعد أن وحد عشائرها؛ ضمن عصبية واحدة؛ متينة الأسس؛ معتمدا على فعالية التعاليم الدينية؛ التي أضفت عليها هالة من القدسية، والفخامة. واستطاعت هذه القبيلة ضم قبائل أخرى إلى صفوفها؛ كما سبق ذكره.

وبعد فترة تمكنت من اكتساح دولة بني الأغلب. وهنا فتح الباب على مصراعيه؛ أمام قيام دولة الفاطميين؛ على أنقاض دولة الأغالبة. وتم هذا ببيعة عبيد الله المهدي عام 297هـ(909م) برقادة.

وجملة القول.. فقد حققت دولة الفاطميين ما لم تتمكن دولة الأدارسة من تحقيقه. فالعصبية المناصرة للدولة الفاطمية تفوق العصبية المنحازة للأدارسة بكثير. إذ كان لدولة الفاطميين أتباع عددهم لا يحصى؛ مكنوها من التغلب على إفريقية والمغرب كافة؛ بل مدوا نفوذ هذه الدولة إلى بلدان المشرق أيضا؛ حيث شمل مصر والشام والحجاز. وفي حالات خاصة؛ وصل نفوذ الدولة الفاطمية إلى بغداد نفسها؛ إذ التهمت الدول المتواجدة في تلك الربوع كلها. فغدت الخلافة الفاطمية تزاحم الخلافة العباسية، وتهدد وجودها في عقر دارها. ومرد هذا – طبعا – يعود إلى ما ذكره ابن خلدون ضمن: "**فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها؛ على نسبة القائمين بها؛ من القلة والكثرة".**[1]

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 644 – 646.

ومن جهة أخرى يمكن ملاحظة صدق نظرية ابن خلدون؛ من خلال ما قرره ضمن: "**فصل في أن الدولة المستجدة إنما تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة؛ لا بالمناجزة**".[1] حيث صنف الدول المستجدة إلى صنفين: الصنف الأول؛ تنشأ الدولة فيه بالأطراف؛ التي تكون الدولة المستقرة عاجزة عن حمايتها. وهذا الصنف قاصر ومحدود الفعالية. وإذا تأملنا في أحداث الدولة الإدريسية يتبين لنا بأنها تمثل الصنف الأول هذا.

أما الصنف الثاني؛ فهو الذي يعتمد على الدعوة والدعاة؛ بغرض التعبئة المعنوية الموجهة سواء إلى الحلفاء أو الخصوم. ويتم ذلك ــ عادة ــ بأن يقوم أولئك الدعاة بنشر مفاهيم وأفكار تستند إلى أصول مذهب معين بأساليب جذابة ومثيرة للعواطف؛ عاملين كل جهودهم لكي تحققون الغرض المطلوب من خلال بث مؤثرات نفسية تلهب قلوب العامة، ومن خلال طرح حجج منطقية يمكنها أن تستميل الخاصة؛ ثم العمل بكل القوى على شحذ الهمم وبعث روح التضحية في النفوس، تشجيع المترددين وحثهم على العصيان والثورة؛ ضد كل ما هو قائم.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 873 ــ 878.

ومن جهة أخرى يسعون بكل الوسائل الممكنة إلى نشر الإشاعات الهدامة في صفوف الخصوم، والعمل على تثبط هممهم، وتفكيك وحدتهم وتشتيت شملهم؛ بواسطة حملات نفسية مدمرة. وهذا الصنف الثاني ــ طبعا ــ يمكن اعتبار الفاطميين مثلا بارزا له.[1]

ــ حكومة عبيد الله بن أحمد بن الحسين المهدي:

اختلفت الأقوال حول المكان الذي ولد فيه عبيد الله المهدي؛ فمن قائل بأنه ولد بسلمية في أرض الشام ومن قائل أنه ولد ببغداد سنة 260هـ(873م). كان قد تولى الإمامة بعد موت والده أحمد (أو محمد في بعض الأقوال) بن الحسين؛ حيث بقي في (عَسْكر مُكرَم) والشام مختفيا؛ إلى أن اشتد البحث عنه من طرف

---

[1] حيث يقول ابن خلدون: ((وكذا العبيديون؛ أقام داعيتهم بالمغرب؛ أبو عبد الله الشيعي؛ ببني كتامة؛ من قبائل البربر؛ عشر سنين ويزيد؛ يطاول بني الأغلب بإفريقية؛ حتى ظفر بهم، واستولوا [أي العبيديون] على المغرب كله، وسموا إلى مصر؛ فمكثوا ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها؛ يجهزون إليها العساكر والأساطيل في كل وقت؛ ويجيء المدد لمدافعتهم برا وبحرا من بغداد والشام؛ وملكوا الإسكندرية، والفيوم، والصعيد؛ وتخطت دعوتهم من هنالك إلى الحجاز؛ وأقيمت بالحرمين. ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب بعساكره مدينة مصر؛ واستولى عليها، واقتلع دولة طُغُج من أصولها، واختط القاهرة؛ فجاء الخليفة بعدُ المعز لدين الله؛ فنزلها لستين سنة، أو نحوها؛ منذ استيلائهم على الإسكندرية)). المقدمة، ج: 2، ص ص: 876 ــ 877.

العباسيين؛ خاصة بعد استفحال أمر الشيعة في المغرب واليمن؛ فاضطر عبيد الله ــ عندئذ ــ إلى الهروب مع ولده أبي القاسم نزار نحو مصر؛ وذلك قصد اتقاء شر الخليفة العباسي المكتفي؛ الذي أمر بالقبض عليه. ولما حل بمصر في زي التجار أكمل طريقه نحو بلاد المغرب. ويبدو أنه قام بذلك تبعا لما سبق له؛ حيث استقبل رسلا من كتامة بعثهم الداعية الفاطمي أبو عبد الله؛ يبشره بما تحقق له من الفتح. ولما وصل إلى إفريقية اتجه جنوبا نحو سجلماسة؛ بعد أن أحس بكثافة عمليات البحث عنه. غير أن أمره انكشف في تلك المدينة؛ حيث قبض عليه أميرها اليسع بن مدرار، وأودعه السجن؛ بعد أن وصله خطاب من الخليفة ببغداد ــ أو ابن الأغلب ــ يطلب منه ذلك. وظل في سجنه حتى أخرجه منه الداعية الشيعي أبو عبد الله؛ بعد أن تغلب على القيروان وأسقط دولة بني الأغلب؛ ثم زحف إلى سجلماسة؛ التي تغلب عليها هي الأخرى وقبض على أميرها اليسع.

ويصف القاضي النعمان لحظة اللقاء بين الداعية والإمام بقوله: ((**فخرج إليهم وجوه أهل المدينة** [مدينة سجلماسة]**...ودخلوا معهم إلى المكان الذي كان فيه المهدي عليه السلام فاستخرجوه، واستخرجوا القائم** [وهو أبو القاسم نزار بن المهدي]؛ **فكانت في الناس مسرة عظيمة؛ استفزتهم وكادت تطيش لها عقولهم. وقرِّب لهما عليهما السلام فَرَسَان؛ فركباهما، وحف المؤمنون بهما، والدعاة يمشون حولهما، وأبو عبد الله يمشي بين يدي الإمام ويقول: "هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون"، ويحمد الله عز وجل ويشكره ويبكي من شدة الفرح؛ حتى وصل الإمام إلى فازة وقد فرشت له**)).[1]

وبعد أن تم للفاطميين تمهيد الوضع في سجلماسة، وبعد أن تمكنوا من القبض على اليسع ابن مدرار وقتله؛ تحركوا نحو رقادة؛ مقر الملك في القيروان؛ وفي الطريق عرجوا على إكجان؛ حيث أخذوا ما كان مكنوزا بها من الأموال والذخائر؛ ثم رحلوا صوب القيروان؛ فحلوا برقادة يوم خميس من أيام ربيع الآخر سنة 297هـ(909م).[2]

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 239 ـــ 240.

[2] وقد وصف ابن عذاري لحظة وصول المهدي ومن معه إلى رقادة؛ حيث قال: ((وصل عبيد الله إلى مدينة رقادة؛ ومعه ابنه أبو القاسم، وجعفر بن علي الحاجب، وأبو الحسن طيب بن إسماعيل المعروف بالحاضن؛ ولقيه الفقهاء ووجوه أهل القيروان؛ فدعوا له، وهنؤوه، واظهروا له السرور

وبادر المهدي في اليوم الثاني من وصوله ــ أي يوم الجمعة ــ بإصدار أوامر مكتوبة إلى خطباء المساجد؛ موضحا فيها الصيغة التي يجب إتباعها في الدعاء له ولأهل البيت. وقد أورد نص هذه الصيغة القاضي النعمان وهي: ((**اللهم فصلِّ على عبدك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك؛ عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين؛ كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين؛ الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون؛ اللهم وكما اصطفيته لولايتك، واخترته لخلافتك، وجعلته لدينك عصمة وعمادا، ولبريتك موئلا وملاذا؛ فانصره على أعدائك المارقين، واشف به صدور المؤمنين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الظالمين؛ إله الخلق رب العالمين**)).[1]

بأيامه؛ وسألوه تجديد الأمان لهم. فقال لهم: "أنتم آمنون في أنفسكم وذراريكم"؛ ولم يذكر الأموال؛ فعاوده بعضهم، وسألوه التأمين لهم في الأموال؛ فأعرض عنهم؛ فخافه أهل العقل من ذلك الوقت. ودخل رقادة وعليه ثوبُ خزٍّ أدكنُ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ وَرْدٌ؛ وأبو القاسم ابنه خلفه؛ عليه ثوبُ خزٍّ خلوقيٌّ، وعمامة مثله، وتحته فرسٌ أشقر؛ ،أبو عبد الله أمام عبيد الله؛ وعليه ثوبٌ توتيٌّ، وظهارةُ كتّان، وعمامةٌ، ومنديلٌ اسكندرانيٌّ، وتحته فرسٌ كُمَيْت، وبيده سبنية يمسح بها العرق والغبار عن وجهه؛ والناس حواليه وبين يديه أقواط يسلمون عليه. فنزل عبيد الله في القصر المعروف بالصَّحْن، ونزل ابنه بقصر أبي الفتح. وتسمى عبيد الله بالمهدي)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 158.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 249 ــ 250.

غير أن رأي ابن عذاري يخالف ما ذكره النعمان إذ يرى أن المهدي اتخذ بعض الإجراءات التي توضح تشيع عبيد الله بشكل متطرف، وينسب إليه العداء لبقية المذاهب السنية.[1] كما أن ما جاء في كتاب القاضي النعمان من أشعار مدح بها الشعراء المهدي؛ لا يؤخذ عليها بمكره؛ إلا أن ابن عذاري له نظرة أخرى إذ نسب إلى بعضهم شعرا ـ في مدح المهدي ـ يدخل في عداد النصوص المارقة الداعية للكفر.[2]

---

[1] يقول ابن عذاري: ((وأقر على عمالة القيروان الحسن بن أبي خِنْزِير، وعلى القضاء بها المَرُّوذِي. وأمر أن تُقلع من المساجد والمواجل والقصور والقناطر أسماء الذين بنوها؛ وكتب عليها اسمه. وأظهر عُبَيْد الله التشيُّع القبيح، وسب أصحاب النبي ـ صلعم ـ وأزواجه؛ حاشى علي بن أبي طالب، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري؛ وزعم أن أصحاب النبي ـ عم ـ ارتدوا بعده غير هؤلاء الذين سميناهم. ومنع المروذي الفقهاء أن يفتي أحدهم إلا بمذهب زعم انه مذهب جعفر بن محمد؛ منه سُقُوطُ الحِنْث عمن طلق البَتَّةِ، وإحاطة البنات بالميراث، وأشياء كثيرة يطول ذكرها)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 159 ـ 160. ويقول محمد الصنهاجي أيضا في هذا الباب: ((وكان من جملة ما أخذت عبيد الله أن قطع صلاة التراويح في شهر رمضان، وأمر بصيام يومين قبله، وقنت في صلاة الجمعة قبل الركوع، وجهر بالبسملة في الصلاة المكتوبة، وأسقط من أذان صلاة الصبح "الصلاة خير من النوم"، وزاد حي خير، محمد وعلي خير البشر العمل)). أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص: 27.

[2] من ذلك ما زعموا أنه لمحمد البديل الذي يقول (بسيط):

حَلَّ برَقَّادَة المَسِيحُ   حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا أحْمَد المُصَفَّى   حَلَّ بهَا الكَبْشُ وَالذّبِيحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ ذُو المَعَالِي   وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ

وربما يدخل ما ذكره ابن عذاري وغيره من مؤرخي السنة في عداد الإشاعات التي سلطت على الفاطميين من باب الحملة النفسية المضادة.

المهم أن عبيد الله المهدي بمجرد أن انتصب على سدة الحكم في رقادة ؛ ذلك الحكم الذي وجده جاهزا وممهدا؛ فإنه لم يترك لأنصاره الفرصة لكي يشاكوه في السلطان والحكم؛ إذ سارع إلى الانفراد بالحكم؛ وذلك بتعزيز مركزه، وإزاحة أبي عبد الله الشيعي من مكانته الهامة في الدولة. ولم يشفع له ما مقدمه للدولة وإمام الدولة من خدمات جليلة؛ لأنه في الحقيقة هو الذي أوصل المهدي إلى ذلك المركز المرموق؛ بعد أن أخرجه من سجنه بسجلماسة، وبعد أن طلب من القبائل المناصرة لدعوته بطاعة الإمام المنتظر؛ حيث قال لهم: ((**هذا مولاي ومولاكم، وولي أمركم، وإمام دهركم، ومهديكم المنتظر الذي كنت به أبشر؛ قد أظهر الله عز وجل أمره كما وعده، وأيد حزبه وجنده**)).[1]

ويضيف ابن عذاري قائلا: ((لعنه الله، وغضب عليه، وأخزى القائل والمقول فيه! وكانت إيمان كتامة أول دخولهم إفريقية: "وحق عالم الغيب والشهادة، مولانا المهديّ برقادة"! حتى كتب بعضُ أحداث القيروان هذين البيتين؛ وتلطفوا في وصولها إلى عبيد الله من حيث لا يعلم؛ وهي (مجتث):

الجُورُ قَدْ رَضِينَا ... لاَ الكُفْرُ وَالحَمَاقَة
يَا مُدَّعِي الغُيُوبِ ... مَنْ كَاتِب البِطَاقَة؟)).

البيان، ج: 1، ص: 160.

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 245.

وهنا يصدق رأي ابن خلدون أيضا حين كتب: **"فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد"**[1] إذ يرى أن ذلك يتم بعد أن يتحقق الملك لرئيس العصبية البارز بين الجميع؛ عندئذ يقتضي منه خلق الكبر والأنفة المسيطر عليه ـ وهذان الصفتان من خواص الطبيعة الحيوانية ـ إلى السقوط في الغيرة والحرص على الاستحواذ على ما اكتسبه؛ فلا يرضى بمشاركة غيره في ذلك المجد؛ الذي غدا بين يديه؛ وعليه يسعى إلى إبعاد الطامعين في المشاركة، والمزاحمين له في تحقيق المجد؛ ولما يصطدم بمقاومة ما أو أي اعتراض من طرف شركائه في الأمر؛ يحول اهتمامه إليهم، ويسلط آلة القمع والدمار ضدهم.

لذا فلا غرابة أن يكون أول ضحايا القمع المسلط من المهدي هو معاونه وداعيته، وصاحب الفضل عليه أبو عبد الله الشيعي؛ إذ وصل به حد الانتقام إلى قتله؛ بعد عام من بيعته؛ أي في سنة 298هـ(910م). وكان الذي نفذ أمر المهدي في أبي عبد الشيعي هو رفيقه وتلميذه القائد الكتامي عروبة بن يوسف.

---

[1] المقدمة، ج: 2، ص ص: 649 ـ 650.

ولما هم بتنفيذ الأمر بالقتل قال له أبو عبد الله الشيعي: ((**لا تفعل يا بني**))، فأجابه عروبة: ((**الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك**)).[1] ومن غرائب أمزجة الملوك ما قام به المهدي أيضا؛ إذ انه بعد مقتل أبي عبد الله الشيعي بأمره؛ تولى بنفسه الصلاة عليه، ثم قال: ((**رحمك الله أبا عبد الله، وجزاك خيراً بجميل سعيك**)).[2] ومن المفارقات أن يكون عروبة بن يوسف الملوسي ـ ذلك القائد الكتامي العظيم الذي ضرب به المهدي أبا عبد الله الشيعي ـ هو نفسه ضحية سخط وقمع المهدي؛ إذ لم يسلم حتى هو من الانتقام الملكي؛ إذ قتله المهدي بعد فترة قصيرة؛ مع أخيه حباسة ابن يوسف؛ ذلك القائد الذي فتح الإسكندرية.

هذا وقد حدثت ـ نتيجة لمقتل أبي عبد الله الشيعي، وأخيه أبي العباس، وأصحابه الكتاميين ـ بعض الثورات بين العشائر الكتامية؛ الناقمة والساخطة على المهدي؛ ولكن هذا الأخير استطاع إخماد ثورتهم، والتنكيل بهم؛ فعادوا إلى ديارهم بأرض كتامة؛ حيث أعلنوا العصيان من جديد، ونصبوا صبيا من بينهم؛ وهو كادو بن معارك المدعو بالماوطي؛ مدعين أنه المهدي المنتظر؛ بل يقال أنهم تطرفوا في ادعائهم؛ حتى أنهم زعموا

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 135. البيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.
[2] الكامل، ج: 6، ص: 135. والبيان المغرب، ج: 1، ص: 164. واتعاظ الحنفا، ص: 96.

أنه نبي.[1] ولم تدم هذه الثورة؛ إذ جرد المهدي جيشا بقيادة ولده أبي القاسم محمد بن عبيد الله، وكان جل أفراده من قبيلة كتامة؛ فأخمدوا تلك الفتنة. وبهذا يتضح بأن قبيلة كتامة لم تتأثر بذلك الانقسام؛ إذ سرعان ما عادت إلى الطاعة، وإلى خدمة الدولة الفاطمية. ويبدو أن المهدي قد شغلهم بالفتوحات شرقا وغربا؛ فتركوا المشاغبات؛ واتجهوا صوب الفوائد التي تأتيهم من الحروب الخارجية. وقد كانت أيام الدولة الفاطمية بالمغرب مشحونة بالحروب والفتن والثورات؛ الأمر الذي جعلها لا تهنأ بفترة من الاستقرار والهدوء. وأخطر الثورات على الإطلاق هي التي نشبت في عهد أبي القاسم القائم بأمر الله؛ خليفة المهدي؛ وهي ثورة الخوارج؛[2] بقيادة أبي يزيد مخلد بن كيداد المعروف بصاحب الحمار؛ إذ كادت هذه الثورة أن تقضي على الدولة الفاطمية نهائيا؛ لولا الانقسامات التي حدثت في صفوف القبائل الثائرة.

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص: 273. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 166 ـ 167.

[2] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: 277 ـ 279. وأخبار ملوك بني عبيد، ص ص: 29 ـ 34. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ـ 220. والعبر، مج: 4، ص ص: 84 ـ 93. مج: 7، ص ص: 26 ـ 35. واتعاظ الحنفا، ص ص: 109 ـ 125.

هذا ولم يهنأ عبيد الله طويلا؛ إذ انشغل بعض الوقت في إخماد ثورات عديدة قامت هنا وهناك؛ مثل ثورة الكتاميين بالقيروان، وثورتهم كذلك ببلادهم خلف الصبي المدعو كادو بن معارك، وثورة في صقلية بقيادة ابن وهب، وثورة أخرى بصقلية كذلك بقيادة أحمد بن زيادة الله ابن قرْهب وثورة في تيهرت قامت بها جماعة من قبيلة زناتة، وثورة هوارة بطرابلس بقيادة أبي هارون الهواري، وثورة أهل طرابلس أيضا بقيادة محمد بن إسحاق المعروف بابن القرلين وعصيان من طرف زناتة ولماية. هذا بالإضافة إلى الحملات العسكرية التي قام بها أبو عبد الله الشيعي المغرب الأوسط، وما قام به أبو القاسم بن المهدي من حملات أيضا ضد قبائل عديدة هنا وهناك.

ولم يكن هدف الفاطميين هو الاكتفاء بتشييد دولة لهم ببلاد المغرب فحسب ـ كما كان الحال بالنسبة للأدارسة ـ بل كانوا يتخذون من دولتهم بالمغرب خطوة تكتيكية؛ في سبيل تحقيق هدف استراتيجي؛ وهو الإطاحة بالخلافة العباسية، وقيام دولتهم بدلا منها. لذا فقد شرع المهدي منذ سنة 301هـ(913م) في غزو مصر. وكانت أولى خطوات تمت في هذا السبيل؛ هي أوامره بخروج حباسة ابن يوسف في أسطول نحو مصر؛ حيث احتل المدن المتاخمة لمصر في برقة؛ مثل سرت

وإجدابية وبرقة؛ كما اشتبك مع جيش قدم من المدن المتاخمة لمصر في برقة؛ فانتهى السجال بينهما أخيرا بهزيمة جيش مصر. ثم تقدم إلى الإسكندرية بحرا؛ حيث تغلب عليها. وبعد ذلك تقدم حباسة نحو مصر؛ أين فتح بعض الحصون هناك؛ إلى أن لحق به أبو القاسم بن عبيد الله في جيش عظيم؛ فاحتل الإسكندرية سنة 302هـ(914م)؛ ثم تقدم أبو القاسم إلى الفيوم؛ أين عسكر بها.[1] وهناك وصلته الأخبار بوصول القائد العباسي مؤنس الخادم إلى مصر بغرض محاربة جيش الفاطميين. عندها أرسل أبو القاسم إلى حباسة يطلب منه الالتحاق به، وتسليم أمر الجيش إلى أبي فريدن؛ فغضب حباسة بسبب ذلك؛ وقال: ((**لما أشرفت على أخذ البلد؛ يفوز أبو فريدن بخيره وذكره**)).[2]وكان رد فعله أنه عاد مع مجموعة صغيرة إلى المغرب.[3]

---

[1] أنظر الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 147. واتعاظ الحنفا،، ص ص: 98 ـ 100. والنجوم الزاهرة، ج: 3، ص ص: 172 ـ 173. 186 ـ 187. 196.

[2] البيان المغرب، ج: 1، ص: 173.

[3] وكانت هذه الحادثة هي السبب في عصيان حباسة وأخيه عروبة؛ إذ خرجا عن طاعة الدولة ؛ فانتهى أمرهما إلى الإعدام.

وكانت هذه ضربة شديدة ثبطت عزيمة أبي القاسم؛ فعاد أدراجه إلى القيروان؛ فانتهز الفرصة مؤنس الخادم فأغار على خلفيات الجيش الفاطمي وساقته.[1] ويرى ابن الأثير هنا أن الجيش الفاطمي تكبد خسائر كبيرة. ثم عاود المهدي في سنة 303هـ(915م) الكرة؛ حيث أمر بإرسال جيش آخر بقيادة أبي مدين ابن فروخ لجس النبض في الحدود المصرية؛ فاحتل برقة في سنة 304هـ(916م)؛ بعد حصار دام ثمانية عشر شهرا.

ولم يقتصر اهتمام عبيد الله المهدي بمصر والمشرق فحسب؛ بل اهتم ـ في الوقت ذاته ـ بالمناطق الغربية أيضا؛ حيث جرد جيشا بقيادة أمير تيهرت مصالة بن حبوس المكناسي لفتح البلاد الغربية الخاضعة للدولة الإدريسية، وإمارة بني صالح في نكور. وبالفعل فقد تحقق ما كان يرجوه عبيد الله المهدي من تلك الحملة؛ إذ تمكن مصالة من التغلب على مناطق شاسعة في المغرب الأقصى؛ بدولها وقبائلها؛ مثل نكور التي احتلها في سنة 305هـ(917م)؛ وفاس حاضرة الدولة الإدريسية؛ بعد أن أجبر ملكها الإدريسي يحيي بن إدريس بن عمر إلى تقديم الطاعة إلى المهدي إمام الدولة الفاطمية.

---

[1] **تختلف رواية ابن الأثير عن رواية ابن عذاري؛ إذ يرى ابن الأثير أن الذي اشتبك مع مؤنس الخادم هو حباسة؛ ولم يشر إلى أبي القاسم بن عبيد الله. الكامل، ج: 6، ص: 149.**

وفي سنة 306هـ(918م) جهز المهدي ولده أبو القاسم بن عبيد الله وأمره بالزحف ـ مرة ثانية ـ نحو مصر في جيش ضخم من كتامة وبعض قبائل إفريقية؛ فانطلق الجيش عن طريق البر؛ فتغلب على برقة؛ ثم تقدم إلى الإسكندرية فدخلها؛ وتقدم إلى الجيزة؛ فاحتل الأشمونيين وجزء كبير من الصعيد. ثم شحن عبيد الله أسطولا بحريا ـ مشكلا من ثمانين مركبا ـ نحو مصر؛ لدعم ولده أبي القاسم؛ بقيادة يعقوب الكتامي وسليمان الخادم. وبالمقابل بعث الخليفة العباسي مؤنس الخادم برا، وأسطولا من طرسوس ـ مشكلا من خمسة وعشرين مركبا ـ لمواجهة جيوش الفاطميين. وانتهت الحرب بهزيمة الجيوش الفاطمية؛ التي فتكت بها الأمراض والأوبئة.[1]

ومن طرائف بعض المؤرخين أنهم عللوا زحف أبي القاسم بن عبيد الله نحو مصر والمشرق؛ بأنه لم يكن سوى رد انفعالي على استفزاز العباسيين؛ بعد أن أمر الخليفة العباسي المقتدر ـ كما قالوا ـ الشاعر محمد بن يحيى المعروف بالصولي بأن يكتب قصيدة إلي أبي القاسم ابن المهدي؛ ردا على قصيدة كان قد أرسلها إليه أبو القاسم؛ مفتخرا بما فتح الله عليه؛ ومن قصيدة الصولي هذا البيت:

---

[1] الكامل، ج: 6، ص: 161. واتعاظ الحنفا، ص ص: 103 ـ 104. والبيان المغرب، ج: 1، ص ص: 181 ـ 182.

فلوْ كانتِ الدُّنيَا مِثــالاً لِطائِــرٍ

لكانَ لكمْ مِنهَا بِمَا حُزتم الذنـــبُ

مـــن بيـــن أولئـــك المؤرخيـــن المقريـــزي؛ الـــذي يكمـــل حديثـــه فيقـــول: ((**فحـــرك همتـــه** [أي همـــة أبي القاســـم] **هـــذا البيـــت؛ فقـــال: "<u>واللـــه لا أزال حـــتى أملـــك صـــدر الطائـــر ورأســـه ــ إن قـــدرت ــ وإلاّ أهلـــك دونـــه</u>". وكابـــد عـــلى ديـــار مصـــر مـــن الحـــروب أهـــوالا، ومـــات ولـــم يظفـــر بهـــا؛ وأوصى ابنـــه المنصـــور... وكـــان الظافـــر بهـــا المعـــز**)).[1] وحـــتى أن صحـــت حكايـــة هـــذه القصيـــدة؛ فـــلا يمكـــن أن يقـــوم المهـــدي وولـــده أبـــو القاســـم بشـــن حـــرب عـــلى دولـــة بـــني العبـــاس امتـــدت زمنيـــا بعشـــرات السنيـــن، وكلفـــت الدولـــة آلاف الأرواح، وأمـــوالا لا تحـــصى؛ لا لـــشيء ســـوى أنـــه أصـــر ــ بعنـــاد ونكايـــة في القـــادر العبـــاسي ــ أن يستـــولي عـــلى صـــدر الطائـــر ورأســـه..!! فهـــذا التعليـــل فيـــه كثيـــر مـــن الأصبـــاغ الأسطوريـــة مـــا يضحـــك. أمـــا الحقيقـــة فتكمـــن في الرغبـــة الجامحـــة لـــدى الفاطمييـــن للإطاحـــة بالخلافـــة العباسيـــة ــ الـــتي يـــرون فيهـــا دولـــة مغتصبـــة لحقـــوق العلوييـــن ــ حـــتى يتســـنى لهـــم إقامـــة الخلافـــة الفاطميـــة العلويـــة الشرعيـــة في نظرهـــم.

---

[1] اتعـــاظ الحنفـــا، ص: 99.

وبعدها انشغل عبيد الله المهدي بتطويع القبائل المنتشرة في المغربين الأوسط والأقصى؛ كزناتة ومكناسة وهوارة ونفوسة وفي هذا يقول ابن خلدون: ((**واضطرب المغرب؛ فبعث المهدي ابنه أبا القاسم غازيا إلى المغرب في عساكر كتامة أولياء الشيعة سنة خمس عشرة وثلاثمائة؛ ففر محمد ابن خزر** [الزناتي] **وأصحابه في الرمال. وفتح أبو القاسم بلد مزاتة ومطماطة وهوارة، وسائر الإباضية والصفرية، ونواحي تاهرت قاعدة المغرب الأوسط إلى ما وراءها؛ ثم عاج إلى الريف؛ فافتتح بلد نكور من ساحل المغرب الأوسط(!) ونازل صاحب جراوة من آل إدريس وهو الحسن بن أبي العيش، وضيق عليه، ودوخ أقطار المغرب؛ ورجع ولم يلق كيدا**)).[1]

---

[1] العبر، مج: 4، ص: 82.

وفي سنة 322هـ(933م) توفي عبيد الله المهدي؛ بعد أن حكم الدولة الفاطمية ببلاد المغرب مدة أربع وعشرين سنة؛[1] فأخفى ولده أبو القاسم خبر موته مدة من الزمن قيل أنها وصلت إلى السنة تقريبا؛ بينما يقول أبي عبيد الله محمد الصنهاجي أنها لم تتجاوز الشهر؛ وذلك خوفا من حدوث فتنة أو بعض الاضطرابات[2].

ـ حكومة القائم بأمر الله أبو القاسم محمد بن عبيد الله:

ثمة من يقول أن اسمه عبد الرحمن أو نزار وليس محمدا. وتلقب من ألقاب الخلافة بلقب القائم بأمر الله. وولد هو الآخر في سلمية بأرض الشام؛ وقدم إلى المغرب رفقة والده؛ حيث تعرض لنفس الظروف التي عرفها والده؛ من خوف وتستر وسجن ..الخ. تولى شئون الدولة بعد ممات والده؛ دون أن يعلن موته في بداية الأمر؛ خوفا من حدوث فتن.

---

[1] قال محمد الصنهاجي: ((وتوفي عبيد الله يوم الإثنين الرابع عشر من ربيع الأول سنة 322هـ؛ وكسف القمر في تلك الليلة كسوفا كليا (؟!). وعمره اثنتان وستون سنة ـ أو ثلاث وستون ـ وكانت وفاته من دواء سقاه إياه ابن الجزار؛ يقال أنه حب (السورنجان)؛ لنقرس كان يشكوه؛ وكان إسحاق الإسرائيلي نهاه عنه، وأعلمه أنه يجد على إثره إفاقة، ثم يشتد عليه. وقد يتسبب في هلاكك. فلم يقبل منه قوله؛ لشدة ما يجده؛ فوجد تلك الإفاقة ثم مات)) أخبار ملوك بني عبيد، ص ص: 26 ـ 27.

[2] أخبار ملوك بني عبيد، ص: 27. والكامل، ج: 6، ص: 238.

ولـم يعلـن نبـأ وفـاة والـده حـتى تمكـن مـن الأمـر،[1] وقبـض دفـة التسيير بيـد ثابتـة.[2] ومـع هـذا فقـد وقـع مـا كـان يتوجـس منـه؛ إذ أنـه مـا أن أعلـن وفـاة والـده حـتى اشتعلـت بعـض الثـورات في عـدة جهـات؛ كانـت أبرزهـا – آنئـذ – هي الثـورة الـتي قـام بهـا في نـواحي طرابلـس شخـص يـدعى ابـن طالـوت القـرشي؛ إذ ادعى أنـه ابـن المهـدي؛ غيـر أن أمـره كشـف، واتضـح للنـاس كذبـه؛ فقتلـه مـن كـان في تلـك الجهـات مـن الأمازيـغ. كمـا أرسـل أبـو القاسـم جيشـا بقيـادة ميسـور الفـتى إلى النـواحي الغربيـة بغـرض إخضـاع؛ حيـث دخـل إلى نكـور وفـاس.

---

[1] قـال ابـن عـذاري: ((ولـم يركـب أبـو القاسـم طـول إمارتـه بمظلـة. فقـام بسيـرة أبيـه، واظهـر مـن الحـزن عليـه مـا لا يعهـد لمثلـه، وواصـل الحـزن لفقـده، وأدامـه مـن بعـده؛ فمـا ركـب دابـة مـن بـاب قصـره منـذ مـات أبـوه إلى أن قبـض سـوى مرتيـن. وافتتحـت في أيامـه مدائـن كثيـرة مـن مدائـن الـروم بصقليـة، وثـار عليـه عـدة ثـوار؛ فأمكنـه اللـه منهـم)). البيـان المغـرب، ج: 1، ص ص: 208 209.

[2] يقـول ابـن الأثيـر: ((ولمـا تـوفي [أي عبيـد اللـه] ملـك بعـده ابنـه أبـو القاسـم محمـد؛ وكـان أبـوه قـد عهـد لـه. ولمـا أظهـر وفـاة والـده كـان قـد تمكـن، وفـرغ مـن جميـع مـا أراده، واتبـع سنـة أبيـه. وثـار عليـه جماعـة فتمكـن منهـم؛ وكـان مـن أشدهـم رجـل يقـال لـه: ابـن طالـوت القـرشي؛ في ناحيـة طرابلـس؛ وزعـم انـه ولـد المهـدي؛ فقامـوا معـه، وزحـف إلى مدينـة طرابلـس؛ فقاتلـه أهلهـا؛ ثـم تبيـن للبربـر كذبـه؛ فقتلـوه، وحملـوا رأسـه إلى القائـم)). الكامـل، ج: 6، ص: 238.

ومن جهة أخرى فإنه لم ينس الهدف الرئيسي لوالده؛ وهو فتح الديار المصرية؛ لذا فقد جهز جيشا بقيادة خادمه زيدان فدخل الإسكندرية أيضا؛ ولكنه انهزم في الأخير أمام جيش الإخشيد.[1]

وفي سنة 333هـ(944م) اشتدت الثورة الخارجية في المغرب الأوسط وإفريقية ضد الدولة الفاطمية تلك الثورة التي كان يقودها أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي الخارجي؛ المعروف بصاحب الحمار. وكانت هذه الثورة أعنف الثورات وأعتاها على الدولة الفاطمية؛ حتى كادت أن تسقطها نهائيا؛ لولا ضربات من الحظ أنقذتها. وقد انهزمت أمامه جيوش الفاطميين مرات عديدة؛ حتى أن القائم بأمر الله نفسه اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة إلى المهدية.[2] ويعود ـ في الحقيقة ـ ظهور أبي يزيد في الساحة المذهبية إلى عهد عبيد الله؛ وبالتحديد إلى سنة 316هـ(928م)؛ إلا أنه كان يقتصر ـ في نشاطه ـ على الدعوة باللسان؛ دون اللجوء إلى السلاح.

---

[1] الكامل، ج: 6، ص : 238.

[2] قال ابن عذاري: ((وكان أبو يزيد أحد أئمة الإباضية النكار بالمغرب. قال الرقيق: "وقرأ على عمار الأعمى. وكان يركب الحمار. وتسمى شيخ المؤمنين." قال ابن سعدون: "فبعث الله على أبي القاسم الشيعي مخلد بن كيداد الخارجي؛ فقهره، وقتل جنوده، وقام المسلمون معه." وخرج الفقهاء والعباد مع أبي يزيد لحربه؛ سماهم ابن سعدون في كتابه رجلاً رجلاً)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 216 ـ 217.

ولما مات عبيد الله خرج للعلن؛ رافعا لواء العصيان المسلح ضد الدولة الفاطمية. وبقي يكيل لجيوش الدولة الهزيمة تلو الهزيمة؛ ولم يترك لأبي القاسم فرصة لاسترداد أنفاسه؛ وحصره مدة طويلة في المهدية؛ دون أن يجد سبيلا لفك ذلك الحصار الذي أنهك أهل المدينة، وأوصلهم إلى حافة الهلاك جوعا.[1] بل مات أبو القاسم في الوقت الذي كان فيه أبو يزيد محاصرا لسوسة.[2] ولم تتمكن الدولة الفاطمية من أبي يزيد إلاّ بعد أن انفضت عنه القبائل الزناتية التي كانت تناصره؛ بعد أن انحرف عن الطريق السوي،[3] وبعد أن شعرت تلك القبائل مدى الخطورة هذا الرجل لو

---

[1] يقول ابن خلدون: ((واشتد الحصار على أهل المهدية حتى أكلوا الميتات والدواب، وافترق أهلها في النواحي؛ ولم يبق بها إلا الجند. وفتح القائم أهراء الزرع التي أعدها المهدي، وفرقها فيهم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

[2] قال ابن خلدون: ((ثم زحف أبو يزيد إلى سوسة في جمادى الآخر من سنته [يقصد هنا سنة 334هـ وهذا يخالف التاريخ الذي ذكره ابن عذاري]؛ وبها عسكر القائم؛ وتوفي القائم وهو بمكانه [يقصد أبا يزيد] من حصارها)). العبر، مج: 4، ص: 89. أما ابن عذاري فيقول: ((وفي سنة 335هـ وصل أبو يزيد إلى المهدية. ثم نهض إلى سوسة؛ فناوشه أهلها؛ فقيل فيه (وافر):

أَلَمَّ بِسُوسَةَ وَبَغَى عَلَيْهَا   وَلَكِنَّ الإلَهَ لَهَا نَصِيرُ

[3] يقول ابن خلدون: ((ثم انتقض البربر عليه [أي على أبي يزيد] بما كان منه من المجاهرة بالمحرمات، والمنافسة بينهم؛ فانفضوا عنه؛ ورجع إلى القيروان سنة أربع وثلاثين [وثلاثمائة]. وغنم أهل المهدية معسكره؛ وكثر عبث البربر في أمصار إفريقية وضواحيها؛ وثار أهل القيروان بهم، وراجعوا طاعة القائم)). العبر، مج: 4، ص: 88.

استولى على الحكم. وبذلك انتهى أمره إلى الأسر والقتل.[1]

ـ حكومة المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بأمر الله:

ولد المنصور بالله إسماعيل بن محمد القائم بالمهدية سنة 299هـ(911م) أو سنة 302هـ. ولما تولى الحكم ـ خلال المحنة التي مرت بها الدولة الفاطمية جراء حصار أبي يزيد لها ـ قام هو بدوره بإخفاء خبر موت والده القائم بأمر الله؛ خوفا من تثبيط عزائم أنصاره وجيوشه من جهة؛ وتشجيع أبي يزيد ـ الذي كان أمره قد استفحل في تلك الأثناء ـ من جهة أخرى؛ حيث كان يقف على أبواب سوسة محاصرا إياها. لذا فقد التزم بكتمان خبر موت والده: **((فلم يُسمَّ بالخليفة، ولا غيَّر السكة، ولا الخطبة، ولا البنود إلى أن فرغ من أبي يزيد))**.[2] وكان المنصور يتمتع بعزيمة فولاذية، وشجاعة ملحوظة؛ ويبدي عند الحاجة إصرارا شديدا؛ في سبيل تحقيق أهدافه. وكان فصيح اللسان وخطيبا موهوبا؛ إذ يتمتع بقدرة على إنشاء وارتجال الخطبة حاضرا.

---

[1] قال ابن خلدون في موت أبي يزيد: ((ثم هلك من الجراحة التي به؛ فأمر [المنصور إسماعيل] بسلخ جلده، وحشوه تبنا، واتخذ له قفصا؛ فأدخل فيه مع قردين يلاعبانه)). العبر، مج: 4، ص: 93.

[2] العبر، مج: 4، ص: 89.

ومن أهم الأعمال التي قام بها بعد موت أبيه هي المبادرة بإرسال الإمدادات إلى سوسة بحرا؛ في أسطول محمل بالمقاتلين والأسلحة والأمتعة والميرة؛ فكانت هذه الخطوة الجريئة والحازمة منه سببا في هزيمة أبي يزيد، وفك الحصار عن المدينة؛ حيث خرج إليه أهلها مع المدد الذي جاءهم؛ فانهزم أبو يزيد أمامهم.[1] ولم يترك المنصور هذه الفرصة تفوت؛ إذ واصل ضغوطه المتتالية على أبي يزيد في كل مكان، وتابع تحركاته أينما سار حتى تمكن من القبض عليه أخيرا في جبل كيانة بالقرب من المسيلة؛ حيث وضع في قفص ونقل إلى المهدية. ويقال أنه سلخ لما مات وحشي جلده تبنا؛ ووضع مع قرد في قفص. وفي هذا يقول أحد الشعراء:

أمَّا النفاق فقدْ نسَخْ	وَأبُو الكبَائر قدْ سُلِخْ
كانَ الفوَيسِقُ مُخلدٌ	قرْداً ولَكنْ قدْ مسخْ
لوْ قدْ رَأيتَ محلهُ	وَبنو الحداية تَصْطرِخْ

---

[1] وفي سوسة يقول أحد شعرائها آنئذ وهو أحمد بن افلح:

ألَمَّ بِسُوسَةَ وَبَغى عَلَيْهَا	وَلَكِنَّ الإلَهَ لَهَا نَصِيرُ
مَدِينَةٌ سُوسَةَ لِلْمَغْرِب ثغْرٌ	يَدِينُ لَهَا المَدائِنُ وَالثُّغورُ
لَقَدْ لُعِنَ الَّذِينَ بَغَوْا عَلَيهَا	كَمَا لُعِنَتْ قُرَيْضَةَ وَالنَّضِيرُ
أعَزَّ الدِّينَ خَالِقُ كُلَّ شَيْءٍ	بِسُوسَةَ بَعْدَمَا الْتَوَتِ الأمُورُ

لِرَأيتَ مَا عَقَدَ اللعيـ ـنُ بِلُطفِ رَبكَ قَد فُسِخْ

وقال أحدهم في أخرى:

... فَسَلَختهُ مِنْ جِلدِهِ وَحَشَوتهُ حَشْوَ المَزَاوِدْ
وَضَرَبَتهُ مَثلاً يَسِيـ ـر فِي الأَقارِبِ وَالأبَاعِدْ
وَرَدَتْ بِهِ أطماعهُ وَظُنونهُ شرَّ المَوَارِدْ

وزحف المنصور نحو تيهرت ـ بعد القبض على أبي يزيد ـ حيث ضبط الأمور بها؛ وانتقم من الخارجين عن طاعة الدولة الفاطمية؛ الأموات[1] منهم والأحياء. وكذلك الحال في القيروان؛ إذ نقل ابن عذاري عن ابن حمادوه خبر عمليات التنكيل التي سلطها المنصور على بعض سكان القيروان.[2] ومن إنجازات المنصور العمرانية تشييده لمدينة صبرة التي سماها المنصورية؛ حيث أمر بالبدء في بنائها سنة 336هـ(947م)؛ إذ انتقل إليها تاركا المهدية، التي تهدمت جل أحياؤها.

---

[1] قال محمد الصنهاجي: ((ثم انصرف إسماعيل إلى المسيلة، وتوجه منها إلى تاهرت يوم الثلاثاء، لست بقين من صفر من هذه السنة؛ فلما وصل إليها أمر بنبش عظام مصالة وفضل بني حبوس، وأحرقها بالنار، وأحرق منبر جامعها؛ لكونه خطب عليه لعبد الرحمن بن محمد (الخليفة الناصر الأموي) وأقام بها أياما وولى عليها)). أخبار ملوك بني عبيد، ص: **45**.

[2] قال ابن عذاري: ((وقال ابن حمادوه: "ولما ظفر بأبي يزيد؛ نهض إلى القيروان؛ فدخلها في هذه السنة؛ فقتل من أهلها خلقا، وعذب آخرين؛ ولم يزالوا معه في الامتحان إلى أن هلك")). البيان المغرب، ج: **1**، ص: **220**.

ومما نسب للمنصور أيضا سعيه لإعادة الحجر الأسود إلى الكعبة المشرفة؛ بعد أن انتزعه منها القرامطة. وهنا يظهر هذا الخبر مغلفا بكثير من الغموض والاضطراب؛ إذ يزعم بعض المؤرخين أن المنصور انتقل بنفسه للمشرق لإعادة الحجر الأسود إلى موضعه؛ بينما يرى آخرون أن القرامطة هم الذين أرجعوه بأنفسهم بعد أن هددهم المنصور؛ ومنهم أيضا من أشار لموضوع إعادة الحجر دون التطرق لدور الفاطميين في ذلك.[1] والخلاصة أن وفاة إسماعيل المنصور حدثت في سنة 341هـ(952م)؛ بينما كان في عز شبابه؛ إذ لم يتجاوز عمره آنئذ تسع وثلاثين سنة. ويقال أن سبب موته هي قرحة في كبده؛ تسببت في حدوث إسهال شديد لديه؛ فتوفي نتيجة لذلك الإسهال الحاد.

---

[1] **يقول ابن عذاري: ((وفي سنة 339 تحرك أبو طاهر المنصور بن أبي القاسم بن عبيد الله الشيعي إلى بلاد المشرق، ورد الحجر الأسود إلى مكانه من الركن من بيت الله الحرام؛ وذلك بعد خمسة أعوام من دولة المُطِيع. وكان الذي اقتلعه سليمان بن الحسن القرمطي – لعنه الله – في سنة 317؛ في أيام المقتدر العباسي – رحمه الله – والذي تولى قلعه بيده بأمر القرمطي جعفر بن أبي علاج – لعنه الله – ولما مات القرمطي؛ وجه اخوته الحجر؛ فرد إلى موضعه في هذه السنة؛ ووضعه بيده حسين بن المروذي الكناني)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 220. غير أن أقوالا أخرى تخالف هذا الرأي؛ وردت في الكامل في التاريخ، ج: 6، ص: 335.**

ـ حكومة المعز لدين الله معد بن إسماعيل:

خلف المعز لدين الله والده إسماعيل في سدة الملك بإفريقية وبلاد المغرب سنة 341هـ(952م) كما جاء في أشهر الأقوال. وكان مولد هذا الخليفة بالمهدية سنة 319هـ(931هـ) ولما ولي الخلافة كان عمره في حدود اثنين وعشرين سنة. ويعتبر المعز من أشهر الخلفاء الفاطميين على الإطلاق؛ إذ شاع ذكره في العالم الإسلامي؛ نظرا لكونه أول من تغلب على مصر بالكامل، ونقل مركز الخلافة الفاطمية إليها. وتقول المصادر التاريخية أنه بدأ عهده في سنة 342هـ(953م) بالخروج إلى جبل أوراس في جيش عظيم؛ بغرض تأديب وإخضاع من بقي متمردا عن الدولة؛ من أتباع أبي يزيد. فسلط غضبه على قبيلتي: هوارة ومليلة المنحازتين ـ سابقا ـ إلى أبي يزيد؛ ولم تثنهم موته عن مواصلة العصيان، والخروج عن طاعة الدولة الفاطمية. وبعد أن حقق المعز هدفه نحو الخوارج ـ من بقايا أنصار أبي يزيد ـ اتجه صوب المغرب الأقصى؛ حيث بعث إلى تلك الديار سنة 347هـ(958م) خادمه الوفي ـ الذي بدأ نجمه يسطع؛ جوهر الكاتب ـ قصد تطويع القبائل المتمردة من زناتة ومكناسة وغيرهما.[1]

---

[1] قال المقريزي في تلخيص لخبر ابن الأثير: ((وفي سنة سبع وأربعين عظم أمر أبي الحسن جوهر عند المعز، وعلا محله، وصار في رتبة الوزارة؛ فسيره في صفر منها على جيش كثيف؛ فيهم الأمير زيري بن مناد

وفي سنة 355هـ(965م) شرع المعز لدين الله في التمهيد للعمل الهام الذي شغله وحلم به هو آبائه منذ قيام دولتهم؛ ويتمثل ذلك الحلم في السعي بدون كلل للاستيلاء على مصر؛ التي ستكون خطوة أمامية في سبيل إسقاط الخلافة العباسية ببغداد، وقيام الدولة الفاطمية بدلا منها. وعليه فقد أمر بالشروع في حفر آبار الماء بين مصر وإفريقية؛ وكما أمر أن يبنى له عدة قصور على طول الطريق؛ فنفذ ما أمر به. وفي تلك السنة بالذات وصل خبر وفاة كافور الإخشيدي حاكم مصر؛ فازداد المعز لهذا عملا وإصرارا في سبيل تحقيق حلمه؛ فبادر إلى جمع المال والعتاد اللازمين للمهمة الكبرى؛ ويقال أنه خصص سنة 357هـ(967م) للحملة المقبلة على مصر مبلغا من المال يقدر بأربعة وعشرين ألف دينار؛ وضعت كلها تحت تصرف القائد الفاطمي جوهر الصقلي.[1]

الصنهاجي وغيره؛ فسار إلى تاهرت، وحارب قوما وافتتح مدنا، ونهب وأحرق، وسار إلى فاس؛ فنازلها مدة، وسار إلى سجلماسة؛ وقد قام بها رجل وتلقب بالشاكر، وخوطب بأمير المؤمنين؛ ففر من جوهر؛ فتبعه حتى أخذ أسيرا. ومضى جوهر إلى البحر المحيط؛ فأمر أن يُصاد من سمكه، وبعثه في قلال إلى المعز؛ وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها، ثم عاد فقاتل أهل فاس حتى افتتحها عنوة، وقبض على صاحبها، وجعله مع صاحب سجلماسة في قفصين، وحملهما إلى المعز بالمهدية، وعاد في أخريات السنة)). اتعاظ الحنفا، ص ص: 134 ــ 135.

[1] اتعاظ الحنفا، ص ص: 138 ــ 139.

وتحـــرك الجيـــش الفاتـــح مـــن القيـــروان نحـــو مصـــر يـــوم السبـــت رابـــع عشـــر شهـــر ربيـــع الأول مـــن سنـــة ثمـــان وخمسيـــن وثلاثمائـــة؛ فوصـــل إلى مصـــر في يـــوم الثلاثـــاء ثامـــن عشـــر شعبـــان مـــن السنـــة نفسهـــا.[1] وقـــال محمـــد بـــن هـــاني الأندلـــسي مودعـــا الجيـــش ومادحـــا جوهـــر الكاتـــب في قصيـــدة طويلـــة نذكـــر منهـــا:

رَأيتُ بِعيـــنِي فوقَ مَا كنتُ أسمـــعُ
وَقَدْ رَاعـــنِي يوْمٌ مِنَ الحشرِ أرْوَعُ
غـــدَاة كـــأنَّ الأفـــقَ ســـدَّ بمثلـــهِ
فَعَادَ غرُوبُ الشَّمْسِ مِنْ حَيثُ تَطـــَعُ
فلـــمْ أدْرِ إذْ سلمـــتُ كيـــفَ أشيـــعُ
ولـــمْ أدْرِ إذْ شيعـــتُ كيـــفَ أوَدِّعُ
وكيفَ أخُوضُ الجَيشَ وَالجَيشُ لُجَة
وَإنِّي بمنْ قدْ قـــادَهُ الدَّهـــرُ مُولـــعُ
وَأينَ وَمَا لِي بَينَ ذَا الجَمعِ مَسْلَـــكٌ
وَلاَ لِجوَادِي فِي البسِيطـــةِ مَوْضِـــعُ
ألاَ إنَّ هذَا حَشـــدُ مَنْ لمْ يـــذُقْ لـــهُ
غِرَارَ الكرَى جَفنٌ وَلاَ باتَ يَهجـــعُ

---

[1] النجـــوم الزاهـــرة، ج: 4، ص: 28.

نَصِيحَتَــهُ لِلمُلْــكِ سَدَّتْ مَذَاهِــبِي
وَمَا بَينَ قيدِ الرُّمْحِ وَالرُّمحِ إصْبَــعُ
فقدْ ضَرِعَتْ مِنهُ الرَّوَاسِي لِمَا رَأتْ
فكيفَ قلوبُ الإنس وَالأنسُ أضْــرَعُ
فلاَ عَسْكرٌ مِنْ قَبلِ عَسْكــرِ جَوْهــرٍ
تخبُّ المَطايــا فِيهِ عَشراً وَتُوضِــعُ
تَسيــرُ الجبــالُ الجامِــدَاتُ بسيــرِهِ
وَتسجدُ مِنْ أدنَى الحَفِيفِ وَترْكَــعُ
إذَا حــلَّ فِي أرْضٍ بَناهــا مَدَائنــاً
وَإنْ سَارَ عَنْ أرْضٍ ثوَتْ وَهْيَ بَلقعُ

إلى أن يقــول:

وَنودِيَ بِالترْحَالِ فِي فَحمةِ الــدُّجَى
فَجَاءَتهُ خيلُ النَّصرِ تَرْدِي وَتَمــزَعُ
فلاَحَ لها مِنْ وَجْهــهِ البدْرُ طالِعــاً
وَفِي خــدِّهِ الشِّعرَى العبورُ تَطلــعُ
وَأضْــحَى مــرَدًّى بِالنجــادِ كأنــهُ
هِزَبرُ عَرِينٍ ضَــمَّ جَنبيــهِ أشجــعُ

فكبـــرَتِ الفرْســـانُ للـــهِ إذْ بــدَا
وَظـــلَّ السِّـــلاَحُ المُنتضَى يَتقعْقـــعُ

ثـــم أضــاف:

فسِــرْ أيها الملــكُ المطاعُ مُؤَيــداً
فلِدِّيـــــنِ وَالدُّنيــا إليــكَ تطلـــــعُ
وَقدْ أشعرَتْ أرْضُ العِرَاقينِ خيفــةً
تَكادُ لَهــا دَارُ السَّـــلاَمِ تضَعضـــعُ
وَأعطـــتْ فِلسْطِينُ القِيـــادَ وَأهلُهـــا
فلـــمْ يبـــقَ مِنهـــا جَانـــبٌ يَتمَنـــعُ
وَمَا الرَّمْلة المَقصُورَة الحَظْوِ وَحْدَهَـــا
بأوَّلِ أرْضٍ مَا لهَا عَنـــكَ مَفـــزَعُ
وَمَا ابْنِ عُبيْدَ اللـــهِ يَدْعوكَ وَحـــدَهُ
غدَاةَ رَأى أنْ ليسَ فِي القوْسِ مَنزَعُ
بَلِ الناسُ، كلُّ الناسِ يَدْعُوكَ، غيْرَهُ
فــلاَ أحـــدٌ إلاَّ يـــذِلُّ وَيخضـــعُ
وَإنَّ بأهــلِ الأرْضِ فقـــراً وَفاقـــةً
إلَيـــكَ وَكلُّ الناسِ آتيـــكَ مهطـــعُ

ألاَ إنمَا البُرْهــانُ مَا أنتَ مُوضِــحٌ
مِنَ الرَّأيِ وَالمِقدَارُ مَا أنتَ مُزْمِــعُ
رَحَلــتَ إلَى الفسْطاطِ أيمنَ رِحْلــةٍ
بأيمنِ فــالٍ فِي الذِي أنتَ مُجْمِــعُ
ولَمَّا حَثثــتَ الجَيــشَ لاَحَ لأهلِــهِ
طرِيــقٌ إلَى أقصَى خرَاسَانَ مَهيــعُ

ثــم قــال:

وَمَا جهِلتْ مِصْرٌ وَقدْ قِيلَ مَنْ لَهَــا
بِأنــكَ ذَاكَ الهبــرزِيُّ السميــذَعُ
وَأنــكَ دُونَ النــاسِ فاتــحُ قفلِهــا
فأنــتَ لهــا المرْجــوٌّ وَالمُتوَقــعُ
فإنْ يــكُ فِي مِصْرٍ رِجالُ حلومِهــا
فقدْ جَاءَهمْ نِيلٌ سِوَى النيــلِ يَهــرَعُ
وَيممهــمْ مَــنْ لاَ يَغيــرُ بنِعمــةٍ
فيسْلبهــمْ لكِــنْ يَزِيــدُ فيوسِــــعُ

ويبدو أن الذي شجع المعز لإرسال جيشه إلى مصر هو ما أصبحت عليه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية المتردية في مصر بعد موت كافور؛ إذ يقال أن بعض المصريين قد بعثوا إليه مستنجدين به، ومحفزين إياه لفتح البلاد، وطرد الاخشيذيين.[1] ولما أصبحت مصر في يد الفاطميين؛ بادر جوهر من يومه الأول إلى رفع الدعوة في المنابر باسم

---

[1] قال يوسف بن تغري بردي: ((كان قد انخرم نظام مصر بعد موت كافور الإخشيذي؛ لما قام على مصر أحمد بن علي بن الإخشيذ وهو صغير؛ فصار ينوب عنه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، والوزير – يومئذ – جعفر بن الفرات؛ فقلت الأموال على الجند؛ فكتب جماعة منهم إلى المعز لدين الله معد؛ وهو بالمغرب يطلبون منه عسكرا ليسلموا إليه مصر؛ فجهز المعز جوهرا هذا بالجيوش والسلاح في نحو ألف فارس أو أكثر؛ فسار جوهر حتى نزل بجيوشه إلى تروجة بقرب الإسكندرية؛ وأرسل إلى أهل مصر؛ فأجابوه بطلب الأمان، وتقرير أملاكهم لهم؛ فأجابهم جوهر إلى ذلك، وكتب لهم العهد. فعلم الإخشيذية بذلك؛ فتأهبوا لقتال جوهر المذكور؛ فجاءتهم من عند جوهر الكتب والعهود بالأمان؛ فاختلفت كلمتهم؛ ثم اجتمعوا على قتاله، وأمروا عليهم ابن الشويزني، وتوجهوا لقتاله نحو الجيزة وحفظوا الجسور؛ فوصل جوهر إلى الجيزة، ووقع بينهم القتال في= =حادي عشر شعبان، ودام القتال بينهم مدة، ثم سار جوهر إلى منية الصياديين، وأخذ مخاضة منية شلقان؛ ووصل إلى جوهر طائفة من العسكر في مراكب؛ فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح: "لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله"؛ فعبر عريانا في سراويل وهو في موكب ومعه الرجال خوضا؛ والتقى مع المصريين، ووقع القتال بينهم، وثبت كل من الفريقين؛ فقتل كثير من الإخشيذية، وانهزم الباقون بعد قتال شديد. ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فأمنهم؛ وحضر رسوله ومعه بند وطاف بالأمان ومنع من النهب؛ فسكن الناس وفتحت الأسواق، ودخل جوهر من الغد إلى مصر في طبوله وبنوده)). النجوم الزاهرة، ج: 4، ص ص: 30 – 31.

الخليفة المعز لدين الله الفاطمي؛ كما ألزم المؤذنين بإتباع نص الأذان المتبع عند الشيعة؛ وأمر بترك شعار السواد، ولبس الأبيض من اللباس. وبعدها أرسل بالبشرى إلى المعز يعلمه بما فتح الله له. فوصلت الأخبار إلى القيروان في رمضان من سنة 358هـ(968م).

وبهذا يكون قد امتد الزمن بالخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب؛ حتى حل عهد المعز لدين الله معد بن المنصور – وهو رابع ملوكهم – حيث استطاعت الدولة الفاطمية – في عهد هذا الخليفة – تحقيق أعظم إنجازاتها السياسية؛ إذ تمكنت من نشر سلطانها على ديار مصر كلها؛ ثم الحجاز وبلاد الشام بعد ذلك؛ ومن ثمة أصبحت تهدد الخلافة العباسية بحق. وما أن وصلت البشائر بالفتح؛ حتى أنشد شاعر البلاط الفاطمي؛ محمد بن هاني الأندلسي قصيدته الشهيرة التي قال فيها مادحا الخليفة المعز:

تقولُ بَنو العَبَاسِ هل فتِحَتْ مِصْرُ

فقلْ لِبنِي العباسِ قدْ قضِيَ الأمرُ

وَقدْ جاوَزَ الإسكِندَرِية جوْهرٌ

تُطالعهُ البشرَى وَيَقدُمهُ النصْرُ

وَقدْ أوفدَتْ مِصرٌ إليهِ وُفودَها

وَزِيدَ إلَى المَعْقودِ مِنْ جسْرِها جِسرُ

فما جاءَ هذَا اليــوْمُ إلاَّ وَقدْ غــدَتْ

وَأيدِيكــمُ مِنها وَمِنْ غيرِها صِفِــرُ

فلاَ تكثرُوا ذِكرَ الزَّمانِ الذِي خــلاَ

فذَلكَ عصرٌ قدْ تقضَّى وَذَا عصْــرُ

أفِي الجيشِ كنتمْ تَمْترُونَ، رُوَيدَكــمْ

فَهذَا القنا العَرَّاصُ وَالجَحْفلُ المَجــرُ

وَقدْ أشرَفــتْ خيلُ الإلـــهِ طوَالعــاً

عَلَى الدِّينِ وَالدُّنيا كَما طلعَ الفجــرُ

وَذَا ابنُ نبيِّ اللـــهِ يطلــبُ وِتــرَهُ

وَكانَ حــرٍ أنْ لاَ يضِيعَ لـــهُ وِتــرُ

ذَرُوا الورْدَ فِي مَاءِ الفرَاتِ لِخيلِـــهِ

فلاَ الضَّحلُ مِنهُ تَمنَعُونَ وَلاَ الغمــرُ

أفِي الشمْسِ شكٌ أنها الشَّمسُ بَعدَمَــا

تَجلتْ عِياناً ليسَ مِنْ دُونهـــا سِتــرُ

وَمـــا هِيَ إلاَّ آيـــة بعـــدَ آيـــةٍ

وَنـــذْرٌ لكمْ إنْ كانَ يغنِيكــمُ النـــذرُ

فكونوا حَصِيداً خامِدِينَ أوِ ارْعَــوُوا

إلَى ملِكٍ فِي كفــهِ المَوْتُ وَالنشــرُ

أطيعــوا إمامــاً للأئمــةِ فاضــلاً
كما كانتِ الأعمــالُ يفضُلهــا البــرُّ
رِدُوا سَاقيــاً لاَ تنزِفــونَ حِياضــهُ
جموماً كما لاَ تنزِف الأبحرُ الــذَّرُّ
فإنْ تتبعــوهُ فهوَ موْلاَكــمُ الــذِي
لهُ برَســولِ اللــهِ دُونكــمُ الفخــرُ
وَإلاَّ فبعــــداً لِلبعِيــــدِ فبينــــهُ
وَبينكــمُ مــا لاَ يقرِّبــهُ الدَّهــــرُ
أفِي ابنِ أبِي السِّبطَينِ أمْ فِي طلِيقِكمُ
تنزَّلــتِ الآيــاتُ وَالســوَرُ الغــرُّ؟

وما أن استقر جوهر في مصر؛ حتى بادر إلى بناء جامع الأزهر، وبعض الأحياء من المدينة التي سماها القاهرة؛ حسب وصية المعز. ثم جرد في سنة 359هـ(969م) جيشا بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي لفتح بلاد الشام؛ فكان له ذلك؛ إذ تمكن ذلك القائد الكتامي من أسر الحسن بن عبد الله ابن طغج بالرملة؛ ثم زحف على طبرية ودمشق؛ فصالح الأولى وتغلب على الثانية بسيف القوة والقهر. وفي سنة 361هـ(971م) تحرك المعز لدين الله نحو مصر؛ تاركا بلاد المغرب بين أيدي

الصنهاجيين من بني زيري؛ وذلك أنه قرر نقل سلطات الدولة الفاطمية إلى المشرق بعد أن تم بناء القاهرة؛ من خلال انتقاله هو بنفسه إليها؛ واستقراره بها. وتعتبر هذه الفترة نهاية لمجال هذه الدراسة؛ المخصصة للدول التي قامت وسقطت في المغرب والأندلس لا غير. لذا فأحداث الدولة الفاطمية بالمشرق تخرج عن هذا السياق.

ـ الحضارة والنشاط الثقافي:

وفيما يخص المنجزات الثقافية والحضارية التي تمت في الدولة الفاطمية؛ يمكن استخلاص أن لهذه الدولة مرحلتين متباينتين: الأولى تمتد عبر حياة الدولة في بلاد المغرب، والثانية تمثلها الفترة الزمنية التي انتقل فيها مركز الدولة إلى بلاد المشرق. ومع أن هذه الفترة المشرقية تزخر بالإنجازات الرائعة والأعمال العظيمة إلا أنها خارجة عن اهتمام هذه الدراسة. لذا ستترك لمجال آخر. وأما حياة الدولة في بلاد المغرب فلم تكن كلها حبلى بالأعمال الجليلة؛ من حيث الإنجازات الحضارية والنشاطات الثقافية؛ إذ كانت في معظمها مليئة بالحروب والفتن؛ الأمر الذي لم يسمح للقائمين بشئون الدولة أن يتفرغوا ـ بشكل أوسع ـ للإنجازات الحضارية، والنشاط الثقافي؛ تلك الإنجازات؛ التي لا يمكن أن تزدهر إلا في ظل الاستقرار والأمن؛ كما أن النشاط الثقافي لا يتحقق

وينمـو إلا عندمـا تكـون الظـروف الاقتصاديـة والاجتماعيـة في وضـع جيـد. لـذا فقـد كانـت منجـزات الدولـة الفاطميـة: العمرانيـة والثقافيـة في بـلاد المغـرب؛ تتـم في محيـط قبلـي ضيـق، ومنغلـق عـلى نفسـه؛ وقـد ازداد تضييقـا وانغلاقـا بسبـب التوجـه المذهـبي المتعصـب لأصحـاب الدولـة الفاطميـة؛ ذلـك التوجـه المبـني عـلى أسـاس أن الدولـة الفاطميـة كانـت تستخـدم الثقافـة باستمـرار لتحقيـق أغـراض سياسيـة وعسكريـة ومذهبيـة؛ تلـك الأغـراض الـتي حرصـت الدولـة الفاطميـة عـلى ترسيخهـا وتمتيـن أسسهـا؛ لـكي تحقـق سيطـرة وهيمنـة مذهبهـا الشيـعي في كامـل أقطـار المغـرب.

ويتضـح هـذا التوجـه مـن خـلال مـا استحـدث وأنجـز مـن منشـآت عمرانيـة في هـذه الربـوع؛ إذ كـل مـا أنجـز في ظـل الدولـة الفاطميـة ببـلاد المغـرب؛ يخـدم بالأسـاس أهدافـا عسكريـة وسياسيـة قبـل كـل شـيء؛ فالمـدن ــ مثـلا ــ الـتي بنيـت في تلـك الفتـرة كــ: المهديـة والمحمديـة والمنصوريـة؛ كلهـا تدخـل في هـذا المعـنى. ومـا أستحـدِث أيضـاً مـن أعمـال ثقافيـة؛ كانـت كلهـا تخـدم المذهـب الشيـعي فقـط؛ بـل كـان القائمـون عـلى هـذه الدولـة يقمعـون كـل إنجـاز ثقـافي يخالـف تعاليـم مذهبهـم. إذ وصـل بهـم الحـد إلى إتـلاف كـل الأعمـال الـتي كانـت قائمـة قبـل دولتهـم، تلـك الأعمـال الـتي تتعـارض مـع معتقداتهـم المذهبيـة؛ مـن ذلـك مثـلا مـا قامـوا بـه تجـاه مكتبـة المعصومـة

بتيهرت؛ التي يقال – إن صح الخبر – أن أبا عبد الله – الداعية الشيعي – أتلف معظم مجلداتها؛ التي تبلغ نحو الثلاثمائة ألف من المجلدات؛ ولم يترك منها سوى الكتب التي وجد انه سيستفيد منها؛ وهي الكتب ذات الطابع العلمي والتقني؛ ويقال أن ما حدث للمعصومة حدث أيضا لمكتبة الأغالبة بالقيروان. ومع ذلك فقد استفادت الدولة الفاطمية واستعانت بما ورثته عن الدول التي تغلبت عليها في بلاد المغرب؛ مثل: الدولة الأغلبية والدولة الرستمية والدولة المدرارية والدولة الإدريسية وغيرها؛ من إنجازات عمرانية، وتراث علمي وثقافي؛ إذ استولى الفاطميون على خزائن الكتب التي وجدت في تلك الدول المنهارة. كما أن جل علماء الدولة وأدبائها وشعرائها؛ ورثتهم عن دولة القيروان؛ وحتى كبار موظفيها وفقهائها كانوا من أتباع الدولة الأغلبية قبل ذلك؛ وإن كان بعضهم ينتمي – في السابق – إلى مذاهب غير المذهب المالكي؛ مثل: الفقيه إسحاق بن أبي المنهال؛ المتمذهب بالحنفية قبل ظهور الشيعة. والفقيه علي ابن منصور الصفار؛ الذي كان من أتباع سعيد ابن الحداد، والفقيه عبد الملك بن محمد الضبي المعروف بابن البردون؛ الذي كان مالكيا من قبل، والفقيه أبي بكر بن سليمان؛ الحنفي المذهب كذلك؛ وغيرهم.

وجملة القول إنه كان لهذه الدولة ببلاد المغرب نشاط ثقافي معين؛ في حدود ما يسمح به المذهب الشيعي؛ حيث عمل أصحاب الدولة على نشر مذهبهم الشيعي بواسطة الدعاة والخطباء؛ وبواسطة المدارس التي أنشئت في ربوع الدولة؛ بغرض تعليم الصغار والكبار مبادئ المذهب الإسماعيلي؛ وهي المدارس التي عرفت بمدارس الدعوة. كما كان للآداب والشعر حظوة لدى ملوك الدولة وأمرائها. حيث كان أئمة الدولة يقرضون الشعر ويتذوقونه؛ بدءا بعبيد الله المهدي؛ الذي يعتبر هو نفسه من علماء الشيعة الباطنية؛ ويقال أنه ألف بعض الكتب؛ منها كتاب الأسرار. كما كان يقرض الشعر أحيانا. ومن الشعر المنسوب إليه هذه الأبيات التي بعث بها لسعيد بن صالح صاحب نكور يتوعده:

فإنْ تَستقيموا أستقمْ لِصَلاَحكمْ
وَإِنْ تعدِلوا عنِّي أرَى قتلكم عدْلاَ
وَأعلو بسيفِي قاهراً لسيوفكم
وَأدْخلها عفواً وَأملؤُها قتلاَ

ثم إن الداعية أبا عبد الله الشيعي ـ أيضا ـ كان من العلماء المتفقهين في المذهب الإسماعيلي؛ وقد عرف بالقدرة على الإقناع؛ والتمكن من فنون الخطابة؛ وحب الآداب. وكان ولده أبو القاسم يقرض الشعر أيضا. كما اشتهر كذلك إسماعيل المنصور بالفصاحة والبيان، وبالتفنن في الخطابة، والقدرة على اختراع الخطبة ارتجالا في حينها. أما المعز لدين الله فقد كان يحسن عدة لغات؛ منها: العربية والأمازيغية واللاتينية والصقلبية والإسبانية والسودانية؛ وكان يقول: ((**والله ما تلذذت بشيء تلذذي بالعلم والحكمة**)). ويقول فيه القاضي النعمان: ((**نظر في كل فن وبرع في كل علم**)). وهو إلى جانب كل ذلك يقرض الشعر؛ ومن شعره:

أطلعَ الحسنُ مِنْ جبينكَ شمسا
فوقَ وَرْدٍ فِي وَجنتيك أطلاًّ
وَكأنَّ الجمالَ خافَ عَلَى الوَرْ
دِ جفافاً فمدَّ بالشعرِ ظلاًّ

وتنسب إليه هذه الأبيات أيضا:

لِلهِ مَا صَنعتْ بنا
تلكَ المحاجرِ فِي المعاجرْ

أمضَى وَأقــضَى فِي النفــو
س مِنَ الخناجرِ فِي الحناجرْ
وَلَقــدْ تعبـــتُ ببينكـــمْ
تعب المهاجرِ فِي الهوَاجــرْ

هــذا ويحتــل عصــر المعــز ــ في بــلاد المغــرب ــ الــذروة في مجــال نشــر العلــم والأدب والفنــون. ومــع هــذا يبــدو أن الشعــر كــان هــو الفــن الأكثــر حظــوة واستحسانــا لديــه، ولــدى حكــام الدولــة الفاطميــة ببــلاد المغــرب؛ لأنــه ــ في نظرهــم ــ كــان بمثابــة الســلاح الــذي يستخــدم في الدعايــة للدولــة ومذهبهــا؛ كمــا يستخــدم لتشويــه صــور الأعــداء في أذهــان النــاس. وكمــا كــان المعــز شغوفــا بالعلــوم وحفــظ اللغــات، ومحبــا للآداب والشعــر؛ فقــد ســار عــلى نهجــه جــل أبنائــه؛ فهــذا ولي عهــده العزيــز باللــه؛ الــذي ولــد في المهديــة سنــة 344هــ(955م)؛ كــان يجيــد ــ كوالــده ــ لغــات عديــدة؛ ويتمتــع أيضــاً بــذوق فــني رفيــع؛ وقــد أبــدا تسامحــا جليــلا في قضايــا الديــن والمذهــب؛ واعتــنى بنشــر العلــوم؛ إذ يعتبــر هــو صاحــب المبــادرة في جعــل الأزهــر منــارة للعلــم بمصــر.

وكـــان أيضـــاً يجيـــد قـــول الشعـــر؛ ومـــن شعـــره هـــذه الأبيـــات الـــتي نظمهـــا في يـــوم عيـــد؛ جلـــس فيـــه للعـــزاء بسبـــب مـــوت ولـــد لـــه:

نحـــنُ بنو المصطفَى ذَوُو إحـــنٍ
جرِّعهـــا فِي الحيـــاةِ كاظِمنـــــا
عجيبـــة فِي الأنـــامِ محنتنـــــا
أوّلنـــــا مبتـــــلى وَآخرُنـــــا
يفـــرَحَ هـــذَا الـــورَى بعيدِهـــمْ
طـــــراً وَأفرَاحنـــــا مآتمـــــا

واشتهـــر أيضـــا ــ مـــن بيـــن أبنـــاء المعـــز ــ ولـــده تميـــم الـــذي بـــرع في الآداب وتفنـــن في قـــرض الشعـــر؛ وهـــو مـــن مواليـــد المنصوريـــة سنـــة 337هـــ(948م). ولكنـــه انغمـــس في اللهـــو والمجـــون؛ وقـــد تعـــددت الأغـــراض الـــتي تناولهـــا في شعـــره؛ ومـــن شعـــره:

مَا بانَ عذْرِي فيـــهِ حـــتَّى عـــذِّرَا
وَمـــشَى الـــدُّجَى فِي خدِّهِ فتحيَـــرا
همـــتْ تقبلـــهُ عقـــارِبُ صُدْغِـــهِ
فاسْتَـــلَّ ناظِـــرُهُ عليهـــا خِنجـــرا
وَاللـــهِ لـــوْلاَ أنْ يقـــالَ تغيـــرَا
وَصَبا وَإنْ كانَ التصَـــابِي أجـــدَرَا

لأعــدْتُ تفــاحَ الخــدُودِ بنفسَجــاً

لثمــاً وكافــورَ الترَائــبِ عنبــرَا

ومــن شعــره أيضــا:

أما وَالذِي لاَ يملــكُ الأمــرَ غيــرُهُ

وَمنْ هــوَ بالســرِّ المكتــمِ أعلــمُ

لئــنْ كانَ كتمَانُ المَصَائبِ مُؤلِمــاً

لإعلاَنهــا عنــدِي أشــدُّ وَآلــــمَ

وَبي كلُّ مَا يبــكِي العيــونَ أقلــهُ

وَإنْ كنــتُ منــهُ دَائمــاً أتبســـمُ

ولــه كذلــك:

وَمَا أمُّ خشفٍ ظــلَّ يوْمــاً وَليلــةٍ

ببلقعــةٍ بيــدَاءَ ظمــآنَ صادِيــا

تَهيــمُ فلاَ تــدرِي إلَى أينَ تنتــهِي

مُوَلهــة حيــرَى تجوبُ الفيافيــا

أضَــرَّ بها حرُّ الهجيــرِ فلمْ تجــدْ

لغلتهــا مِــنْ بــاردِ المــاءِ شافيــا

فلَمَّا دَنتْ مِنْ خِشْفِهَا انعَطفــتْ لــهُ

فَألفتــهُ ملهــوفَ الجوَانــحِ طاوِيــا

بأَوْجَـــعَ منِّي يوْمَ شَـــدَّتْ حمولهـــمْ
وَنَـــادَى منادِي الحيِّ أنْ لاَ تلاَقيـــا

ومـــن شعـــره أيضـــا هـــذه الأبيـــات:

يـــومٌ لنا فِي النيـــلِ مختصـــرٌ
وَلَكـــلِّ يـــوْم مســـرَّةٍ قصـــرُ
وَالسفـــنُ تصْعدُ كَالخيولِ بنـــا
فيـــهِ وَجيـــشُ المـــاءِ ينحـــدِرُ
فكأنمـــــا أموَاجـــهُ عكـــــنٌ
وَكأنمـــــا دَارَاتـــــهُ ســـــرَرُ

وممـــا قـــال أيضـــا:

اشرَبْ عَلَى غيمٍ كصبغِ الـــدُّجَى
أضحكَ وَجهَ الأرْضِ لما بـــكَى
وَانظـــرْ لماءِ النيـــلِ فِي مـــدِّهِ
كأنمـــا صنـــدل أوْ مسكـــــا

ومـــن شعـــره الـــذي يفتخـــر فيـــه:

أنا ابنُ المعـــزِّ سليـــل العـــلا
وَصِنـــوُ العزِيـــزِ إمام الهـــدَى

سمـــا بي معـــدٌ إلَى غايـــةٍ
مِنَ المَجــدِ مَا فوقهـــا مرتـــقَى

فرُحـــتُ بها فاطِـــمِيٌّ النجـــارِ
حسينيـــهُ علـــــوِيٌّ الجـــنى

وَمَا احتجتُ يوْمـــاً إلَى ناصِـــرٍ
وَلاَ رُحتُ يوْماً ضَعِيف القـــوَى

وقـــد بـــرز في هـــذه الدولـــة كذلـــك شعـــراء محترفـــون، وآخـــرون جعلـــوا مـــن الشعـــر وسيلـــة للترويـــح عـــن النفس، والتعبيـــر عمـــا تنطـــوي عليـــه صـــدورهـــم مـــن مشاعـــر وأفكـــار. وضمـــت أيضـــا إليهـــا عـــددا كبيـــرا مـــن العلمـــاء في الديـــن واللغـــة، وقـــادة عسكرييـــن وأمـــراء يهتمـــون بالعلـــم والثقافـــة. وفي هـــذا السيـــاق نذكـــر أهـــم علمـــاء الدولـــة الفاطمييـــن في الفتـــرة المغربيـــة؛ وأولهـــم بالطبـــع هـــو:

ــ أبـــو عبـــد اللـــه الحسيـــن بن أحمـــد بن محمد بن زكريـــاء؛ المعروف بالمحتسب وبالمعلم والداعية الشيـــعي: ويعتبـــر هـــذا الداعيـــة المتميـــز هـــو المؤســـس الحقيـــقي للدولـــة الفاطميـــة. وكـــان أبـــو عبـــد اللـــه الشيـــعي ــ كمـــا لا يخـــفى ــ مـــن العلمـــاء البارزيـــن في المذهـــب الشيـــعي؛ كمـــا كـــان خطيبـــا قـــوي الحجـــة. وقـــد وصفـــه ابـــن الأثيـــر بقولـــه: ((**وكـــان لـــه علـــم وفهـــم ودهـــاء**

ومكــر)).[1] ويقــول المقريــزي أن أصلــه مــن رَامَ هُرْمُــزْ بخراســان؛ وولــد بالكوفــة؛ غيــر أن بعضهــم كابــن الأثيــر ينسبــه إلى اليمــن؛ إذ يسميــه الصنعــاني نسبــة إلى صنعــاء. وثمــة مــن يقــول أنــه اشتغــل ـ في بدايــة الأمــر ـ في التعليــم؛ حيــث كــان مــن العلمــاء المعلميــن في مذهــب الإماميــة الباطنيــة. بينمــا يقــول آخــرون أنــه كــان محتسبــا في ســوق الغــزل بالبصــرة.[2] ويقــول عنــه القــاضي النعمــان بــن محمــد: **((كــان أبــو عبــد اللــه هــذا مــن الكوفــة؛ واسمــه الحسيــن بــن أحمــد بــن محمــد بــن زكريــا؛ وكــان ذا علــم وعقــل وديــن وورع وأمانــة ونزاهــة؛ وكــان أكثــر علمــه الباطــن؛ ونظــر في علــم الظاهــر نظــراً لــم يبالــغ فيــه)).**[3] ويقــال أنــه اتصــل بالإمــام محمــد بــن جعفــر؛ فأعجــب بــه، وبعثــه إلى أبي القاســم بــن حوشــب داعيــة الشيعــة في اليمــن؛ حيــث أكمــل أعــداده هنــاك للقيــام بالمهمــة الــتي تنتظــره؛ وذلــك مــا تجــلى مــن خــلال تكليفــه بأمــر الدعــوة في بــلاد المغــرب.

---

[1] الكامــل في التاريــخ، ج: 6، ص: 127.

[2] اتعــاظ الحنفــا، ص: 68.

[3] رسالــة افتتــاح الدعــوة، ص: 59.

وبعد أن اكتمل تكوينه خرج إلى مكة لأداء فريضة الحج؛ أين تعرف على بعض الحجيج من قبيلة كتامة؛[1] فرافقهم إلى المغرب؛ دون أن يفصح عن الغرض الحقيقي لهجرته معهم. ولما حلت الفرصة المناسبة صرح بما تنطوي عليه نفسه، وما ينوي عمله. فلقي استجابة لدى مضيفيه، ونهضوا معه ضد الدولة الأغلبية؛ ودام الصراع مدة طويلة بين الدولة والقبائل المؤيدة لأبي عبد

---

[1] يقول ابن عذاري في هذا: ((فلما وصل للموسم ــ لا للحج؛ لأن الحج ليس من مذهبهم الفاسد؛ بل تكلف حضوره ليتسبب في مراده ــ فرأى في الموسم قوما من أهل المغرب؛ فلصق بهم وخالطهم. وكانوا نحو عشرة رجال من قبيل كتامة؛ ملتفين على شيخ منهم. فسألهم عن بلادهم؛ فأخبروه بصفتها؛ وسألهم عن مذهبهم؛ فصدقوه عنه. فتكلم أبو عبد الله الداعي عن المذاهب؛ فوجد الشيخ يميل في مذهبه إلى مذهب الإباضية النكارة؛ فدخل عليه من هذه الثُّلْمة؛ ولم يزل يستدرجهم، ويَخْلُبهم بما أوتيَ من فضل اللسان والعلم والجدل؛ إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه. فلما حان رجوعهم إلى بلادهم؛ سألوه عن أمره وشأنه؛ فقال لهم: "أنا رجل من أهل العراق؛ وكنت أخدم السلطان؛ ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البِرّ؛ فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال؛ فلم أرَ لذلك وجها إلا تعليم القرآن للصبيان؛ فسألت: أين يتأتى لي ذلك تأتيا حسنا؛ فذكر لي بلاد مصر". فقالوا له: "ونحن سائرون إلى مصر؛ وهي طريقنا؛ فكن في صحبتنا إليها". ورغبوا منه في ذلك؛ فصحبهم في الطريق؛ فكان يحدثهم، ويميل بهم إلى مذهبه، ويلقي إليهم الشيء بعد الشيء؛ إلى أن أشربت قلوبهم محبته؛ فرغبوا منه أن يسير إلى بلادهم ليعلم صبيانهم؛ فاعتذر لهم ببعد الشقة، وقال: "إن وجدت بمصر حاجتي، أقمت بها؛ وإلا فربما أصحبكم إلى القيروان". فلما وصلوا مصر، غاب عنهم كأنه يطلب بغيته. ثم اجتمعوا به وسألوه؛ فقال لهم: "لم أجد بهذه البلاد ما أريد". فرغبوه أن يصحبهم؛ فأنعم لهم بذلك)). البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 124 ــ 125.

الله؛ حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة الأغلبية السنية وإعلان قيام الدولة الفاطمية الشيعية.

ـ **ثم أبو جعفر محمد بن عمر بن يحيى بن عبد الأعلى المَرْورُذي أو مروُّذي:** وهو منسوب إلى مَرْو الروذ في خراسان. وقد اختلفت المصادر في رسم اسمه وفي تسلسل آبائه؛ ويقال أنه كان من جند خراسان. وقد كان من علماء المذهب الحنفي في القيروان[1] قبل ظهور الفاطميين؛ إلا أنه أصبح من المتعصبين للمذهب الشيعي؛ عندما تغلب الفاطميون على القيروان؛ خاصة وأن له ـ من قبل ـ ميلا للشيعة. ولما دخل أبو عبد الله الشيعي للقيروان مسقطا بذلك دولة الأغالبة؛ ولاه ـ مؤقتا ـ قضاء القيروان؛ ثم أقره في منصبه عبيد الله المهدي؛ ولكنه انقلب عليه فيما بعد؛ خاصة بعد مقتل عبيد الله الشيعي؛ وذلك بعد اتهامه بانتقاد الدولة ومعارضة المهدي؛ لذا فقد قبض عليه ورمي في إسطبل مقيد الأيدي والأرجل؛ فقتلته الدواب بحوافرها. وهكذا مات تحت العذاب في محبسه برقادة سنة 303هـ(919م) على الرغم من ولائه وإخلاصه وتفانيه في نشر المذهب الشيعي. ويقول فيه ابن عذاري: ((**ولّى أبو عبد الله على قضاء مدينة القيروان محمد بن عمر بن يحيى بن عبد**

---

[1] تراجم أغلبية، ص: 516.

الأعلى المروذي؛ من جند خراسان؛ يوم الخميس لاثني عشر ليلة بقيت من شعبان؛ فقعد في الجامع، وأمر بإسقاط صلاة الإشفاع في شهر رمضان؛ واحتج في ذلك على الفقهاء، وأنكر عليهم الإقتداء بفعل عمر بن الخطاب في القيام، وتركهم الإقتداء بفعل علي بن أبي طالب في زيادة "حي على خير العمل" في الآذان؛ وقال لهم: "اعملوا بمذهب أهل البيت واتركوا الفضول". فلما كان في أول يوم من شهر رمضان؛ أقبل المروذي إلى المسجد الجامع؛ فوجد في حائط المسجد في القبلة، في موضع جلوسه مكتوبا: "وَمَنْ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا" إلى آخر الآية. فلما رآه سأل القَوَمَة؛ هل رأوا من جلس في ذلك الموضع؛ فقالوا: "لا" فأمر بمحوه، وانتقل عن الجلوس بذلك الموضع. ووقف يوما على المرُّوذي رجُلٌ مُحمَقٌ خليعٌ، والناس حوله؛ فقال له: "قد لطفتَ لنا ــ أصلحك الله ــ في قطع قيام شهر رمضان؛ فلو احْتلتَ في ترك صيامه؛ لَكفيتنا مَؤُونتهُ كلّها". فقال له المروذي "اذهب عنّي يا ملعون"، وأمر بدفعه)).[1] وكان المروذي شديد التعصب ضد الفقهاء المالكية؛ إذ تسبب في قتل عدد منهم والتنكيل بآخرين.

[1] البيان المغرب،، ج: 1، ص ص: 151 ــ 152.

ـ **ثم إسحاق بن أبي المنهال:** وهو من أسرة معروفة بالعلم والجاه في القيروان، ومن العاملين في خدمة الدولة الأغلبية؛ وكان من قبل حنفي المذهب، ثم تحول إلى المذهب الإسماعيلي؛ مثله مثل المروذي وبعض فقهاء الحنفية الآخرين. ويقال أنه ولي قضاء صقلية أيام بني الأغلب؛ قبل أن يلتحق بخدمة الدولة الفاطمية؛ في المنصب نفسه بصقلية عند قيام الدولة؛ ثم ولاه عبيد الله المهدي خطة القضاء ـ بعد المروذي ـ في فترتين: الأولى من 307هـ(919م) إلى 311هـ(923م)؛ والثانية من 312هـ(924م) إلى أن مات في عهد ولده أبي القاسم. وذكر ابن عذاري السبب في عزله من منصبه وعودته إليه؛ فقال: ((**وفي سنة 311هـ عزل عبيد الله إسحاق بن المنهال عن قضاء مدينة القيروان؛ يوم السبت لعشر بقين من جمادى الآخرة؛ وأخرج إليه عبيد الله من قال له: "لم نعزلك عن حرجة؛ وإنما عزلناك للينك ومهانتك". وولى قضاء مدينة القيروان محمد بن عمران النفطي؛ وكان قبل ذلك في قضاء مدينة إطرابلس؛ فجمع بها أموالا كثيرة من الرِّشى والأحباس، ورفعها إلى عبيد الله؛ فكانت له وسيلة إليه**)).[1]

---

[1] البيان المغرب،، ج: 1، ص: 188.

أما عودته إلى منصبه فيقول ابن عذاري عنه: **((وفي هذه السنة [سنة 312هـ] مات بالقيروان القاضي محمد بن عمران النفطي؛ في شهر ربيع الأول؛ وكان يرتشي على الأحكام، ويستهتر في ضروب المنكر. فولى عبيد الله القضاء مكانه إسحاق ابن أبي المنهال مرة ثانية؛ وكتب في عهده: "وإنما كنا عزلناك للينك ومهانتك؛ ورددناك لدينك وأمانتك"))**.[1] وتجمع جل المصادر على أن إسحاق ابن أبي المنهال هذا قد سار على نهج المروذي في اضطهاد فقهاء المالكية والتنكيل بهم.

ـ ثم أبو حنيفة القاضي النعمان بن محمد بن حيون المغربي: ولد هذا الفقيه بالقيروان سنة 302هـ(914م) ضمن أسرة تنتهج المذهب المالكي؛ ولنكه اختار ـ عندما كبر ـ المذهب الإسماعيلي؛ حيث أصبح أبرز فقيه إسماعيلي بالمغرب؛ بل أهم منظر في أصوله؛ إذ كان المجتهد الأول في الفقه الإسماعيلي أيام الدولة الفاطمية؛ حيث يعتبر هو الواضع الحقيقي لأسس الفقه الإسماعيلي؛ وذلك ضمن كتابه دعائم الإسلام. هذا وقد شغل في الدولة الفاطمية وظيفة قاضي القضاة في عهد الخليفة المعز لدين الله؛ علما بأنه عمل في ميادين علمية عديدة خلال الفترة المغربية من حكم آباء

---

[1] **البيان المغرب،، ج: 1، ص: 189.**

المعز. ومن مؤلفاته: رسالة افتتاح الدعوة، وكتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام، وشرح الأخبار في فضائل الأئمة الأطهار، وتأويل دعائم الإسلام، وتأويل الشريعة، وكتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة، وكتاب المجالس والمسايرات. هذا وكانت وفاته بمصر سنة 363هـ(973م).

ـ ثم أبو اليَسر إبراهيم بن محمد الشيباني البغدادي المعروف بالرياضي: وهو من الأدباء البارزين في القيروان. ويرجع في أصوله إلى بغداد. وكان مكلفا ـ في زمن الأغالبة ـ بديوان الرسائل؛ ثم وأسندت إليه مهمة الإشراف على بيت الحكمة؛ وذلك إلى جانب ديوان الإنشاء. وذكر ابن عذاري حكاية طريفة وقعت له عندما ذهب إلى الأندلس؛ قال فيها: ((**وكان** [أي أبو اليسر] **ظريفا، أديبا، مُرَسلاً، شاعرا، حسن التأليف؛ وقدم الأندلس على الإمام محمد بن عبد الرحمن** [الأموي] **ـ رحمه الله ـ بكتاب اخترقه إليه على ألسِنةِ أهل الشام؛ فتقبله الإمام محمد، وأنزله، ووسع عليه، ووصله؛ وأطلع على أن الكتاب مخترَقٌ مصنوع؛ فلما أراد أبو اليسر الانصراف؛ دُفع إليه كتابٌ مختومٌ؛ جواباً عن كتاب أهل الشام فيما أرى.**

فلما جاز البحر؛ فك أبو اليسر الكتاب ليقرأه؛ فإذا هو بياضٌ؛ وليس فيه إلاَّ: "بسم الله الرحمن الرحيم". فعلم أنَّ تمويهه لم يَجزْ؛ وأن الذي أعطِيَ وحبي عن تكرم وفضل؛ وعظم في عينه ملوك الأندلس ورجاله؛ وحدث بما عرض له، وعجب الناس منه. وكتب أبو اليسر لبني الأغلب حتى انصرمت أيامهم؛ ثم كتب لعبيد الله حتى مات. وله مؤلفات حسان في فنون من العلم، ومسند في الحديث، وكتاب في القرآن سماه "سراج الهدى"، وله كتاب "لقيط المرجان" ورسالة "الوحيدة المؤنسة"، و"قطب الأدب"؛ وغير ذلك من الأوضاع)).[1] هذا وتوفي أبو اليسر في سنة 298هـ(910م)

ـ ثم أبو جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي: كان هذا الرجل بمثابة وزير في دولة عبيد الله المهدي؛ وقد لعب دورا أساسيا في الإيقاع بأبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس. ويقال أنه كان ـ من قبل ـ يشتغل في ديون بني العباس ببغداد؛ ثم فر إلى عبيد الله المهدي؛ حيث انضم إليه قبل قيام الدولة الفاطمية؛ فكلفه بمهمة القيام بنشر الدعوة في بلاد الأندلس؛ ولما نشأت الدولة الفاطمية برقادة التحق بها. وقد تولى ـ في

---

[1] البيان المغرب، ج: 1، ص ص: 162 ـ 163.

البداية ـ المهام التي كانت مسندة إلى أبي اليسر بعد وفاته سنة 298هـ(910م)؛ منها الكتابة وديوان البريد؛ ثم كلفه ـ بعد قتل أبي عبد الله الشيعي ـ بتسيير شئون الدولة؛ الأمر الذي جعله بمثابة الوزير. وكان أبو جعفر البغدادي هذا شديد الذكاء والدهاء؛ كما عرف بالعلم والتمكن من فنون الأدب؛ ولقد تمكن ـ بدهائه ـ من تصفية كثير من المقربين من المهدي كـ: أبي عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس؛ والقاضي أبي جعفر المروذي وغيرهم.

وظهر ـ إلى جانب هؤلاء الفقهاء والعلماء ـ في الفترة المغربية للدولة الفاطمية أدباء وشعراء عديدون نذكر عينة من شعرهم الذي قيل بدءا بعهد عبيد الله المهدي وانتهاء بعهد المعز لدين الله قبل رحيله إلى مصر:

ـ **أبو عثمان سعدون بن سعيد الورجيني:** وهو من موالي بني الأغلب، ومن شعرائهم المعدودين. ولما تغلب الفاطميون على الأغالبة التحق بشراء البلاط الفاطمي. ومما قاله فيه القاضي النعمان: ((**وكان أول من مدحه** [أي عبيد الله] **منهم** [أي الشعراء] **وأنشده من شعراء إفريقية سعدون الورجيني؛ وكان شاعرا يمدح بني الأغلب، ويلي أعمالهم، وكان قد أسر ببلد الروم وفدي؛ واستؤذن له في الدخول عليه** [أي عبيد الله]

وإنشاده ما قال فيه؛ وكان ذلك بعقب وصول الحرم وقد جلس وهنأه الأولياء بسلامتهم؛ فدخل إليه وأنشده الشعر الذي يقول فيه:

قِفْ بِالمطِيِّ عَلَى مرَابعِ دُورِ
لبِسَتْ مَعالمِهنَّ ثوبَ دُثُورِ
لَعِبتْ بِها حتَّى مَحَتْ آثارَها
رِيحانُ: رِيحِ صَبا وَرِيحِ دُبورِ

فلما انتهى إلى قوله:

وَسَفِيهةٍ هبتْ تَصُدُّ عَنِ النوَى
وَيدُ النوَى مَلكتْ عَنانَ مَسِيرِي
خافتْ عَليَّ مِنَ الخطوبِ لأنني
مِنْ قبلُ غِبتُ فأبتُ بَعدَ دُهورِ
ثمَّ اجتمَعنا بَعدَ ذَاكَ فيَالها
مأسورَة جمعتْ عَلَى مَأسُورِ

فلما قال هذا استعبر المهدي عليه السلام وتلقى دموعه بكمه؛ فسكت سعدون، وأومأ إليه أن قل؛ فمر فيها حتى انتهى إلى قوله:

أعَنِ ابْنِ فاطِمَةٍ تَصُدِّينَ امرءاً
بِنتِ النبِيِّ وَعترَةِ التطهيرِ

كـفِّي عَـنِ التثبيـطِ إنِّيَ زَائـرٌ
مِنْ أهلِ بَيـتِ الوَحْيِ خيرَ مُـزُورِ

فقال لـه أبـو عبـد اللـه ــ وكـان بيـن يـدي المهـدي ــ صدقـت هـو افضـل العالميـن؛ فقبـل سعـدون الأرض بيـن يـدي المهـدي عليـه السـلام، ومـرّ فيهـا حـتى انتـهى إلى قولـه:

هذَا أميـرُ المُؤمنيـنَ تَضَعْضَعـتْ
لقدُومِـهِ أركـانُ كـلّ أميـرِ
هذَا الإمـامُ الفاطـميُّ وَمَـنْ بـهِ
أمنـتْ مغاربِهـا مِـنَ المَحـذُورِ
وَالشـرقُ ليسَ لشَامِـهِ وَعِرَاقـهِ
مِنْ مَهرَبٍ مِنْ جَيشِـهِ المَنصُـورِ
حَتَّى يَفـوزَ مِنَ الخِلاَفـةِ بالمـنَى
وَيفـازَ مِنـهُ بعدلـهِ المَنشـورِ

فقـال أميـر المؤمنيـن: "مـا شـاء اللـه"؛ ومـرّ فيهـا إلى أن ذكـر أبـا عبـد اللـه فقـال:

يا مَنْ تَخيـرَ مِنْ خِيارِ دُعَاتـهِ
أرْجاهـمُ لِلعسْـرِ وَالميسـورِ

حتَّى استمالَ إليهِ كلَّ قَبيلةٍ
ورَمَى إليهِ قيادَ كلِّ عثورِ
أشْبَهتَ مُوسَى وَهوَ حَيتكَ التِّي
تلقَى فتلقفُ كلَّ إفكِ سُحورِ

فنظر المهدي إلى أبي عبد الله وتبسم؛ فقبل أبو عبد الله الأرض؛ قال للورجيني: "أنا دون ذلك بعد ما بين السماء والأرض". فأمر له [أي للشاعر] **أمير المؤمنين بصلة جزيلة، وبأن يجرى عليه لكل عام؛ ووصله أبو عبد الله أيضا)).**[1]

وكان سعدون الورجيني هذا قد تعرض ـ أيام الأغالبة ـ للأسر من طرف النصارى؛ ثم وجد من افتداه. فلما وصل إلى صقلية من القسطنطينية؛ وهو في حال يرثى لها؛ تمكن من الدخول على والي صقلية أبي الحسين محمد بن الفضل؛ وكان هذا الوالي من أفاضل القوم ومن أدبائهم وشعرائهم المجيدين؛ فواتته فرصة ذهبية حين عرض كاتب ابن الفضل بيتين قالهما سيده على الشعراء الجالسين؛ طالبا منهم الزيادة عليهما بأبيات تناسبهما. والبيتان هما:

---

[1] رسالة افتتاح الدعوة، ص ص: **254 ـ 256.**

تَثــنَى فَقلتُ: الغُصْن مِنــهُ تعلمـــا

وَأزْرَى بِحُسنِ البــدْرِ حينَ تبَسَّمـــا

هـــلاَلٌ كأنَّ اللـــه نـــاجَى جمالـــهُ

بتصويِــرهِ إيـــاهُ لمـــا تجسمـــا

فبـــادر سعـــدون الورجيـــني فـــورا قائـــلا:

تناثـــرَ مِنـــهُ الـــدُّرٌّ لمـــا تكلمـــا

وَأبصـــرَهُ بـــدْرُ السمـــاءِ فأظلمـــا

هـــلاَلٌ كستـــهُ الشَّمسُ حلة وَجْهـــهِ

وَأهـــدَى إليهِ الغصْـــنُ قداً منعمـــا

سقـَانِي بكفِّ الحُسنِ كأسَ صُبابـــةٍ

ووَكـــلَ بِي قلبـــاً عليـــلاً متيمـــا

فما زِلـــتُ أشْكوهُ إلَى حُسنِ وَجْهـــهِ

بخطِّ يدِي حتَّى بـــكَى قلـــبِي دَمـــا

وَمسمعـــة لمـــا رَأتْ ذُلَّ موقـــفِي

لدَيـــهِ تغنـــتْ كَيْ يـــرَقَّ وَيرْحمـــا

((تثـــنَى فقلتُ: الغُصْن مِنهُ تعَلَّمـــا

وَأزْرَى بِحسنِ البـــدْرِ حينَ تبسمـــا))

فقلتُ لها مَنْ ذَاكَ؟ قالــتْ مُجيبــة

وَأوْميــت بعينيهــا إلي ليفهمــا

((هلاَلٌ كأنَّ اللـــه نـــاجَى جمالـــهُ

بتصويـــرِهِ إيـــاهُ لمـــا تجسمـــــا))

فأعجـب كاتـب محمـد بـن الفضـل ببديهتـه وحسـن طريقتـه؛ فكافـأه بصـرة مـن الدنانيـر؛ أصلحـت حالـه، وفكـت حاجتـه.

ويبـدو أن سعـدون الورجيـني هـذا كـان مـن الشعـراء المعروفيـن في الدولـة الأغلبيـة؛ وقـد ورد ذكـره في ريـاض النفـوس للمالـكي، وفي مـدارك القـاضي عيـاض؛ حيـث نشـرت فيهمـا قصيـدة لـه رثـا بهـا العالـم الصالـح الزاهـد يحـيى بـن عمـر بـن يوسـف الأندلـسي؛ جـاء فيهـا:

عيــنُ ألــمَّ بهــا وَجــدٌ فلــمْ تنــمِ

تبكِي بدَمْــعٍ كنظمِ الـــدرِّ منسَجــمِ

مدَامع الصَّـــبِّ أقــلاَمٌ تخـــطُّ بهـــا

أيدِي الصَّبابةِ مَا بِالقلــبِ مِنْ سَــدَمِ

لفــظُ الضَّمِيرِ لِسَانُ الدَّمعِ ترْجمَـــهُ

حَتَّى بَـــدَا كلُّ سِــرٍّ فِيـــهِ مُنكتِــمِ

لوْلاَ المَدَامِــعُ لــمْ يعْلــمْ بلوْعتـــهِ
يُخفِي تبارِيحَ وَجدٍ غيــر مُنْصـــرمِ
وَهلْ تلـــذُّ بطعمِ النوْمِ مُقلـــة مَـــنْ
كستـــهُ كـــفُّ الرَّزَايـــا حلة السَّقـــمِ
وَكلُّ جَارِحَـــةٍ مِنْ جسْمِـــهِ قدَحـــتْ
فِيها يـــدُ البـــثِّ نِيرَانـــاً مِنَ الألـــمِ
لمْ يعـــدَمِ الحـــزْنَ إلاَّ أنَّ مهجتـــهُ
قدْ أبدِلتْ مِنْ سُرُورِ العَيْشِ بِالعَـــدَمِ
تأبَى الليالِي علينا أنْ تـــدُومَ عَـــلَى
جَمعٍ مِنَ الشمْلِ أوْ سَـــدٍّ مِنَ الثلـــمِ
لاَ لوْمَ إنْ كنتُ بَعدَ الثكـــلِ لمْ أنـــمِ
لوْ ذَاقَ مَنْ لاَمنِي مَا ذُقـــتُ لمْ ينـــمِ
أنَّى يجيبُ إلَى جَنبِ الكرَى رَجُـــلٌ
قدْ أفرَدَتهُ المَنايا مِـــنْ ذَوِي الرَّحِـــمِ
عَجبتُ أنْ لمْ أمُتْ حُزناً وَقدْ دَفنـــتْ
كفَايَ فِي التربِ أتقَى العُربِ وَالعَجَمِ
يا مَـــوْتُ أثكلتِنـــا يَحيَى وَكانَ لنـــا
فِي بَلدَةِ الغربِ مِثل البَدرِ فِي الظلمِ

يَنجابُ عَنا بهِ غيــمُ الخنـــا وَمَــتَى
نقِــسْ بهِ الناسَ فَضلاً كانَ كَالْعَلَــمِ
مَا كانَ إلاَّ سراَجاً يُستضـــاءُ بــهِ
فِي العِلمِ يُسْمَعُ مِنهُ العِلمُ فِي الحُلُــمِ
وَكانَ يَحْيَى ــ إذَا خفنا ــ لنا حَرَماً
نلجَأُ إليهِ، فقــدْ صِرنا بـــلاَ حَــرَمِ
وَكانَ يَحيَى لنا سَيفـــاً يُعــزُّ بهِ الــ
ــدِّينُ الحَنِيفُ وَيُحمَى كلُّ مُهتضــمِ
وَكانَ يَحــيَى لنا فِي الزَّائغيــنَ إذَا
ضَلوا لِسانـــاً يُبينُ الحــقَّ عَنْ أمَــمٍ
وَكانَ يَحيَى لنا حِــرْزاً، وَكانَ لنـــا
كنـــزاً، وَكانَ لنا كالغيــثِ فِي الأزَمِ
لتبكِ يَحــيَى عيــونٌ بِالدَّمـــعِ فـــإنْ
غاضــتْ مَدَامِعهـــا فلتبكـــهِ بـــدَمِ
أبكِي عَلى العِلمِ وَالتقوَى بِهِ اجْتمَعـَــا
وَمَنْ مَضَى وَهوَ أوفَى الناسِ بالذِّممِ
أبكِي عَلَى الحِلمِ ثـــوْبٌ كانَ يَلبَسُــهُ
أبكِي عَلَى طاهِرِ الأخـــلاَقِ وَالشيــمِ

أبكِي فتى الدَّهرِ، أبكِي شَيْخَ كلِّ حِجَى
أبْكِي أخَا الفَضْلِ، أبكِي مَعدَنَ الكرَمِ
مَنْ كانَ مِنْ بَعدِ سَحْنُــون لنا خلفــاً
مَنْ كانَ فِي الحَقِّ مِثْلُ الصَّارِمِ الخذِمِ

إلى أن يقــول:

مَا كانَ أشجعــهُ، مَا كانَ أوْرَعــهُ
مَا كان أفصَحهُ فِي مَحفــلِ الكلــمِ
مَا كانَ أرْغبهُ فِي سنـــةِ درَســـتْ
يُشيدُهـــا ببنـــاءِ الحـــاذِقِ الفهــمِ
مَا كانَ أفقهـــهُ، مَـــا كـــانَ أعلمـــهُ
مَا كانَ أحماهُ عِندَ الخــوْفِ لِلحــرَمِ
مَا كانَ أطهرَ تِلكَ النفس مِنْ رِيَـــبٍ
مَا كانَ أكتــبَ تِلكَ الكــفّ بِالقلــمِ
سَقاكَ يَا قبرَ يَحيَى عَــارِضٌ لجــبٌ
سمحُ الـــرَّذَاذِ كرِيمُ الوَبــلِ وَالدِّيــم
مُبارَكُ الظلِّ يكسو الأرْضَ أرْدِيــةٍ
كالوَشْيِ يُلقَى عَلَى القِيعَانِ وَالأكــمِ

يا رَبّ! صَاحِبُ هذَا القبـــرِ خادِمـــ

ـــكَ المَعْرُوفِ بالنُّصْحِ وَالإحْسَانِ وَالخدَمِ

أتاكَ ضيفاً فلاَ تجعـــلْ قـــرَاهُ سِـــوَ

ى الرِّضْوانِ، إنّكَ ذُو فَضْلٍ وَذُو كرَمِ

ـ **ثـــم محمـــد بـــن رمضـــان النفـــطي:** كـــان يعتنـــق المذهـــب الشيـــعي قبـــل ظهـــور أبي عبـــد اللـــه داعيـــة الفاطمييـــن بالمغـــرب. ويبـــدو أنـــه كـــان مـــن المتأثريـــن بالدعـــوة الـــتي بثهـــا أبـــو سفيـــان؛ الـــذي استقـــر في تالـــة أو (**تـــالا**) جنـــوب الكـــاف. وتقـــول المصـــادر أن أهـــل نفطـــة تشيعـــوا بتأثيـــر منـــه.[1] وكـــان محمـــد بـــن رمضـــان شاعـــراً؛ فاتخـــذ مـــن شعـــره وسيلـــة للدعـــوة ونشـــر مـــا يتناقلـــه أهـــل الحدثـــان عـــن المهـــدي المنتظـــر. ومـــن شعـــره في هـــذا البـــاب قولـــه:

ســـلاَ ظبيـــة القنـــاصِ أينَ احتلاَلُهـــا

فقـــدْ هاجـــنِي تفتِيرُهـــا وَامذِلاَلُهـــا

لعـــلَّ الـــتِي عنهـــا تفـــرِّقَ أهلهـــا

فبـــادَتْ مَغانيهـــا وَطـــالَ احتيَالهـــا

أرَقـــتُ لها مِـــنْ بعدِ أنْ نـــامَ إنسهـــا

خناطِيـــلُ آرَامِ الظبـــــاءِ جمالهـــــا

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة، ص ص: 54 ـــ 55.

فعــدِّ عنِ الــدَّارِ الــتِي بـــانَ أهلهـــا

وَعَنْ كَيفَ مِنْ بَعْدِ البلَى صَارَ حَالُهَـــا

فهـــذَا أوَانُ الحـــقِّ قـــدْ حـــانَ حِينـــهُ

وَدَوْلـــة أهــلِ البـــغْيِ آنَ زَوَالهـــــا

كأنِّي بشَمْسِ الأرْضِ قدْ طلعـــتْ لنـــا

مِنَ الغـــرْبِ مقرُونـــاً إليهـــا هِلاَلهـــا

فيمـــلأ أرْضَ اللـــهِ قسطـــاً بعدْلـــهِ

بمـــا ضـــمَّ مِنهـــا سَهلهـــا وَجبالهـــا

وَآمـــنُ فيهـــا مـــا أخـــافُ وَأتـــقِي

وَأظفـــرُ بالزُلـــــفَى بـــه وَأنالهـــــا

ويقـــول القـــاضي النعمـــان أن محمـــد بـــن رمضـــان هـــذا أدرك أيـــام عبيـــد اللـــه المهـــدي؛ بعـــد أن وصـــل مـــن العمـــر عتيـــا؛ وبعـــد أن خـــرف؛ ومـــع هـــذا فقـــد ولاه المهـــدي قضـــاء ميلـــة؛ وبـــقي في منصبـــه حـــتى مـــات. كمـــا أورد القـــاضي النعمـــان ــ أيضـــا ــ حكايتـــه مـــع الأمـيـــر الأغلـــبي إبراهيـــم بـــن أحمـــد؛ حيـــث هجـــاه محمـــد بـــن رمضـــان؛ بعـــد المجـــزرة الـــتي قـــام بهـــا في حـــق أهـــل بلزمـــة؛ إذ غـــدر بهـــم وقتـــل منهـــم ألـــف رجـــل ببـــرودة وبشاعـــة؛ وكـــان محمـــد بـــن رمضـــان في تلـــك الأثنـــاء ببلزمـــة في جـــوار أهلهـــا وفي ضيافتهـــم؛ فقـــال:[1]

[1] رسالـــة افتتـــاح الدعـــوة ، ص ص: 88 ــ 90.

جلَّ المصَابُ لئِنْ كانَ الذِي ذَكـــرُوا
مِمـــا أتتنـــا بـــهِ الأنبـــاءُ وَالخبـــرُ
عَنْ ألفِ أرْوعٍ كالآســـادِ قدْ قتلـــوا
لِساعَـــةٍ مِنْ سوَادِ الليلِ إذْ غـــدِرُوا
لوْ كانَ مَنْ بيـــتَ الآســـادَ أيقظهـــمْ
حلـــتْ بـــهِ منهمُ الأحدَاثُ وَالغِيـــرُ
قلْ لابـــنِ أحمـــدَ ابرَاهِيـــم مألكـــة
عَنِ الخبيـــرِ بما يـــأتِي وَما يـــذَرُ
عَنِ المشرَّدِ فِي حبِّ الأئمـــةِ مِـــنْ
آلِ النبيِّ وَخيـــرِ الناسِ إنْ ذُكِـــرُوا
اعلمْ بأنَّ شِـــرَارَ النـــاسِ أطوَلهـــمْ
يداً بمكرُوههـــمْ يوْمـــاً إذَا قـــدِرُوا
لاَ سِيمَا الضيْفُ وَالجَارُ الغرِيبُ وَمَنْ
أعطـــوْهُ ذِمتهمْ مِنْ قبلِ مَا خفـــرُوا
فما اعْتـــذَارُكَ مِنْ عارٍ وَمنقصـــةٍ
أتيتهـــا عامِـــداً إنْ قـــامَ مُعتـــذِرُ
جرَّعتَ ضَيفكَ كأساً أنتَ شارِبهـــا
عمـــا قليـــلٍ وَأمـــرُ اللـــهِ ينتظِـــرُ

فدَوْلَة القائمِ المهـــدِيِّ قـــدْ أزِفـــتْ
أيامُهـــا وَالـــذِي أنبـــا بـــهِ الأثـــرُ
عنِ النـــبيِّ، وَفيهـــا قطـــعُ مدَّتكـــمْ
يا آلَ أغلبَ أهلَ الغدْرِ فاقتصِـــرُوا
وَقطـــعُ أمرِ بنِي العَبـــاسِ بعدَكـــمُ
وَقطعُ آلِ بنِي مَـــرْوَانَ إذْ بطـــرُوا

ولمـا علـم إبراهيـم بـن أحمـد بالقصيـدة؛ أراد خداعـه واستدراجـه؛ إذ قـال: ((**لعـن اللـه مـن طلبـه وشـرده؛ فمـا مثـل هـذا يـؤذى؛ ولـو أتانـا لصفحنـا عنـه وأحسنـا إليـه؛ ولقـد أحسـن في الوفـاء لمـن أجـاره، وصنـع المعـروف إليـه؛ ومثـل هـذا تزكـو عنـده الصنائـع، ومـا ينتقـم عليـه تشيعـه؛ بـل ذلـك مـا يقربـه منـا ويدنيـه عندنـا؛ فأبلغـوه عنـا ذلـك؛ فـإن أحـبَّ القـدوم إلينـا فهـو آمـن، ولـه عندنـا ــ مـع ذلـك ــ الحبـاء والإكـرام**)). ولمـا وصـل قولـه إلى محمـد بـن رمضـان؛ لـم تنطـل عليـه الخدعـة؛ وعلـم بالفـخ الـذي نصبـه لـه إبراهيـم؛ فقـال:

لوْ لمْ أعاينهُ يَصيـدُ بِحبـهِ للقطتُ حبـهْ
مَنْ ذَا يغـرُّ بغـادرٍ ما إنْ يخافُ اللهَ رَبهْ

ـ **ثم علي بن محمد الإيادي:** كان من شعراء بني الأغلب قبل أن يتغلب عليهم الفاطميون؛ ثم أصبح من شعراء البلاط الفاطمي بعد ذلك. وله قصائد في مدح عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم، ثم إسماعيل المنصور بن أبي القاسم. وتوفي الإيادي في سنة 365هـ(975م). ومن شعره في وصف قصر صبرة:

وَلَما استطالَ المَجدُ وَاسْتوْلتِ العــلاَ
عَلَى النّجمِ وَامتــدَّ الرِّوَاقُ المــروّقُ
بنَى قبــة للمُلــكِ فِي وَســطِ جنــةٍ
لَها مَنظرٌ يزْهَى بهِ الطرْفُ مونــقُ
وَإنْ صَافَحتهــا لاَحــتْ كأنهــا
فرنــدٌ عَلَى تــاجِ المعــزِّ وَرَونــقُ
كــأنَّ شرُفاتِ المقاصــرِ حوْلهــا
عــذَارَى عَليهــنَّ مِملاء الممنطــق

ومن شعره في وصف الأسطول الفاطمي في عهد إسماعيل المنصور:

أعجب لأسطــولِ الإمــامِ محمــدٍ
ولحسنــهِ وزَمانــهِ المستغـــربِ

لبسَــتْ بهِ الأموَاجُ أحسَــنَ مَنظــرٍ
يبـــدُو لعيــنِ الناظِــرِ المتعجــبِ
مِنْ كــلِّ مُشرِفَـــةٍ عَلَى مَا قابلــتْ
اشرَافُ صَدْرِ الأجــدَلِ المنتصِــبِ
دَهمــــاء قدْ لبســـتْ ثيــابَ تصَنــعٍ
تســـبِي العقولَ عَلَى ثيــابٍ ترْهــبِ

ـ **ثــم أيــوب بــن إبراهيــم:** يبـدو أنــه كــان مــن أعــوان الدولــة الفاطميــة وأتباعهــا المخلصيــن. ولــم نعثــر عــلى مــا يفيــد عنــه؛ أكثــر مــن هــذه الأبيــات الشعريــة الــتي مــدح بهــا أبــا طاهــر إسماعيــل المنصـــور؛ وهي:

يا ابْنَ الإمَامِ المُرتضَى وَابنِ الوَصِيِّ
المُصْطَــفَى وَابنِ النــبيِّ المرْســلِ
اللـــهُ أعطـــاكَ الخلاَفَـــة وَاهبـاً
وَرَآكَ للإســـلاَمِ أمنـــعَ معقــــلِ
نلتَ الخِلاَفَــة وَهْيَ أعظــمُ رُتبَــةٍ
نِيلتْ، وَليسَــتْ مِنْ علاَكَ بِأفضَــلِ
فمَنَعتَ حوْزتَهَـا وَحطــتَ حَرِيمَهَــا
بالمَشرَفيــةِ وَالوَشيــــجِ الذُبــــلِ

ـ **ثم أبو العباس خليل بن إسحاق:** وهو من القادة العسكريين والأمراء الذين يتكل عليهم إمام الدولة الفاطمية؛ وقد ولاه الخليفة أبو القاسم صقلية فظل بها أربع سنوات تقريبا؛ حيث أظهر فيها سوء سيرة، إذ ارتكب جرائم شنيعة في حق الرعية. ومما جاء في مجموع المكتبة العربية الصقلية: ((**وفي سنة 325هـ قدَّم أبو القاسم بن عبيد الله الشيعي على صقلية خليل بن إسحاق؛ فعمل بها ما لم يعمله أحد قبله ولا بعده من المسلمين؛ أهلكهم قتلا وجوعا حتى فروا إلى بلاد الروم، وتنصر كثير منهم؛ وبقي بصقلية أربعة أعوام؛ ولما قدم منها سنة 329هـ؛ قال يوما مفتخرا بظلمه في مجلس حَضَرَهُ جماعة من وجوه الناس؛ تكلموا فيه معه في أمور شتَّى؛ ثم جرى ذكر خروجه إلى صقلية؛ فقال: "إنِّي قتلت ألف ألف ـ يقول المُكثرُ؛ والمُقللُ يقول مائة ألف ـ في تلك السفرة"؛ ثم قال: "لا والله الآ أكثر". فقال له أبو عبد الله المؤَدِّب: "يا أبا العباس لك في قتل نفس واحدة ما يكفيك".**

وكان خليل هذا يكنى أبا العباس؛ وكان عبيد الله الشيعي يصرفه في الأعمال وجبايات الأموال ومحاسبة الدواوين والعمال؛ ثم وقعت فيه أقوال فكرهه عبيد الله وأبغضه؛ ولولا ابنه أبو القاسم لأهلكه)).[1] ومن شعره الذي قاله في عبيد الله المهدي:

إنَّ الإمامَ أقامَ سنة جدِّهِ
للمسلمينَ كما حذَوْتَ نِعالها
أحيَى شرَائعهُ وَقوَّمَ كتبها
وَفرُوضها وَحرَامها وَحلاَلها

وقال أيضا هذه الأبيات الشعرية عندما بعثه إسماعيل المنصور لقتال أبي يزيد؛ وهي:

وَمَا وَدَّعتُ خيرَ الخلق طراً
وَلاَ فارَقتهُ عَنْ طِيبِ نفسِ
وَلكِنِّي طلبتُ بهِ رِضَاهُ
وَعَفوَ اللهِ يوْمَ حُلولِ رَمسِ
فعاشَ مُلكاً مَا لاَحَ نجمٌ
عَلَى الثقليْنِ مِنْ جنٍّ وَإنسِ

---

[1] **البيان المغرب، ج:1، ص: 215. والمكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع)، جمع: المستشرق الإيطالي ميخائيل أماري، ص ص: 368 ـ 369.**

ـ ثم أبو جعفر بن أحمد بن محمد المروذي:

على الرغم من توافق اسم هذا الرجل مع اسم سابقه قاضي القيروان محمد بن عمر المروذي؛ الذي توفي سنة 303هـ من شدة العذاب الذي سلطه عليه عبيد الله المهدي؛ إلا أن العلاقة الأسرية بين الرجلين ليست واضحة ـ بالضبط ـ إذ يبدو أن هذا الشاعر الزجال المدعو أحمد بن محمد المروذي ربما كانت له صلة قرابة مع ذلك القاضي. المهم إن المصادر التاريخية ترسم اسمه ـ كسابقه ـ أحيانا بالمروذي، وأحيانا أخرى بالمروزي، وفي بعض الحالات الموزي. وعليه تشدنا فكرة أنه ربما كان من أبناء القاضي المذكور؛ تبعا لتوافق الأسماء ولحظوة المروذي الشاعر في بلاط الفاطميين. وجملة القول لم يصل إلينا عنه سوى بعض الأبيات المتواضعة المتناثرة هنا وهناك؛ وهي لا تدل على شاعرية كبيرة أو على تمكن من علوم اللغة؛ لذا لم نر له قدرة كبيرة في ابتكار وابتداع الصور الشعرية الجميلة؛ إذ كان شعره ـ في الحقيقة ـ عبارة عن تسجيل للأحداث بواسطة النظم الشعري. ومما قاله في أرجوزة عن

وصــول إسماعيــل المنصــور بجيشــه إلى مدينــة المحمديــة أثنـــاء مطـــاردة أبي يزيـــد؛ قولـــه:

ثمَّ إِلَى مَدِينـــةٍ مرْضِيـــهْ
أسَّتْ عَلى التقوَى محَمَدِيهْ
أقبل حتّى حلَهـــا عَشِيـــهْ
بِالنورِ مِنْ طلعَتِهِ المُضيهْ
فَحلَّ فِي عَسْكرِهِ المَسِيلـــهْ
فِي هيـــأةٍ كامِلةٍ جَمِيلـــهْ

وقـــال أيضـــا في أخـــرى عـــن حركـــة إسماعيـــل ومطاردتـــه لأبي يزيـــد:

لقدْ تَاهـــتْ بِطلعتِـــكَ الغـــرُوبُ
كما ابتهجتْ بدَوْلتِـــكَ القلـــوبُ
لقدْ زَهتِ الخِلاَفـــة إذْ حدَاهـــا
نَجيـــبٌ رَاحَ بِحملِـــهِ النَّجيـــبُ

وقــال عنــد الوصــول إلى طبنــة أثنــاء مطــاردة أبي يزيــد أيضــا:

سِرنــا وَقدْ حلَّ بقــرْبِ طبنــهْ
وَصَــارَ مِنها أهلها فِي مِحنــهْ
فأعظــمَ اللـــهُ العزِيــزُ المنــهْ
وَبدَّلــوا مِنْ بعــدِ نــارٍ جنــهْ

ـ **ثــم محمــد بــن المنيــب:** كــان في جيــش إسماعيــل المنصــور؛ عندمــا طــارد أبــا يزيــد في المغــرب الأوســط؛ ولــم نعثــر في المصــادر أكثــر مــن اسمــه وقصيدتــه هــذه:

حَــلَّ البَــلاَءُ بمخلـــدٍ
وَجَمِيعِ شِيعتِــهِ النوَاكِــرْ
أمــسَى بــأرْضِ كيانــةٍ
قدْ بانَ مِنــهُ كلُّ ناظِــرْ
يرنــو بطــرفٍ خاشِــعٍ
نَظرَ المُحَاصَرِ للمُحَاصِرْ
يرنو إلَى عــدَدِ الحَــصَى
وَالرَّمْلِ مِنْ تِلكَ العَسَاكِــرْ

يـــا مُخلـــدُ بـــنِ سَبيكـــةٍ
يا شَرَّ بيتٍ فِي العشائِـــرْ
ذُقْ مَا جَنتـــهُ يَدَاكَ قـــبـــ
ـــلُ مِنَ الكَبَائرِ وَالصَّغائرْ
ذُقْ هَـــولَ شقـــكَ لِلبطـــو
نِ وَمَا ارتَكَبْتَ مِنَ الجَرَائِرْ
يـــا شـــرَّ مَـــنْ بكيانـــةٍ
وَكيَانـــة شـــرُّ البرَابـــرْ
أنظرْ إلَى القفـــصِ الـــذِي
لاَ بدَّ فِيـــهِ أنتَ صَائِـــرْ
أنظـــرْ إلَى يَدَيـــكَ فيـــ
ـــهِ وَمؤنِسِيكَ وَمَنْ تجَاوِرْ
قدْ طـــالَ شوقِهمَـــا إليْـــ
ـــكَ فزُرْهمَا يَا شرَّ زَائر

ـ ثـم أبـو القاسـم محمـد بـن هـاني بـن سعـدون الأندلـسي: ولـد بإشبيليـة ـ في عهـد الخليفـة الأمـوي الناصـر لديـن اللـه بيـن سنـتي: 322هـ و 326هـ ـ مـن أسـرة كانـت تسكـن المهديـة بإفريقيـة. وينسـب ابـن هـاني في أصولـه الأولى إلى قبيلـة الأزد اليمنيـة

العربية. ويقال أنه منحدر من أسرة يزيد بن حاتم بن قبيصة. كما تذكر المصادر أنه تأثر بالمذهب الشيعي منذ صباه في الأندلس؛ إذ تشبع بالأفكار الفلسية ذات المنطلق العقلاني المعتزلي.

ويكون ابن هاني قد ترك الأندلس، وانتقل إلى الضفة المغربية سنة 347هـ(958م)؛ حيث التحق ببني علي بن حمدون: جعفر ويحيى؛ أمراء المسيلة؛ فلما علم به المعز لدين الله الفاطمي بعث يطلبه؛ جاعلا منه شاعر البلاط الفاطمي الأول. فقدم غليه حيث حلاه بأفضل ما قيل في مدح الملوك؛ من غرر الأشعار؛ لولا بعض الغلو الذي نسب إليه، والذي يدخل في سياق الكفر وكبائر القول. أما خبر وفاته فقد اكتنفه غموض كبير؛ سواء من حيث المضمون والتفاصيل أو في تحديد تاريخ وقوعها. وكل ما يمكن قوله هنا أنه قتل، أو مات في برقة بينما كان متوجها إلى مصر ليلحق بالمعز هناك. وقال عنه ابن خلكان: **((ولما بلغ المعز وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيرا وقال: "هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق؛ فلم يقدر لنا ذلك". وله في المعز المذكور غرر المدائح ونخب الشعر... وفي هذا الأنموذج دلالة على علو درجته وحسن طريقته. وديوانه كبير؛ ولولا ما فيه من الغلو في المدح المفضي إلى الكفر لكان من أحسن الدواوين؛ وليس في المغاربة من هو في طبقته: لا من متقدميهم ولا**

مـن متأخريهـم؛ بـل هـو أشعرهـم عـلى الإطـلاق؛ وهـو عندهـم كالمتنـبي عنـد المشارقـة؛ وكانـا متعاصريـن؛ وإن كـان في المتنـبي مـع أبي تمـام مـن الاختـلاف مـا فيـه...

ويقـال أن أبـا العـلا المعـري كـان إذا سمـع شعـر ابـن هـانيء يقـول: "مـا أشبهـه إلاّ بـرَحَى تطحـن قرونـا"؛ لأجـل القعقعـة الـتي في ألفاظـه؛ ويزعـم أنـه لا طائـل تحـت تلـك الألفـاظ؛ ولعمـري مـا أنصفـه في هـذا القـول؛ ومـا حملـه عـلى هـذا إلاّ فـرط تعصبـه للمتنـبي؛ وبالجملـة فمـا كـان إلاّ مـن المحسنيـن في النظـم)).[1]

ومـن شعـر ابـن هـاني هـذه القصيـدة؛ وهي أولى القصائـد الـتي مـدح بهـا المعـز؛ فـور قدومـه مـن المحمديـة. ويقـال أنـه كافـأه عليهـا بدسـت ثمنـه ستـة آلاف دينـار؛ فقـال ابـن هـاني: "يـا أميـر المؤمنيـن مـا لي موضـع يسـع الدسـت إذا بسـط"؛ فأمـر لـه ببنـاء قصـر؛ فغـرم عليـه ستـة آلاف دينـار، وحمـل إليـه آلـة تشاكـل القصـر والدسـت قيمتهـا ثلاثـة آلاف دينـار. وقـد رأيـت أنـه مـن الأفضـل أن أثبـت معظـم أبياتهـا هنـا؛ نظـرا لمـا تشتمـل عليـه مـن أفكـار ومعـان توضـح مـا يتضمنـه المعتقـد الشيـعي الفاطـمي آنئـذ؛ وقـد بدأهـا بهـذا المطلـع:

---

[1] وفيـات الأعيـان، ج: 4، ص ص: 423 ـ 424.

هــلْ مِــنْ أعِقــةِ عالــجٍ يبرِيــنُ
أمْ مِنهمَــا بقــرُ الحــدُوجِ العِيــنُ[1]

ولمــنْ ليــالٍ مَــا ذَممنــا عَهدَهــا
مــذْ كــنَّ إلاّ أنهــنَّ شجــونُ[2]

المشرِقــاتُ كأنهــنَّ كوَاكــــبٌ
وَالناعمــاتُ كأنهــنَّ غصــــونُ

بيــضٌ وَمَا ضَحِكَ الصَّباحُ وَإنهَــا
بِالمِسْكِ مِنْ طرَرِ الحِسَــانِ لَجُــونُ[3]

أدْمَى لَها المَرْجــانُ صَفحَــة خــدِّهِ
وَبَــكَى عليْهــا اللؤْلــؤُ المَكنــُونُ

أعْدَى الحَمَــامَ تــأوُّهِي مِنْ بعدِهــا
فكأنــهُ فيمــا سَجعــنَ رَنيــــنُ

بَانــوا سرَاعــاً لِلهــوَادِجِ زَفــرَة
ممــا رَأيــنَ وَلِلمــطِيِّ حَنيــــنُ

---

[1] الأعقــة: جمــع عقيــق؛ أي الــوادي. وعالــج: موضــع مــا في الباديــة. يبريــن: مكــان في البحريــن بــه رمــال كثيــرة. بقــر العيــن: تشبيــه للنســوة ذات العيــون الجميلــة. الحــدوج: جمــع حــدج وهــو عبــارة عــن مركــب تركبــه النســاء.

[2] الشجــون: الهمــوم.

[3] جــون: شديــد الســواد.

فَكأنَّمَـــا صَبَغــُوا الضُّحَى بِقبَابِهـــمْ

أوْ عَصْفَــرَتْ فِيها الخدُودَ جُفــونُ[1]

مَاذَا عَلى حُلـــلِ الشَّقِيقِ لـــَوْ انَّهـــا

عَــنْ لاَبِسِيهـــا فِي الخــدُودِ تبيـــنُ[2]

وهنـــا يشـــرع في مـــدح المعـــز بطريقتـــه المستفـــزة؛ المليئـــة بالمبالغـــة الغريبـــة، والغلـــو الفاضـــح؛ وهـــو مـــا رفضـــه معظـــم المسلميـــن مـــن أهـــل السنـــة ونـــددوا بـــه؛ وفي ذلـــك يقـــول:

هـــذَا معـــدٌ وَالخلاَئــقُ كلهـــــا

هـــذَا المعِـــزٌّ متوَّجـــاً وَالدِّيـــــنُ

هذا ضَمِيـــرُ النشـــأةِ الأولَى الـــتِي

بـــدَأ الإلـــهُ وَغيبهـــا المكنـــونُ

مِنْ أجـــلِ هذَا قـــدِّرَ المقـــدُورُ فِي

أمِّ الكتـــابِ وَكـــوِّنَ التكوِيـــــنُ

---

[1] أي احمـــر الضـــحى مـــن احمـــرار قبابهـــم. وصبغـــت دموعهـــم الداميـــة خدودهـــم.

[2] حلـــل الشقيـــق: الثيـــاب الحمـــر الـــتي تشبـــه شقائـــق النعمـــان.

وَبــذَا تلـــــقى آدَمٌ مِــنْ رَبــــهِ

عفــواً وَفـــاءَ لِيونـــسَ اليقطِيـــنُ

يَا أرْضُ كَيفَ حَمَلتِ ثِــنْيَ نِجَــادِهِ

وَالنَّصْــرُ أعظــمُ مِنـــكِ وَالتمْكِيـــنُ[1]

حَاشَـــا لِمَا حُمِّلــتِ تَحمِــلُ مِثلــهُ

أرْضٌ وَلكــنَّ السمـــاءَ تعيـــــنُ

وَلوْ يَلتـــقِي الطُّوفانُ قَبْــلُ وَجُـــودُهُ

لمْ يُنـــجِ نوحـــاً فلكـــهُ المَشحُــونُ

لوْ أنَّ هَذَا الدَّهـــرَ يَبْطــشُ بَطشَـــهُ

لمْ يَعْقـــبِ الحَركـــاتِ مِنهُ سُكــونُ

الـــرَّوْضُ ما قـــدْ قيـــلَ فِي أيامـــهِ

لاَ أنــــهُ وَرْدٌ وَلاَ نسْرِيـــــنُ

وَالمِسْكُ مَا لَثمَ الثرَى مِــنْ ذِكـــرِهِ

لاَ أنَّ كــلَّ قــــرَارَةٍ دَارَيـــــنِ[2]

---

[1] الثــني: الطــي. تقــول: "أرسلتــه ثــني كتــابي" أي طي كتــابي. النجــاد: حمائــل السيــف؛ لأنــه يعلــو العاتــق. يقــال: "هــو طويــل النجــاد" كنايــة عــن انــه طويــل القامـــة.

[2] داريــن: موضــع بالبحريــن؛ وهــو همــزة وصــل لجلــب المســك مــن الهنــد.

مَلِــكٌ كمــا حُدِّثْــتَ عنــهُ رَأفــةً
فالخمـــرُ مـــاءٌ وَالشرَاســـةُ لـيـــنُ
شِيَـــمٌ لوْ أنَّ اليـــمَّ أعـــطِيَ رِفقهـــا
لمْ يَلتقـــمْ ذَا النـــونِ فِيـــهِ النـــونُ[1]
تاللـــهِ لاَ ظلـــلُ الغمـــامِ معاقِـــلٌ
تـــأبَى عليهِ وَلاَ النُّجـــومُ حُصُـــونُ
وَوَرَاء حَقِّ ابْنِ الرَّسولِ ضَرَاغـــمٌ
أسْـدٌ وَشَهبـــاءُ السِّـــلاَحِ منـــونُ
الطالبـــانِ: المِشرَفيـــة وَالقنـــــا
المدْرِكـــانِ: النصْـــرُ وَالتمكِيــــنُ

ثـــم يضيـــف قائـــلا:

أنظـــرْ إلى الدُّنيـــا بإشفـــاقٍ فقـــــدْ
أرْخَصْـــتَ هذَا العِلـــقَ وَهوَ ثمِيـــنُ
لوْ يَسْتَطِيعُ البَحْرَ لاستَعْـــدَى عَـــلى
جـــدْوَى يَدَيـــكَ وَإنـــهُ لقميــــنُ

[1] ذا النـــون: النـــبي يونـــس عليـــه الســـلام. والنـــون الحـــوت الـــذي التهمـــه.

أمـــددهُ أوْ فاصْفــحْ لـــهُ عنْ نيلِــهِ
فلقــدْ تَخــوَّفَ أنْ يقــالَ ضَنِيـــنُ
وَأذَنْ لـــهُ يغــرِقْ أميـــة معلِنـــاً
مــا كــلُّ مــأذُونٍ لــهُ مــأذُونُ
وَاعــذِرْ أميــة أنْ تغــصَّ بريقهــا
فالمهــلُ مَــا سُقِيتــهُ وَالغِسْلِيــنُ[1]
ألقــتْ بِأيْدِي الذُّلِّ مُلــقَى عَمْرِهَــا
بِالثــوْبِ إذْ فغــرَتْ لــهُ صِفيــنُ[2]
قــدْ قــادَ أمْرَهــمُ وَقلــدَ ثغرَهــمُ
مِنهــمْ مهيــنٌ لاَ يكـــادُ يبيـــنُ

ويقــول أيضـــا:

وَرَمَى إلَى البلــدِ الأميــنِ بِطرفــهِ
ملــكٌ عَــلَى ســرِّ الإلـــهِ أمِيــنُ
لمْ يَــدْرِ مَا رَجــمُ الظنـــونِ وَإنمَــا
دُفــعَ القضَـــاءُ إليـــهِ وَهــوَ يقيــنُ

---

[1] المهــل: الصديــد والقيــح. الغسليــن: مــا يسيــل مــن جلــود أهــل جهنــم.

[2] عمرهـــا: المقصـــود هنـــا عمـــرو بـــن العـــاص؛ وأراد بعبـــارة ملـــقى: مـــا جـــرى لـــه حيـــن طعنـــه عـــلي بـــن أبي طالـــب فألقـــاه أرضـــا في موقعـــة صفيـــن.

كذِبتْ رجَالٌ مَا ادَّعَــتْ مِنْ حَقكُــمْ

وَمِـــنَ المقـــالِ كأهلـــهِ مأفـــونُ

أبـــنِي لـــؤَيٍّ أينَ فضـــلُ قديمكـــمْ

بلْ أيـــنَ حِلـــمٌ كَالجبـــالِ رَصِيـــنُ[1]

نازَعتـــمُ حـــقَّ الـــوَصِيِّ وَدُونـــهُ

حـــرَمٌ وَحِجـــرٌ مانـــعٌ وَحجـــــونُ[2]

نَاضَلتمُـــوهُ عَـــلَى الخِلاَفـــةِ بِالـــتِي

رُدَّتْ وَفِيكـــمْ حَدُّهـــا المسْنـــونُ

حَرَّفتُمُوهَا عَنْ أبِي السِّبْطَيْـــنِ عَـــنْ

زَمَـــعٍ ولَيـــسَ مِنَ الهجـــانِ هجيـــنُ[3]

لـــوْ تتقـــونَ اللهَ لـــمْ يَطمـــحْ لَهـــا

طـــرَفٌ ولَمْ يَشمـــخْ لَهـــا عرنِيـــنُ[4]

---

[1] بنـــو لـــؤي: قريـــش.

[2] الـــوصي: عـــلي بـــن أبي طالـــب.

[3] السبطيـــن: الحســـن والحسيـــن. عـــن زمـــع: أي عـــن إصـــرار ومضـــاء في الأمـــر. الهجـــان مـــن كـــل شـــيء: خيـــاره. والهجيـــن: مـــن كـــان أبـــوه عـــربي وأمـــه أمـــة.

[4] العرنيـــن: الأنـــف كلـــه؛ جمعـــه عرانيـــن.

لكِنكــمْ كنتــمْ كَأهــلِ العِجْــلِ لــمْ
يُحفــظْ لمــوسَى فِيهــمُ هـــارُونُ[1]
لوْ تَسْألــونَ القبــرَ يَــومَ فرِحتــمُ
لأجــابَ أنَّ محمــداً محـــــزُونُ
مَاذَا ترِيــدُ مِنَ الكِتـــابِ نوَاصِــبٌ
ولَـــهُ ظهــورٌ دُونهـــا وَبطــونُ[2]
هِيَ بُغيَـــة أضْللتمُوهَـــا فَارْجِعُــوا
فِي آلِ يَاسيــنٍ ثــوَتْ ياسِيــــنُ
رُدُّوا عليْهــمْ حكمَهــمْ فَعَليهــــمُ
نـــزَلَ البيـــانُ وَفِيهــمُ التبييـــــنُ
البَيْـــتُ بَيْـــتُ اللــــهِ وَهــوَ معَظــمٌ
وَالنـــورُ نـــورُ اللـــهِ وَهــوَ مبيــنُ
وَالسِّترُ سِترُ الغيْـــبِ وَهْوَ مُحَجَّـــبٌ
وَالسِّـــرُّ سِرُّ الوَحْيِ وَهْوَ مصُـــونُ
النـــورُ أنـــتَ وَكـــلُّ نـــورٍ ظلمـــة
وَالفـــوقُ أنـــتَ وَكـــلُّ فـــوقٍ دُونُ

---

[1] أهــل العجــل: بنـــو إسرائيــل.

[2] النواصـــب: الذيـــن ينصبـــون لعـــلي بـــن أبي طالـــب العـــداء.

لـــوْ كانَ رَأيــكَ شَائِعــاً فِي أمـــةٍ

علِمُـــوا بما سَيَكــونُ قبْــلَ يَكـــونُ

أوْ كَانَ بِشْرُكَ فِي شُعَاعِ الشَّمْسِ لـــمْ

يُكْسَفْ لَهَا عِنـــدَ الشُّـــرُوقِ جَبيـــنُ

أوْ كَانَ سُخطكَ عدْوَةً فِي السُّمِّ لـــمْ

يَحْمِلْـــهُ دُونَ لَهاتـــــهِ التنِيـــــنُ

لـــمْ تسْكـــنِ الدُّنيَـــا فـــوَاقَ بَكِيـــةٍ

إلاَّ وَأنـــتَ لِخوفهـــــا تأميـــــنُ

اللـــهُ يَقبَـــلُ نُسكنـــا عنـــا بمـــا

يُرْضِيـــكَ مِنْ هـــدْيٍ وَأنتَ مُعِيـــنُ

فَرْضَانِ مِنْ صَوْمٍ وَشُكْـــرِ خلِيفـــةٍ

هـــذَا بهـــذَا عِندَنــــا مَقـــــرُونُ

فَارزُقْ عِبَـــادَكَ مِنكَ فَضْلَ شَفَاعَـــةٍ

وَاقـــرُبْ بهمْ زُلْـــفَى فأنـــت مَكِيـــنُ

لـــكَ حمْدُنـــا لاَ أنـــهُ لـــكَ مَفخـــرٌ

مَـــا قـــدْرُكَ المَنثـــورُ وَالمَـــوزُونُ

قَدْ قالَ فِيـــكَ اللـــهُ مَـــا أنـــا قائـــلٌ

فكـــأنَّ كـــلَّ قصِيـــدَةٍ تَضْمِيـــــنُ

اللـــهُ يَعْلَمُ أنَّ رَأيــكَ فِي الـــوَرَى
مَأمـــونُ حـــزْمٍ عِنـــدَهُ وَأمِيـــــنُ
وَلأنتَ أفضَـــلُ مَنْ تشِيـــرُ بِجَاهِـــهِ
تحْـــتَ المِظلـــةِ بِالســـلاَمِ يَمِيـــنُ

ومـــع مـــرور الوقـــت، وتفـــاوت الزمـــن؛ بـــدأت أعـــراض الشيخوخـــة تـــدب في كيـــان الدولـــة الفاطميـــة؛ وذلـــك بعدمـــا فســـدت عصبيتهـــا، وتلاشـــت قوتهـــا؛ بافتـــراق الأنصـــار، وزوال الدعـــوة الصادقـــة، وانعـــدام الدعـــاة الأكفـــاء. وتلـــك هي سنـــة اللـــه في الحيـــاة، وذلـــك مـــا تقتضيـــه طبيعـــة الـــدول. وعليـــه فقـــد انتـــهى الأمـــر بالدولـــة الفاطميـــة ــ كمـــا انتـــهى بـــدول أخـــرى في ذلـــك العصـــرـــ إلى السقـــوط والاندثـــار في القاهـــرة سنـــة 567هــ(1171م)؛ بواسطـــة صـــلاح الديـــن الأيـــوبي.

وعنـــد المقابلـــة بيـــن الدولتيـــن: الإدريسيـــة والفاطميـــة؛ ضمـــن منظـــور يبـــرز إنجازاتهمـــا الحضاريـــة والثقافيـــة. سرعـــان مـــا يتضـــح قصـــور الأدارســـة، وعجزهـــم، وضيـــق إمكاناتهـــم أمـــام الفاطمييـــن. لأنهـــم لـــم يتمكنـــوا مـــن إنجـــاز معالـــم حضاريـــة ذات قيمـــة كبيـــرة؛ تضـــاهي المعالـــم الحضاريـــة الفاطميـــة. وقـــد يعـــود السبـــب ــ علـــى مـــا يبـــدو ــ إلى الوســـط القبـــلي الكثيـــف الـــذي يكتنـــف الدولـــة الإدريسيـــة، وإلى عجزهـــا عـــن التخلـــص منـــه. أمـــا الدولـــة الفاطميـــة؛ فقـــد شـــرع حكامهـــا في بعـــث بـــوادر حضاريـــة وثقافيـــة منـــذ البدايـــة.

ولكن في حدود ضيقة؛ لأن شدة الفتن القبلية وتلاحقها الواحدة بعد الأخرى في بداية عهدهم خلال المرحلة المغربية عطلت حركتها التنموية. ولم تتمكن هذه الدولة من تشييد حضارتها الممتازة إلا بعد التخلص من الوسط القبلي؛ الذي نشأت فيه ببلاد المغرب، أي بعد انتقالها إلى وسط آخر؛ يختلف عن الأول؛ في كونه انتقال من طور القبلية؛ إلى طور المؤسسات المتمدنة.

****

وهكذا نكتفي بهذا القدر من المعلومات التي تخص دول: الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس. على أنه من الواجب التنبيه هنا إلى أن اهتمام هذا البحث كان محصورا ضمن فترة زمنية محددة؛ وعليه فقد تكون بعض الدول والإمارات التي ظهرت في فترات زمنية متأخرة لم يرد ذكرها في هذا البحث؛ وذلك تبعا لأسباب منهجية لا غير. على أن ذلك متروك للذين يرغبون في استكمال الموضوع حسب وجهة نظرهم.

تم بحمد الله

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

ـ **آراء الخوارج الكلامية:** (تحقيق وتقديم عمار طالبي لكتاب الموجز لأبي عبد الله الكافي التناوتي الإباضي)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978م.

ـ **الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى:** صالح باجية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 1976م.

ـ **الإباضية في موكب التاريخ (الحلقة الثانية: الإباضية في ليبيا):** علي يحيى معمر، مكتبة وهبه، القاهرة.

ـ **ابن هاني:** أحمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.

ـ **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان،** أحمد بن عمر بن أبي الضياف، (ت: 1291هـ/1845م): الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، والدار التونسية للنشر، تونس، 1976م.

ـ **إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء:** أحمد ابن علي المقريزي، (ت: 845هـ/1441م)؛ تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، 1948م.

ـ **الإحاطة في أخبار غرناطة:** لسان الدين ابن الخطيب، (ت: 776هـ/1374م)؛ تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بمصر، القاهرة، ج: 1، ط: 2، 1973م، ج: 2، ط: 1، 1974م، ج: 3، ط: 1، 1975م، ج: 4، ط: 1، 1977م.

ـ **أحزاب المعارضة السياسية والدينية في صدر الإسلام (الخوارج والشيعة):** فلهوزن؛ بوليوس: ترجمة عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م.

ـ **أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها يرحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم:** لمجهول، مكتبة المثني، بغداد، طبع بمطبعة رِبَدَنَيرَ Rivadeneyra بمدريد 1867م.

ـ **أخبار ملوك بني عبيد:** محمد بن علي بن حماد الصنهاجي، (ت: 626هـ/1230م)؛ تحقيق جلول البدوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السِّفر للسِّلفِي):** أحمد بن محمد السِّلفِي (ت: 576هـ/1180م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1963م.

ـ **الأدب المغـــربي:** محمــد بـــن تاويـــت، و محمـــد عفيـــفي، دار الكتـــاب اللبنـــاني، بيـــروت، 1969م.

أزهـــار الريـــاض في أخبـــار عيـــاض: أحمـــد بـــن محمـــد التلمســـاني المقـــري (ت:1041هــ/1631م)؛ تحقيـــق مصطـــفى السقـــا، وإبراهيـــم الأبيـــاري، وعبـــد الحفيـــظ شلـــبي، مطبعـــة التأليـــف والترجمـــة والنشـــر، القاهـــرة، 1892م ــ 1942م.

ـ **الإستقصـــاء لأخبـــار دول المغـــرب الأقـــصى:** أحمـــد بـــن خالـــد الناصـــري الســـلاوي، (ت: 1315هــ/1897م)؛ تحقيـــق جعفـــر الناصـــري، ومحمـــد الناصـــري، دار الكتـــاب بالمغـــرب، الـــدار البيضـــاء، 1954 ــ 1956م.

ـ **الإســـلام في إسبانيـــا:** لطـــفي عبـــد البديـــع، مكتبـــة النهضـــة المصريـــة، القاهـــرة، ط: 1، 1958م.

ـ **الأعـــلام (قامـــوس تراجـــم لأشهـــر الرجـــال والنســـاء مـــن العـــب والمستعربيـــن والمستشرقيـــن):** خيـــر الديـــن الزركـــلي، مطبعـــة كوستـــا تسومـــاس وشركـــاه، 1954م ــ 1959م).

ـ **أعمـــال الأعـــلام في مـــن بويـــع قبـــل الاحتلام مـــن ملـــوك الإســـلام**: لســـان الديـــن محمـــد بـــن الخطيـــب السلمـــاني (ت: 776هــ/1374م)، (القســـم المخصـــص لتاريـــخ إسبانيـــا الإسلاميـــة)؛ تحقيـــق ليـــفي بروفنســـال، دار المكشـــوف، بيـــروت، 1956م.

ـ **أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**: لسان الدين محمد بن الخطيب السلماني (ت: 776هـ/1374م)، (القسم الثالث المخصص لتاريخ المغرب العربي تحت عنوان: **تاريخ المغرب العربي**)؛ تحقيق أحمد العبادي، ومحمد الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.

ـ **الأغالبة، نظامهم الاداري والسياسي:** محمد المسعود الشابي، الدار التونسية للنشر، تونس، (سلسلة اعلم)، 1970م.

ـ **أنموذج الزمان في شعراء القيروان:** حسن بن رشيق القيرواني (قد تكون وفاته في سنة 456هـ/1063م)؛ تحقيق محمد العروسي المطوي، وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

ـ **الأنيس المطرب بروض القرطاس:** علي بن عبد الله بن أبي زرع، أو عبد الحليم بن صالح، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، ثم نسخة مطبوعة حجريا؛ تحقيق كارل يوحنا تورنبورغ، دار الطباعة المدرسية، أوبسال، السويد، 1943م.

ـ **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد:** يحيى بن خلدون (ت: 780هـ/1378م)؛ تحقيق ألفرد بل،

والغوثي أبو علي، مطبعة فنطانة الشرقية، الجزائر، ج: 1، 1903م، وج: 2، 1910م، والنسخة المحققة للجزء الأول من طرف عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980م.

ـ **بغية الملتمس في تلريخ رجال أهل الأندلس**: أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي (ت: 599هـ/1202م)؛ مكتبة المثنى، بغداد، وطبع بمطبعة روخس، مدريد، 1884م.

ـ **بلاد الجزائر تكوينها الإسلامي والعربي:** إبراهيم العدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970م.

ـ **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب:** محمد بن عذاري المراكشي (ت: 669هـ/1272م)؛ تحقيق ليفي بروفنسال، وكولان، وإحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1967م.

ـ **تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)**: إحسان عباس؛ دار الثقافة، بيروت، 1978م.

ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي:** حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ج: 1 ـ 2، ط: 7، 1964، ج: 3، ط: 7، 1965م، ج: 4، ط: 1، 1968م.

ـ **تاريـخ افريقية والمغـرب:** إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني (ت: بعد 417هـ/1026م)؛ تحقيق المنجي الكعبي، نشر رفيق السقطي، تونس، 1968م.
ـ **تاريـخ الأمم والملوك:** محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ/923م)، مكتبة خياط، بيروت.
ـ **تاريـخ الجزائر العام:** عبد الرحمن الجيلالي، دار الثقافة، بيروت، 1980م.
ـ **تاريـخ الجزائر في القديم والحديث:** مبارك بن محمد الميلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
ـ **تاريـخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب:** حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط: 3، 1964م.
ـ **تاريـخ صقلية الإسلامية:** عزيز أحمد، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1980م.
ـ **تاريـخ علماء الأندلس:** عبد الله بن محمد الأزدي بن الفرضي (ت: 403هـ/1012م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.
ـ **تاريـخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين:** علي مصطفى الغزالي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، 1959م.

ـ **تاريخ قضاة الأندلس (وهو كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا):** علي بن عبد الله النُّباهي الأندلسي (ت: بعد 793هـ/1390م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **تاريخ مسلمي إسبانيا (ج: 1، الحروب الأهلية):** دوزي؛ رينهارت؛ ترجمة حسن حبشي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1963م.

ـ **تاريخ المغرب الكبير:** محمد علي دبوز، طباعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1963م ــ 1974م.

ـ **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر:** محمد بن عبد القادر الجزائري، دار اليقظة العربية، بيروت، 1964م.

ـ **تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضي عياض):** القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: 544هـ/1149م)؛ تحقيق محمد الطالبي، منشورات الجامعة التونسية، 1968م.

ـ **التكملة لكتاب الصلة:** محمد بن عبد الله بن الأبار البلنسي (ت: 658 أو 659هـ/1260م)، مكتبة الخانجي بمصر، والمثنى ببغداد، 1956م.

ـ **تلمسان عبر العصور (دورها في السياسة وحضارة الجزائر)**: محمد بن عمرو الطمار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **الثغر الأعلى الأندلسي (دراسة في أحواله السياسية)**: خليل إبراهيم صالح السامرائي، جامعة بغداد، 1976م.
ـ **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**: محمد ابن أبي نصر الحميدي الأزدي (ت: 488هـ/1095م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966م.
ـ **جمهرة أنساب العرب**: علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون.
ـ **حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول**: شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1967م.
ـ **حضارة العرب في الأندلس**: خير الله طلفاح، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1977م.
ـ **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**: محمد بن محمد السراج الأندلسي (ت: 1149هـ/1736م)؛ تحقيق محمد الحبيب الهيله، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970 ـ 1973م.
ـ **خريدة القصر وجريدة العصر (قسم المغرب والأندلس)**: محمد بن محمد الأصفهاني (ت:

597هـ/1200م)؛ تحقيق محمد المرزوقي، وآخرين، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971ـ 1972ـ 1973م.

ـ **الخوارج في المغرب الإسلامي (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريطانيا):** محمود إسماعيل.

ـ **دائرة المعارف الإسلامية:** محمد ثابت الفندي وآخرون، القاهرة، 1933م.

ـ **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس:** أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.

ـ **الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي:** جمع وتعليق: محمد رمضان شاوش، المطبعة العلوية، مستغانم، 1966م.

ـ **دليل المؤرخ في المغرب الأقصى:** عبد السلام بن سودة؛ دار الكتاب، المغرب، الدار البيضاء، 1960م.

ـ **دور زناتة في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي:** محمد بن عميرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

ـ **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية:** موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979م.

ـ **دولة الأدارسة ملوك تلمسان وفاس وقرطبة:** إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **دولة الإسلام في الأندلس (العصور: الأول، والثاني، والثالث، والرابع):** محمد عبد الله عنان، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1960م ـ 1969م.

ـ **الدولة الأغلبية (التاريخ السياسي):** محمد الطالبي؛ ترجمة المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985م.

ـ **الدولة العربية في إسبانيا:** إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

ـ **ديوان ابن هاني الأندلسي:** دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م.

ـ **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة:** علي بن بسام الشنتريني الأندلسي (ت: 542هـ/1147م)؛ تحيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا، وتونس، 1975م ـ 1979م.

ـ **رسالة افتتاح الدعوة:** القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمد بن حيون (ت: 363هـ/973م)؛ تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1970م.

ـ **رسائل بن حزم الأندلسي:** علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط: 1، 1981م.

ـ **الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي مع مسرد عام):** محمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 727هـ/1326م)؛ تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975م.

ـ **السجلات المستنصرية:** تحقيق عبد المنعم ماجد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1954م.

ـ **السياسة الداخلية للدولة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي:** محمد الصالح مرمول، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **شذرات الذهب في من أخبار من ذهب:** عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت: 1089هـ/1678م)، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

ـ **صبح الاعشى في صناعة الإنشاء:** أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)، المؤسسة المصرية العلمية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963م.

ـ **الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية:** عبد العزيز المجدوب، الدار التونسية للنشر، تونس، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م.

ـ **صلة الصلة:** أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي (ت: 708هـ/1308م)، مكتبة خياط، بيروت.

ـ **ضحى الإسلام:** أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10.

ـ **طبقات علماء إفريقية وتونس:** أبو العرب محمد بن أحمد القيرواني (ت: 333هـ/944م)؛ تحقيق علي الشابي، ونعيم حسن الباني، الدار التونسية للنشر، 1968م.

ـ **طبقات المشائخ بالمغرب:** أحمد بن سعيد الدرجيني (ت: 670هـ/1271م)؛ تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974م.

ـ **ظهر الإسلام:** أحمد أمين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1952 ـ 1959م

ـ **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر:** عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مج: 1، 1967م، ومج: 2، 3، 1977م، ومج: 4، 1968م، ومج: 5، 6، 7، 1968م.

ـ **عصر هشام بن عبد الملك:** عبد المجيد محمد صالح الكبيسي، جامعة بغداد، بغداد، 1975م.
ـ **العلاقات الخارجية للدولة الرستمية:** عبد الكريم جودت، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
ـ **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب:** عبد العزيز فيلالي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
ـ **فتوح مصر والمغرب:** عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت:257هـ/871م)؛ تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1961م.
ـ **فجر الإسلام**: أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: 10، 1969م.
ـ **فجر الأندلس:** حسين مؤنس، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، 1985م.
ـ **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم:** ألفرد، بل؛ ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1181م.
ـ **فوات الوفيات والذيل عليها:** محمد بن أحمد بن شاكر الكتبي (ت: 764هـ/1362م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1973 ـ 1974م.

ـ **في التاريخ العباسي والفاطمي:** أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1971م.
ـ **في تاريخ المغرب والأندلس:** أحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978م.
ـ **القبائل الأمازيغية:** بوزياني الدراجي؛ دار الكتاب العربي، الجزائر، (ج: 1: 1999م ـ وج: 2: 2000م).
ـ **قلائد العقيان في محاسن الأعيان:** الفتح بن محمد بن خاقان الإشبيلي (ت: 529هـ/1134م)؛ تحقيق: محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، 1966م.
ـ **القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي:** الحبيب الجنحاني، الدار التونسية للنشر، 1968م.
ـ **الكامل في التاريخ:** علي بن أبي المكارم الجزري المعروف بابن الأثير (ت: 630هـ/1332م)، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983م.
ـ **كتاب الجغرافيا:** علي بن موسى بن سعيد (ت: 685هـ/1274م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
ـ **كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية:** عبد الله بن محمد المالكي (قد تكون وفاته في سنة 474هـ/1081م)؛ تحقيق بشير البكوش، ومحمد

العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، 1981م ـ 1983م.

ـ **كتاب سير الأئمة وأخبارهم:** أبو زكرياء يحي بن أبي بكر الورجلاني (ت: 471هـ/1078م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.

ـ **كتاب الصلة:** خلف بن عبد الملك بن بشكوال (ت: 578هـ/1182م)، الدار المصرية للتأليف والترجمة.

ـ **كتاب فتوح البلدان:** أحمد بن يحي البلاذري (ت: 279هـ/892م)؛ تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

ـ **كتاب المفصل في الملل والأهواء والنحل:** علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: 456هـ/1063م)؛ ج:1، 1317هـ، ج: 2 ـ 3، 1320هـ، المطبعة الأدبية بمصر، ج: 4، 1321هـ، مطبعة التمدن بمصر، ج: 5، 1321هـ، مطبعة الموسوعات بمصر.

ـ **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول (نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي):** شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، 1966م.

ـ **مجموعة الوثائق الفاطمية:** جمال الدين الشيال، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط: 2، 1965م.

ـ **مختصر تاريخ الإباضية:** سليمان الباروني (ت: 1359هـ/1940م).

ـ **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا:** أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.

ـ **مصر في عصر الدولة الفاطمية:** محمد جمال الدين سرور؛ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة؛ (سلسلة 1000 كتاب)، 1960م.

ـ **المعجب في تلخيص أخبار المغرب:** عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (كان حيا سنة 621هـ/1224م)؛ ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1949م.

ـ **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر:** عادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980م.

ـ **معجم البلدان:** أبو عبد الله الرومي البغدادي المعروف بياقوت الحموي (ت: 626هـ/1228م)، دار صادر، بيروت، 1977م.

ـ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة:** عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1978م.

ـ **المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج (سياسة ونظم):** موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.

ـ **المغرب في حلى المغرب:** أبو محمد الحجاري، وعبد الملك بن سعيد، وآخرون؛ تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1964م.

ـ **المغرب عبر التاريخ:** إبراهيم حركات، مطبعة دار السلمي بالمغرب، الدار البيضاء 1965م

ـ **المغرب العربي تاريخه وثقافته:** رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969م.

ـ **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من أجزاء كتاب المسالك والممالك):** عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت: 487هـ/1094م)؛ تحقيق ماك قوكين دي سلان MAC GUCKIN DE SLANE، مكتبة أمريكا والشرق، بباريس، Librairie D'Amérique et D'Orient, Paris، 1965م.

ـ **المقتبس في أخبار بلد الأندلس:** حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ القطعة التي حققها عبد الرحمن علي حجي، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

ـ **المقتبس من أنباء أهل الأندلس:** حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي (ت: 479هـ/1076م)؛ وهي القطعة التي حققها محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م.

ـ **مقتبس من نزهة المشتاق (القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس)**: محمد بن عبد الله الحمودي الإدريسي السبتي (يكون قد توفي سنة 560هـ/ 1164م)؛ تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

ـ **مقدمة ابن خلدون:** عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ/1405م)؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، ج: 1، 1965م، وج: 2، 1966م، وج: 3، 1967م، وج: 4، 1968م.

ـ **المكتبة العربية الصقلية (نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع)**: أماري؛ ميخائيل: مكتبة المثنى، بغداد و PRESSO F. A. BROCKHAUS Libraio .Della Societa LIPSIA. 1857.

ـ **ملامح التيارات السياسية في القرن الأول الهجري:** إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1979م.

ـ **الملـــل والنحـــل:** محمـــد بـــن عبـــد الكريـــم الشهرستـــاني (ت: 548هـ/1153م)، دار المعرفـــة للطباعـــة والنشـــر، بيـــروت، 1975م.
ـ **المهـــدي المنتظـــر بيـــن العقيـــدة الدينيـــة والمضمـــون السيـــاسي:** حجـــاب؛ محمـــد فريـــد؛ المؤسسة الوطنية للكتـــاب بالجزائـــر 1984م.
ـ **نبـــذ تاريخيـــة في أخبـــار البربـــر في القـــرون الوســـطى (منتخبـــة مـــن المجمـــوع المســـمى بكتـــاب مفاخـــر البربـــر:** لمجهـــول عـــاش في سنـــة 712هـ (وربمـــا كـــان لأبي عـــلي صالـــح بـــن عبـــد الحليـــم؛ حســـب تحقيـــق مـــوسى لقبـــال)؛ تحقيـــق ليـــفي بروفنســـال 1934م.
ـ **النجـــوم الزاهـــرة في ملـــوك مصـــر والقاهـــرة:** أبـــو المحاســـن يوســـف الأتابـــكي ابـــن تـَغـــرِي بَـــرْدِي (ت: 874هـ/1469م)، المؤسســـة المصريـــة العامـــة للتأليـــف والترجمـــة والطباعـــة والنشـــر، 1963م.
ـ **نظـــم الحكـــم والرســـوم في دولـــة بـــني عبـــد الـــواد الزيانيـــة:** بوزيـــاني؛ الـــدراجي، ديـــوان المطبوعـــات الجامعيـــة، الجزائـــر، 1993م.
ـ **نظـــم الـــدر والعقيـــان في بيـــان شـــرف بـــني زيـــان وذكـــر ملوكهـــم الأعيـــان ومـــن ملـــك مـــن أسلافهـــم ممـــا مـــضى**

من الزمان: محمد بن عبد الله التلمساني التنسي (ت: 899هـ/1493م)، مخطوط الخزانة العامة بالرباط.

ـ **نظم الفاطميين ورسومهم في مصر:** عبد المنعم ماجد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1953م.

ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب:** أحمد بن محمد التلمساني المقري (ت: 1041هـ/1631م)؛ تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968م،

ـ **نهاية الأرب في فنون الأدب:** أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت: 733هـ/1332م)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بمصر، 1954م.

ـ **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب؛** أحمد بن علي القلقشندي (821هـ/1418م)؛ تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، 1959م.

ـ **الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموي:** محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 1، 1974م.

ـ **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية:** حسن حسني عبد الوهاب، مكتبة المنار، تونس، 1966 ـ 1972م.

ـ **الـوزارة والـوزراء في العصـر الفاطـمي:** محمـد حمـدي المنـاوي، دار المعـارف بمصـر، القاهـرة، 1970م.

ـ **وصـف إفريقيـا:** الحسـن بـن محمـد الـوزان الفـاسي الشهيـر بليـون الأفريـقي (ت: بعـد 957هـ/1550م)؛ ترجمـه عـن الفرنسيـة: محمـد حـجي، و محمـد الأخضـر، دار الغـرب الإسـلامي، بيـروت 1983م.

ـ **وفيـات الأعيـان وأنبـاء أبنـاء الزمـان:** أحمـد بـن محمـد بـن خلكـان (ت: 681هـ/1282م)؛ تحقيـق إحسـان عبـاس، دار صـادر ببيـروت. ج:1، 1968م، ج: 2، 1969م، ج:3، 1970م، ج: 4، 5، 6، 1971،7م، ج: 8، 1972م.

الـمـراجـع بالـلـغـة الأجـنـبـيـة:

- ABOU OBEID EL-BEHRI: - **Description de l'afrique septenrionale**. Tràduit par MAC GUCKIN de Slane. librairie D'Amerique et D'Orient ADRIEN- MAISONNEUVE, PARIS,1965.

- BEL - ALFRED: - **La religion musulmanes en Berbérie** (Esquisse d'histoire et de sociologie religieuses), PARIS,1938.

- BOURDIEU. PIERRE: - **Sociologie de L'Algérie**. Presses Universitaires de Paris, 1970.

- BOUSQUET (G.H.): - **Les Berberes**. Presses Universitaires de france 1967.

- BREMOND. C.R (Général): - **Berbères et Arabes**, Payot, Paris, 1950.

- FARHAT. DACHRAOUI: - **LE CALIFAT FATIMIDE au MAGHREB.** S. T. D. TUNIS. 1981.
- GAUTIER. (EMILE .F.): **- Le Passé de L'Afrique du Nord. (les Siécles Obscures)** Payot , Paris, 1952.
- IDRIS. Hady Roger: - **La Berbérie Orientale .Sous les Zirides (Xème - XIIème Siècles).** Librairie D'Amérique et D'Orient Adrien - Maisonneuve , Paris, 1981.
- JEAN LEON LAFRICAIN: - **Description de L'Afrique.** Librairie d'Amérique et D'Orient Maisonneuve, Paris 1981.
- KADDACHE; MAHFOUD: - **L'Algérie Medievale.** S. N. E. D. Alger.1982.
- MARCAIS GEORGES: - **La Berbérie Musulmane et L'Orient Au Moyen Age,** Editions Montaigne , Paris. 1946. et
-MARCAIS GEORGES: **Les Arabes en Berbérie**

فهرس المحتويات